دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الأول

(الطبعة الثانية)

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الأول

(الطبعة الثانية)

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م

فهـــرس الجـــزء الأوّل

صفحة

ترجمة أبي عبد الله القرطبي ... ... (ح)

خطبة الكتاب ١

باب ذكر جمل من فضائل القــرآن والترغيب فيه ، وفضــل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به ٤

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم، واختلاف الناس فى ذلك ١٠

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره ١٧

باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه ٢٠

باب ما جاء فى إعراب القرآن وتعليمه والحث عليـه، وثواب من قرأ القرآن معربا ٢٣

باب ما جاء فى فضل تفسير القرآن وأهله ٢٦

باب ما جاء فى حامل القرآن، ومن هو، وفيمن عاداه ٢٦

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته ٢٧

باب ما جاء من الوعيد فى تفسـير القرآن بالرأى ، والجرأة على ذلك ، ومراتب المفسرين ٣١

باب تبيين الكتاب بالسنة، وما جاء فى ذلك ٣٧

باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعـالى وسنة نبيه صـلى الله عليه وسلم، وما جاء أنه سُهّل على من تقدّم العمل به دون حفظه ٣٩

باب معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن هـذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منـه" ٤١

باب ذكر جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها، وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم ... ٤٩

صفحة

باب ما جاء في ترتيب سور القرآن وآياته وشكله، ونقطه وتحزيبه وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه ٥٩
باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف ٦٥
باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا؟ ٦٨
باب ذكر نكت في إعجاز القرآن، وشرائط المعجزة وحقيقتها... ... ... ٦٩
باب التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيره ٧٨
باب ما جاء من الحجة في الرد على من طعن في القرآن، وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان ٨٠
القول في الاستعاذة، وفيها اثنتا عشرة مسئلة ٨٦
الكلام على البسملة، وفيها سبع وعشرون مسئلة ٩١
تفسير سورة الفاتحة، وفيها أربعة أبواب ١٠٨
الباب الأول في فضائلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل... ... ... ١٠٨
الباب الثاني في نزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة ١١٤
الباب الثالث في التأمين، وفيه ثمان مسائل ١٢٧
الباب الرابع فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب، وفضل الحامدين، وفيه ست وثلاثون مسألة ١٣١
تفسير سورة البقرة... ... ... ١٥٢
ذكر الأقوال الواردة في أوائل السور المفتتحة بالحروف ١٥٤
بحث في إقامة الصلاة... ... ... ١٦٤
بحث في الرزق ١٧٧
ذكر أقوال العلماء في إمساك النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم ١٩٨
ذكر ما قيل في خلق السموات والأرض ٢٥٤
بحث في الخليفة وتنصيبه ٢٦٤

صفحة

بحث فى كيفية خلق آدم عليه السلام واشتقاقه ٢٧٩

ذكر اختلاف العلماء فى معنى الأسماء التى علمها آدم ٢٨٢

بحث فى أيّما أفضل : الملائكة أم بنو آدم ؟ ٢٨٩

بحث فى إبليس لعنه الله ٢٩٤

ذكر الخلاف فى الشجرة، وكيف أكلا منها ٣٠٥

مطلب فى الأنبياء، وهل وقع منهم صلوات الله عليهم صغائر من الذنوب يؤاخذون بها ويعاتبون عليها أم لا ؟... ... ... ٣٠٨

بحث فى الكلمات التى تلقاها آدم ٣٢٣

بحث فى أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم، واختلاف العلماء فى هذا ٣٣٥

بحث فى الزكاة ٣٤٣

بحث فى معنى قوله : «واركعوا مع الراكعين» وجملة من أحكام الصلاة ٣٤٤

ذكر اختلاف العلماء فى كيفية إنجاء بنى اسرائيل ٣٨٩

بحث فى يوم عاشوراء، وهل هو اليوم التاسع من المحرم أو العاشر ؟ ٣٩١

بحث فى الاستسقاء ٤١٧

بحث فى أكل البصل والثوم، واختلاف العلماء فيه ٤٢٦

القول فى سبب رفع الطور ٤٣٦

ذكر اختلاف العلماء فى الممسوخ هل ينسل أو لا ٤٤٠

بحث فى معنى قوله : «وإذ قتلتم نفسا» وسبب القتل ٤٥٥

بحث فى القسامة وأحكامها ٤٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بنعمه تتمّ الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل بالآيات البيّنات .

هذا ، وإن الله جلّت قدرته ، قيّض لهذا الدّين القويم ، حامى حمى الإسلام ، ورافع مناره ، حضرة صاحب الجلالة ، الملك المعظم "فؤاد الأوّل" ملك مصر . فأصدر أمره الكريم خدمة لهذا الدّين المتين ، بأن يطبع المصحف الشريف ، على رسم مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضى الله عنه ، وأن يضبط بما اتفق عليه أئمة القرّاء ؛ فقابل المسلمون فى جميع بقاع الإسلام نشر هذا المصحف الكريم بقلوب فرحة ، وصدور منشرحة ، وعدّوا أمر جلالته بطبعه مفخرة من مفاخر عصره الذّهبى .

ولما كان التفسير الجليل ، لأبى عبد الله القرطبى ، المسمى "الجامع لأحكام القرآن" تفسيرا ممتازا ، ذائع الشهرة بين علماء الإسلام ، اقترحتُ على المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية طبعه ونشره ، ليكون مفخرة أخرى من مفاخر هذا العصر الزاهر ؛ فقرر طبعه ونشره ، ورَغِبَ إلىّ فى القيام بمراجعته وتصحيحه ، فقابلت هذه الرغبة بجميل الشكر ، وعظيم الاغتباط ؛ علما منّى بأن فى مراجعة هذا التفسير وتصحيحه خدمة لكتاب الله تعالى ، أرجو أن أنال بها جميل رضوانه وعظيم مغفرته . وقد تمّ ولله الحمد والمنّة ، طبع الجزء الأوّل منه فى عهد حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم "فؤاد الأوّل" حفظه الله وأيّد ملكه ، وأقرّ عينه بصاحب السموّ الملكى ولىّ عهده المحبوب الأمير "فاروق" حفظه الله ، ومتّعه بالعقل الراجح ، والفكر الصائب ، والخلق المحمود ، فى ظلّ عرش والده الظليل ١٥

محمد البيلاوى

نقيب الأشراف ومراقب إحياء الآداب العربية

بدار الكتب المصرية

ترجمة أبي عبد الله القرطبي

مؤلف هذا التفسير (*)

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح (بإسكان الراء و بالحاء المهملة) الأنصارى الخزرجى الأندلسى القرطبي المفسّر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين فى الدنيـا ، المشغولين بمـا يعنيهم من أمور الآخرة ؛ أوقاته معمورة ما بين توجّه وعبادة وتصنيف .

مؤلفـاته — جمع فى تفسير القرآن كتابا كبيرا فى اثنى عشر مجلدا ، سمّـاه كتاب "الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لمـا تضمّن من السنّة وآى الفرقان" وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعا ، أسقط منه القِصص والتواريخ ، وأثبت عوضها أحكام القرآن ، واستنباط الأدلّة ، وذكر القراءات والإعراب ، والنـاسخ والمنسوخ ؛ وهو هـذا التفسير . وله كتاب "الأسنى، فى شرح أسماء الله الحسنى" . وكتاب "التذكار، فى أفضل الأذكار" . وضعه على طريقة التبيان للنّووىّ، لكن هذا أتم منه وأكثر علما . وكتاب "التذكرة، بأمور الآخرة". وكتاب "شرح التّقصى" . وكتاب "قمع الحرص بالزهد والقناعة ، وردّ ذل السؤال بالكتب والشفاعة "، قال ابن فرحون : لم أقف على تأليف أحسن منه فى بابه . وله "أرجوزة جمع فيها أسماء النبيّ صلى الله عليه وسـلم" . وله تواليف وتعاليق مفيدة غير هـذا، وكان مطّرحا للتكلّف، يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية . قال صاحب نفح الطِّيب : إنه من الراحلين من الأندلس .

شـيوخه — سمـع من الشيخ أبى العباس أحمـد بن عمـر القرطبي بعض شرحه "المُفْهِم، لمـا أشكل من تلخيص كتاب مُسْلِم" .

وحدّث عن الحافظ أبى علىّ الحسن بن محمد بن محمد البكرى، وحدّث أيضا عن الحافظ أبى الحسن علىّ بن محمد بن علىّ بن حفص اليَحْصِبِيّ وغيرهما .

وكان مستقرًّا بمنية ابن خصيب ، وتوفى ودفن بهـا فى ليلة الاثنين التاسـع من شـوّال سنة ٦٧١ رحمه الله ورضى عنه .

(*) عن الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب (مذهب مالك) لابن فرحون ، ونفح الطيب للمَقَّرى .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم العامل العلامة المحدث أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصارى الخزرجي الأندلسيّ ثم القرطبيّ رضى الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربّ الصمد الواحد، الحيّ القيوم الذى لا يموت، ذو الجلال والإكرام، والمواهبِ العظام، والمتكلمُ بالقرآن، والخالقُ للإنسان، والمنعمُ عليه بالإيمان، والمرسلُ رسوله بالبيان، محمدا صلّى الله عليه وسلّم ما آختلف المَلَوَان(1)، وتعاقب الجديدان، أرسله بكتابه المبين، الفارق بين الشك واليقين، الذى أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الألبّاء مناقضته، وأخرست البلغاء مشاكلته، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. جعل أمثاله عبرًا لمن تدبرها، وأوامره هُدًى لمن استبصرها، وشرح فيه واجبات الأحكام، وفرّق فيه بين الحلال والحرام، وكرّر فيه المواعظ والقصص للافهام، وضرب فيه الأمثال، وقص فيه غيب الأخبار، فقال تعالى : «مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ». خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مراده فعلموا، فقُرّاءُ القرآنِ حَمَلَةُ سرّ الله المكنون، وحَفَظَةُ علمه المخزون، خلفاء أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفياؤه، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "إنّ للهِ أهلِين من الناس" قالوا : يارسول الله، من هم؟ قال : "هم أهل القرآن أهل الله وخاصّته" أخرجه ابن ماجه فى سننه، وأبو بكر البزّار فى مسنده. فما أحقّ مَن علِم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر

(1) الملوان : الليل والنهار.

ما شُرح له فيه ، ويخشى الله ويتّقيه ، ويراقبه ويستحييه ؛ فإنه قد حُمِّل أعباء الرسل ، وصار شهيدا فى القيامة على من خالف من أهل الملل ؛ قال الله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ » . ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله ، أوكدُ منها على من قصر عنه وجهله . ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع ، وزجرته نواهيه فلم يرتدع ؛ وارتكب من المآثم قبيحا ، ومن الجرائم فضوحا ؛ كان القرآن حجة عليه ، وخصما لديه ؛ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " القرآن حجة لك أو عليك " خرّجه مسلم . فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ، ويتدبّر حقائق عبارته ، ويتفهّم عجائبه ، ويتبيّن غرائبه ؛ قال الله تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ » . وقال الله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » . جعلنا الله ممن يرعاه حقّ رعايته ، ويتدبّره حقّ تدبّره ، ويقوم بقسطه ، ويوفى بشرطه ، ولا يلتمس الهدى فى غيره ؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة ، وأحكامه القاطعة الباهرة ، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة . ثم جعل الى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجملا ، وتفسيرَ ما كان منه مشكلا ، وتحقيقَ ما كان منه محتملا ؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ، ومنزلة التفويض اليه ؛ قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » . ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم آستنباط ما نبّه على معانيه ، وأشار الى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه الى علم المراد ؛ فيمتازوا بذلك عن غيرهم ، ويختصوا بثواب اجتهادهم ؛ قال الله تعالى : « يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » . فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا ، واستنباط العلماء إيضاحا وتبيانا ؛ فالحمد لله الذى جعل صدورنا أوعية كتابه ، وآذاننا موارد سنن نبيّه ؛ وهممَنا مصروفة الى تعلمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما ؛ طالبين بذلك رضاء رب العالمين ، ومتدرّجين به إلى علم الملّة والدِّين .

(وبعد) : فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع ، الذى آستقل بالسنة والفرض ، ونزل به أمين السماء الى أمين الأرض ؛ رأيت أن أشتغل به مدَى عمرى ، وأستفرغ

فيه مُنّتي(١)، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا ، يتضمن نكتا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات ، والرد على أهل الزّيغ والضلالات ، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات ، جامعا بين معانيهما ، ومبيّنا ما أشكل منهما ، بأقاويل السلف ، ومن تبعهم من الخلف، وعملته تذكرة لنفسي، وذخيرة ليوم رمسي، وعملا صالحا بعد موتي . قال الله تعالى : « يُنَبَّأُ ٱلْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » . وقال تعالى : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ » . وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ يُنتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له " .

وشرطي في هذا الكتاب إضافةُ الأقوال الى قائليها، والأحاديث إلى مصنّفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله . وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا ، لا يعرف الصحيح من السقيم ،ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به ،ولا الاستدلال حتى يضيفه الى من خرّجه من الأئمة الأعلام ، والثقات المشاهير من علماء الإسلام . ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب ،والله الموفق للصواب . وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بدّ منه ولا غِنًى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تسفِر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمّنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد، مسائلَ نبيّن فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير والغريب والحكم ، فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل ، هكذا إلى آخر الكتاب .

وسميته بـ(الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمّنه من السنّة وآي الفرقان)، جعله الله خالصا لوجهه ، وأن ينفعني به ووالديّ ومن أراده بمنّه ، إنه سميع الدعاء قريب مجيب ، آمين .

---

(١) المنة (بالضم) : القوة .

باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألّف فيه العلماء كتبا كثيرة، نذكر من ذلك نكتا تدل على فضله، وما أعدّ الله لأهله، اذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به. فأوّل ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين، غير مخلوق، كلامُ مَن ليس كمثله شيء، وصفةُ من ليس له شبيه ولا ندّ، فهو من نور ذاته جلّ وعزّ؛ وأن القراءة أصوات القرّاء ونغماتهم، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حالٍ إيجابا في بعض العبادات، وندبا في كثير من الأوقات؛ ويزجرون عنها اذا أجْنبوا، ويثابون عليها ويعاقبون على تركها. وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق، ونطقت به الآثار، ودلّ عليها المستفيض من الأخبار؛ ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتي بيانه. ولولا أنه — سبحانه — جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله؛ ليتدبّروه وليعتبروا وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولاندكّت بثقله، أو لتضعضعت له وأنّى تطيقه؛ وهو يقول — تعالى جدّه — وقوله الحق: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ». فأين قوة القلوب من قوة الجبال! ولكنّ الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم، فضلا منه ورحمة.

وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب — فأوّل ذلك ما خرّجه الترمذيّ عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "يقول الربّ تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أعطى السائلين — قال: — وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه". قال: هذا حديث حسن غريب. وروى أبو محمد الدارميّ السمرقنديّ في مسنده عن عبد الله قال: السّبع الطُّوَل مثل التوراة، والمئون مثل الإنجيل، والمثاني مثل الزبور، وسائر القرآن بعدُ فضلٌ. وأسند عن الحارث

عن عليّ رضي الله عنه وخرّجه الترمذي (١) قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " ستكون فتن كقطع الليل المظلم قلت : يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ مَن قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبّار قصمه الله ومن ابتغى الهُدَى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تَزِيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعّب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يَمَلّه الأتقياء ولا يَخلَق على كثرة الرّد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا من عَلِم عِلْمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أُجر ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم خذها اليك يا أعور (٢) " . الحارث ، رماه الشعبيّ بالكذب وليس بشيء ، ولم يَبِنْ من الحارث كذب ، وإنما نُقم عليه إفراطه في حبّ عليّ وتفضيله له على غيره ؛ ومن هاهنا — والله أعلم — كذبه الشعبيّ لأن الشعبيّ يذهب الى تفضيل أبي بكر ، وإلى أنه أول من أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : وأظن الشعبيّ عوقب لقوله في الحارث الهمدانيّ : حدّثني الحارث وكان أحد الكذابين .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري النحويّ اللغويّ في كتاب «الرّد على من خالف مصحف عثمان» عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلّموا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن هو حبل الله النور المبين والشفاء النافع عصمةٌ من تمسك به ونجاة من اتبعه لا يعوجّ فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يَخلَق عن ردّ فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول آلم حرف ولا أُلفينّ أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فان الشيطان يفرّ من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة وإن أصْفَرَ البيوت من الخير البيتُ الصفر من كتاب الله" . وقال أبو عبيد في غريبه عن عبد الله قال : إن هذا القرآن مأدبة

(١) ورد هذا الحديث في صحيح الترمذي (ج ٢ ص ١٤٩ طبع بولاق) مع اختلاف في بعض كلماته ، وزيادة ونقص . (٢) قوله : يا أعور . لقب الحارث بن عبد الله المذكور في سند هذا الحديث .

الله فمن دخل فيه فهو آمن . قال : وتأويل الحديث أنه شَبَّه القرآن بصنيع صنعه الله عزّ وجلّ للناس ، لهم فيه خيرٌ ومنافعُ ، ثم دعاهم اليه . يقال : مأدُبة ومأدَبة، فمن قال : مأدُبة، أراد الصنيع يصنعه الانسان فيدعو اليه الناس . ومن قال : مأدَبة، فانه يذهب به الى الأدب ، يجعله مَفْعَلة من الأدب، ويحتج بحديثه الآخر : "إن هذا القرآن مأدَبةُ الله عزّ وجلّ فتعلموا من مأدبته". وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنًى واحد، ولم أسمع أحدا يقول هذا غيره؛ [قال :] والتفسير الأوّل أعجب اليّ .

وروى البخاريّ عن عثمان بن عفّان عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "خيركم من تعلم القرآن وعلّمه" . وروى مسلم عن أبي موسى قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "مثلُ المؤمن الذى يقرأ القرآن مثلُ الأُتْرُجّة ريحُها طيّبٌ وطعمها طيب ومثلُ المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثلُ التَّمْرة لا ريحَ لها وطعمها حُلْوٌ ومثلُ المنافق الذى يقرأ القرآن مثلُ الرَّيحانة ريحها طيّب وطعمها مرٌّ ومثلُ المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحَنْظَلة لا ريح لها وطعمها مرٌّ" . وفى رواية : مثلُ الفاجر، بدل المنافق . وقال البخاريّ : "مثلُ المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب و ريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة" وذكر الحديث .

وذكر أبو بكر الأنباريّ وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحُلْوانيّ حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هشيم، ح(1) . وأنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام بن حَوْشَب : أن أبا عبد الرحمن

(1) جرت العادة بالاقتصار على الرمز فى حدّثنا وأخبرنا ؛ واستمر الاصطلاح عليه من قديم الأعصار الى زماننا ؛ واشتهر ذلك بحيث لا يخفى ؛ فيكتبون من حدّثنا «ثنا» وهى الثاء والنون والألف ؛ و ربما حذفوا الثاء . و يكتبون من أخبرنا «أنا» ولا تحسن زيادة الباء قبل «نا» ؛ واذا كان للحديث اسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من اسناد الى اسناد «ح» وهى حاء مهملة ؛ والمختار أنها مأخوذة من التحوّل، لتحوّله من إسناد الى اسناد، وأنه يقول القارئ اذا انتهى اليها : «ح» ويستمر فى قراءة ما بعدها . وقيل : إنها من حال بين الشيئين اذا حجز ، لكونها حالت بين الاسنادين وانه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشىء؛ بل وليست من الرواية . وقيل : إنها رمز الى قوله : «الحديث» . وان أهل المغرب كلهم يقولون اذا وصلوا اليها : الحديث . ثم هذه الحاء توجد فى كتب المتأخرين كثيرا ، وهى كثيرة فى صحيح مسلم، قليلة فى صحيح البخارى . (عن مقدّمة النووى على صحيح مسلم)

السلمي كان إذا ختم عليه الخاتمُ القرآنَ أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه وقال له : يا هذا ، اتق الله! فما أعرف أحدا خيرا منك إن عملت بالذى علمت . وروى الدارمىّ عن وهب الذّمارِى قال : من آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة، بعثه الله يوم القيامة مع السفرة والأحكام . قال سعيد[1] السفرة: الملائكة، والأحكام[2] : الأنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "الماهر بالقرآن مع السَّفَرَة الكرام البررة والذى يقرأ القرآن ويَتَتَعْتَع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران" . التتعتع : التردّد فى الكلام عيًّا وصعوبة ؛ وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة ؛ ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه، ثم ترقّى عن ذلك الى أن شبّه بالملائكة . والله أعلم . وروى الترمذىّ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : "من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الٓمٓ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف" . قال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد روى موقوفا . وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونحن فى الصُّفّة، فقال : "أيكم يُحبّ أن يغدو كل يوم الى بُطْحانَ أو إلى العقيق فيأتىَ منه بناقتين كَوْمَاوَيْن فى غير إثم ولا قطع رحم" فقلنا : يا رسول الله، كلنا نحب ذلك؛ قال : "أفلا يغدُو أحدكم الى المسجد فيعلم[3] أو يقرأ آيتين من كتاب الله عزّ وجلّ خيرٌ له من ناقتين وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ وأربعٌ خيرٌ له من أربع ومن أعدادهنّ من الإبل" .

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من نفّس عن مسلم كُربة من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه

(١) سعيد هذا، هو سعيد بن عبد العزيز بن أبى يحيى التنوخى ، أحد رجال سند هذا الحديث . وفى الأصول : «سعد» وهو تحريف . (٢) هكذا فى نسخ الأصل وسنن الدارمى . ولعل الفرض وذوو الأحكام أو هو جمع حكيم كشريف وأشراف أو حكم كبطل وأبطال . (٣) قوله : فيعلم . ضبط بنصب الفعل ورفعه وبتشديد اللام من التعليم، وبتخفيفها من العلم .

فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقا الى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه".

وروى أبو داود والنّسائى والدارمىّ والترمذىّ عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسرّ بالقرآن كالمسرّ بالصدقة" قال الترمذىّ : حديث حسن غريب . وروى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "يجىء القرآن[(1)] يوم القيامة فيقول يا رب حُلّه فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يا رب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب آرض عنه فيرضى عنه فيقال له آقرأ وآرق ويزاد بكل آية حسنة" . قال : حديث صحيح . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "يقال لصاحب القرآن آقرأ وآرتق ورتّل كما كنت ترتّل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها". وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شىء معه" .

وأسند أبو بكر الأنبارى عن أبى أمامة الحمصى قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوّة ومن أعطى ثلثى القرآن فقد أعطى ثلثى النبوّة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوّة كلها غير أنه لايوحى اليه ويقال له يوم القيامة آقرأ وآرق فيقرأ آية ويصعد درجة حتى ينجز ما معه من القرآن ثم يقال له آقبض فيقبض ثم يقال له أتدرى ماقى يديك فإذا فى يده اليمنى الخلد وفى اليسرى النعيم" .

حدّثنا إدريس بن خلف حدّثنا اسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوّة ومن أخذ

(1) الذى فى نسخ الأصل : « يجىء صاحب القرآن » . والتصويب عن سنن الترمذى .

نصف القرآن وعمل به فقد أخذ أمر نصف النبوّة ومن أخذ القرآن كله فقد أخذ النبوّة كلها" . قال : وحدّثنا محمد بن يحيي المروزىّ أنبأنا محمد وهو ابن سعدان حدّثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضمرة عن علىّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفّعه فى عشرة من أهل بيته كُلُّ قد وجبت له النار" . وقالت أم الدّرداء : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها : ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأه ممن دخل الجنة؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن عدد آى القرآن على عدد دَرَج الجنة ، فليس أحد دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن . ذكره أبو محمد مكىّ . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن واتبع مافيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : « فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ » . قال ابن عباس : فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضلّ فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة، ذكره مكىّ أيضا . وقال الليث : يقال : ما الرحمة إلى أحد بأسرعَ منها الى مستمع القرآن؛ لقول الله جلّ ذكره : « وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » . ولعلّ من الله واجبة .

وفى مسند أبى داود الطيالسىّ — وهو أوّل مسند أُلِّف فى الإسلام (١) — عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنْطِرين" . والآثار فى معنى هذا الباب كثيرة، وفيما ذكرنا كفاية، والله الموفق للهداية .

---

(١) قوله : « وهو أول مسند ... الخ » . قال صاحب كشف الظنون : « والذى حمل قائل هذا القول تقدم عصره على أعصار من صنف المسانيد ، وظن أنه هو الذى صنفه وليس كذلك ، فانه ليس من تصنيف أبى داود ، وانما بعض الحفاظ الخراسانيين جمع فيه ما رواه يوسف بن حبيب خاصة عن أبى داود . ولأبى داود من الأحاديث التى لم تدخل هذا المسند قدره أو أكثر ؛ كما ذكره البقاعى فى حاشية الألفية » . وقد توفى الطيالسى سنة ٢٠٤ هـ .

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم واختلاف النـاس فى ذلك

روى البخارىّ عن قتادة قال: سألت أنسًا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كان يمدّ مدّا [إذا] قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمدّ بسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم .

وروى الترمذىّ عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُقَطِّع قراءته يقول: "الحمدُ للهِ ربِّ العالمين . ثم يقف . الرحمنِ الرحيم . ثم يقف . وكان يقرأ : ملك يومِ الدِّين" . قال : حديث غريب . وأخرجه أبو داود بنحوه .

وروى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "أحسن النـاس صوتا من إذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى". وروى عن زياد النميرى أنه جاء مع القرّاء إلى أنس بن مالك فقيل له: اقرأ . فرفع صوته وطرّب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنسٌ عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال: يا هـذا، ماهكذا كانوا يفعلون! وكان اذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه . وروى عن قيس بن عُبَاد أنه قال: كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يكرهون رفع الصوت عنـد الذكر . وممن روى عنه كراهـة رفع الصوت عنـد قراءة القرآن سعيد بن المسيّب وسـعيد بن جبير والقاسم بن محمـد والحسن وابن سيرين والنخعىّ وغيرهم، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل، كلّهم كره رفع الصوت بالقرآن والتّطريب فيه . روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤمّ النـاس فطرّب فى قراءته؛ فأرسل اليه سعيد يقول: أصلحك الله! إن الأئمـة لا تقرأ هكذا . فترك عمر التطريب بعـدُ . وروى عن القاسم بن محمد: أن رجلا قرأ فى مسجد النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فطرّب، فأنكر ذلك القـاسم وقال يقول الله عزّ وجلّ: « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيـهِ الْبَـاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » الآية .

وروى عن مالك أنه سئل عن النّبْر فى قراءة القرآن فى الصلاة، فأنكر ذلك وكرهه كراهة شـديدة، وأنكر رفع الصوت به . وروى ابن القاسم عنه أنه سـئل عن الألحان فى الصلاة

فقال : لا يعجبني ، وقال : إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم . وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتّطريب به ، وذلك لأنه إذا أحسن الصوت به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب ، واحتجوا بقوله عليه السلام : " زيّنوا القرآن بأصواتكم " رواه البرّاء بن عازب . أخرجه أبو داود والنسائي . وبقوله عليه السلام : " ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن " أخرجه مسلم . وبقول أبي موسى للنبيّ صلى الله عليه وسلّم : لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبّرته لك تحبيرا . وبما رواه عبد الله بن مُغفّل قال : قرأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عام الفتح في مسيرله سورة «الفتح» على راحلته فرجّع في قراءته . وممن ذهب الى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعيّ وابن المبارك والنضر بن شُمَيل، وهو اختيار أبي جعفر الطبريّ وأبي الحسن بن بطّال والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم .

قلت : القول الأوّل أصح لما ذكرناه ويأتي. وأما ما احتجوا به من الحديث الأوّل فليس على ظاهره ، وإنما هو من باب المقلوب ، أي زيّنوا أصواتكم بالقرآن . قال الخطابيّ : وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث : زينوا أصواتكم بالقرآن ، وقالوا : هو من باب المقلوب ، كما قالوا : عرضت الحوضَ على النّاقة ، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض . قال : ورواه معمر عن منصور عن طلحة ، فقدّم الأصوات على القرآن ، وهو الصحيح .

قال الخطابيّ : ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عَوْسَجة عن البرّاء أن رسول الله صلّى الله وسلّم قال : "زيّنوا القرآن بأصواتكم". أي الهجوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة ، وقيل : معناه الحضّ على قراءة القرآن والدُّءوب عليه . وقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "زيّنوا أصواتكم بالقرآن". وروى عن عمر أنه قال : "حسنوا أصواتكم بالقرآن" .

قلت : والى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام : " ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن " أي ليس منا من لم يحسن صوته بالقرآن ، كذلك تأوله عبد الله بن أبي مليكة . قال عبدالجبار ابن الورد : سمعت ابن أبي مليكة يقول : قال عبد الله بن أبي يزيد : مرّ بنا أبو لُبَابة فاتبعناه

حتى دخل بيته، فاذا رجل رثّ الهيئة، فسمعته يقول : سمعت رسول‌الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" . قال فقلت لابن أبى مليكة : يا أبا محمـد، أرأيت إذا لم يكن حَسَنَ الصوت ؟ قال : يحسّنه ما استطاع . ذكره أبو داود، وإليه يرجع أيضا قول أبى موسى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : إنى لو علمت أنك تستمع لقراءتى لحسّنت صوتى بالقرآن، وزيّنته ورتّلته. وهذا يدل أنه كان يَهُذّ[1] فى قراءته مع حُسْن صوته الذى جُبل عليه. والتحبير : التزيين والتحسين ؛ فلو علم أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يسمعه لمدّ فى قراءته ورتّلها، كما كان يقرأ على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فيكون ذلك زيادة فى حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأوّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : إن القرآن يزيّن بالأصوات أو بغيرها ؛ فمن تأوّل هـذا فقد واقع أمرا عظيما أن يُحْوِج القرآن الى من يزيّنه، وهو النور والضيـاء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته واستنار بضيائه . وقد قيـل : إن الأمر بالتزيين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقـدير ذلك، أى زينـوا القراءة بأصواتكم ؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة، كما قال تعـالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » أى قراءة الفجر، وقوله : « فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِـعْ قُرْآنَهُ » أى قراءته . وكما جاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن فى البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السـلام، ويوشك أن تخـرج فتقرأ على الناس قرآنا. أى قراءة . وقال الشاعر[2] فى عثمان رضى الله عنه :

ضحّوا بأشمطَ[3] عنوانُ السجود به * يُقطِّع الليـل تسبيحا وقـرآنا

أى قراءة. فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التى هى التلاوة عن حدّها — على ما نبيّنه — فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنّى به، يستغنى به من الاستغناء الذى هو ضدّ الافتقار، لا من الغناء ؛ يقال : تغنّيت وتغانيت بمعنى استغنيت . وفى الصحاح : تغنّى

(١) الهذ والهذذ : سرعة القطع وسرعة القراءة .

(٢) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه .

(٣) الشمط بالتحريك : بياض شعر الرأس يخالطه سواده . وقيل : الشمط فى الرجل شيب اللحية .

الرجل بمعنى اسـتغنى ، وأغناه الله . وتغانوا أى اسـتغنى بعضهم عن بعض . قال المُغيرة بن حَبناء التميمىّ :

كلانا غَنِىٌّ عن أخيـه حَياتَه * ونحن إذا مُتْنا أشـدُّ تغانيـا

والى هـذا التأويل ذهب سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ، ورواه سفيان عن سـعد بن أبى وقّاص . وقد روى عن سفيان أيضا وجه آخر ، ذكره اسحاق بن راهَوَيْه ، أى يستغنى به عما سواه من الأحاديث . والى هذا التأويل ذهب البخارىّ محمد بن اسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ » . والمراد الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم ، قاله أهل التأويل . وقيل : إن معنى يتغنى به يتحزن به ، أى يَظهر على قارئه الحزن الذى هو ضدّ السرور عند قراءته وتلاوته ، وليس من الغنية ؛ لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغانى به ، ولم يقل يتغنّى به . ذهب الى هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد ابن حِبّان البستىّ ، واحتجوا بمـا رواه مطرّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيـه قال : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّى ولصدره أزيز كأزيز المِرجل من البكاء . الأزيز (بزايين) : صوت الرعد وغليان القِدر . قالوا : ففى هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التّحزن ؛ وعَضّدوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال قال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : ”اقرأ علىّ“ فقرأت عليه سورة « النسـاء » حتى إذا بلغت « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » فنظرت اليه فاذا عيناه تدمعان . فهذه أربعة تأويلات ، ليس فيهـا ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيهـا . وقال أبو سعيد بن الأعرابىّ فى قوله صلى الله عليه وسلم : ”ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن“ قال : كانت العرب تُولَع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها ، فلما نزل القرآن أحبّوا أن يكون القرآن هِجِّيراهم (1) مكان الغناء ؛ فقال : ” ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن “ .

التأويل الخامس — ما تأوّله مَن استدل به على الترجيع والتطريب ؛ فذكر عمر بن شَبّة قال : ذكرت لأبى عاصم النبيـل تأويل ابن عيينـة فى قوله : يتغنّ . يستغنى ؛ فقـال :

(1) هجيراهم : دأبهم وعادتهم .

لم يصنع ابن عيينة شيئا . وسئل الشافعيّ عن تأويل ابن عيينة فقال : نحن أعلم بهذا، لو أراد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الاستغناء لقال : من لم يستغن، ولكن لمـا قال: "يتغن"، علمنا أنه أراد التغنيّ . قال الطبريّ : المعروف عندنا فى كلام العرب أن التّغنى إنما هو الغناء الذى هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تَغَنَّ بالشِّعرِ مهما كنتَ قائلَه * إن الغِناءَ بهذا الشِّـعرِ مِضمارُ

قال : وأما آدّعاء الزاعم أن تغنّيت بمعنى استغنيت فليس فى كلام العرب وأشعارها، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله؛ وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وكنتُ آمرأً زَمَنًا بالعِراقِ * عفيفَ المُناخ طَويلَ التَّغَنْ

وزعم أنه أراد الاســتغناء فانه غلط منه ، وإنمـا عنى الأعشى فى هــذا الموضع الإقامة ، من قول العرب : غنِي فلان بمكان كذا أى أقام ؛ ومنه قوله تعالى : « كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا » وأما آستشهاده بقوله :

* ونحن إذا مُتْنا أشدُّ تغانِيَا *

فإنه إغفال منه، وذلك أن التّغانى تفاعل من نفسين إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه؛ كما يقال : تضارب الرجلان ، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبــه . ومن قال هذا فى فعل الاثنين لم يجز أن يقول مثــله فى الواحد . غير جائز أن يقال : تغانى زيد وتضارب عمــرو؛ وكذلك غير جائز أن يقال : تغنّى بمعنى آستغنى .

قلت : ما آدّعاه الطبرىّ من أنه لم يَرِد فى كلام العرب تغنّى بمعنى آســتغنى، فقد ذكره الجوهرىّ كما ذكرنا ، وذكره الهروىّ أيضا . وأما قوله : إن صيغة فَاعَل انما تكون من آثنين فقد جاءت من واحد فى مواضع كثيرة : منها قول ابن عمر: وأنا يومئذ قد ناهزت آلاحتلام . وتقول العرب : طارقتُ النعلَ وعاقبتُ اللص وداويتُ العليل، وهو كثير؛ فيكون تغانى منها. واذا احتمل قوله عليه الصّلاة والسّلام : " يتغنّ " الغناء والاستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر؛ بل حمله على الاســتغناء أولى لو لم يكن لنـا تأويل غيره؛ لأنه مروىّ عن

صحابيّ كبير كما ذكر سفيان . وقد قال ٱبن وهب في حق سفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عيينة، ومعلوم أنه رأى الشافعيّ وعاصره .

وتأويل سادس — وهو ما جاء من الزيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " ما أذِن الله لشيء (١) ما أذن لنبيّ حَسَن الصوت يتغنّى بالقرآن يَجهَر به ". قال الطبريّ : ولو كان كما قال ابن عيينة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنًى. قلنا قوله : يجهر به لا يخلو أن يكون من قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، أو من قول أبي هريرة أو غيره ، فان كان الأوّل وفيه بُعدٌ ، فهو دليل على عدم التّطريب والتّرجيع؛ لأنه لم يقل : يطرّب به ، وإنما قال : يجهر به ، أي يسمع نفسه ومن يليه؛ بدليل قوله عليه السلام للذي سمعه وقد رفع صوته بالتهليل : " أيها الناس ٱربعوا (٢) على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائبا " الحديث، وسيأتي . وكذلك إن كان من صحابيّ أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه؛ وقد اختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهذا أشبه ، لأن العرب تسمي كل من رفع صوته ووالَى به غانياً، وفعله ذلك غِناءٌ وإن لم يلحنه بتلحين الغناء. قال : وعلى هذا فسره الصحابيّ؛ وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال .

وقد احتج أبو الحسن بن بَطّال لمذهب الشافعيّ فقال : وقد رَفَعَ الإشكال في هذه المسألة ما رواه ابن أبي شيبة قال حدّثنا زيد بن الحباب قال حدّثنا موسى بن عليّ بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " تعلّموا القرآن وغنّوا به واكتبوه فوالذي نفسي بيده لهو أشدُّ تَفَصّياً (٣) من المخاض من العُقُل " . قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صح سنده فيردّه ما يعلم على القطع والبَتات من أن قراءة القرآن تلقيناً متواترة عن كافة المشايخ، جيلا بجيلا الى العصر الكريم الى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وليس فيها تلحين

---

(١) قوله : ما أذن ... الخ . قال المناوي : يعني ما رضي الله من المسموعات شيئا هو أرضى عنده ولا أحب اليه من قول نبيّ يتغنى بالقرآن ، أي يجهر به و يحسن صوته بالقراءة بخشوع وترقيق وتحزن ، وأراد بالقرآن ما يقرأ من الكتب المنزلة . (٢) قوله : اربعوا . أي كفوا وارفقوا . (٣) التفصي : التفلت والخروج .

ولا تطريب ، مع كثرة المتعمّقين فى مخارج الحروف وفى المدّ والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفيــة القراءات . ثم إن فى الترجيع والتطريب همزَ ما ليس بمهموز ومدّ ما ليس بممدود ، فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبهة الواحدة شبهات[(١)] ، فيؤدّى ذلك الى زيادة فى القرآن وذلك ممنوع ، وإن وافق ذلك موضع نَبْر وهمز صيّروها نبرات وهمزات ، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هى همزة واحدة لا غير، إما ممدودة وإما مقصورة . فان قيل : فقد روى عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى مسير له سورة « الفتح » على راحلته فرجّع فى قراءته ؛ وذكره البخارىّ وقال فى صــفة التّرجيع : آء آء آء ، ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المدّ فى موضعه ، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هزّ الراحلة ، كما يعترى رافع صوته اذا كان راكبا من انضغاط صوته وتقطيعه لأجل هزّ المركوب ؛ واذا احتمل هذا فلا حجة فيه . وقد خرّج أبو محمد عبد الغنىّ بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدّ ليس فيها ترجيع . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : كان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم مؤذن يطرّب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحا سهلا وإلا فلا تؤذّن " . أخرجه الدارقطنىّ فى سننه . فاذا كان النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قد منع ذلك فى الأذان فأحرى ألا يجوّزه فى القرآن الذى حفظه الرحمن ، فقال وقوله الحق : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . وقال تعالى : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

قلت : وهذا الخلاف انما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات ، فان زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق ، كما يفعل القرّاء بالدّيار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز ، و يأخذون على ذلك الأجور والجوائز ، ضلّ سعيهم ، وخاب

---

(١) سيذكر المؤلف فى باب ذكر معنى السورة والآية الخ . أن الشبهات هى الحروف ولم أر هذا التعبير لغيره .

عملهم، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله ، و يهوّنون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا فى تنزيله ما ليس فيه ؛ جهلًا بدينهم، ومروقا عن سنة نبيّهم ، ورفضا لسيَر الصالحين فيه من سلفهم، ونزوعا الى ما يزيّن لهم الشيطان من أعمالهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؛ فهم فى غيّهم يتردّدون، و بكتاب الله يتلاعبون، فإنا لله و إنا اليه راجعون؛ لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون، فكان كما أخبر صلّى الله عليه وسلّم .

ذكر الامام الحافظ أبو الحسين رزين وأبو عبد الله الترمذيّ الحكيم فى نوادر الأصول من حديث حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها و إياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدى قوم يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم" . اللحون : جمع لحن وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء .

قال علماؤنا : ويشبه أن يكون هذا الذى يفعله قرّاء زماننا بين يدى الوعاظ وفى المجالس من اللحون الأعجمية التى يقرءون بها ، ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والترجيع فى القراءة : ترديد الحروف كقراءة النصارى . والترتيل فى القراءة هو التأنى فيها والتمهل وتبيين الحروف والحركات تشبيها بالثغر المرتّل، وهو المشبّه بنَوْر الأُقحوان، وهو المطلوب فى قراءة القرآن؛ قال الله تعالى : « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » . وسئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله صلّى الله عليه وسلم وصلاته ؛ فقالت : ما لكم وصلاتَه ! [كان يصلّى ثم ينام قدر ما صلّى، ثم يصلّى قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلّى حتى يصبح،](1) ثم نعتت قراءته، فاذا هى تنعت قراءة مفسّرة حرفا حرفا . أخرجه النسائى وأبو داود والترمذيّ وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » . وقال تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » . روى مسلم عن أبى هريرة

(1) الزيادة عن سنن الترمذى وأبى داود .

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنّ أوّل الناس يُقضَى عليه يوم القيامة رجلٌ استُشْهد فأُتِىَ به فعرّفه نِعَمه فعرَفها قال فما عمِلتَ فيها قال قاتلتُ فيك حتى اسْتُشْهِدتُ قال كذبتَ ولكنّك قاتلتَ لأن يقال جرىءٌ فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلْقِىَ فى النار ورجلٌ تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأُتِىَ به فعرّفه نِعمه فعرَفها قال فما عملتَ فيها قال تعلّمتُ العلم وعلّمتُه وقرأت فيك القرآن قال كذبتَ ولكنّك تعلّمتَ العلم ليقال عالم وقرأتَ القرآن ليقال هو قارئٌ فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلْقِىَ فى النار ورجلٌ وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلّه فأُتِىَ به فعرّفه نِعَمه فعرَفها قال فما عمِلتَ فيها قال ما تركتُ من سبيل تُحِبّ أن يُنفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك قال كذبتَ ولكنّك فعلتَ ليقال هو جَوادٌ فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقِىَ فى النار". وقال الترمذىّ فى هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلم على ركبتى ، فقال : " يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة " . أبو هريرة اسمه عبد الله، وقيل : عبد الرحمن ، وقال : كنيت أبا هريرة لأنى حملت هِرّة فى كُمّى ، فرآنى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : "ما هذه" قلت : هرّة، فقال : " يا أبا هريرة " . قال ابن عبد البر : وهذا الحديث فيمن لم يُرِد بعمله وعلمه وجه الله تعالى . وروى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : " من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوّأ مقعده من النار " .

وخرّج ابن المبارك فى رقائقه عن العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يظهر هذا الدّين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل فى سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا من أقرأ منا من أعلم منا " ثم التفت الى أصحابه فقال : " هل ترون فى أولئكم من خير" قالوا : لا. قال : " أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار " . وروى أبو داود والترمذىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "من تعلّم علما مما يُبتغَى به وجهُ الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة " . يعنى ريحها . قال الترمذىّ : حديث

حسن . وروى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " تعوّذوا بالله من جُبّ الحزن " قالوا : يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : " وادٍ في جهنم تتعوّذ منه جهنم في كل يوم مائة مرة " قيل : يا رسول الله ومن يدخله ؟ قال : " القرّاء المراءون بأعمالهم " قال : هـذا حديث غريب . وفي كتاب أسد بن موسى أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " إن في جهنم لواديا إن جهنم لتتعوّذ من شرّ ذلك الوادي كل يوم سبع مرات وإن في ذلك الوادي لجُبًّا إن جهنم وذلك الوادي ليتعوّذان بالله من شرّ ذلك الجبّ وإن في الجب لحيـة وإن جهنم والوادي والجب ليتعوّذون بالله من شرّ تلك الحية سبع مرات أعدّها الله للأشقياء من حملة القرآن الذين يعصون الله". فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقي الله في نفسه ويُخلص العمل لله ، فإن كان تقدّم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة ، وليبتدئ الإخلاص في الطلب وعمـله . فالذي يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر ممـا يلزم غيره ، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره . روى الترمذي عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "أنزل الله في بعض الكتب أو أوحَى الى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيـا بعمل الآخرة يلبسون للناس مُسُـوكَ(1) الكِبَاش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصـبر إياي يخادعون وبي يستهزئون لأُتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران " .

وخرّج الطبريّ في كتاب آداب النفوس : حدّثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدّثنا المحاربيّ عن عمرو بن عامر البجليّ عن آبن صدقة عن رجل من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو مَن حدّثه قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونفسه يخدع لو يشعُر" . قالوا : يا رسول الله ، وكيف يخادع الله؟ قال: "تعمل بمـا أمرك الله به وتطلب به غيره وآتقوا الرياء فإنه الشرك وإن المرائي يُدعَى يوم القيـامة على رءوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يا خاسر يا غادر يا فاجر ضلّ عملك وبطل

(1) المسوك (جمع مسك ، بفتح ثم سكون) : الجلد .

أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع ". وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : كيف أنتم ! إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم الكبير، وتتخذ سنة مبتدعة يجرى عليها النـاس فإذا غير منها شيء قيل : قد غُيِّرت السنة . قيل : متى ذلك يا أبا عبـد الرحمن ؟ قال : إذا كثر قراؤكم ، وقلّ فقهاؤكم، وكثر أمراؤكم ، وقلّ أمناؤكم، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدين . وقال سفيان بن عيينة : بلغنا عن ابن عباس أنه قال : لو أن حمـلة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغى لأحبهـم الله ، ولكن طلبوا به الدنيـا فأبغضهم الله، وهانوا على النـاس . وروى عن أبى جعفر محمد بن علىّ فى قول الله تعالى : « فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَـاوُونَ » قال : قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه الى غيره. وسيأتى لهذا البـاب مزيد بيان فى أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى .

باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يُخلص فى طلبه لله جلّ وعزّ كما ذكرنا، وأن يأخذ نفســه بقراءة القرآن فى ليله ونهاره، فى الصلاة أوفى غير الصلاة لئلا ينساه . روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقّلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبتْ وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهـار ذكره وإذا لم يقم به نسيه" . وينبغى له أن يكون لله حامدا، ولنعمه شاكرا، وله ذاكرا، وعليه متوكلا، وبه مُستعينا، وإليه راغبا، وبه معتصما، وللموت ذاكرا، وله مستعدّا . وينبغى له أن يكون خائفا من ذنبه، راجيا عفو ربه، ويكون الخوف فى صحته أغلب عليه، إذ لا يعلم بما يختم له؛ ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى فى نفسه، لحسن الظن بالله ؛ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن" . أى أنه يرحمه ويغفر له . وينبغى له أن يكون عالمـا بأهل زمانه، متحفّظا من سلطانه، ساعيا فى خلاص نفسه، ونجاة مهجته، مقدّما بين يديه ما يقدر عليه من عَرَض دنياه، مجاهدا لنفسه فى ذلك ما استطاع . وينبغى له أن يكون أهمّ أموره عنده الورع فى دينه، واستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه.

وقال ابن مسعود : ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، و بنهاره إذا النـاس مستيقظون، و ببكائه اذا النـاس يضحكون، و بصمته اذا النـاس يخوضـون ، و بخشوعه اذا الناس يختالون، و بحزنه اذا النـاس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو و يصفح لحق القرآن، لأن في جوفه كلام الله تعالى . وينبغي له أن يأخذ نفســه بالتّصاون عن طرق الشبهات ، ويُقلّ الضّحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لافائدة فيه، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار. و ينبغي له أن يتواضع للفقراء، و يتجنّب التكبر والإعجاب، و يتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، و يترك الجدال والمِراء، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب . وينبغي له أن يكون ممن يؤمن شرّه، و يرجى خيره ويُسلم من ضرّه، وألا يسمع ممن نمّ عنده، ويصاحب من يعاونه على الخير ويدلّه على الصدق ومكارم الأخلاق، و يَزِينه ولا يَشِينه . و ينبغي له أنْ يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليــه ، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتـلو؛ فما أقبح لحـامل القرآن أن يتلو فرائضــه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتـلو ، فكيف يعمل بما لايفهم معناه . وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فـا مَثل مَن هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمـل أسفارا . و ينبغي له أن يعرف المكيّ من المدنيّ ليفرّق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أوّل الإســلام، وما ندبهم اليــه في آخر الإسلام، وما افترض الله في أوّل الاسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره . فالمدنيّ هو الناسخ للمكيّ في أكثر القرآن ، ولا يمكن أن يَنْسخ المكيُّ المدنيَّ؛ لأن المنسوخ هو المتقدّم في النزول قبـل النـاسخ له . ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يُسهّل عليه معرفة ما يقرأ ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو . وقــد قال أبو جعفر الطبريّ سمعت الجَرْميّ يقول : أنا منــذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه . قال محمــد بن يزيد : وذلك أن أبا عمر الجَرْميّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقّه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير . ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛

فبها يصل الطالب الى مراد الله عزّ وجلّ فى كتابه وهى تفتح له أحكام القرآن فتحا ؛ وقـد قال الضحاك فى قـوله تعالى : « وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ » . قال : حقٌّ على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها .

وذكر ابن أبى الحوارىّ قال : أتينا فُضيل بن عياض سـنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة، فوقفنا على البـاب فلم يأذن لنـا بالدخول؛ فقال بعض القوم : إن كان خارجا لشىء فسيخرج لتـلاوة القرآن ؛ فأمرنا قارئا فقرأ فاطّلع علينا من كوّة، فقلنـا : السلام عليك ورحمة الله؛ فقال : وعليكم السلام؛ فقلنا : كيف أنت يا أبا علىّ ، وكيف حالك ؟ فقال : أنا من الله فى عافية ومنكم فى أذًى، وإن ما أنتم فيـه حدثٌ فى الإسلام، فانا لله وإنا إليـه راجعون ! ما هكذا كنا نطلب العـلم ، ولكنا كنا نأتى المَشْيخة فلا نرى أنفسنا أهلا للجلوس معهم، فنجلس دونهم ونسترق السمع، فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه، وأنتم تطلبون العـلم بالجهل، وقـد ضيعتم كتاب الله، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لمـا تريدون؛ قال : قلنـا قد تعلمنـا القرآن؛ قال : إن فى تعلمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم ؛ قلنا : كيف يا أبا علىّ ؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ، ومُحكَمه من متشابهه ، وناسخه من منسوخه؛ فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وآبن عيينة ، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم « يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » .

قلت : فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهرا بالقرآن ، وعالمـا بالفرقان ؛ وهو قريب على من قربه الله عليه، ولا ينتفع بشىء مما ذكرنا حتى يخلص النية فيه لله جلّ ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدّم . فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف فى الدنيا، فلا يزال به فَهْمُ العلم حتى يتبيّن أنه على خطأ فى اعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى، فينتفع بذلك ويحسن حاله. قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا بحرّتنا إلى الآخرة. وقاله سفيان الثورىّ . وقال حبيب بن أبى ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعد .

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن معربًا

قال أبو بكر بن الأنباري : جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم من تفضيل إعراب القرآن، والحض على تعليمه، وذم اللحن وكراهيته، ما وجب به على قرّاء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه .

من ذلك ما حدّثنا يحيي بن سليمان الضبي قال حدّثنا محمد — يعني ابن سعيد — قال حدّثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المقبري عن أبيه عن جدّه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه " . حدّثني أبي قال حدّثنا إبراهيم ابن الهيثم قال حدّثنا آدم — يعني ابن أبي إياس — قال حدّثنا أبو الطيب المروزي قال حدّثنا عبد العزيز بن أبي روّاد عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " من قرأ القرآن فلم يعربه وُكّل به ملك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وُكّل به ملكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فان أعربه وُكّل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة " . وروى جويبر عن الضحاك قال قال عبد الله ابن مسعود : جوّدوا القرآن وزيّنوه بأحسن الأصوات ، وأعربوه فانه عربي ، والله يحب أن يُعرَب به . وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن ابن زيد قال قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : لبَعْض إعراب القرآن أحبّ الينا من حفظ حروفه . وعن الشعبي قال قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول : بلغني أن من قرأ بإعرابٍ كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : " أحبّوا العرب لثلاث لاني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي " . وروى سفيان عن أبي حمزة قال : قيل للحسن في قوم يتعلمون العربية قال : أحسَنوا ، يتعلمون لغة نبيّهم صلّى الله عليه وسلّم . وقيل للحسن : إن لنا إماما يلحن؛ قال : أخّروه .

وعن ابن أبي مليكة قال : قدم أعرابيّ فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : من يقرئنى مما أنزل الله على محمد صلّى الله عليه وسلّم ؟ قال : فاقرأه رجل «براءة» ؛ فقال : أن الله برىء من المشركين ورسوله . بالجرّ، فقال الأعرابىّ : أو قد برئ الله من رسوله ! فإن يكن الله برئ من رســوله فأنا أبرأ منه ؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابىّ فدعاه فقال : يا أعرابىّ أتبرأ من رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن، فسألت مَن يقرئنى، فأقرأنى هذا سورة «براءة»، فقال : أن الله برئ من المشركين ورسولِه ؛ فقلت : أو قــد برئ الله من رسوله ، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابىّ؛ قال : فكيف هى يا أمير المؤمنين؟ قال : « أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » فقال الأعرابىّ : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه؛ فأمر عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ألا يقرئ الناسَ إلا عالمٌ باللغة ، وأمر أبا الأسود (١) فوضع النحو .

وعن علىّ بن الجَعْد قال : سمعت شعبة يقول : مَثَـلُ صاحب الحديث الذى لا يعرف العربية مَثَلُ الحمار عليه مِخلاة لا عَلَف فيها . وقال حماد بن سَلَمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو أو قال العربيــة فهو كمثل الحمار تُعلّق عليــه مِخلاة ليس فيها شعير . قال ابن عطيــة : إعراب القرآن أصل فى الشريعة، لأن بذلك تقوّم معانيه التى هى الشرع .

قال ابن الأنبارىّ : وجاء عن أصحاب النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وتابعيهم رضوان الله عليهم، من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر مابيّن صحة مذهب النحويّين فى ذلك، وأوضح فساد مذاهب من أنكر ذلك عليهم . من ذلك ما حدّثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدثنــا ابن أبى مريم قال : أنبأنا ابن فروخ قال أخبرنى أسامة قال أخبرنى عكرمة أن ابن عباس قال : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب . وحدثنا إدريس بن عبد الكريم قال حدثنا خلف قال حدثنــا حماد بن زيد عن علىّ بن زيد بن جُدعان قال سمعت سعيد بن جبير و يوســف بن مهران يقولان : سمعنا ابن عباس يُسأل عن الشىء من القرآن ؛ فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمــة

(١) يجوز أن يكون أمر أبى الأسود بوضع النحو تكرر من عمر ومن على .

عن ابن عباس، وسأله رجل عن قول الله جل وعز : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » قال : لا تلبس ثيابك على غدر، وتمثل بقول غيلان الثقفي :

فإني بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ لبستُ ولا من سَوءةٍ أتقنَّعُ (١)

وسأل رجل عكرمة عن الزنيم قال : هو ولد الزنا، وتمثل ببيت شعر :

زنيم ليس يُعرَف مَن أبوه بَغِيُّ الأمِ ذو حسبٍ لئيمِ

وعنه أيضا الزنيم : الدّعيّ الفاحش اللئيم، ثم قال :

زَنيمٌ تداعاه الرجال زيادةً كما زِيدَ في عَرْض الأديم الأكارِعُ (٢)

وعنه في قوله تعالى : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » قال : ذواتا ظِلّ وأغصان، ألم تسمع الى قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هَديل حمامةٍ تدعو على فَنَنِ الغصون حَمَامَا

تدعو أبَا فرخَينِ صادف طائرا ذا مِخْلبين من الصقور قُطاما

وعن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » قال : الأرض، قاله ابن عباس . وقال أمية بن أبي الصلت : «عندهم لحم بحر ولحم ساهرة» (٣) . قال ابن الأنباري : والرواة يرون هذا البيت :

وفيها لحمُ ساهِرةٍ وبَحْرٍ وما فاهُوا به لهمُ مقيمُ

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرني عن قول الله جل وعز : « لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » ما السِّنة ؟ قال : النعاس، قال زهير بن أبي سُلْمى :

لا سِنةٌ في طَوالِ الليل تأخُذُه * ولا ينام ولا في أمره فَنَدُ (٤)

(١) أورد الألوسي في تفسيره روح المعاني هذا البيت عند قوله تعالى «وثيابك فطهر» برواية أخرى هكذا :

فاني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

(٢) كذا في اللسان والكامل للمبرد . وفي الأصول : «أكارع» .

(٣) كذا في الأصول، ولعل ابن عباس يريد ما تضمنه البيت الذي قاله أمية والذي ذكره بن الأنباري فيما يلي؛ وقد عزا قول ابن الأنباري صاحب اللسان في مادة سهر وصاحب تفسير روح المعاني ج ٩ ص ٢٨٦ طبع بولاق .

(٤) الفند (بالتحريك) : ضعف الرأي من الكبر، وقد يستعمل في غير الكبر .

باب ما جاء فى فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وأما ما جاء فى فضل التفسير عن الصحابة والتابعين، فمن ذلك : أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنــه ذكر جابر بن عبــد الله ووصفه بالعلم؛ فقال له رجل : جعلت فداءك ! تصف جابرا بالعلم وأنت أنت ! فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » . وقال مجاهد : أحب الخلق الى الله تعالى أعلمهم بمــا أنزل . وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحبّ أن يُعلَم فيما أنزلت وما يعنى بها . وقال الشعبىّ : رحل مسروق الى البصرة فى تفسير آية، فقيل له : إن الذى يفسرها رحل الى الشام؛ فتجهز ورحل الى الشأم حتى علم تفســيرها . وقال عكرمة فى قوله عز وجل : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ » طلبت اسم هــذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته . وقال ابن عبد البر : هو ضمرة بن حبيب وسيأتى . وقال ابن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يمنعنى إلا مهابتــه ، فسألته فقال : هى حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليــلا وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما فى الكتاب؛ ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما فى الكتاب .

باب ما جاء فى حامل القرآن ومن هو وفيمن عاداه

قال أبو عمر : رُوى من وجوه فيها لِينٌ عن النبىّ صلّى الله عليه وســلّم أنه قال : " من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة الامام المقسط وذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيــه ولا الجافى عنه" وقال أبو عمر : وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه ،وحلاله وحرامه ،والعاملون بمــا فيه . وروى أنس أن النبىّ صلّى الله عليــه وسلّم قال : " القرآن أفضــل من كل شىء فمن وقّر القرآن فقــد وقّر الله ومن استخفّ بالقرآن استخفّ بحق الله تعالى حملة القــرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظّمون كلام الله الملبسون نور الله فمَن والاهم فقد وَالَى الله ومن عاداهم فقد استخف بحق الله تعالى" .

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول: «فمن حرمة القرآن ألا يمسّه إلا طاهرا. ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة . ومن حرمتــه أن يستاك ويتخلل فيطيّب فاه ، إذ هو طريقه . — قال يزيد بن أبى مالك : إن أفواهكم طرق من طرق القرآن، فطهروها ونظفوها ما ٱستطعتم . — ومن حرمته أن يتلبس[1] كما يتلبس للدخول على الأمير لأنه مناج. ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته . — وكان أبو العالية إذا قرأ آعتم ولبس وارتدى واستقبل القبلة . — ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخّع[2] . روى شعبة عن أبى حمزة عن ابن عباس : أنه كان يكون بين يديه تَوْرٌ[3] اذا تنخّع مضمض، ثم أخذ فى الذكر، وكان كلما تنخّع مضمض . ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة لأنه اذا قرأ فهو مخاطب ربّه ومناج، والتثاؤب من الشيطان . — قال مجاهد : اذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك . وقاله عكرمة. يريد أن فى ذلك الفعل إجلالا للقرآن . — ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند ابتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم، ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتدأ قراءته من أوّل السورة أو من حيث بلغ . ومن حرمتــه اذا أخذ فى القــراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة . ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه، لأنه اذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذى استعاذ فى البدء . ومن حرمته أن يقرأه على تؤدة وترسيل وترتيل . ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يَعقل ما يُخاطب به . ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرْغب الى الله تعالى ويسأله من فضلــه ، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه . ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيمتثلها . ومن حرمته أن يلتمس إعرابه[4] . ومن حرمتــه أن يؤدّىَ لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما ، فإن له بكل حرف عشر حسنات . ومن حرمته اذا انتهت قراءته أن يُصدّق ربه ، ويشهد بالبلاغ

---

(١) يقال : تلبس بالثوب بمعنى لبسه . (٢) تنخع كتنخم وزنا ومعنى (٣) التور : إناء يشرب فيه .
(٤) فى الأصول : «غرائبه» . والتصويب عن نوادر الأصول .

لرسوله صلّى الله عليه وسلّم، ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول: صدقتَ ربّنا وبلّغتْ رسلُك، ونحن على ذلك من الشاهدين؛ اللهم اجعلنـا من شهداء الحق، القائمين بالقسط؛ ثم يدعو بدعوات. ومن حرمته اذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأها؛ فإنه روى لنا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أنه مرّ ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا؛ فأمره أن يقرأ السور كلها أو كما قال عليه السلام. ومن حرمته اذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشورا، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدا عاليا لسائر الكتب، علمًا كان أو غيره. ومن حرمته أن يضعه فى حِجره إذا قرأه أو على شىء بين يديه ولا يضعه بالأرض. ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالمـاء. ومن حرمته اذا غسله بالمـاء أن يتوقّى النجاسات من المواضع، والمواقع التى توطأ، فان لتلك الغسالة حرمة، وكان مَنْ قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته. ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة اذا بَليت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالمـاء. ومن حرمته ألا يُخلَى يوما من أيامه من النظر فى المصحف مرّة؛ وكان أبو موسى يقول: إنى لأستحيى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرّة. ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه، فإن العين تؤدّى الى النفس، وبين النفس والصـدر حجاب، والقرآن فى الصـدر؛ فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يُسمِع أذنه فتؤدّى الى النفس، فإذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد اشتركا فى الأداء وذلك أوفر للأداء؛ وكان قـد أخذت العين حظها كالأذن. روى زيد ابن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أعطوا أعينكم حظّها من العبادة" قالوا: يارسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: "النظر فى المصحف والتفكر فيـه والاعتبار عند عجائبه". وروى مكحول عن عُبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: "أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن نظرا". ومن حرمته ألا يتأوّله عند ما يعرض له شىء من أمر الدنيا. — حدثنا عمرو بن زياد الحنظلى قال حدثنا هشيم بن بشـير عن المغيرة عن ابراهيم قال: كان يكره أن يُتأول شىء من القرآن عنـد ما يعرض له شىء من أمر الدنيا. — والتأويل مثل قولك للرجل اذا جاءك: جِئت على قدرٍ

يا موسى؛ ومثل قوله تعالى : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » هـذا عند حضور الطعام وأشباه هذا . ومن حرمته ألا يقال : سورة كذا، كقولك : سورة النحل وسورة البقرة وسـورة النساء، ولكن يقال : السورة التى يُذكر فيها كذا . —

قلت : هذا يعارضه قوله صلّى الله عليه وسلّم: "الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما فى ليلة كفتاه" خرّجه البخارىّ ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود . — ومن حرمته ألا يتلى منكوسا كفعل معلمى الصبيان، يلتمس أحدهم بذلك أن يُرى الحذق من نفسه والمهارة، فان تلك مخالفة . ومن حرمته ألا يقعّر فى قراءته كفعل هؤلاء الهمزيين المبتدعين المتنطعين فى إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلفا، فإن ذلك محدث ألقاه اليهم الشيطان فقبلوه عنه . ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق، ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدّم . ومن حرمته أن يُجلّل تخطيطه اذا خطه . وعن أبى حُكَيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة، فمرّ علىّ رضى الله عنه فنظر الى كتابته فقال له : أجِلّ قلمك، فأخذت القلم فقطعته من طرفه قطًّا، ثم كتبت وعلىّ رضى الله عنه قائم ينظر الى كتابتى، فقال: هكذا، نَوِّره كما نوّره الله عزّ وجلّ . ومن حرمتـه ألا يجهر بعضٌ على بعض فى القراءة فيفسد عليـه حتى يُبغّض اليـه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبـة . ومن حرمتـه ألا يمارى ولا يجادل فيـه فى القراءات، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن، فيكون قد جحد كتاب الله . ومن حرمته ألا يقرأ فى الأسواق ولا فى مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم اذا مرّوا باللغو مرّوا كراما، هذا لمروره بنفسه، فكيف اذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهرانى أهل اللغو ومجمع السفهاء . ومن حرمته ألا يتوسّد المصحف ولا يعتمد عليه، ولا يرمى به الى صاحبـه اذا أراد أن يناوله . ومن حرمته ألا يُصغّر المصحف، روى الأعمش عن إبراهيم عن علىّ رضى الله عنه قال : لا يصغر المصحف . —

قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا فى يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ، فضربه بالدرة ، وقال : عظموا القرآن . وروى عن رسول

الله صلى الله عليــه وسلم أنه نهى أن يقال : مُسيجد أو مصيحف . — ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمته ألا يُحلّى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينــة الدنيا ، وروى مغيرة عن ابراهيم : أنه كان يكره أن يُحلّى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلّم عنـد رءوس الآى أو يصغر . وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدبار (١) عليكم" . وقال ابن عباس ورأى مصحفا قد زُيّن بفضة : تغرون به السارق، وزينته فى جوفه . ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل به فى المساجد المحدثة . حدّثنا محمد بن على الشقيقىّ عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدّث قال : مرّ رســول الله صلى الله عليه وســلم بكتاب فى أرض، فقال لشاب من هذيل : «ما هذا» قال : من كتاب الله كتبه يهودىّ ؛ فقال : " لعن الله من فعل هــذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضــعه " . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز آبنا له يكتب القرآن على حائط فضربه . ومن حرمته أنه اذا اغتسل بكتابته مستشفيا من سقم ألا يصبه على كناســة ، ولا فى موضع نجاسة ولا على موضع يوطأ ، ولكن ناحية من الأرض فى بقعة لا يطؤه الناس، أو يحفر حفيرة فى موضــع طاهر حتى ينصب من جسده فى تلك الحفيرة ثم يكبسها ، أو فى نهر كبير يختلط بمــائه فيجرى . ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور، ولذلك كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اذا ختم يقرأ من أوّل القرآن قدر خمس آيات، لئلا يكون فى هيئة المهجور . وروى ابن عباس قال جاء رجل فقال : يا رسول آلله أىّ العمل أفضل ؟ قال : "عليك بالحال المــرتحل" قال : وما الحال المرتحل؟ قال : "صاحب القرآن يضرب من أوّله حتى يبلغ آخره ثم يضرب فى أوّله كلما حل آرتحل" . —

قلت : ويُستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنبارىّ أنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا وكيع عن مِســعَر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان اذا ختم القرآن جمع

(١) الدبار : الهلاك . وفى نوادر الأصول : «فالدمار» بالميم بدل الباء الموحدة .

أهله ودعا . وأخبرنا ادريس حدّثنا خلف حدّثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعبدة بن أبى لبابة وقوم يعرضون المصاحف ، فاذا أرادوا أن يختموا وجّهوا الينا أحضرونا ، فإن الرحمة تنزل عنــد ختم القرآن . وأخبرنا ادريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام عن ابراهيم التيمىّ قال : من ختم القرآن أوّل النهار صلّت عليه الملائكة حتى يُمسى ، ومن ختم أوّل الليل صلّت عليــه الملائكة حتى يُصبح ؛ قال : فكانوا يستحبّون أن يختموا أوّل الليل وأوّل النهار . — ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به فى الخلاء ، إلا أن يكون فى غلاف من أَدَم أو فضــة أو غيره ، فيكون كأنه فى صــدرك . ومن حرمته إذا كتبه وشربه سمّى الله على كل نَفَس وعظّم النية فيــه فإن الله يؤتيه على قــدر نيته . روى ليث عن مجاهــد قال : لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض . وعن أبى جعفر قال : من وجد فى قلبه قساوة فليكتب « يس » فى جام بزعفران ثم يشربه . —

قلت : ومن حرمته ألا يقال : سورة صغيرة ، وكره أبو العالية أن يقال : ســورة صغيرة أو كبيرة ، وقال لمن سمعه قالها : أنت أصــغر منها . وأما القرآن فكله عظيم ، ذكره مكىّ رحمه الله .

قلت : وقــد روى أبو داود ما يعارض هــذا من حديث عمرو بن شــعيب عن أبيه عن جدّه أنه قال : ما من المفصّل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يؤمّ بها النــاس فى الصلاة .

باب ما جاء من الوعيد فى تفسير القرآن بالرأى والجرأة على ذلك ومراتب المفسرين

رُوى عن عائشــة رضى الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم يفسر من كتاب الله إلا آيًا بعــددٍ ، علّمه إياهنّ جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هــذا الحديث فى مغيّبات القــرآن ، وتفسير مجمله ونحو هــذا ، مما لا سبيل اليــه إلا بتوقيف من الله تعالى ؛ ومن جملة مغيّباته مالم يُعْلِم الله به ، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألفاظه ، كعدد

النفخات فى الصور، وكِتْبة خلق السموات والأرض . روى الترمـذىّ عن آبن عباس عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "آتّقوا الحديث علىّ إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النـار ومن قال فى القـرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النـار" . وروى أيضا عن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقـد أخطأ". قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود، وتُكُلِّم فى أحد رواته(١). وزاد رزِين : ومن قال برأيه فأخطأ فقـد كفر . قال أبو بكر محمد بن القـاسم بن بشار بن محمـد الأنبارىّ النحوى اللغوى فى كتاب الرّد: فُسِّر حديث آبن عباس تفسيرين: أحدهما — من قال فى مشكل القـرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتـابعين فهو متعرّض لسخط الله . والجـواب الآخر — وهو أثبت القولين وأصحهما معنًى — من قال فى القرآن قولا يعـلم أن الحق غيره فليتبوّأ مقعده من النار . ومعنى يتبوّأ : ينزل ويحل، قال الشاعر :

وبُوِّئَتْ فى صميم مَعْشَرِها * فَــتَمَّ فى قومها مُبَــوَّؤُها(٢)

وقال فى حديث جندب : فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنىّ به الهوى : من قال فى القـرآن قولا يوافق هواه ، لم يأخذه عن أئمـة السلف فأصاب فقد أخطأ ؛ لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصـله، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيـه . وقال ابن عطية : « ومعنى هذا أن يُسأل الرجل عن معنًى فى كتاب الله عزّ وجلّ فيتسوّر(٣) عليه برأيه دون نظر فيما قال العلمـاء ، واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل فى هـذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبنىّ على قوانين علم ونظر؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرّد رأيه » .

---

(١) قوله : أحد رواته . هو سهيل بن أبى حزم واسمه مهران ، ويقال : عبد الله .
(٢) جاء فى لسان العرب مادّة بوأ تفسيرا لهذا البيت : أى نزلت من الكرم فى صميم النسب .
(٣) قوله : فيتسور عليه . تسوّر الحائط، هجم مثل اللص . ويعنى به هنا التهجم والاقدام بغير بصيرة ولا تدبر .

قلت : هذا صحيح وهو الذى اختاره غير واحد من العلمـاء، فإن من قال فيه بما سـنح فى وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطئ ، و إن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ » وهذا فاسد، لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو: إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط، أو المراد به أمرا آخر. و باطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بمـا سمعه؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرءوا القرآن واختلفوا فى تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم دعا لابن عبّاس وقال : " اللّهمّ فقّهه فى الدينِ وَعلّمه التأويلَ ". فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك ! وهذا بيّن لا إشكال فيه؛ وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «النساء» إن شاء الله تعالى . و إنما النهى يحمل على أحد وجهين :

أحدهما — أن يكون له فى الشيء رأى، واليه ميل من طبعه وهواه؛ فيتأول القرآن على وَفْق رأيه وهواه، ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك، ولكن مقصوده أن يُلَبِّس على خصمه؛ وتارة يكون مع الجهـل ، وذلك اذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه الى الوجه الذى يوافق غرضه ، و يرجّح ذلك الجانب برأيه وهواه؛ فيكون قد فسّر برأيه، أىْ رأيُه حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لمـا كان يترجّح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ماأريد به، كمن يدعو الى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله تعـالى : « اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » ويشير الى قلبـه ، و يومئ الى أنه المراد بفرعون؛ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للستمع، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغـة ، وذلك غير جائز . وقـد تستعمله

الباطنيّة فى المقاصــد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم الى مذاهبهم الباطلة، فينزّلون القرآن على وَفْق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة . فهــذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى .

الوجه الثانى ــ أن يتسارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدّلة[1]، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير؛ فمن لم يُحْكِمْ ظاهر التفسير وبادر الى اسـتنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل فى زمرة من فسّر القرآن بالرأى؛ والنقلُ والسماعُ لا بدّ له منــه فى ظاهر التفسير أولا ليتّقى به مواضع الغلط ، ثم بعــد ذلك يتسع الفهم والاستنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ولا مطمع فى الوصول الى الباطن قبل إحكام الظاهر؛ ألا ترى أن قوله تعــالى : «وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَــا» معناه آيةً مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها؛ فالناظر الى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة، ولا يدرى بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار؛ وأمثال هذا فى القرآن كثير، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرّق النهى اليه . والله أعلم .

قال ابن عطية : «وكان جِلّةٌ من السلف الصالح كسعيد بن المسيب وعامر الشعبىّ وغيرهما يعظّمون تفسير القرآن و يتوقّفون عنه تورّعا واحتياطا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدّمهم» .

قال أبو بكر الأنبارىّ : وقد كان الأئمة من السلف المــاضى يتورّعون عن تفسير المُشْكِل من القرآن، فبعضٌ يقدّر أن الذى يفسره لا يوافق مراد الله عزّ وجلّ فيُحجم عن القول . و بعضٌ يُشفق من أن يُجعل فى التفسير إماما يبنى على مذهبه ويُقتفَى طريقه . فلعل متأخرا أن يفسر حرفا برأيه ويخطئ فيــه ويقول : إمامى فى تفسير القــرآن بالرأى فلان الإمام من السلف .

وعن ابن أبى مليكة قال : ســئل أبو بكر الصدّيق رضى الله عنــه فى تفسير حرف من القرآن فقال : أىّ سماء تُظِلّنى، وأىّ أرض تُقِلّنى ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! اذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

(١) هكذا فى كل النسخ التى بأيدينا .

قال ابن عطية «وكان جِلَّةٌ (١) من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن وهم أبقوا على المسلمين فى ذلك رضى الله عنهم؛ فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرّد فيه للأمر وكمله، وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما، والمحفوظ عنه فى ذلك أكثر من المحفوظ عن علىّ» . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فعن علىّ بن أبى طالب . وكان علىّ رضى الله عنه يثنى على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه، وكان ابن مسعود يقول : نِعم تَرْجُمَان القرآن عبد الله بن عباس . وقال عنه علىّ رضى الله عنه : ابن عباس كأنما ينظر الى الغيب من سِتْر رقيق . ويتلوه عبد الله ابن مسعود وأُبَىّ بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص . وكل ما أُخذ عن الصحابة فحسن مقدَّمٌ لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم . وعن عامر بن واثلة قال : شهدت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يخطب فسمعته يقول فى خطبته : سلونى، فوالله لا تسألونى عن شىء يكون الى يوم القيامة إلا حدّثتكم به، سلونى عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبِلَيْل نزلت أم بنهار، أم فى سهل نزلت أم فى جبل؛ فقام اليه ابن الكوّاء (٢) فقال : يا أمير المؤمنين، ما الذاريات ذَرْوًا ؟ وذكر الحديث . وعن المنهال بن عمرو قال قال عبد الله ابن مسعود : لو أعلمُ أحدا أعلمَ بكتاب الله منى تبلُغه المطىُّ لأتيته؛ فقال له رجل : أما لقيت علىّ بن أبى طالب ؟ فقال : بلى، قد لقيته . وعن مسروق قال : وجدت أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلم مثل الإخاذ يُرْوِى الواحد والإخاذ يُرْوِى الإثنين، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصْدرهم، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ (٣) . ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنبارىّ فى كتاب الرّد، وقال : الإخاذ عند العرب : الموضع الذى يحبس الماء كالغدير . قال أبو بكر حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدّثنا سلام عن

---

(١) من قولهم : أبقيت على فلان اذا أشفقت عليه ورحمته .

(٢) اسمه عبد الله بن أبى أوفى اليشكرى كما فى تاريخ الطبرى فى عدة مواضع .

(٣) قوله : من تلك الآخاذ . يعنى أن فيهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم .

زيد العمي[1] عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أرحم أمتي بها أبو بكر وأقواهم في دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علي وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل أبي بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ابن جبل وأمين هـذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وأبو هريرة وِعاءٌ من العلم وسَلْمانُ بحرٌ من علم لا يدرك وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء — أو قال — : البطحاء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر" .

قال ابن عطية : «ومن المبرزين في التابعين الحسن البصري ومجاهد وسعيد بن جبير وعلقمة . قرأ مجاهـد على ابن عبـاس قراءة تَفَهُّم ووقوف عنـد كل آية ، ويتلوهم عكرمـة والضحاك وإن كان لم يلق ابن عباس ، وإنمـا أخذ عن ابن جبير ؛ وأما السـدي فكان عامر الشعبي يطعن عليه وعلى أبي صالح[2] لأنه كان يراهما مقصرين في النظر » .

قلت : وقال يحيى بن معين : الكلبي ليس بشيء . وعن يحيى بن سعيد القطان عن سفيان قال قال الكلبي : قال أبو صالح : كل ما حدثتك كذب . وقال حبيب بن أبي ثابت : كنا نسميه الدَّرَوَغ زَنْ — يعني أبا صالح مولى أم هانىء — والدَّرَوَغ زَنْ : هو الكذاب بلغة الفرس . ثم حمل تفسيرَ كتابِ الله تعالى عدولُ كلِّ خلَف ، كما قال صلى الله عليه وسلم : "يحمل هـذا العلم من كل خلف عدولُه ينفون عنـه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجـاهلين" . خرّجه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علي البغدادي : وهـذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسـلم بأنهم أعلام الدين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة

(١) جاء في حاشية بهامش الأصل : أنه سمي زيد العمي لأنه كان ينادي من رآه ياعم . وجاء في تهذيب التهذيب عند الكلام على اسم زيد المذكور : أنه زيد بن الحواري أبو الحواري العمي ، وهو مولى زياد بن أبيه . ولقب بذلك لأنه كان اذ سئل عن الشيء يقول : حتى أسأل عمي .

(٢) اسمه باذام ، ويقال : باذان ، بمعجمة بين ألفين ، يروى عن علي وابن عباس ومولاته أم هانئ كما في تهذيب التهذيب .

من التحريف، والانتحال للباطل، وردّ تأويل الأبله الجاهل، وأنه يجب الرجوع اليهم، والمعوّل فى أمر الدّين عليهم، رضى الله عنهم .

قال ٱبن عطية : « وألّف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضّل وعلىّ بن أبى طلحة والبخارى وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير — رحمه الله — جمع على الناس أشتات التفسير، وقرّب البعيد منها وشفى فى الإسناد . ومن المبرّزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو علىّ الفارسىّ؛ وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما ٱستدرك الناس عليهما . وعلى سَنَنهما مكىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وأبو العباس المهدوىّ متقن التأليف، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله، ونضر وجوههم » .

باب تبيين الكتاب بالسُّنّة وما جاء فى ذلك

قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » . وقال تعالى : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وقال تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وفرض طاعته فى غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عن وجل، وقال تعالى: « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . ذكر ٱبن عبد البر فى كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد : أنه رأى مُحرِما عليه ثيابه فنهى المحرم؛ فقال : ائتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى؛ قال : فقرأ عليه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . وعن هشام بن حُجَير قال : كان طاوس يصلى ركعتين بعد العصر، فقال ٱبن عباس : اتركهما؛ فقال : إنما نهى عنهما أن تُتّخذا سنة؛ فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن صلاة بعد العصر، فلا أدرى أتُعذّب عليهما أم تؤجر، لأن الله تعالى قال : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » . و[redacted]بو داود عن المِقدام بن معديكرب عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : " ألا وإنى [redacted] أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه

ألا لا يحل لكم الحمار الأهليّ ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قِراه " .

قال الخطابى : قوله "أتيت الكتاب ومثله معه" يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما — أن معناه أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو ، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو . والثانى — أنه أوتى الكتاب وحيًا يتلى ، وأوتى من البيان مثله ، أى أذن له أن يبيّن ما فى الكتاب فيعمّ ويخص ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب ، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن . وقوله : " يوشك رجل شبعان " الحديث . يحذر بهذا القول من مخالفة السنن التى سنّها مما ليس له فى القرآن ذكر على ما ذهبت اليه الخوارج والروافض ، فانهم تعلّقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد ضمنت بيان الكتاب ؛ قال : فتحيّروا وضلوا ؛ قال والأريكة : السرير ، ويقال : إنه لا يسمى أريكة حتى يكون فى حَجَلة(1) ، قال : وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترّفه والدّعة الذين لزموا البيوت لم يطلبوا العلم من مظانّه . وقوله : " إلا أن يستغنى عنها صاحبها " معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها استغناء عنها ؛ كقوله : « فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ » معناه تركهم الله استغناء عنهم . وقوله : "فله أن يعقبهم بمثل قراه » هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه ، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قِراه عوض ما حرموه من قِراه . و«يعقبهم» يروى مشدّدا ومخففا من المعاقبة ، ومنه قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ » أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم ، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قراه . قال : وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث الى أن يعرض على الكتاب ، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان حجة بنفسه ؛ قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فان وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فاتركوه » فانه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلّى الله عليه وسلّم على ضربين : بيان لمجمل فى الكتاب ، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى

(1) الحجلة : مثل القبة .

تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج، قال صلّى الله عليه وسلّم إذ حج بالناس : "خذوا عني مناسككم" . وقال : "صلوا كما رأيتموني أصلي" . أخرجه البخاري . وروى ابن المبارك عن عمران بن حُصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظُّهر في كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة! ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد في كتاب الله تعالى مفسرا! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السنة تفسر هذا .

وروى الأوزاعي عن حسان بن عطيــة قال : كان الوحي ينزل على رســول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك . وروى سعيد بن منصور : حدثنا عيسى ابن يونس عن الأوزاعي عن مكحول قال : القرآن أحوج الى السنة من السنة الى القرآن . وبه عن الأوزاعي قال : قال يحيى بن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاض على السنة . قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله — يعني أحمــد بن حنبل — وسئل عن هذا الحديث الذي روى أن السنة قاضية على الكتاب فقال: ما أجسُر على هذا أن أقوله، ولكني أقول : إن السنة تفسر الكتاب وتبيّنه .

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحُمُــر الأهلية وكل ذي ناب من السباع، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وما جاء أنه سُهّل على من تقدّم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبيّ : أن رســول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها الى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : كنا اذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها . وفي موطإ مالك : أنه بلغه أن عبد الله

ابن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها. وذكر أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمّى[1] « أسماء من روى عن مالك » : عن مرداس بن محمد بن بلال الأشعرى قال : حدّثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال: تعلّم عمر البقرة فى اثنتى عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورا . وذكر أبو بكر الأنبارىّ : حدّثنى محمد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا عبيد الله بن موسى عن زياد بن أبى مسلم أبى عمرو عن زياد بن مخراق قال قال عبد الله بن مسعود : إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن ، وسهل علينا العمل به ، وإن مَن بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به .

حدّثنا ابراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا الفضل بن دُكين حدّثنا اسماعيل ابن ابراهيم بن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن ابن عمر قال : كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن؛ وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبىّ والأعمى ولا يرزقون العمل به. حدّثنى حسن بن عبد الوهاب أبو محمد بن أبى العنبر حدّثنا أبو بكر بن حماد المقرئ قال : سمعت خلف بن هشام البزار يقول : ما أظن القرآن إلا عارية فى أيدينا، وذلك أنا روينا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة فى بضع عشرة سنة، فلما حفظها نحر جزورا شكرا لله؛ وإن الغلام فى دهرنا هذا يجلس بين يدىّ فيقرأ ثلث القرآن لا يسقط منه حرفا ، فما أحسب القرآن إلا عارية فى أيدينا . وقال أهل العلم بالحديث : لا ينبغى لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكَتْبه، دون معرفته وفهمه؛ فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل، وليكن تحفظه للحديث على التدريج قليلا قليلا مع الليالى والأيام. وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وابن عُلَيّة ومعمر، قال معمر: سمعت الزهرىّ يقول : من طلب العلم جملة فاته جملة، وإنما يُدرَك العلم حديثا وحديثين، والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا . قال ابن عبد البر : وروى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم

(١) فى الأصول : « المسمى فى ذكر أسماء ... الخ » .

مثل قول معاذ من رواية عبّاد بن عبد الصمد، وفيه زيادة : أن العلماء همتهم الدراية، وأن السفهاء همتهم الرواية . وروى موقوفا وهو أولى من رواية من رواه مرفوعا ؛ وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يحتج به . ولقد أحسن القائل في نظمه في فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسنة الغرّاء :

إن العلوم وإن جلّت محاسنها * فتاجها ما به الإيمان قد وجبا
هو الكتاب العزيز الله يحفظه * وبعد ذلك عِلْمٌ فرّج الكُرَبا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه * نور النبوّة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هذا علوم لا انتهاء لها * فاختر لنفسك يا من آثر الطلبا
والعلم كنز تجده في معادنه * يأيها الطالب ابحث وانظر الكتبا
واتل بفهم كتاب الله فيه أتت * كل العلوم تدبّره تر العجبا
واقرأ هديت حديث المصطفى وسل * مولاك ما تشتهي يقضي لك الأربا
من ذاق طعما لعلم الدّين سرّ به * إذا تزيّد منه قال واطربا

باب معنى قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسّر منه"

روى مسلم عن أبيّ بن كعب : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة[1] بني غفار ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمّتك القرآن على حرف؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تُطيق ذلك" . ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك

(١) الأضاة (كحصاة) غدير صغير . وقيل : هو مسيل الماء إلى الغدير وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وغفار : قبيلة من كنانة .

أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيمـا حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذىّ عنه قال : لقى رسول الله صلّى الله عليه وسـلم جبريل فقال : " يا جبريل إنى بعثت إلى أمة أميـة منهم العجوز والشيخ الكبير والغـلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتابا قط فقال لى يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف" . قال : هذا حديث صحيح . وثبت فى الأمهات : البخارى ومسلم والموطإ وأبى داود والنسائى وغيرها من المصنفات والمسندات قصة عمـر مع هشام بن حكيم، وسيأتى بكماله فى آخر الباب مبينا إن شاء الله تعالى .

وقد اختلف العلمـاء فى المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد بن حِبّان البستىّ، نذكر منها فى هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأوّل — وهو الذى عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب والطبرى والطحاوى وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو أقبل وتعال وهَلُمّ . قال الطحاوى : وأبين ما ذكر فى ذلك حديث أبى بكرة قال : جاء جبريل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ على حرف؛ فقال ميكائيل : استزده؛ فقال : اقرأ على حرفين؛ فقال ميكائيل : استزده ، حتى بلغ الى سبعة أحرف ، فقال : اقرأ فكلٌّ شاف كاف إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمـة ؛ على نحو هلم وتعال وأقبـل واذهب وأسرع وعجِّل . وروى ورقاء عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب أنه كان يقرأ : « لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱنْظُرُونَا » للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخرونا، للذين آمنوا ارقبونا . وبهذا الاسناد عن أبىّ أنه كان يقرأ : « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ » مرّوا فيه ، سعوا فيه . وفى البخارىّ ومسلم قال الزهرى : إنما هذه الأحرف فى الأمر الواحد ليس يختلف فى حلال ولا حرام .

قال الطحاوى : إنمـا كانت السَّعة للنـاس فى الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهـم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ؛ فلمـا كان يشق على كل ذى لغة أن يتحوّل الى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشـقة عظيمة ، فوُسِّـع لهم

فى اختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا ، فكانوا كذلك حتى كثر منهـم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسـلّم ، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه ، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها . قال ابن عبد البر : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنمـا كان فى وقت خاص لضرورة دعت الى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

روى أبو داود عن أبىّ قال : قال لى رســول الله صلّى الله عليه وسـلّم : " يا أبىّ إنى أقرئت القرآن فقيل لى على حرف أو حرفين فقال المَلَك الذى معى قل على حرفين فقيل لى على حرفين أو ثلاثة فقال الملك الذى معى قل على ثلاثة حتى بلغ سـبعة أحرف ثم قال ليس منهـا إلا شاف كاف إن قلت سميعا عليما عزيزا حكيما ما لم تخلط آية عذاب برحمـة أو آية رحمـة بعذاب " . وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه . قال القاضى ابن الطيب (١) : واذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أبىّ — حمل على أن هـذا كان مطلقا ثم نسخ ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا اسمًا لله تعالى فى موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف .

القول الثـانى — قال قوم : هى سبع لغات فى القرآن على لغات العـرب كلها : يَمَنِها ونِزارها ، لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يجهل شيئا منها ، وكان قد أوتى جوامع الكلم ؛ وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد ســبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضـه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضـه بلغة اليمن . قال الخطـابى : على أن فى القرآن ما قد قرئ بســبعة أوجه ، وهو قوله : « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » . وقوله : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ » وذكر وجوها ، كأنه يذهب الى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله . والى هذا القول بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، على سبع لغات ، ذهب أبو عبيد القاسم بن سلّام واختاره ابن عطية ؛ قال أبو عبيد : وبعض الأحياء

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلانى .

أسعد بها وأكثر حظا فيهـا من بعض ، وذكر حديث ابن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصـاحف : ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فانه نزل بلغتهـم . ذكره البخارى وذكر حديث ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكعبين : كعب قريش وكعب خزاعة . قيـل : وكيف ذلك ؟ قال : لان الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضى ابن الطيب رضى الله عنه : معنى قول عثمان : فإنه نزل بلسان قريش ، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف هى خلاف لغة قريش ، وقد قال الله تعـالى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا » ولم يقل قرشيا ، وهـذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عدنان دون قحطان ، أو ربيعة دون مضر ، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ابن عبد البر : قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عنـدى فى الأغلب والله أعلم ، لأن غير لغة قريش موجودة فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز . وقال ابن عطية : معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : " أنزل القرآن على سبعة أحرف " أى فيه عبارة سبع قبائل ، بلغة جملتها نزل القرآن ؛ فيعبّر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش ، ومرة بعبارة هـذيل ، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز فى اللفظ ؛ ألا ترى أن « فطر » معناه عند غير قريش «ابتدأ» فجاءت فى القرآن فلم تتجه لابن عباس ، حتى اختصم اليه أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ؛ قال ابن عباس : ففهمت حينئذ موقع قوله تعـالى : « فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » . وقال أيضـا : ما كنت أدرى معنى قوله تعـالى : « رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » . حتى سمعت بنت ذِى يَزَنٍ تقول لزوجها : تعال أفاتحك ، أى أحاكمك . وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعـالى : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » أى على تنقص لهم . وكذلك اتفق لقُطْبة بن مالك إذ

سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقرأ في الصلاة : « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ » ذكره مسلم في باب (القراءة في صلاة الفجر) الى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هذه اللغات السبع إنما تكون في مضر، قاله قوم، واحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مضر، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهذيل، ومنها لتيم، ومنها لضَبّة، ومنها لقيس؛ قالوا: هذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب؛ وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها من مضر، وقالوا : في مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها، مثل كشكشة قيس وتمتمة تميم؛ فأما كشكشة قيس فانهم يجعلون كاف المؤنث شينا، فيقولون في « جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » . جعل ربش تحتش سريا؛ وأما تمتمة تميم فيقولون في الناس : النات، وفي أكياس : أكيات ، قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا و إبدال حروف الحلق بعضها من بعض فشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجلّة ، واحتجوا بقراءة ابن مسعود : ليسجننه عَتّى حين ، ذكرها أبو داود؛ و بقول ذي الرُّمّة :

فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدُها * ولَوْنُكِ إلا عَنّها غيرُ طائلِ

يريد إلا أنها .

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء، وحكى نحوه القاضي ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعا : منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته، مثل : « هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » وأطهرَ، « وَيَضِيقُ صَدْرِي » و يضيقَ؛ ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب ، مثل : « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » وباعدَ؛ ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله : « نُنْشِزُهَا » وننشرها؛ ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه : « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » وكالصوف المنفوش ؛ ومنها ما تتغير

صورته ومعناه ، مثـل : « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » وطلع منضود؛ ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وجاءت الحق بالموت؛ ومنها بالزيادة والنقصان ، مثل قوله : تسع وتسعون نعجة أنثى ، وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين ، وقوله : فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معانى كتاب الله تعالى ، وهى أمرٌ ونهىٌ ووعدٌ ووعيدٌ وقصصٌ ومجادلةٌ وأمثالٌ . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالاجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال ولا فى تغيير شى من المعـانى . وذكر القاضى ابن الطيب فى هذا المعنى حديثا عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ثم قال : ولكن ليست هذه هى التى أجاز لهم القراءة بها ، وإنمـا الحرف فى هذه بمعنى الجهة والطريقة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » فكذلك معنى هـذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليـه السلام : "أنزل القرآن على سبعة أحرف" . القراءات السبع التى قرأ بها القرّاء السبعة ، لأنها كلها صحت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وهذا ليس بشىء لظهور بطلانه على ما يأتى .

(فصـــل) قال كثير من علمائنا كالداوُدِى وابن أبى صُفرة وغيرهما : هذه القراءات السـبع التى تنسب لهؤلاء القرّاء السـبعة ليست هى الأحرف السـبعة التى اتّسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره ؛ وهذه القراءات المشهورة هى اختيارات أولئك الأئمة القرّاء ، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم وجهــه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعُرف به ونسب إليه ، فقيل : حرف نافع ، وحرف ابن كثير ، ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوّغه وجوّزه ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر وكلٌّ صحيح . وقد أجمع المسلمون فى هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا

فى ذلك مصنفات، فاستمر الإجماع على الصواب، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب؛ وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضي أبي بكر بن الطيب والطبري وغيرهما. قال ابن عطية: ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلّى لأنها ثبتت بالإجماع؛ وأما شاذ القراءات فلا يصلّى به لأنه لم يجمع الناس عليه، أما أن المرويّ منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا تعتقد فيهم إلا أنهم رووه، وأما ما يؤثر عن أبي السمّال[1] ومن قارنه فإنه لا يوثق به. قال غيره: أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن، ولا يعمل بها على أنها منه، وأحسنُ محاملها أن تكون بيانَ تأويل مذهب من نسبت اليه كقراءة ابن مسعود: فصيام ثلاثة أيام متتابعات. فأما لو صرح الراوى بسماعها من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاختلف العلماء فى العمل بذلك على قولين: النفى والاثبات؛ وجه النفى أن الراوى لم يروه فى معرض الخبر بل فى معرض القرآن، ولم يثبت فلا يثبت. والوجه الثانى أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد.

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام

قال ابن عطية: أباح الله تعالى لنبيّه عليه السلام هذه الحروف السبعة وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الاعجاز وجودة الرصف، ولم تقع الإباحة فى قوله عليه السلام: "فاقرءوا ما تيسر منه" بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدّل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرّضا أن يبدّل هذا وهذا حتى يكون غير الذى نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليوسع بها على أمته، فأقرأ مرّة لأبيّ بما عارضه به جبريل، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضا؛ وعلى هذا تجيء قراءة عمر بن الخطاب لسورة «الفرقان»، وقراءة

---

(١) أبو السمال (بفتح السين وتشديد الميم وباللام): هو قعنب بن أبي قعنب العدوى البصرى، له اختيار فى القراءات شاذ عن العامة. وقد ذكر فى الطبعة الأولى فى هذا الموضع وفى ص ٣٦٨ محرّفا، والتصويب عن طبقات القـــراء.

هشام بن حَكيم لهـا ، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبيّ صلّى الله عليــه وسلّم فى كل قراءة منهما وقد اختلفتا : " هكذا أقرأنى جبريل " هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهذه ومرة بهذه، وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : « إنّ ناشئة الليل هى أشدّ وطأ وأصوب قِيلا » فقيل له : إنمـا نقرأ « وأقوم قِيلا » . فقال أنس : وأصوب قيلا، وأقوم قيلا وأهيأ، واحد؛ فانمـا معنى هذا أنها مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإلا فلوكان هـذا لأحد من الناس أن يضعه ليطل معنى قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَـا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حَكيم يقرأ سورة « الفرقان » على غير ماأقرؤها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أَقْرَأَنِيها، فكِدتُ أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لَبَّبْتُه[1] بردائه، فجئت به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقلت : يارسول الله، إنى سمعت هذا يقرأ سورة « الفرقان » على غير ماأقرأتنيها ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " أرسله[2] ، اقرأ " فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " هكذا أنزلت " ثم قال لى : " اقرأ " فقرأت فقال : " هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه " .

قلت : وفى معنى حديث عمر هـذا ، ما رواه مسـلم عن أبىّ بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصـلّى، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سِوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقرأ سِوى قراءة صاحبه، فأمرهما النبيّ صلى الله عليه وسلم فقرأا ، فحسّن النبيّ صلّى الله عليــه وسلّم شأنهما؛ فسُقِط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنتُ فى الجاهلية، فلمـا رأى النبىّ صلّى الله عليــه وسلّم ماقد غشينى، ضرب فى صـدرى ففِضتُ عَرَقًا ، وكأنما أنظر الى الله تعالى فَرَقًا، فقال : " يا أبىّ أُرسلَ الىّ أنِ اقرأ القرآن على حرف فرددت اليه أن هوّن على أمّتى فردّ الىّ الثانية اقرأه على حرفين فرددت اليه أن هوّن على أمّتى

(١) قوله : لببته بردائه . أى جمعت ثيابه عند صدره ونحره ثم جررته . (٢) أرسل الشيء : أطلقه وأهمله .

فردّ إلىّ الثالثــة آقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردّة رددتُكها مسألة تسألُنيها فقلت اللّهمّ آغفر لأمتى اللهم آغفر لأمتى وأخرت الثالثــة ليوم يرغبُ إلىّ فيــه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام " .

قول أُبىّ رضى الله عنه : « فسقط فى نفسى » معناه اعترتنى حَيرة ودهشة، أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوّش عليه حاله، ويكدّر عليه وقته؛ فانه عظُم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه؛ وإلا فأىّ شيء يلزم من المحال والتكذيب من اختــلاف القراءات، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النسخ الذى هو أعظم، فكيف بالقراءة !

ولمــا رأى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ما أصابه من ذلك الخاطر نبّهه بأن ضربه فى صدره، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتنوّر باطنه، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة؛ ولمــا ظهر له قبح ذلك الخاطر خاف من الله تعــالى وفاض بالعرق استحياء من الله تعــالى، فكان هــذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبىّ صلى الله عليه وســلم — حين سألوه : إنا نجد فى أنفسنا مايتعاظَمُ أحدُنا أن يتكلّم به — قال : " وقد وجدتموه " قالوا : نعم؛ قال : " ذلك صريح الإيمــان " . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وســيأتى الكلام عليــه فى سورة « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

باب ذكرِ جمع القرآن وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقِه ماسواها وذكرِ من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبىّ صــلّى الله عليــه وســلّم

كان القرآن فى مدّة النبىّ صلى الله عليه وسلم متفرقًا فى صدور الرجال، وقد كتب الناس منه فى صحف وفى جريد وفى لِخاف وظُرَر وفى خزف وغير ذلك — قال الأصمعى : اللخاف : حجارة بيض رِقاق، واحدتها لخفة . والظرر : حجر له حدّ كحد السكين، والجمع ظِرار، مثل رُطَب ورطاب، ورُبَع ورباع، وظِرّان أيضا مثــل صُرَد وصردان — فلما استحرّ[1] القتل

(١) قوله : استحر، أى اشتد وكثر.

بالقراء يوم اليمامة فى زمن الصديق رضى الله عنه، وقُتل منهم فى ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة، أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القرّاء، كأبىّ وابن مسعود وزيد، فندبا زيد بن ثابت الى ذلك، فجمعه غير مرتب السور، بعد تعب شديد، رضى الله عنه؛ روى البخارىّ عن زيد بن ثابت قال: أرسل الىّ أبو بكر مقتلَ أهل اليمامة وعنــده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتانى فقال إن القتــل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس، وإنى أخشى أن يستحِرّ القتــل بالقرّاء فى المواطن، فيذهبَ كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإنى لأرى أن تجمــع القرآن؛ قال أبو بكر: فقلت لعمر كيف أفعــل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: هو والله خير؛ فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صــدرى، ورأيت الذى رأى عمر؛ قال زيد: وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال لى أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحى لرسول الله صــلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فأجمعه؛ فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن؛ قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صــدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر؛ فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرّقاع والأكتاف(1) والعُسُب(2) وصــدور الرجال، حتى وجدت من سورة «التوبة» آيتين مع خُزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» إلى آخرها. فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر. وقال الليث حدثنى عبد الرحمن بن غالب عن ابن شهاب وقال: مع أبى خزيمة الأنصارى. وقال أبو ثابت حدثنا ابراهيم وقال: مع خزيمة أو أبى خزيمة «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

(1) الأكتاف: جمع كتف وهو عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم.

(2) العسب: جمع عسيب وهو جريد النخل اذا نزع منه خوصه.

وقال الترمذى فى حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت « لقد جاءكم رسول مِن انفسِكم عزيز عليهِ ما عنِتم حرِيص عليكم بِالمؤمِنِين رءوف رحِيم . فإن تولوا فقل حسبِي الله لا إِله إِلا هو عليهِ توكلت وهو رب العرشِ العظِيم» . قال : حديث حسن صحيح.

وفى البخارى عن زيد بن ثابت قال : لمـا نسخنا الصحف فى المصاحف فقـدت آية من سورة «الأحزاب» كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد الا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله صـلى الله عليه وسـلم شهادته بشهادة رجلين « رِجَالٌ صَـدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْـهِ » . وقال الترمذى عنه : فقدت آية من سورة «الأحزاب» كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْـهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » فالتمستها فوجدتها عنـد خزيمة بن ثابت أو أبى خزيمة، فألحقتها فى سورتها .

قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر « براءة » فى الجمـع الأول، على ما قاله البخارى والترمذى ؛ وفى الجمع الثانى فقـدت آية من سـورة «الأحزاب» . وحكى الطبرى : أن آية «براءة» سقطت فى الجمـع الأخير، والأول أصح والله أعلم . فإن قيـل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه، وقد سبقه أبو بكر الى ذلك وفرغ منه؛ قيل له : إن عثمان رضى الله عنه لم يقصِد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف، ألا ترى كيف أرسل الى حفصة : أن أرسلى الينا بالصحف نَنْسَخُها فى المصاحف ثم نردها اليك ، على ما يأتى . وإنمـا فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا فى القراءات بسبب تفرق الصحابة فى البلدان واشتد الأمر فى ذلك، وعظم اختـلافهم وتشبثهم؛ ووقع بين أهـل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضى الله عنه، وذلك أنهم اجتمعوا فى غزوة أرْمِينِيَة فقرأت كل طائفة بمـا رُوِى لهـا ؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ؛ فأشفق حذيفة ممـا رأى منهم؛ فلما قدم حذيفة المدينة — فيما ذكر البخارىّ والترمذىّ — دخل الى عثمان قبل أن يدخل الى بيته ، فقال : أدرك هـذه الأمة قبل أن تَهلَك! قال : فيماذا ؟ قال : فى كتاب الله، إنى حضرت

هذه الغزوة، وجمعتُ ناسا من العراق والشام والحجاز؛ فوصف له ما تقدّم وقال : إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى .

قلت : وهــذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة، لأن الحق لايختلف فيه، وقد روى سُوَيد بن غَفَلة عن علىّ بن أبى طالب أن عثمان قال : ما ترون فى المصاحف ؟ فان النـاس قد اختلفوا فى القراءة حتى إن الرجل ليقول : قراءتى خير من قراءتك، وقراءتى أفضل من قراءتك . وهذا شبيه بالكفر؛ قلنـا : ما الرأى عندك يا أمير المؤمنين؟ قال : الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة، فانكم إذا اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشدّ اختلافا؛ قلنا : الرأى رأيك يا أمير المؤمنين ؛ فأرسل عثمان الى حفصة : أن أرسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها اليك؛ فأرسلت بها اليــه فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العـاصى وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف؛ وقال عثمان للرهط القرشـيين : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القـرآن فاكتبوه بلسانـــ قريش، فانما نزل بلسانهم؛ ففعلوا، حتى اذا نسـخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف الى حفصة، وأرســل الى كل أفق بمصحف ممـا نسخوا، وأمر بما سوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق؛ وكان هــذا من عثمان رضى الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجِلّة أهل الإسلام وشاورهم فى ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت فى القراءات المشهورة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم واطّراح ما سواها، واستصوبوا رأيه وكانـــ رأيا سـديدا موفقا رحمة الله عليه وعليهم أجمعين . وقال الطبرى فيما روى : إن عثمان قرن بزيد أبان بن سعيد بن العاصى وحده ؛ وهذا ضعيف . وما ذكره البخارى والترمذىّ وغيرهما أصح . وقال الطبرى أيضا : إن الصحف التى كانت عند حفصة جعلت إماما فى هذا الجمع الأخير، وهذا صحيح .

قال ابن شهاب : وأخبرنى عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسـخ المصاحف، وقال : يا معشر المسلمين ، أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل،

والله لقد أسلمت وإنه لفي صُلب رجل كافر! ـ يريد زيد بن ثابت ـ ولذلك قال عبد الله ابن مسعود: يا أهل العراق، اكتموا المصاحف التي عندكم وغلّوها، فإن الله عزّ وجلّ يقول: « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فالقوا الله بالمصاحف، خرّجه الترمذي. وسيأتي الكلام في هذا في سورة «آل عمران» إن شاء الله تعالى.

قال أبو بكر الأنباري: ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمان على عبد الله ابن مسعود في جمع القرآن، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم في الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كلّه، ورسول الله صلّى الله عليه وسلم حيّ، والذي حفظ منه عبد الله في حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نيّف وسبعون سورة، ثم تعلّم الباقي بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار. ولا ينبغي أن يظنّ جاهل أن في هذا طعنا على عبد الله بن مسعود، لأن زيدا اذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيرًا منهما ولا مساويًا لهما في الفضائل والمناقب. قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشيء تتجه الغضب، ولا يعمل به ولا يؤخذ به، ولا يشك في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم؛ فالشائع الذائع المتعالَم عند أهل الرواية والنقل: أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال بعض الأئمة: مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن. قال يزيد بن هارون: المعوذتان بمنزلة البقرة وآل عمران، من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم؛ فقيل له: فقول عبد الله بن مسعود فيهما؟ فقال: لا خلاف بين المسلمين في أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله.

قلت: هذا فيه نظر وسيأتي، وروى اسماعيل بن اسحاق وغيره قال حماد ـ أظنه عن أنس بن مالك، قال: كانوا يختلفون في الآية فيقولون أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم

فلان بن فلان ، فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيُرسَــل اليه فيُجاء به ، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آية كذا وكذا؟ فيكتبون كما قال . قال ابن شهاب : وآختلفوا يومئذ فى التـابوت ، فقال زيد : التـابوه ، وقال ابن الزبير وسـعيد بن العاصى : التـابوت ؛ فرفع آختلافهم الى عثمان فقال : اكتبوه بالتـاء ؛ فانه نزل بلسان قريش . أخرجه البخارىّ والترمذىّ . قال ابن عطية : قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء ، فأثبتوه بالتاء ؛ وكتبت المصاحف على ما هو عليـه غابر الدهر ، ونسخ منها عثمان نسخا . قال غيره : قيـل سبعة ، وقيل أربعة وهو الأكثر ، ووجّه بها الى الآفاق ، فوجّه للعراق والشام ومصر بأمّهات ، فاتخذها قراء الأمصار معتمد اختياراتهم ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذى بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه ، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى بعض إشعارا بأن كل ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال ابن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تُحرَق أو تُخرَّق ، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن ، ورواية الحاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرّد عن سُوَيد بن غَفَلة قال : سمعت علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه يقول : يامعشر الناس ، اتقوا الله ! وإيّاكم والغلوّ فى عثمان ، وقولكم : حرّاق المصاحف ؛ فوالله ما حرقها الا عن ملإٍ منا أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم . وعن عمير بن سعيد قال قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان . قال أبو الحسن بن بطّال : وفى أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى ، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام ، وطرحها فى ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف اذا اجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم . وحرق عروة ابن الزبير كتب فقـه كانت عنـده يوم الحرّة ، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف اذا كان فيها

ذ كر الله تعالى ، وقول من حرقها أولى بالصواب ، وقد فعله عثمان ؛ وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة : جائز للإمام تحريق الصحف التي فيها القرآن، اذا أدّاه الاجتهاد الى ذلك .

فصل — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وفي فعل عثمان رضي الله عنه ردٌّ على الحُلُولية(١) والحشوية القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الإيمان قديم، والروح قديم؛ وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كل ملحد وموحد أن القديم لا يفعل ولا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير محدَثا ، والمحدَث لا يصير قديما ، وأن القديم مالا أوّل لوجوده، وأن المحدث هو ما كان بعد أن لم يكن؛ وهذه الطائفة خرقت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم فقالوا: يجوز أن يصير المحدث قديما ، وأن العبد اذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما ، وكذلك اذا نحت حروفا من الآجُرّ والخشب، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة، أو نسج ثوبا فنقش عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما ، وصار كلامه منسوجا قديما ومنحوتا قديما ومصوغا قديما؛ فيقال لهم : ما تقولون في كلام الله تعالى ، أيجوز أن يذاب ويمحى ويحرق؟ فان قالوا : نعم، فارقوا الدّين، وإن قالوا : لا، قيل لهم : فما قولكم في حروف مصوّرة آية من كتاب الله تعالى من شمع، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت في النار فذابت واحترقت، فهل تقولون : إن كلام الله احترق؟ فان قالوا : نعم، تركوا قولهم؛ وإن قالوا : لا ، قيل لهم أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت ! وقلتم : إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت؛ فان قالوا : احترقت الحروف وكلامه تعالى باق، رجعوا الى الحق والصواب ودانوا بالجواب؛ وهو الذي قاله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، منبهاً على ما يقول أهل الحق : ولو كان القرآن في إهاب ثم وقع في النار ما احترق. وقال الله عزّ وجلّ: "أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان" الحديث، أخرجه مسلم . فثبت بهذا

(١) الحلولية : فرقة من المتصوّفة تقول : إن الله حال في كل شيء وفي كل جزء منه متحد به حتى جوزوا أن يطلق على كل شيء أنه الله . والحشوية : طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا الى التجسيم وغيره .

أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام فى هذه المسألة يطول، وتتميمها فى كتب الأصول، وقد بيناها فى (الكتاب الأسنى، فى شرح أسماء الله الحسنى) .

فصل — وقد طعن الرافضة — قبحهم الله تعالى — فى القرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفى فى نقل الآية والحرف كما فعلتم ، فانكم أثبتم بقول رجل واحد وهو خزيمة بن ثابت وحده آخر سورة «براءة» وقوله : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ » فالجواب أن خزيمة رضى الله عنه لما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة « التوبة » ولو لم يعرفهما لم يدر هل فَقَدَ شيئا أوْ لا ، فالآية إنما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده . جواب ثان — انما ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، فهى قرينة تغنى عن طلب شاهد آخر بخلاف آية «الاحزاب» فان تلك ثبتت بشهادة زيد وأبى خزيمة لسماعهما إياها من النبىّ صلّى الله عليه عليه وسلّم . قال معناه المهلب، وذكر أن خزيمة غير أبى خزيمة، وأن أبا خزيمة الذى وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثناه، والتى فى الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت فلا تعارض، والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ابن عبد البر : «أبو خزيمة لا يوقف على صحة اسمه وهو مشهور بكنيته، وهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أصرم بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد، وتوفّى فى خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس ، قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى وهو هذا ، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمة أبى خزيمة نسب إلا اجتماعهما فى الأنصار، أحدهما أوْسىّ والآخر خَزْرَجىّ » . وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال: جمع القرآنَ على عهد النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أربعة كلهم من الأنصار : أبىّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد . قلت لأنس : مَن أبو زيد؟ قال : أحد عمومتى . وفى البخارىّ أيضا عن أنس قال : مات النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل،

وزيد، وأبو زيد، [قال](١) : ونحن ورثناه . وفى أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك عقبا، وكان بدريا، واسم أبى زيد سعد بن عبيد . قال ابن الطيب رضى الله عنه : لا تدل هــذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه فى حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقــد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلىّ وتميم الدارى وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص . فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقينًا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غير تلك الجماعة، فان أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه عن غيره، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأجل سبقهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم .

قلت : لم يذكر القاضى، عبدَ الله بن مسعود وسالمـًا مولى أبى حذيفة رضى الله عنهما فيما رأيت ، وهما ممن جمع القرآن . روى جرير عن عبــد الله بن يزيد الصهبانى عن كُميل قال قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ومن شاء الله، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن هذا الذى يقرؤ القرآن" . فقيل له : هذا عبد الله ابن أم عبد، فقال : "إن عَبْد الله يقرؤ القرآن غَضًّا كما أنزل" الحديث . قال بعض العلمــاء : معنى قوله : " غضًّا كما أنزل " أى أنه كان يقرأ الحرف الأول الذى أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التى رخّص لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه فى كل رمضان . وقد روى وكيع وجماعة معه عن الأعمش عن أبى ظبيان قال : قال لى عبد الله بن عباس : أىّ القراءتين تقرأ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة ابن أم عبــد ؛ فقال لى : بل هى الآخرة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرّة، فلما كان العام الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وســلم عرضه عليه مرتين، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نُسخ من

(١) زيادة عن البخارى . وقوله : ونحن ورثناه . أى أبا زيد .

ذلك وما بُدِّل . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد — فبدأ به — ومعاذ بن جبل وأبىّ بن كعب وسالم مولى أبى حذيفة" .

قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدم ، والله أعلم . وقد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد : حدثنا محمد بن شهريار حدثنا حسين بن الأسود حدثنا يحيى بن آدم عن أبى بكر عن أبى إسحاق قال قال عبد الله بن مسعود : قرأت من فِى رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين وسبعين سورة ، وقرأت عليه من البقرة الى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » . قال أبو إسحاق : وتعلم عبد الله بقية القرآن من مُجَمِّع بن جارية الأنصارى .

قلت : فإن صح هذا ، صح الإجماع الذى ذكره يزيد بن هارون ، فلذلك لم يذكره القاضى أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه فى حياة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، والله أعلم .

قال أبو بكر الأنبارى : حدثنى ابراهيم بن موسى الخوزى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا مالك بن اسماعيل حدثنا زهير عن أبى اسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف؟ فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة ؛ قال وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوذتين ؛ فلهذه العلة لم توجدا فى مصحفه ، وقيل غير هذا على ما يأتى بيانه آخر الكتاب عند ذكر «المعوذتين» إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذى حدثناه ابراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عمر بن هارون الخراسانى عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القرظىّ قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ عثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود ، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعوّل عليه .

قلت : قوله عليه السلام: "خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد" . يدل على صحته، ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشأم والعراق كلٌّ منهم عزا قراءته التي اختارها الى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يستثن من جملة القرآن شيئا، فأسند عاصم قراءته الى عليّ وابن مسعود، وأسند ابن كثير قراءته الى أبيّ، وكذلك أبو عمرو بن العلاء أسند قراءته الى أبيّ، وأما عبد الله بن عامر فانه أسند قراءته الى عثمان ؛ وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات . قاله الخطابي .

باب ما جاء في ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال ابن الطيب : إن قال قائل : قد اختلف السلف فى ترتيب سور القرآن، فمنهم من كتب فى مصحفه السور على تاريخ نزولها، وقدّم المكيّ على المدنيّ، ومنهم من جعل فى أول مصحفه الحمد، ومنهم من جعل فى أوله : «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ»، وهذا أول مصحف عليّ رضى الله عنه؛ وأما مصحف ابن مسعود فان أوله : «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ثم البقرة ثم النساء على ترتيب مختلف ؛ ومصحف أبيّ كان أوله : الحمد لله، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة ثم كذلك على اختلاف شديد . قال القاضى أبو بكر بن الطيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هى عليه اليوم فى المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة . وذكر ذلك مكيّ رحمه الله فى تفسير سورة «براءة» وذكر أن ترتيب الآيات فى السور ووضع البسملة فى الأوائل هو من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولما لم يأمر بذلك فى أول سورة «براءة» تركت بلا بسملة، هذا أصح ما قيل فى ذلك وسيأتى .

وذكر ابن وهب فى جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قدّمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال ربيعة : قد قُدّمتا وأُلّف القرآن على علم ممن ألّفه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما

تنتهى اليه، ولا نسأل عنه . وقد ذكر سُنيد قال حدثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال قال ابن مسعود : من كان منكم متأسّيا فليتأسّ بأصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فانهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هَدْيًا، وأحسنها حالا؛ اختارهم الله لصحبة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم و إقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم فى آثارهم، فانهم كانوا على الهُدَى المستقيم . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأما ما روى من اختلاف مصحف أبيّ وعليّ وعبد الله فانما كان قبل العرض الأخير، وأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رتّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن ابن وهب قال سمعت مالكا يقول : إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وذكر أبو بكر الانبارى فى كتاب الردّ : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة الى سماء الدنيا، ثم فرّق على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر يسأل، و يوقف جبريل رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم على موضع السورة والآية؛ فاتّساق السور كاتّساق الآيات والحروف، فكله عن محمد خاتم النبيّين عليه السلام ، عن رب العالمين؛ فن أخر سورة مقدمة أو قدّم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات، وغيّر الحروف والكلمات، ولا حجة على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : "ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن" . وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات .

حدّثنا حسن بن الحباب حدّثنا أبو هشام حدّثنا أبو بكر بن عياش عن أبى إسحاق عن البراء قال : آخر ما نزل من القرآن : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » . قال أبو بكر بن عياش : وأخطأ أبو إسحاق، لأن محمد بن السائب حدّثنا عن أبى السائب عن ابن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ» . فقال جبريل للنبيّ عليهما السـلام : يا محمد ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقـــرة .

قال أبو الحسن بن بطّال : ومن قال بهـذا القول لا يقول إن تلاوة القرآن فى الصـلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقَّف عليه فى المصحف، بل إنما يجب تأليف سوره فى الرسم والخط خاصة، ولا يُعـلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب فى الصلاة وفى قراءة القرآن ودرسه ، وأنه لايحل لأحد أن يتلقّن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف، ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها للذى سألها : لا يضرك أيّة قرأت قبلُ ؛ وقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقرأ فى الصـلاة السورة فى ركعة، ثم يقرأ فى ركعة أخرى بغير السورة التى تليها، وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا، وقالا : ذلك منكوس القلب؛ فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ، ويبتدئ من آخرها الى أولهـا لأن ذلك حرام محظور ؛ ومن الناس من يتعاطى هذا فى القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك ويقدر على الحفظ ، وهذا حظّره الله تعالى ومنعه فى القرآن ، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لمـا قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته فى المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع فى السورة المكية، ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها : وما نزلت سـورة البقرة والنساء الا وأنا عنـده — تعنى بالمدينـة — وقد قدّمتا فى المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة ، ولو ألّفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات الســـو ر .

قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنا اسماعيل بن إسحاق القاضى حدّثنا حجاج بن منهال حدّثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمـائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والاحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق،

ويأيها النبي لم تحرّم إلى رأس العشر، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء السور نزلن بالمدينة؛ وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السور على منازلها بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة، لاختلاف الناس فى موضع نزولها، ويضطر إلى تأخير الآية التى فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به ، وردّ على محمد صلّى الله عليه وسلّم ما حكاه عن ربه تعالى. وقد قيل : إن علة تقديم المدنىّ على المكىّ هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها ، وما يعرف من أفانين خطابها ومحاورتها؛ فلما كان فنٌّ من كلامهم مبنيا على تقديم المؤخر وتأخير المقدم خوطبوا بهذا المعنى فى كتاب الله تعالى الذى لو فقدوه من القرآن لقالوا : ما باله عَرِى من هذا الباب الموجود فى كلامنا المستحْلَى من نظامنا . قال عَبِيد بن الأبرص :

أن بُدّلتْ منهمُ وحوشًا * وغيّرتْ حالَها الخطوبُ
عيناكَ دمعهما سَرُوب * كأنّ شَأنَيْهما شَعيب

أراد عيناك دمعهما سروب لأن تبدلت من أهلها وحوشًا ، فقدّم المؤخر وأخر المقدّم؛ ومعنى سروب : منصبّ على وجه الأرض . ومنه السارب، للذاهب على وجهه فى الأرض؛ قال الشاعر[1] :

* أنّى سَرَيتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقوله : شأنيهما، الشأن واحد الشؤون وهى مُواصِلُ قبائل الرأس وملتقاها ، ومنها يجئ الدمع . شعيب : متفرّق .

(١) هو قيس بن الخطيم . وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

وفى اللسان مادة «سرب» : «قال ابن برى : رواه بن دريد «سربت» بباء موحدة لقوله : وكنت غير سروب . ومن رواه سريت بالياء باثنتين فمعناه : كيف سريت ليلا، وأنت لاتسربين نهارا» .

فصل — وأما شكل المصحف ونقطه فروى أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله، فتجرّد لذلك الحجاج بواسط وجدّ فيه وزاد تحزيبه، وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك، وألّف إثر ذلك بواسط كتابا فى القراءات جمع فيه ما روى من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه فى القراءات .

وأسند الزبيدى فى كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى؛ وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيي بن يعمر .

فصل — وأما وضع الأعشار فقال ابن عطية : مرّ بى فى بعض التواريخ أن المأمون العباسى أمر بذلك، وقيل: إن الحجاج فعل ذلك . وذكر أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له عن عبد الله بن مسعود أنه كره التعشير فى المصحف، وأنه كان يَحُكُّه . وعن مجاهد أنه كره التعشير والطِّيب فى المصحف . وقال أشهب : سمعت مالكا وسئل عن العشور التى تكون فى الصحف بالحمرة وغيرها من الألوان، فكره ذلك وقال : تعشير المصحف بالحبر لا بأس به؛ وسئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السور فى كل سورة ما فيها من آية، قال : إنى أكره ذلك فى أمهات المصاحف أن يكتب فيها شيء أو يشكل، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا . قال أشهب : ثم أخرج إلينا مصحفا لجده، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة فى طول السطر، ورأيته معجوم الآى بالحبر . وقال قتادة : بدءوا فنقطوا ثم خمّسوا ثم عشّروا . وقال يحيي بن أبى كثير : كان القرآن مجرّدا فى المصاحف، فأوّل ما أحدثوا فيه النُّقَط على الباء والتاء والثاء، وقالوا : لا بأس به، هو نور له، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآى، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم . وعن أبى حمزة قال : رأى إبراهيم النخعيّ فى مصحفى فاتحة سورة كذا وكذا، فقال لى : امحه فان عبد الله بن مسعود قال : لا تخلطوا فى كتاب الله ما ليس فيه . وعن أبى بكر السراج قال قلت لأبى رزين : أأكتب فى مصحفى سورة كذا وكذا؟ قال : إنى أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن .

قال الدّانى رضى الله عنه : وهــذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشـير والتخميس وفواتح السور و رءوس الآى من عمل الصحابة رضى الله عنهم، قادهم إلى عمله الاجتهاد؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمــل بالألوان كالحمرة والصفرة وغيرهما؛ على أن المسلمين فى سائر الآفاق قــد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله فى الأمهات وغيرها ، والحرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

فصل — وأما عدد حروفه وأحزابه فروى سلام أبو محمد الِحمّانى أن الحجاج بن يوسف جمع القرّاء والحفّاظ والكُتّاب، فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو؟ . قال : وكنت فيهم ، فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا؛ قال: فأخبرونى الى أىّ حرف ينتهى نصف القرآن؟ فاذا هو فى الكهف «وَلْيَتَلَطَّفْ» فى الفــاء ؛ قال : فأخبرونى بأثلاثه، فاذا الثلث الأوّل رأس مائة من براءة، والثلث الثانى رأس مائة وإحدى من طسم الشعراء، والثلث الثالث ما بقى من القرآن؛ قال: فأخبرونى بأسباعه على الحروف، فاذا أوّل سبع فى النساء « فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ» فى الدال، والسبع الثانى فى الأعراف « أُولَئِكَ حَبِطَتْ » فى التــاء ، والسبع الثالث فى الرعد « أُكُلُهَا دَائِمٌ » فى الألف من آخر أكلها ، والسبع الرابع فى الحج « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » فى الألف، والسـبع الخامس فى الأحزاب « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » فى الهــاء، والسبع السادس فى الفتح « الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ » فى الواو، والسبع السابع ما بقى من القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملناه فى أربعة أشهر، وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربعا ، فأوّل ربعه خاتمة الأنعام . والربع الثانى فى الكهف « وليتلطف » ، والربع الثالث خاتمة الزُّمَر، والربع الرابع ما بقى من القرآن؛ وفى هذه الجملة خلاف مذكور فى كتاب البيان لأبى عمرو الدانى، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

فصل — وأما عدد آى القرآن فى المدنىّ الأوّل، فقــال محمد بن عيسى : جميع عدد آى القرآن فى المدنى الأوّل سـتة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العــدد الذى رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة، ولم يسمعوا فى ذلك أحدا بعينه يسندونه اليه .

وأما المدنيّ الأخير فهو فى قول إسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل : عدد آى القرآن فى قول المكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد بن عيسى : وجميع عدد آى القرآن فى قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات، وهو العدد الذى رواه مسلم والكسائىّ عن حمزة، وأسنده الكسائى الى علىّ رضى الله عنه . قال محمد : وجميع عدد آى القرآن فى عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات، وهو العدد الذى مضى عليه سلفهم حتى الآن؛ وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الذّمارى : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون، فى رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون، نقص آية . قال ابن ذكوان : فظننت أن يحيى لم يعدّ «بسم الله الرحمن الرحيم» . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التى يتداولها الناس تأليفا، ويعدّون بها فى سائر الآفاق قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن فى قول عطاء بن يسار : سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا .

قلت : هذا يخالف ما تقدم عن الحمانى قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصينا من القرآن، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحمانى من عد حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والحرف

معنى السورة فى كلام العرب الإبانة لها من سورة أخرى وانفصالها عنها، وسميت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة الى منزلة . قال النابغة :

ألم تر أنّ الله أعطاك سُورةً * ترى كلّ مَلْك دونها يتذبذبُ

أى منزلة شرف ارتفعت اليها عن منزل الملوك . وقيل : سميت بذلك لشرفها وارتفاعها كما يقال لما ارتفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على مالم يكن

عنده، كسور البناء ؛ كله بغير همز . وقيل : سميت بذلك لأنها قطعت من القرآن على حِدَة، من قول العرب للبقية : سؤر ، وجاء فى أسآر الناس أى بقاياهم، فعلى هــذا يكون الأصــل سؤرة بالهمزة ثم خففت فأبدلت واوا لانضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمــامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة : سُورة، وجمع سورة سور بفتح الواو . وقال الشاعر (١) :

* سُودُ المحاجرِ لا يَقرأن بالسُّوَرِ *

ويجوز أن يجمع على سُورات وسُوَرات .

وأما الآية فهى العلامة، بمعنى أنها علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعــدها وانفصاله، أى هى بائنــة من أختها ومنفردة، وتقــول العرب : بينى و بين فــلان آية، أى علامة؛ ومن ذلك قوله تعالى : « إنَّ آيَةَ مُلْكِهِ » . وقال النابغة :

توهّمت آياتٍ لها فعرفتُهــا * لســتة أعوام وذا العــامُ سابعُ

وقيل : سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منــه، كما يقال : خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم . قال بُرج بن مُسْهِر الطائى :

خَرجنا من النَّقبين لا حَىَّ مثلُنا * بآياتنا نُزجى اللِّقــاحَ المَطافِلا

وقيــل : سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . واختلف النحويون فى أصــل آية، فقال سيبويه : أَيَيَة على فَعَلَة مثل أكمة وشجرة، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائى : أصلها آيِيَــة على وزن فاعلة مثــل آمنة فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتباسها بالجمع . وقال الفرّاء : أصلها أَيّية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآيات . وأنشد أبو زيد :

لم يُبق هذا الدهر من آيائه * غيرَ أثافيــهِ وأرمِــدائِه

---

(١) هو الراعى . وصدر البيت : * هن الحرائر لا ربات أحمرة *

وأما الكلمة فهى الصورة القائمة بجميع ما يختلط بها من الشبهات[(١)] أى الحروف، وأطول الكلم فى كتاب الله عزّ وجلّ ما بلغ عشرة أحرف ، نحو قوله تعالى : « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ » . و « أَنُلْزِمُكُمُوهَا » وشبههما، فأما قوله : « فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ » فهو عشرة أحرف فى الرسم[(٢)] وأحد عشر فى اللفظ، وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله، وما أشبه ذلك . ومن حروف المعانى ما هو على كلمة واحدة ، مثل همزة الاستفهام وواو العطف، إلا أنه لاينطق به مفردا . وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى : « وَالْفَجْرِ » . «وَالضُّحَى». «وَالْعَصْرِ» . وكذلك «الٓمٓ» . و «الٓمٓصٓ» . و «طه» . و «يسٓ» . و «حمٓ» فى قول الكوفيين، وذلك فى فواتح السور، فأما فى حشوهن فلا . قال أبو عمرو الدانى: ولا أعلم كلمة هى وحدها آية إلا قوله فى الرحمن : « مُدْهَامَّتَانِ » لا غير، وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان، وذلك فى قوله : « حمٓ عٓسٓقٓ » على قول الكوفيين لا غير ، وقد تكون الكلمة فى غير هذا : الآية التامة، والكلام القائم بنفسه ، و إن كان أكثر أو أقل، قال الله عزّ وجلّ : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا » قيل: إنما يعنى بالكلمة هاهنا قوله تبارك وتعالى : «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ» الى آخر الآيتين، وقال عزّ وجلّ « وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى » . قال مجاهد : لا إله إلا الله . وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" . وقد تسمى العرب القصيدة بأسرها، والقصة كلها، كلمة فيقولون: قال قُسٌّ فى كلمته كذا، أى فى خطبته، وقال زُهير فى كلمته كذا، أى فى قصيدته، وقال فلان فى كلمته يعنى فى رسالته ؛ فتسمى جملة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منها ، على عادتهم فى تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قاربه وجاوره، وكان بسبب منه، مجازا واتساعا .

وأما الحرف فهو الشبهة القائمة وحدها من الكلمة، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بيناه من الاتساع والمجاز — قال أبو عمرو الدانى : فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من

(١) لم أر هذا التعبير لغير المؤلف ؛ وقد سبق التعبير به فى ص ١٠٦ من هذا الجزء .

(٢) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى فى الرسم فقط .

حروف الهجاء فى الفواتح على حرف واحد نحو «ص» و «ق» و «ن» حرفا أو كلمة؟ قلت : كلمة لا حرفا ، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليــه ، ولا ينفرد وحده فى الصورة ، ولا ينفصل ممـا يختلط به ؛ وهــذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصــلة كانفراد الكلم وانفصالها، فلذلك سميت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف فى غير هذا ، المذهبَ والوجهَ، قال الله عزّ وجلّ : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » أى على وجه ومذهب، ومن ذلك قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : ” أنزل القرآن على سبعة أحرف“ أى سبعة أوجه من اللغات، والله أعلم .

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس فى القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب ، وأن فيه أسماء أعلامًا لمن لسانه غير لسان العرب : كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط .

واختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب، فذهب القاضى أبو بكر ابن الطيب والطبرىّ وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه، وأن القرآن عربىّ صريح، وما وجد فيه من الالفاظ التى تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تخرج القرآن عن كونه عربيًّا مبينًا، ولا رسولَ الله عن كونه متكلما بلسان قومه ؛ فالمشكاة : الكوة . ونشأ : قام من الليل، ومنه « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ » و « يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ » أى ضعفين . و « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أى الأسد؛ كله بلسان الحبشة . والغساق : البارد المنتن بلسان الترك . والقسطاس : الميزان بلغة الروم . والسِّجيل : الحجارة والطين بلسان الفرس . والطّودُ الجبل . واليَمّ : البحر بالسريانية . والتَّنُّور : وجه الأرض بالعجمية .

قال ابن عطية : «فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعرّبتها فهى عربية بهــذا الوجه . وقد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانهــا بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، و برحلتى قريش، وكسفر مُسافر بن أبى عمرو إلى الشام،

وكسفر عمر بن الخطـاب وكسفر عمرو بن العاصي وعمارة بن الوليـد إلى أرض الحبشـة ، وكسفر الأعشى إلى الحِيرَة، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة فى اللغة؛ فعَلِقت العرب بهذا كله ألفاظـا أعجمية غيّرت بعضها بالنقص من حروفها وجرت إلى تخفيف ثقـل العجمة ، واستعملتها فى أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربى الصحيح، ووقع بها البيان؛ وعلى هذا الحدّ نزل بها القرآن. فان جهلها عربىٌّ مّا فكجهله الصريح بما فى لغة غيره ، كما لم يعرف ابن عباس معنى «فاطر» إلى غير ذلك . قال ابن عطيـة : وما ذهب اليه الطبرى رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا فى لفظة لفظة فذلك بعيد؛ بل إحداهما أصل والأخرى فرع فى الأكثر(١)، لأنا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذا » .

قال غيره : والأول أصح . وقوله : هى أصل فى كلام غيرهم دخيلة فى كلامهم، ليس بأولى من العكس، فان العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أوْ لا، فان كان الأول فهى من كلامهم إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة .

فان قيل : ليست هـذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه . قلنا : ومَن سلّم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؛ فقد بحث القاضى عن أصول أوزان كلام العرب وردّ هـذه الأسماء اليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بمـا لا يعرفون وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا، ولا يكون مخاطبا لقومه بلسانهم، والله أعلم .

باب ذكر نكت فى إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم ، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها ، وشرائطها خمسـة ، فان اختل منهـا شرط لا تكون معجـــزة .

(١) فى الأصول : «والأخرى فرع، لا أنا ندفع ... الخ» . والزيادة والتصويب عن تفسير ابن عطية .

فالشرط الأول من شروطها أن تكون ممـا لا يقدر عليها إلا الله سبحانه . وإنمـا وجب حصول هـذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت فى زمان يصح فيه مجئ الرسـل وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذى ادّعاه معجزة له ، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله ، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر، وانشـقاق القمر ، وما شاكلها مما لا يقدر عليه البشر .

والشرط الثـانى هو أن تخرق العادة . وانمـا وجب اشـتراط ذلك لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آيتى مجئ الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها؛ لم يكن فيما ادعاه معجزة ، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله ، فلم تفعل من أجله ، وقد كانت قبل دعواه على ما هى عليــه فى حين دعواه ، ودعواه فى دلالتها على نبوّته كدعوى غيره ؛ فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه ، والذى يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه ، وذلك أن يقول : الدليل على صدق أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواى عليــه الرسالة ، فيقلب هذه العصا ثعبانا ، ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة ، أو ينبع المـاء من بين أصابعى كما ينبعه من العين ، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات ، التى ينفرد بها جبار الأرض والسموات ؛ فتقوم له هـذه العلامات مقام قول الرب سـبحانه ، لو أسمعنا كلامه العـزيز وقال : صدق، أنا بعثته؛ ومثال هـذه المسألة — ولله ولرسوله المثل الأعلى — ما لو كانت جمـاعة بحضرة ملك من ملوك الأرض ، وقال أحد رجاله وهو بمرأى منه والملك يسـمعه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا ، ودليل ذلك أن الملك يصدّقنى بفعل من أفعاله ، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديق ؛ فاذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ، ثم عمل ما استشهد به على صدقه ، قام ذلك مقام قوله لو قال : صدق فيما ادعاه علىّ ؛ فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليــه إلا هو ، وخرق به العادة على يدى الرسول ، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعـالى لو أسمعناه.وقال : صـدق عبدى فى دعوى الرسالة ، وأنا أرسـلته اليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدّعى الرسالة على الله عزّ وجلّ ؛ فيقول : آيتى أن يقلب الله سبحانه هذا المـاء زيتا أو يحرّك الأرض عنـد قولى لهـا : تزلزلى ؛ فاذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدّى به .

الشرط الرابع هو أن تقع على وَفق دعوى المتحدى بها المستشهد بكونها معجزة له ، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آية نبوّتى ودليل حجتى أن تنطق يدى أو هـذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت : كذب وليس هو نبىّ ، فان هـذا الكلام الذى خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدّعى للرسالة ، لأن ما فعـله الله لم يقع على وَفق دعواه ؛ وكذلك ما يروى أن مسـيلمة الكذاب لعنه الله تفل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من المـاء ، فما فعل الله سبحانه من هـذا ، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه ، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثـل ما أتى به المتحدّى على وجه المعارضة ، فان تم الأمر المتحدّى به المستشهد به على النبوّة على هذا الشرط مع الشروط المتقدّمة، فهى معجزة دالة على نبوّة من ظهـرت على يده، فان أقام الله تعالى من يعارضـه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيًّا ، وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه ، ولهـذا قال المولى سبحانه : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » وقال : « أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُـوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » . كأنه يقول : إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسـلم وعمله فاعملوا عشر سور من جنس نظمه، فاذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال : إن المعجزات المقيدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدى الصادقين، وهذا المسيخ الدّجال فيما رويتم عن نبيّكم صلّى الله عليه وسـلّم يظهر على يديه من الآيات العظام ، والأمور الجسام، ما هو معروف مشهور؛ فإنا نقول: ذلك يدّعى الرسالة، وهذا يدّعى الربوبيّة وبينهما من الفرقان ما بين البصراء والعميان، وقد قام الدليل العقلى على أن بعثة بعض الخلق

إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة ، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيخ الدّجال فيه التصوير والتغيير من حال الى حال ، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدَثات ، تعالى ربّ البريات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه شيء ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هـذا فاعلم أن المعجزات على ضربين : الأولى — ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . والثانى — ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله ، واستفاضت بثبوته ووجوده ، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة ؛ ومن شرطه أن يكون الناقلون له خَلقا كثيرا وجَمًّا غفيرا ، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا ، وأن يستوى فى النقل أولهم وآخرهم ووسطهم فى كثرة العدد ، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب ؛ وهذه صفة نقل القرآن ، ونقل وجود النبيّ عليه الصلاة والسلام ، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خَلَفا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبيّ عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة ، وصدقه بالأدلة المعجزات ؛ والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عزّ وجلّ ، فنَقَلَ القرآن فى الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان ، ونقله الينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه ، لكثرة العدد ، ولذلك وقع لنا العلم الضرورىّ بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلّى الله عليه وسلّم ، ومن ظهور القرآن على يديه وتحدّيه به ؛ ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل اليه من وجود البلدان : كالبصرة والشام والعراق وخُراسان والمدينة ومكة ، وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة ؛ فالقرآن معجزة نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم الباقية بعده الى يوم القيامة ، ومعجزة كل نبيّ انقرضت بانقراضه ، أو دخلها التبديل والتغيير ، كالتوراة والإنجيل .

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة :

منهـا : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسـان العرب وفى غيرها، لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شيء، وكذلك قال رب العزة الذى تولى نظمه : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وفى صحيح مسلم أن أُنيسا أخا أبى ذرّ قال لأبى ذر : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله؛ قلت : فما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر، كاهن، ساحر؛ وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر، والله إنه لصادق و إنهم لكاذبون . وكذلك أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسـحر ولا شـعر لـما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَمۤ » فُصِّلت ، على ما يأتى بيانه هنالك؛ فاذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان فى هـذا القول مقرا بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه .

ومنها : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك فى سورة « قۤ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » إلى آخرها، وقوله سبحانه : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه : «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ» إلى آخر السورة. قال ابن الحصار: فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق ، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح فى خطاب غيره؛ ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» ، ولا أن يقول : «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » .

قال ابن الحصار : وهـذه الثلاثة من النظم ، والأسلوب ، والجزالة ، لازمة كل سورة، بل هى لازمة كل آية ؛ وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدّى والتعجيز، ومع هـذا فكل سـورة تنفرد بهـذه الثلاثة، من غير أن ينضاف اليها أمر آخر من الوجوه العشرة ؛ فهذه سـورة « الكوثر» ثلاث آيات قصار، وهى أقصر سـورة فى القرآن ، وقد تضمنت الإخبار عن مغيبين : أحدهما — الإخبار عن

الكوثر وعظمته وسعته وكثرة أوانيه ، وذلك يدل على أن المصدّقين به أكثر من اتباع سائر الرسل . والثانى — الإخبار عن الوليد بن المغيرة ، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد ، على ما يقتضيه قوله الحق : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » ثم أهلك الله — سبحانه — ماله وولده ، وانقطع نسله .

ومنها : التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى ؛ حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التى تقدمت فى أول الدنيا الى وقت نزوله من أمىّ ما كان يتلو من قبله من كتاب ، ولا يخطه بيمينه ؛ فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية فى دهرها ؛ وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه ، وتحدّوه به من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر عليهما السلام ، وحال ذى القرنين ؛ بخاءهم — وهو أمىّ من أمة أمّية ، ليس لها بذلك علم — بما عرفوا من الكتب السالفة صحته ؛ فتحققوا صدقه .

قال القاضى ابن الطيب : — ونحن نعلم ضرورة — أن هذا مما لا سبيل اليه إلا عن تعلم ؛ وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار ، وحملة الأخبار ، ولا مترددا إلى المتعلم منهم ، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه ؛ عَلِم أنه لا يصل الى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحى .

ومنها : الوفاء بالوعد ، المدرك بالحس فى العيان ، فى كل ما وعد الله سبحانه ؛ وينقسم : الى أخباره المطلقة ، كوعده بنصر رسوله عليه السلام ، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه . والى وعد مقيد بشرط ، كقوله : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ » « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا » و « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ » ، وشبه ذلك .

ومنها : الإخبار عن المغيبات فى المستقبل التى لا يطلع عليها إلا بالوحى ؛ فمن ذلك : ما وعد الله نبيّه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ » الآية . ففعل ذلك ؛ وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله فى إظهار دينه ، ليثقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنُّجْح ، وكان عمر يفعل ذلك؛ فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا، برا وبحرا، قال الله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » وقال : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » . وقال : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » وقال : « الم . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ » فهـذه كلها أخبار عن الغيوب التى لا يقف عليها إلا رب العالمين، أو من أوقفه عليها رب العالمين، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام ، فى الحلال والحرام ، وفى سائر الأحكام .

ومنها : الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمىّ .

ومنها : التناسب فى جميع ما تضمنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف، قال الله تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النَّظّام وبعض القَدَرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته، والصَّرْفَةُ عند التحدّى بمثله ؛ وأن المنع والصرفة هو المعجزة دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، وهـذا فاسد ، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز؛ فلو قلنا إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا، وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك عُلِم أن نفس القرآن هو المُعْجز ، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ، إذ لم يوجد قطّ كلامٌ على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم ، دلّ على أن المنع والصرفة لم يكن معجزا . واختلف من قال بهذه الصرفة

على قولين : أحدهما — أنهم صُرفوا عن القدرة عليه؛ ولو تعرّضوا له لعجزوا عنه . الثاني — أنهم صرِفوا عن التعرّض له مع كونه فى مقدورهم؛ ولو تعرّضوا له لجاز أن يقدِروا عليه .

قال ابن عطية : «وجه التحدّى فى القرآن إنما هو بنظمه وصحةِ معانيه، وتوالى فصاحةِ ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شىء عِلما، وأحاط بالكلام كله عِلما، فعلم بإحاطته أىّ لفظة تصلح أن تلى الأولى، وتبيّن المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أوّل القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أنّ بَشرا لم يكن محيطا قطّ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة . وبهذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صُرِفوا عن ذلك، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط فى قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر فى أن الفصيح منهم، يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل، وكتاب الله تعالى لو نُزِعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد» .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلّ ذكره، ذكر فى آية واحدة أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين وهو قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » الآية . وكذلك فاتحة سورة المائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عاما، ثم آستثنى آستثناء بعد آستثناء، ثم أخبر عن حِكمته وقدرته، وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وأنبأ سبحانه عن الموت، وحسرةِ الفوت، والدارِ الآخرة وثوابِها وعقابِها، وفوز الفائزين، وتردّى المجرمين، والتحذير من الاغترار بالدنيا، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » الآية . وأنبأ أيضا عن قصص الأوّلين والآخرين ومآل المترفين، وعواقب المهلكين، فى شطر آية وذلك فى قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ

مَنْ أَغْرَقْنَا » . وأنبأ جلّ وعزّ عن أمر السفينة وإجرائها وإهلاك الكفرة، وآستقرار السفينة وآستوائها، وتوجيه أوامر التسخير الى الأرض والسماء بقوله عزّ وجلّ : «وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » إلى قوله : « وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إلى غير ذلك .

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله وقالت : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تقوّله، أنزل الله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » . ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال : « أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » . فلما عجزوا حطّهم عن هـذا المقدار، إلى مثل سورة من السور القصار، فقال جلّ ذكره : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ » . فأُفحموا عن الجواب، وتقطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد، وآثروا سَبْيَ الحريم والأولاد، ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيرا، وأبلغ في الحجة وأشدّ تأثيرا . هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللَّحَن (١)، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللَّسَن (٢) .

فبلاغة القرآن أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان، بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة إلى حيّز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أُوتي من جوامع الكلم، وآختص به من غرائب الحكم، إذا تأمّلت قوله صلّى الله عليه وسلّم في صفة الجنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وجدته منحطا عن رتبـة القرآن، وذلك في قوله عليه السلام : "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" فأين ذلك من قوله عزّ وجلّ « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » . وقوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . هـذا أعدل وزنا، وأحسن تركيبا، وأعذب لفظا، وأقل حروفا، على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة أو أطول آية، لأن الكلام كلما طال اتسع فيـه مجال المتصرف، وضاق المقال على القاصر المتكلف، وبهذا قامت الحجة على العرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء، ومعجزة موسى

(١) اللحن (بالتحريك) : الفطنة والفقه . (٢) اللسن بالتحريك : الفصاحة .

عليه السلام على السحرة ؛ فإن الله سبحانه إنمـا جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون فى زمان النبيّ الذى أراد إظهاره ؛ فكان السـحر فى زمان موسى عليـه السلام قد انتهى الى غايته، وكذلك الطب فى زمن عيسى عليـه السلام ، والفصاحة فى زمن محمد صلّى الله عليه وسلّم .

باب التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سور القرآن وغيره

لا آلتفات لمـا وضعه الواضعون، وآختلقه المختلقون، من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة، فى فضـل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال، قد آرتكبها جمـاعة كثيرة، اختلفت أغراضهم ومقاصدهم فى ارتكابها ؛ فمن قوم من الزنادقة مثـل : المغيرة بن سـعيد الكوفى، ومحمـد بن سـعيد الشامى المصلوب فى الزندقة ، وغيرهما، وضعوا أحاديث وحدّثوا بها ليوقعوا بذلك الشك فى قلوب الناس ؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك فى قوله صلى الله عليه وسلم : "أنا خاتم الأنبياء لا نبيّ بعدى إلا ما شاء الله"، فزاد هذا الاستثناء لمـا كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة .

قلت : وقد ذكره آبن عبد البر فى كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه ؛ بل تأوّل الاستثناء على الرؤيا ؛ فالله أعلم .

ومنهم قوم وضعوا الحديث لهوًى يدعون الناس إليه ؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب : إن هذه الأحاديث دين، فانظروا ممن تأخذون دينكم ، فإنا كنا إذا هَوِينا أمرا صيرناه حديثا .

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حِسبة كما زعموا، يدعون النـاس الى فضائل الأعمال، كما روى عن أبى عِصمة نوح بن أبى مريم المروزىّ، ومحمد بن عكاشـة الكِرمانى، وأحمـد بن عبدالله الجُوَيبارى، وغيرهم . قيل لأبى عصمة : من أين لك عن عِكرمة عن ابن عباس فى فضل سور القرآن سورة سورة ؟ فقال : إنى رأيت النـاس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومَغَازى محمد بن اسحاق ؛ فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن

الصلاح فى كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذى يروى عن أبىّ بن كعب عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى فضل القرآن سورة سورة؛ وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى الى من اعترف بأنه و جماعة وضعوه، و إن أثر الوضع عليه لبيّن. وقد أخطأ الواحدىّ المفسر ومن ذكره من المفسرين فى إيداعه تفاسيرهم .

ومنهم قوم من السؤال والمكدين يقفون فى الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد؛ قال جعفر بن محمد الطيالسى : صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فى مسجد الرّصافة، فقام بين أيديهما قاص فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله يخلق من كل كلمة منها طائر منقاره من ذهب و ريشه مرجان؛ وأخذ فى قصة نحو من عشرين ورقة؛ فجعل أحمد ينظر الى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد؛ فقال : أنت حدثته بهذا؟ فقال : والله ماسمعت به إلا هذه الساعة؛ قال : فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين؛ فقال أنا ابن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان ولا بدّ من الكذب فعلى غيرنا؛ فقال له : أنت يحيى بن معين؟ قال : نعم، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وماعلمته إلا هذه الساعة؛ فقال له يحيى : وكيف علمت أنى أحمق؟ قال : كأنه ليس فى الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا . قال : فوضع أحمد كمّه على وجهه وقال : دعه يقوم؛ فقام كالمستهزئ بهما؛ فهؤلاء الطوائف كذبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن يجرى مجراهم . يذكر أن الرشيد كان يعجبه الحمام واللهو به؛ فأهدى إليه حمام وعنده أبو البَخْتَرِى (١)

(١) أبو البخترى، هو وهب بن وهب بن وهب بن كثير . انتقل من المدينة الى بغداد فى خلافة هارون الرشيد فولاه القضاء بعسكر المهدى (المحلة المعروفة بالرصافة بالجانب الشرقى من بغداد) ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بكار الزبيرى وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها الى أن توفى سنة مائتين .

القاضى فقال : روى أبو هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا سَبَق إلا فى خُفّ أو حافر أو جناح" فزاد : أو جناح، وهى لفظة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سنية ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب، وأمر بالحمام أن يذبح؛ فقيل له : وماذنب الحمام؟ قال : من أجله كُذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فترك العلماء حديثه لذلك، وغيره من موضوعاته، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو اقتصر الناس على ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التى تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم فى ذلك غنية، وخرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال : "اتقوا الحديث عنّى إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار" الحديث . فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب، دليل على أنه كان يعلم أنه سيكذب عليه . فحذار مما وضعه أعداء الدين، وزنادقة المسلمين ، فى باب الترغيب والترهيب وغير ذلك ؛ وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد، وضعوا الحديث حِسبة فيما زعموا، فتقبل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركونا إليهم، فضلّوا وأضلّوا .

باب ما جاء من الحجة فى الرد على من طعن فى القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة ولا بين الأئمة أهل السنة ، أن القرآن اسم لكلام الله تعالى الذى جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم معجزة له — على نحو ما تقدّم — وأنه محفوظ فى الصدور ، مقروء بالألسنة ، مكتوب فى المصاحف ؛ معلومة على الاضطرار سوره وآياته ، مبرأة من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته ؛ فلا يحتاج فى تعريفه بحدّ، ولا فى حصره بعدّ، فمن ادّعى زيادة عليه أو نقصانا منه، فقد أبطل الإجماع، وبهت الناس، وردّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن المنزّل عليه، وردّ قوله تعالى : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » وأبطل آية رسوله

عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه، حين شِيب بالباطل، ولمّا قدر عليــه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزا .

فالقائل بأن القرآن فيــه زيادة ونقصان رادّ لكتاب الله ولمـا جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوّج تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان ، الى غير ذلك ممـا لم يثبت فى الدين ، فإذا ردّ هذا بالإجماع، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب .

قال الإمام أبو بكر محمــد بن القاسم بن بشار بن محمــد الأنبارى : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلوّ منزلته، ما يوجبــه الحق والانصاف والديانة، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين، حتى نبع فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة، وهجم على الأمة بمـا يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أُسّها، وينمى فرعها، ويحرسها من معايب أولى الحيف والجور، ومكايد أهل العدواة والكفر .

فزعم أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صــلى الله عليه وســلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن ، إذ كان قــد سقط منه خمسمائة حرف، قــد قرأت ببعضها وسأقرأ ببقيتها، فمنها : «والعصر ونوائب الدهر» فقــد سقط من القرآن على جمــاعة المسلمين «ونوائب الدهر» ومنها : «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها» ، فادعى هــذا الإنسان أنه سقط على أهل الإســلام من القرآن : « وما كان الله ليهلكها الا بذنوب أهلها » ، وذكر ممـا يدعى حروفا كثيرة .

وادعى أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا فى القرآن ما ليس فيه ، فقرأ فى صــلاة الفرض والنــاس يسمعون : « الله الواحد الصمد » فأسقط من القرآن «قل هو» وغير لفظ

«أحد» وادعى أن هــذا هو الصواب والذى عليه الناس هو الباطل والمحال، وقرأ فى صلاة الفرض : «قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون» وطعن فى قراءة المسلمين .

وادعى أن المصحف الذى فى أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيرة ، منها : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُـمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » فادعى أن الحكمة والعزة لا يشاكلان المغفرة، وان الصواب : «وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم» . وترامى به الغىّ فى هذا وأشكاله حتى ادّعى أن المسلمين يصحّفون : « وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً » والصواب الذى لم يغيّر عنده : « وكان عبدًا لله وجيها » ، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه : « لا تحرّك به لسانك إن علينا جمعــه وقراءته فإذا قرأناه فاتّبع قراءته ثم إن علينا نبأ به» ، وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ : «ولقد نصركم الله ببدر بسيف علىّ وأنتم أذلة» ، و روى هؤلاء أيضا لنا عنه قال : « هــذا صراط علىّ مستقيم» ، وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل فى لســان قومه الذين قال الله عزّ وجلّ فيهــم : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » فقرأ : «أليس قلت للناس» فى موضــع : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » وهــذا لا يعرف فى نحو المعربين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين؛ لأن العرب لم تقل : ليس قمت، فأما : لست قمت ، بالتاء فشاذ قبيح خبيث ردىء؛ لأن ليس لا تجحد الفعل المــاضى، ولم يوجد مثــل هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم، وهو لغة شاذة لا يحمل كتاب الله عليها .

وادعى أن عثمان رضى الله عنه لمــا أســند جمع القرآن الى زيد بن ثابت لم يُصب لأن عبد الله بن مسعود وأبىّ بن كعب كانا أولى بذلك من زيد لقول النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : " أقرأ أمتى أبىّ بن كعب" ولقوله عليه الســلام : "من سره أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أم عبــد" . وقال هــذا القائل : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء ، فقرأ : « إنّ هذين » ، « فأصدق وأكون » ، «وبشر عبادىَ الذين» بفتح الياء ، « فما أتانىَ الله » بفتح الياء . والذى فى المصحف : « إِنَّ هَـذَانِ » بالألف،

« فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ » بغير واو ، « فَبَشِّرْ عِبَادِ » ، « فَمَا آتَانِ اللَّهُ » بغير ياءين فى الموضـعين . وكما خالف ابن كثير ونافع وحمزة والكسائى مصحف عثمان فقرءوا : « كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ » بإثبات نونين، يفتح الثانية بعضهم و يسكنها بعضهم، وفى المصحف نون واحدة(١)؛ وكما خالف حمـزة المصحف فقرأ : « أتمدونِ بمال » بنونٍ واحدة ووقف على الياء ، وفى المصحف نونان ولا ياء بعدهما ؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : «ألا إن ثمودَا كفروا ربهم » بغير تنوين، و إثبات الألف يوجب التنوين ؛ وكل هـذا الذى شنّع به على القراء ما يلزمهم به خلافٌ للمصحف .

قلت : قد أشرنا الى العـدّ فيما تقدّم ممـا اختلف فيه المصاحف، وسيأتى بيان هـذه المواضع فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أبىّ بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل؛ لأن عبـد الله بن كثير قرأ على مجاهد، ومجاهد قرأ على ابن عباس ، وابن عباس قرأ القرآن على أبىّ بن كعب « حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » ، فى رواية وقرأ أبىّ القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ وهذا الإسناد متصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العـدالة والصّيانة، و إذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر لم يؤخذ بحديث يخالفه؛ وقال يحيى بن المبـارك اليزيدى : قرأت القرآن على أبى عمرو بن العـلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد ، وقرأ مجاهـد على ابن عباس ، وقرأ ابن عباس على أبىّ بن كعب، وقرأ أبىّ على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، وليس فيها «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيّه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم .

حدّثنى أبى نبأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يُروَى من الحروف التى تخالف المصحف الذى عليـه الإجماع من الحروف التى يعرف أسانيدَها الخاصةُ دون العامة فيما نقلوا فيـه عن أبىّ : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها »؛ وعن ابن عباس «ليس

(١) يلاحظ أن الذى فى المصحف نونان .

عليكم جناح أن تبتغوا فضـلا من ربكم فى مواسم الحج» ؛ ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : « غير المغضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصـلاة بها تحل، ولا على أنها معارض بها مصحف عثمان ؛ لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا ؛ والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا ، حكمه حكم المرتد يستتاب ؛ فان تاب و إلا ضربت عنقه . وقال أبو عبيد : لم يزل صنيع عثمان رضى الله عنه فى جمعه القرآن يُعتدّ له بأنه من مناقبه العظام ؛ وقد طعن عليه فيه بعض أهل الزّيْغ فانكشف عواره ، ووضحت فضائحه ؛ قال أبو عبيد : وقد حدثت عن يزيد بن زُرَيع عن عمران بن جرير عن أبى مِجْلَز قال : طعن قوم على عثمان رحمـه الله — بحمقهم — جمع القرآن، ثم قرءوا بما نُسخ. قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز الى أن عثمان أسقط الذى أسقط بعلم كما أثبت الذى أثبت بعلم . قال أبو بكر وفى قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَـا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » دلالة على كفر هذا الانسان ؛ لأن الله عزّ وجلّ قـد حفظ القرآن من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقصان ؛ فاذا قرأ قارئ : «تبت يدى أبى لهب وقد تب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومُرَيّته حمالة الحطب فى جيدها حبل من ليف» فقد كذب على الله جلّ وعلا وقوّله مالم يقل ، وبدّل كتابه وحرّفه ، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من اختلاطه به ؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد ، ليُدخلوا فى القرآن ما يحلّون به عُرا الإسلام ، وينسُبونه الى قوم كهؤلاء القوم الذين أحال هذا بالأباطيل عليهم ؛ وفيـه إبطال الإجماع الذى به يحرس الإسـلام ، وبثباته تقام الصلوات ، وتؤدّى الزكوات وتُتحرى المتعبدات . وفى قول الله تعالى : « الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » دلالة على بدعة هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر ، لأن معنى «أحكمت آياته» : منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها ، أو ينقصوا منها أو يعارضوها بمثلها ، وقد وجدنا هذا الإنسان زاد فيها : وكفى الله المؤمنين القتال بعلىّ وكان الله قويا عزيزا . فقال فى القرآن هُجراً ، وذكر عليـا فى مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحدّ ، وحكم عليه بالقتل . وأسقط من كلام الله

«قل هو» وغير «أحد» فقرأ : الله الواحد الصمد . وإســقاط ما أســقطه نفى له وكفر، ومن كفر بحرف من القرآن فقــد كفر به كله وأبطل معنى الآية؛ لأن أهــل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لمـا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صف لنـا ربك ، أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفْر ؟ فقال الله جلّ وعزّ ردّا عليهم : « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ » ففى «هو» دلالة على موضع الردّ ومكان الجواب؛ فاذا سقط بطل معنى الآية، ووضح الافتراء على الله عزّ وجلّ، والتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ويقال لهذا الإنسان ومن ينتحل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذى تقرؤه ولا نعرف نحن ولامَنْ كان قبلنـا من أسلافنا سواه؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوّله الى آخره، صحيح الألفـاظ والمعانى عارٍ من الفساد والخلل ؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أســلافنا والمتقدمين من أهل ملتنا؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لايسقط منه شيء، صحيح اللفظ والمعانى، سليمها من كل زلل وخلل؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه «فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غِسْلِين من عين تجرى من تحت الجحيم» فأى زيادة فى القرآن أوضح من هذه، وكيف يخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مفتر ومبطل من أن يلحق به مثلها ، وإذا تُؤمِّلتْ وبُحث عن معناها وُجدت فاســدة غير صحيحة، لا تشاكل كلام البارئ تعالى ولا تختلط به، ولا توافق معناه، وذلك أن بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» فكيف يؤكل الشراب، والذى أتى به قبلهـا ، «فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلامن غسلين من عين تجرى من تحت الجحيم لا يأكله إلاالخاطئون» فهذا متناقض يفسد بعضه بعضا؛ لأن الشراب لا يؤكل، ولا تقول العرب : أكلت المـاء؛ لكنهم يقولون : شربتــه وذقته وطعمته؛ ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة فى القرآن الذى من خالف حرفا منــه كفر : « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ » لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون . والغسلين : ما يخرج من أفواههم من الشحم وما يتعلق به من الصديد وغيره ؛ فهــذا طعام يؤكل عند البلية والنقمة ، والشراب محال أن

يؤكل؛ فإن ادّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذى زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» ونفى هـذه الآية من القرآن لِتَصح له زيادته، فقد كفر لما جحد آية من القرآن . وحسبك بهذا كله ردّا لقوله، وخزيا لمقاله . وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير لا أن ذلك قرآن يتلى، وكذلك ما نسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن على ما يأتى بيانه عند قوله تعالى : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ » إن شاء الله تعالى .

القول فى الاســتعاذة

وفيها اثنتا عشرة مسئلة :

الأولى — أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أوّل كل قراءة فقال تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ » أى إذا أردت أن تقرأ؛ فأوقع الماضى موقع المستقبل كما قال الشاعر :

وإنى لآتيكم لذكرى الذى مضى * من الودّ واستئناف ما كان فى غدِ

أراد ما يكون فى غد؛ وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، وأن كل فعلين تقاربا فى المعنى جاز تقديم أيهما شئت، كما قال تعالى: « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » المعنى فتدلى ثم دنا؛ ومثله : « ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ » وهو كثير .

الثانيـــة — هـذا الأمر على الندب فى قول الجمهور ، وحكى النقاش عن عطاء : أن الاستعاذة واجبة فى صدور كل قراءة فى غير الصلاة ، واختلفوا فيـه فى الصلاة ، وكان ابن سيرين والنَّخَعِىّ وقوم يتعوّذون فى الصلاة فى كل ركعة ، ويمتثلون أمر الله فى الاستعاذة على العموم؛ وأبو حنيفة والشافعىّ يتعوّذان فى الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة؛ ومالك لا يرى التعوّذ فى الصلاة المفروضة ويراه فى قيام رمضان .

الثالثـــة — أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه ، وهو قول القارئ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ وهذا اللفظ هو الذى عليـه الجمهور من العلماء فى التعوّذ لأنه

لفظ كتاب الله تعـالى . ورُوى عن ابن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السـميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لى النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم : "يا بن أم عبد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأني جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم" .

الرابعـــة — روى أبو داود وابن ماجه فى سننهما عن جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة فقال عمرو[(١)] : لا أدرى أى صلاة هى؟ فقال: "الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا — ثلاثا — وسبحان الله بكرة وأصيلا — ثلاثا — أعوذ بالله من الشيطان من نَفْخه ونَفْثه وهَمْزه". قال عمرو : هَمْزه المُوتَة، ونَفْثه الشِّعر، ونفخه الكِبْر . وقال ابن ماجه : المُوتَة يعنى الجنون . والنَّفْث : نفخ الرجل من فيه من غير أن يخرج ريقه . والكِبر : التِّيهُ . وروى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قام من الليل كبّر ثم يقول : "سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك — ثم يقول : — لا إله إلا الله — ثلاثا ثم يقول : — الله أكبر كبيرا — ثلاثا — أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه"، ثم يقرأ . وروى سليمان بن سالم عن ابن[(٢)] القاسم رحمه الله أن الاستعاذة : أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابن عطية : «وأما المقرئون فأكثروا فى هـذا من تبديل الصفة فى اسم الله تعالى وفى الجهة الأخرى ، كقول بعضهم : أعوذ بالله المجيد ، من الشيطان المريد ، ونحو هـذا مما لا أقول فيه : نِعمت البدعة ، ولا أقول : إنه لا يجوز» .

الخامســـة — قال المهدوىّ : أجمع القرّاء على إظهار الاستعاذة فى أوّل قراءة سورة «الحمد» إلا حمزة فانه أسرّها . وروى السدىّ[(٣)] عن أهل المدينـة أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو الليث السمرقندىّ عن بعض المفسرين أن التعوّذ فرض ، وإذا نسيـه

---

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور فى سند هذا الحديث (أنظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ١٣٩ وسنن أبى داود ج ١ ص ٧٧ طبع مصر) . (٢) فى بعض النسخ : «أبى القاسم» . (٣) فى بعض النسخ : «المسيبى» .

القارئ وذكره فى بعض الحزب قطع وتعوّذ، ثم ابتـدأ من أوله . وبعضهم يقول : يستعيذ ثم يرجع الى موضعه الذى وقف فيه؛ و بالأوّل قال أسانيد الحجاز والعراق؛ وبالثانى قال أسانيد الشام ومصر .

السادســـة — حكى الزهراوىّ قال : نزلت الآية فى الصلاة وندُبنا إلى الاستعاذة فى غير الصــلاة وليس بفرض ؛ قال غيره : كانت فرضا على النبيّ صلى الله عليه وسـلم وحده ، ثم تأسّـــينا به .

السابعـــة — رُوِى عن أبى هريرة أن الاسـتعاذة بعد القراءة ؛ وقاله داود . قال أبو بكر بن العربىّ : «انتهى العِىّ بقوم إلى أن قالوا : إذ افرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم » . وقد روى أبو سعيد الخدرى أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة ، وهذا نص . فإن قيل : فما الفائدة فى الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة ؟ قلنا : فائدتهـا امتثال الأمر ؛ وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها بامتثالها أمرًا أو اجتنابها نهيًا ؛ وقد قيل : فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة ؛ كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَـلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » . قال ابن العربى : ومن أغرب ما وجدناه قول مالك فى المجموعة فى تفسير هذه الآية : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » قال : ذلك بعد قراءة أمّ القرآن لمن قرأ فى الصلاة ، وهذا قول لم يرد به أثر ، ولا يَعضُده نظر ؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الاستعاذة بعد القراءة ، كان تخصيص ذلك بقراءة أمّ القرآن فى الصلاة دعوى عريضة ، ولا يشبه أصل مالك ولا فهمه ؛ فالله أعلم بسرّ هذه الرواية » .

الثـامنـــة — فى فضل التعوّذ . روى مسلم عن سليمان بن صُرَد قال : استَبّ رجلان عند النبىّ صلّى الله عليه وسـلّم فجعل أحدُهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه ؛ فنظر اليه النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقام الى الرجل رجل ممن سمع النبىّ صلّى الله عليـه وسلّم فقال : هل تدرى ماقال

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آنفا ؟ قال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم " . فقال له الرجل : أمجنونا ترانى ! أخرجه البخارى أيضا . وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وقراءتى يلبّسها علىّ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك شيطان يقال له خَنْزَب (١) فاذا أحسستَه فتعوّذ بالله منـه وآتفل عن يسارك ثلاثا " قال : ففعلت فأذهبه الله عنى . وروى أبو داود عن آبن عمر قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اذا سافر فأقبل عليـه الليل قال : " يا أرضُ ربّى وربك الله أعوذ بالله من شرك ومن شر ما خلق فيك ومن شر ما يَدِب عليك ومن أسد وأسْود ومن الحية والعقرب ومن ساكنى البلد ووالد وما ولد " . وروت خَوْلة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صلّى الله عليـه وسلم يقول : " من نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمـات الله التّامات من شر ما خلق لم يضرّه شيء حتى يرتحل " . أخرجه الموطّأ ومسـلم والترمذيّ وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يتعوّذ منه كثير ثابت فى الأخبار، والله المستعان .

التاســعة — معنى الاستعاذة فى كلام العرب : الاستجارة والتّحيز الى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه؛ يقال : عُذت بفلان واستعذت به، أى لجأت اليه ؛ وهو عياذى، أى ملجئى . وأعذت غيرى به وعوّذته بمعنًى . ويقال : عَوْذٌ بالله منك، أى أعوذ بالله منك؛ قال الراجز .

قالت وفيها حَيْدَةٌ وذُعْر * عَــوذٌ بربّى مِنكمُ وحُجْرُ

والعرب تقول عند الأمر [تنكره] (٢) : حُجْرًا له (بالضم) أى دفعا ، وهو استعاذة من الأمر . والعوذة والمعاذة والتعويذ كله بمعنًى . وأصل أعوذ : أعْوُذ نقلت الضمة الى العين لا ستثقالها على الواو فسكنت .

---

(١) قوله : يقـال له خنزب . فى نهـاية ابن الأثير : « قال أبو عمرو : وهو لقب له ، والخنزب (بالفتح) : قطعة لحم منتنة ويروى بالكسر والضم » .

(٢) الزيادة عن لسان العرب مادّة (حجر) .

العـاشرة — الشيطان واحد الشياطين على التكسير والنون أصلية ، لأنه من شَطَن إذا بَعُدَ عن الخير ، وشطنت داره أى بعدت ؛ قال الشاعر[(١)] :

نأتْ بسعادَ عنك نوًى شَـطُونُ * فبانتْ والفـؤادُ بهـا رهينُ

وبئر شَطُون أى بعيدة القعر . والشَّطَن : الحبل ، سمى به لبعد طرفيه وامتداده . ووصف أعرابى فرسا [لا يَخْفَى][(٢)] فقال : كأنه شيطان فى أشْطان . وسمى الشـيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمرّده ، وذلك أن كل عاتٍ متمرّدٍ من الجنّ والإنس والدواب شيطان ؛ قال جرير :

أيامَ يدعوننى الشيطانَ من غَزَلٍ * وهُنّ يَهْوَيْننى إذ كنتُ شـيطانَا

وقيل : إن شـيطانا مأخوذ من شاط يَشِـيط إذا هلك[(٣)] ، فالنون زائدة . وشاط اذا احترق . وشيَّطت اللحم إذا دخنته ولم تنضجه . واشتاط الرجل إذا احتدّ غضبا . وناقة مِشياط التى يطير فيها السِّمَن . واشتاط إذا هلك ؛ قال الأعشى :

قد نَخضِب العَيْرَ من مكنون فائله[(٤)] * وقـد يَشِيط على أرماحنا البَـطَلُ

أى يهلك . و يردّ على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول : تَشَيْطن فلان اذا فعل أفعال الشياطين ، فهذا بيّن أنه تفيعل من شطن ، ولو كان من شاط لقالوا : تشيّط ، و يردّ عليهم أيضا بيت أمية بن أبى الصَّلْت :

أيُّمـا شاطنٍ عَصَـاه عكاه[(٥)] * ورماه فى السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لاشك فيه .

الحادية عشرة — الرجيم أى المبعـد من الخير المهان . وأصـل الرجم : الرمى بالحجارة ، وقد رجمته أرجمه ، فهو رجيم ومرجوم . والرجم : القتل واللعن والطرد والشتم ، وقـد قيل هذا كله فى قوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ » . وقول أبى ابراهيم : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ » . وسيأتى إن شاء الله تعالى .

(١) هو النابغة الذبيانى كما فى لسان العرب مادّة (شطن) . (٢) الزيادة عن لسان العرب مادّة (شطن) .

(٣) فى الأصـول : « إذا بطل » ، والتصويب عن اللسان . (٤) الفائل : عرق فى الفخذين يكون فى خربة الورك ينحدر فى الرجلين . (٥) عكاه فى الحديد والوثاق إذا شدّه .

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : رأيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند الصّفا وهو مقبل على شخص في صورة الفيل وهو يلعنه، قلت : ومن هذا الذى تلعنه يا رسول الله؟ قال : "هذا الشيطان الرجيم" فقلت : ياعدوّ الله، والله لأقتلنّك ولأريحنّ الأمة منك؛ قال : ما هذا جزائى منك؛ قلت : وما جزاؤك منى ياعدوّ الله؟ قال : والله ما أبغضك أحدٌ قطّ إلا شَرِكتُ أباه في رَحِم أمّه .

البسملة

وفيها سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قال العلماء: بسم الله الرحمن الرحيم، قسَم من ربّنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده إن هذا الذى وضعت لكم ياعبادى فى هذه السورة حق، وإنى أفِى لكم بجميع ما ضمنت فى هذه السورة من وعدى ولطفى وبرى . و « بسم الله الرحمن الرحيم » مما أنزله الله تعالى فى كتابنا وعلى هذه الأمة خصوصا بعد سليمان عليه السلام . وقال بعض العلماء : إن بسم الله الرحمن الرحيم تضمنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات، وهذا صحيح .

الثانية — قال سعيد بن أبي سكينة : بلغنى أن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه نظر الى رجل يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال له : جوّدها فإن رجلا جوّدها فغفر له . قال سعيد : وبلغنى أن رجلا نظر إلى قرطاس فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقبّله ووضعه على عينيه فغفر له . ومن هذا المعنى قصة بِشْر الحافى، فإنه لما رفع الرقعة التى فيها اسم الله وطيبها طُيِّب آسمه (١)، ذكره القشيرى . وروى النسائى عن أبي المليح عن ردف رسول الله

(١) نص القصة كما فى وفيات الأعيان والرسالة القشيرية : « ... وسبب توبته أنه أصاب فى الطريق ورقة مكتوبا فيها اسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدراهم كانت معه غالية فطيب بها الورقة وجعلها فى شق حائط ، فرأى فى النوم كأن قائلا يقول له : يا بشر ، طيبت اسمى لأطيبنك فى الدنيا والآخرة . فلما انتبه من نومه تاب .

صلى الله عليــه وسلم قال : إن رســول الله صلى الله عليــه وسلم قال : "إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تعس الشيطان فانه يتعاظم حتى يصــير مثل البيت و يقول بقوّتى صــنعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب" . وقال علىّ بن الحسين فى تفسير قوله تعــالى : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » قال معناه : إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم » . وروى وكيع عن الأعمش عن أبى وائل عن عبــد الله ابن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جُنّــة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهــل النار الذين قال الله فيهم : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » وهم يقولون فى كل أفعالهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » فمن هنــا لك هى قوتهم ، و ببسم الله استضلعوا . قال ابن عطية : ونظير هــذا قولهم فى ليلة القدر : إنهــا ليلة سبع وعشرين مراعاة للفظة « هى » من كلمات سورة « إنا أنزلناه » . ونظيره أيضا قولهم فى عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل : ربّنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبا مباركا فيه ، فإنها بضعة وثلاثون حرفا ؛ فلذلك قال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "لقد رأيت بضعا وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أوّل" . قال ابن عطية : وهذا من ملح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثــــة — روى الشعبي والأعمش أن رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم كان يكتب « باسمك اللهــم » حتى أمر أن يكتب « بسم الله » فكتبها ؛ فلمــا نزلت : « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ » كتب « بسم الله الرحمن » فلمــا نزلت : « إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » كتبها . وفى مصنف أبى داود قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة : أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة «النمل» .

الرابعــــة — روى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : البسملة تيجان السور .

قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها . وقد ٱختلف العلماء فى هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها، وهو قول مالك .

(الثـانى) أنها آية من كل سورة، وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعي : هي آية في الفاتحة؛ وتردّد قوله في سائر السور؛ فمــرّة قال : هي آية من كل ســورة، ومرّة قال : ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم في أنها آية من القرآن في سورة النمل .

واحتج الشافعي بمـا رواه الدارقطني من حديث أبي بكر الحنفي عن عبد الحميد[(1)] بن جعفر عن نوح بن أبي بلال عن ســعيد بن أبي ســعيد المقبُرِيّ عن أبي هريرة عن النبيّ صــلّى الله عليه وسلّم قال : "إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها" . رفع هذا الحديث عبد الحميد ابن جعفر، وعبد الحميد هذا وثّقه أحمد بن حنبل ويحيي بن سعيد ويحيي بن معين؛ وأبو حاتم يقول فيــه : محله الصدق؛ وكان سفيان الثوريّ يضعفه ويحمل عليــه . ونوح بن أبي بلال ثقة مشهور .

وحجة ابن المبـارك وأحد قولي الشافعي ما رواه مســلم عن أنس قال : بينـا رسول الله صلى الله عليــه وسلم ذات يوم بيــن أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأســه متبسما ؛ فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : "نزلت عليّ آنفا ســورة" فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» . وذكر الحديث، وسيأتي بكماله في سورة الكوثر إن شاء الله تعالى .

الخامســـة — الصحيح من هــذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القــرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنمـا طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه . قال ابن العربي : « ويكفيك أنها

(1) ورد سند هذا الحديث مضطربا في الأصول والتصويب عن سنن الدارقطني وتهذيب التهذيب . وعبد الحميد بن جعفر هــذا ، يكنى أبا الفضل، ويقال : أبو حفص، وليس من كنيته أبو بكر . ويروى عنه أبو بكر الحنفي . راجع تهذيب التهــذيب .

ليست من القرآن اختــلاف الناس فيهـا ، والقرآن لا يختلف فيه » . والأخبـار الصحاح التي لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا في النمل وحدها. روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : " قال الله عزّ وجلّ قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد الحمـد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدني عبدي وإذا قال العبـد الرحمن الرحيم قال الله تعالى أثنى عليّ عبدي وإذا قال العبد مالك يوم الدين قال مجّدني عبدي — وقال مرة فوّض إلى عبدي — فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فاذا قال آهدنا آلصراط آلمستقيم صراط آلذين انعمت عليهم غير آلمغضوب عليهم ولا آلضالين قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل" . فقوله سبحانه : قسمت الصـلاة؛ يريد الفاتحة، وسماها صـلاة لأن الصلاة لا تصح إلا بها؛ فجعل الثلاث الايات الأول لنفسه، وآختص بها تبارك آسمه، ولم يختلف المسلمون فيها . ثم الآية الرابعة جعلها بينه وبين عبده ؛ لأنها تضمنت تذلل العبد وطلب الاستعانة منـه، وذلك يتضمن تعظيم الله تعالى، ثم ثلاث آيات تتمة سـبع آيات . ومما يدل على أنها ثلاث قوله : " هؤلاء لعبدي" أخرجه مالك؛ ولم يقل : هاتان؛ فهذا يدل على أن « أنعمت عليهم » آية . قال ابن بكير قال مالك : « أنعمت عليهم » آية ؛ ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهذه القسمة التي قسمها الله تعـالى وبقوله عليـه السلام لأبيّ : "كيف تقرأ إذا افتتحت الصـلاة" قال : فقرأت « الحمـد لله رب آلعالمين » حتى أتيت على آخرها أنّ البسملة ليست بآية منها ، وكذا عدّ أهل المدينـة وأهل الشام وأهل البصرة ؛ وأكثر القرّاء عدّوا «أنعمت عليهم» آية، وكذا روى قتادة عن أبي نضرة عن أبي هريرة قال : الآية السادسـة « انعمت عليهم » . وأمّا أهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنهم عدّوا فيهـا « بسم الله الرحمن الرحيم » ولم يعدّوا « أنعمت عليهم » .

فإن قيل : فانها ثبتت في المصحف وهي مكتوبة بخطه ونقلت نقله ، كما نقلت في النمل، وذلك متواتر عنهم . قلنا : ما ذكرتموه صحيح؛ ولكن لكونها قرآنا ، أو لكونها فاصلة بين السور

ـ كما روى عن الصحابة : كنا لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه أبو داود ـ أو تبركا بها ، كما قد اتفقت الأمة على كتبها فى أوائل الكتب والرسائل ؟ كل ذلك محتمل . وقد قال الجريرى (١) : سئل الحسن عن « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : فى صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تنزل «بسم الله الرحمن الرحيم» فى شيء من القرآن إلا فى طس « إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » . والفيصل أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال ، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعي الاضطرارى . ثم قد اضطرب قول الشافعى فيها فى أوّل كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة ، والحمد لله .

فان قيل : فقد روى جماعة قرآنيتها ، وقد تولى الدار قطنى جمع ذلك فى جزء صححه . قلنا : لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا اليها ، ولنا أخبار ثابتة فى مقابلتها ، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الاثبات . روت عائشة فى صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، الحديث . وسيأتى بكماله . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين ؛ لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم لا فى أوّل قراءة ولا فى آخرها .

ثم إن مذهبنا يترجّح فى ذلك بوجه عظيم ، وهو المعقول ؛ وذلك أن مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة انقضت عليه العصور ، ومرّت عليه الأزمنة والدهور ، من لَدُن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك ، ولم يقرأ أحد فيه قطّ « بسم الله الرحمن الرحيم » اتباعا للسنة ، وهذا يردّ أحاديثكم .

بَيْدَ أن أصحابنا استحبوا قراءتها فى النفل ؛ وعليه تحمل الآثار الواردة فى قراءتها أو على السعة فى ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأبها فى النافلة ومن يَعرِض القرآن عرضا .

---

(١) الجريرى (بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما ، نسبة الى جرير بن عباد بن ضبيعة) : وهو سعيد بن إياس الجريرى أبو مسعود البصرى .

وجملة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها، ولا يقرأ بها المصلى فى المكتوبة ولا فى غيرها سرا ولا جهرا؛ ويجوز أن يقرأها فى النوافل . هـذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . وعنـه رواية أخرى أنها تقرأ أول السورة فى النوافل ، ولا تقرأ أول أم القرآن . وروى عنـه ابن نافع ابتـداء القراءة بها فى الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال . ومن أهـل المدينة من يقول : إنه لابدّ فيها من «بسم الله الرحمن الرحيم» منهم ابن عمـر، وابن شهاب ؛ وبه قال الشافعى وأحمـد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد . وهـذا يدل على أن المسألة مسئلة اجتهادية لا قطعية ، كما ظنـه بعض الجهال من المتفقهة الذى يلزم على قوله تكفير المسلمين؛ وليس كما ظن لوجود الاختلاف المذكور؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء الى الإسرار بها مع الفاتحة منهم : أبو حنيفة والثورى؛ وروى ذلك عن عمر وعلىّ وابن مسعود وعمار وابن الزبير؛ وهو قول الحكم وحماد؛ وبه قال أحمـد ابن حنبل وأبو عبيـد ؛ وروى عن الأوزاعىّ مثـل ذلك ؛ حكاه أبو عمر بن عبـد البرّ فى (الاستذكار) . واحتجوا من الأثر فى ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم فلم يسمعنا قراءة « بسم الله الرحمن الرحيم » . وما رواه عمار بن رزيق(1) عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال : صليت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وخلف أبى بكر وعمر، فلم أسمع أحدا منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم .

قلت : هذا قول حسن وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد ويخرج به من الخلاف فى قراءة البسملة . وقد روى عن سعيد بن جبير قال : كان المشركون يحضرون المسجد؛ فاذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بسم الله الرحيم الرحيم» قالوا : هذا محمد يذكر رحمان اليمامة — يعنون مسيلمة — فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم، ونزل : «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا» . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله : فبقى ذلك الى يومنا هذا على

(1) كذا فى تهذيب التهذيب . ورزيق بتقديم الراء على الزاى مصغرا . وفى الأصول : «عمار عن رزيق وهو خطأ» .

ذلك الرسم و إن زالت العلة، كما بقي الرَّمَل في الطواف و إن زالت العـلة، و بقيت المخـافتة في صلاة النهار و إن زالت العلة .

السادســـة — اتفقت الأمة على جواز كتبها في أوّل كل كتاب من كتب العلم والرسائل؛ فان كان الكتاب ديوان شـعر فروى مجالد عن الشعبي قال : أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم» . وقال الزهري : مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم» . وذهب الى رسم التسمية في أوّل كتب الشعر سـعيد بن جبير، وتابعـه على ذلك أكثر المتأخرين . قال أبو بكر الخطيب : وهو الذي نختاره ونستحبه .

السابعـــة — قال المـاوردي و يقال لمن قال بسم الله : مبسمل، وهي لغـة مولدة ، وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة :

لقــد بَسْملتْ ليـلَى غداةَ لقيتُها * فيا حَبّذا ذاك الحبيبُ المبسِلُ

قلت : المشهور عن أهـل اللغة بسمل . قال يعقوب بن السِّكيت والمُطَـرِّز والثعالبي وغيرهم من أهل اللغة : بسمل الرجل، اذا قال : بسم الله . يقال : قد أكثرت من البسملة، أي من قول بسم الله . ومثـله حَوْقَل الرجل اذا قال لا حول ولا قوّة إلا بالله . وهَلَّلَ، اذا قال : لا إله إلا الله . وسَبْحَل، إذا قال : سبحان الله . وحَمْدَل، إذا قال : الحمد لله . وحَيْصَل، إذا قال : حيّ على الصلاة . وجَعْفَل، إذا قال : جعلت فداك . وطَبْقَل، إذ قال : أطال الله بقاءك . ودَمْعَز، إذا قال : أدام الله عزك . وحَيْفَل، إذا قال : حيّ على الفلاح . ولم يذكر المطرز : الحَيْصَلة، إذا قال : حيّ على الصلاة . وجعفل، اذا قال : جعلت فداك، وطبقل، إذا قال : أطال الله بقاك . ودمعز، اذا قال : أدام الله عزك .

الثامنـــة — ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أوّل كل فعل، كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال؛ قال الله تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ » . « وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » . وقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : "أغلق بابك وآذكر آسم الله وأطفئ مصباحك وآذكر آسم الله وخمّر(١) إناءك وآذكر آسم الله وأَوْكِ ســقاءك واذكر اسم الله" . وقال : "لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللّهمّ جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبدا" . وقال لعمر بن أبى سلمة : "ياغلام سَمّ الله وكُلْ بيمينك وكل مما يَليك" وقال : "إنّ الشيطان ليستحل الطعام ألا يذكر اسم الله عليــه" وقال : "من لم يذبح فليذبح باسم الله". وشكا إليه عثمان بن أبى العاص وجعا يجده فى جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر". هذا كله ثابت فى الصحيح . وروى ابن ماجه والترمذىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ستر ما بين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل الكنيف أن يقول بسم الله" . وروى الدرقطنى عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سمى الله تعالى، ثم يفرغ المـاء على يديه .

التاســعة — قال علماؤنا : وفيها ردّ على القَــدَرِيّة وغيرهم ممن يقول : إن أفعالهم مقدورة لهم . وموضع الاحتجاج عليهم من ذلك أن الله سبحانه أمرنا عند الابتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك، كما ذكرنا .

فمعنى بسم الله ، أى بالله . ومعنى بالله ، أى بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليــه . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله بسم الله ، يعنى بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته ؛ وهذا تعليم من الله تعالى عباده، ليذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها، حتى يكون الافتتاح ببركة الله جلّ وعزّ .

العــاشرة — ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى أن « اسم » صــلة زائدة، واستشهد بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ✽ ومن يَبْكِ حولا كاملا فقد اعتذر

(١) التخمير: التغطية . والوكاء : الخيط الذى تشد به الصرة والكيس وغيرهما . أى شدوا رءوس الأسقية بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شىء .

فذكر اسم زيادة، وإنما أراد ثم السلام عليكما .

وقد آستدل علماؤنا بقول لبيد هـذا على أن الآسم هو المسمى . وسيأتى الكلام فيـه فى هذا الباب وغيره، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — اختلف فى معنى زيادة « اسم » ؛ فقـال قُطْرُب : زيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصـد التبرك؛ لأن أصل الكلام بالله .

الثـانية عشرة — اختلفوا أيضا فى معنى دخول الباء عليه، هل دخلت على معنى الأمر؟ والتقدير: ابدأ بسم الله، أو على معنى الخبر؟ والتقدير: ابتدأت بسم الله، قولان : الأول للفراء، والثانى للزجاج . فبسم فى موضع نصب على التأويلين . وقيـل : المعنى ابتـدائى بسم الله ؛ فبسم الله فى موضع رفع خبر الابتداء . وقيـل : الخبر محذوف، أى ابتدائى مستقر أو ثابت بسم الله؛ فاذا أظهرته كان بسم الله فى موضـع نصب بثابت أو مستقر، وكان بمنزلة قولك : زيد فى الدار . وفى التنزيل : « فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْـدَهُ قَالَ هَـٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى » فعنـده فى موضع نصب؛ روى هذا عن نحاة أهل البصرة . وقيل : التقدير ابتدائى ببسم الله موجود أو ثابت، فبسم فى موضع نصب بالمصدر الذى هو ابتدائى .

الثالثة عشرة — بسم الله ، تكتب بغير ألف استغناء عنها بباء الإلصاق فى اللفظ والخط لكثرة الاستعمال؛ بخلاف قوله : «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ » فانها لم تحذف لقلة الاستعمال . وآختلفوا فى حذفها مع الرحمن والقاهر؛ فقال الكسائى وسعيد الأخفش : تحذف الألف . وقال يحيى ابن ثابت : لا تحذف إلا مع بسم الله فقط، لأن الاستعمال إنما كثر فيه .

الرابعـة عشرة — واختلف فى تخصيص باء الجـر بالكسر على ثلاثة معان ؛ فقيـل : ليناسب لفظها عملها . وقيل : لمـا كانت البـاء لا تدخل إلا على الأسمـاء خصت بالخفض

الذى لا يكون إلا فى الأسماء . الثـالث : ليفرق بينها و بين ما قد يكون من الحروف اسما ، نحو الكاف فى قول الشاعر (١) :

* ورُحْنَا بِكَا بنِ المـاء يُجْنَبُ وسْـطَنا *

أى بمثل ابن المـاء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة — اسمٌ ، وزنه إِفْعٌ ، والذاهب منه الواو ، لأنه من سَمَوْت و جمعه أسماء وتصغيره سُمَىّ . واختلف فى تقدير أصـله ، فقيل : فِعْل ، وقيل : فُعْل . قال الجوهرى : وأسماء يكون جمعا لهـذا الوزن ، وهو مثل جِذع وأجذاع ، وقفل وأقفال ، وهـذا لا تدرك صيغته إلا بالسماع . وفيه أربع لغـات : إِسم بالكسر ، وأُسم بالضم ، قال احمد بن يحيى : من ضم الألف أخذه من سموت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمى . و يقال : سِمٌ وسُمٌ ، و يُنْشَد :

والله أسمـاك سُمًـا مباركا * آثـــرك الله بـــه إيثاركا

وقال آخر :

وعامُنـا أعجبَنـا مقـــدّمه * يُدْعَى أبا السَّمْح وقِرْضَابٌ سُمُهْ

* مُبْتَرِكًا (٢) لكل عظم يَلْحُمُهْ *

قرضب الرجل : إذا أكل شيئا يابسا فهو قرضاب . سُمه بالضم والكسر جميعا .

ومنه قول الآخر :

* باسم الذى فى كل سورة سُمه *

وسكنت السين من بسم اعتلالا (٣) على غير قياس ، وألفه ألف وصـل ، و ربما جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة ، كقول الأحوص :

وما أنا بالمَخْسُوس فى جِذم مالكٍ * ولا مَن تَسمَّى ثم يلتزم الإسمـا (٤)

(١) هو امرؤ القيس . وتمام البيت وشرحه يأتى فى ص ٢١١ من هذا الجزء . (٢) رجل مبترك : معتمد على الشىء مُلِحّ . و يلحمه : ينزع عنه اللحم . (٣) كان الأصل اسم نقلت حركة الهمزة الى السين ثم حذفت الهمزة ولما وصلت البـاء به سكنت السين تخفيفا . (٤) المخسوس : المرذول . وجذم كل شىء : أصله . ومالك : جد أعلى للشاعر .

السادسة عشرة — تقول العرب في النسب الى الاسم : سِمَوِيّ، وإن شئت : اسْمِيّ، تركته على حاله ، وجمعه أسماء، وجمع الأسماء أسامٍ . وحكى الفرّاء : أعيذك بأسماوات الله .

السابعة عشرة — اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين؛ فقال البصريون : هو مشتق من السّمو وهو العلو والرفعة، فقيل : اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل : لأن الاسم يسمو بالمسمّى فيرفعه عن غيره . وقيل : إنما سمي الاسم اسما لأنه علا بقوّته على قسمي الكلام : الحرف والفعل؛ والاسم أقوى منهما بالاجماع لأنه الأصل؛ فلعلوه عليهما سمّي اسما ؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السِّمَة وهي العلامة لأن الاسم علامة لمن وضع له ؛ فأصل اسم على هذا «وسم» . والأوّل أصح لأنه يقال في التصغير سمي وفي الجمع أسماء ؛ والجمع والتصغير يردّان الأشياء إلى أصولها ؛ فلا يقال : وسيم ولا أوسام . ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهي :

الثامنة عشرة — فان من قال الاسم مشتق من العلو يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته؛ وهذا قول أهل السنة . ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول : كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات، فاذا أفناهم بقي بلا اسم ولا صفة؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة، وهو أعظم في الخطإ من قولهم : إن كلامه مخلوق، تعالى الله عن ذلك ! وعلى هذا الخلاف وقع الكلام في الاسم والمسمى وهي :

التاسعة عشرة — فذهب أهل الحق — فيما نقل القاضي أبو بكر بن الطيب — إلى أن الاسم هو المسمى، وارتضاه ابن فُوْرَك؛ وهو قول أبي عبيدة وسيبويه . فاذا قال قائل : الله عالم، فقوله دال على الذات الموصوفة بكونه عالما، فالاسم كونه عالما وهو المسمى بعينه وكذلك إذا قال : الله خالق، فالخالق هو الرب، وهو بعينه الاسم . فالاسم عندهم هو المسمى بعينه من غير تفصيل .

قال ابن الحصار : من ينفى الصفات من المبتـدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذات ، ولذلك يقولون : الاسم غير المسمى ، ومن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هى أوصاف الذات وهى غير العبارات وهى الأسماء عندهم . وسيأتى لهذه مزيد بيان فى «البقرة والأعراف» إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين — قوله : «الله» هـذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره؛ ولذلك لم يُثَنّ ولم يجمع؛ وهو أحد تأويلى قوله تعالى « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » أى من تسمّى باسمـه الذى هو « الله » . فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهيـة ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيق ، لا إله الا هو سبحانه . وقيل : معناه الذى يستحق أن يعبد . وقيل : معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال؛ والمعنى واحد .

الحادية والعشرون — واختلفوا فى هذا الاسم هل هو مشتق أو موضوع للذات عَلَم؟ . فذهب إلى الأول كثير من أهل العلم . واختلفوا فى اشتقاقه وأصله؛ فروى سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه، مثل فِعَال فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة . قال سيبويه : مثل الناس أصله أناس . وقيل : أصل الكلمة «لاه» وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم، وهذا اختيار سيبويه . وأنشد :

لاهِ ابنُ عمِّكَ لا أفضلتَ فى حسَبٍ * عنّى ولا أنت ديّانِى فتخـــزونى

كذا الرواية : فتخزونى، بالخاء المعجمة ومعناه : تسوسنى .

وقال الكسائى والفرّاء : معنى بسم الله ، بسم الاله ؛ فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لاما مشدّدة؛ كما قال عزّ وجلّ : «لَٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى» ومعناه : لكن أنا، كذلك قرأها الحسن . ثم قيـل : هو مشتق من «وَلَه» إذا تحيّر؛ والوله : ذهاب العقل . يقال : رجل واله وآمرأة والهة وواله ، وماء مولَّه (١) : أرسل فى الصحارى . فالله سبحانه تحير

(١) قوله : ماء موله . هو بضم الميم وتخفيف اللام ، وتشدد وتفتح الواو .

الألباب وتذهب فى حقائق صفاته والفكر فى معرفته . فعلى هـذا أصل « إلاه » « وِلاه » وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح، و إسادة ووسادة؛وروى عن الخليل . وروى عن الضحاك أنه قال : إنما سمى «الله» إلها، لأن الخلق يتألّهون إليه فى حوائجهم، و يتضرعون اليه عند شدائدهم . وذكر عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأن الخلق يألهون اليه (بنصب اللام) و يألهون أيضا (بكسرها) وهما لغتان . وقيـل : إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع : لاَهًا، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت . وقيـل : هو مشتق من أله الرجل إذا تعبد . وتأله إذا تنسك . ومن ذلك قوله تعالى : « وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ » على هذه القراءة؛ فان ابن عباس وغيره قالوا : وعبادتك .

قالوا : فاسم الله مشتق من هـذا ، فالله سـبحانه معناه المقصود بالعبادة ، ومنـه قول الموحدين : لا إله الا الله ، معناه لا معبـود غير الله . و إلا فى الكلمـة بمعنى غير، لا بمعنى الاستثناء . وزعم بعضهم أن الأصل فيـه « الهاء » التى هى الكناية عن الغائب، وذلك أنهم أثبتوه موجودا فى فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام المِلك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها فصار « له » ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفخيما .

القول الثانى : ذهب إليـه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعىّ وأبو المعالى والخطابى والغزالى والمفضـل وغيرهم . وروى عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفهما منه . قال الخطابى : والدليل على أن الألف واللام من بنية هـذا الاسم ، ولم يدخلا للتعريف دخول حرف النداء عليـه ، كقولك : يا ألله، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف؛ ألا ترى أنك لا تقـول : يا ٱلرحمن ولا يا ٱلرحيم، كما تقـول : يا ألله، فدل على أنهما من بنية الاسم . والله أعلم .

الثانية والعشرون — واختلفوا أيضا فى اشتقاق اسم الرحمن؛ فقال بعضهم: لاآشتقاق له، لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه ، ولأنه لو كان مشتقا من الرحمة لاتّصل بذكر المرحوم، فجاز أن يقال : الله رحمن بعباده ، كما يقال : رحيم بعباده . وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة

لم تنكره العرب حين سمعوه ، إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربهم ، وقد قال الله عزّ وجلّ : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ » الآية . ولما كتب علىّ رضى الله عنه فى صلح الحُدَيْبِيَة بأمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال سهيل بن عمرو : أما بسم الله الرحمن الرحيم ، فما ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللهم ، الحديث . قال ابن العربى : إنما جهلوا الصفة دون الموصوف ، واستدل على ذلك بقوله : وما الرحمن؟ ولم يقولوا : ومن الرحمن؟ قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الاية الأخرى : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » . وذهب الجمهور من الناس الى أن الرحمن مشتق من الرحمة مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها ، فلذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى الرحيم ويجمع .

قال ابن الحصار : ومما يدل على الاشتقاق ما خرّجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن ابن عوف أنه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " قال الله عزّ وجل أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته " . وهذا نص فى الاشتقاق ، فلا معنى للمخالفة والشقاق ، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وما وجب له .

الثالثة والعشرون — زعم المبرد فيما ذكر ابن الأنبارى فى كتاب «الزاهر» له : أن الرحمن اسم عبرانىّ فجاء معه بالرحيم . وأُنشد :

لن تُدرِكوا المجدَ أو تَشْروا عباءَكُمُ * بالخَـزِّ أو تجعلوا اليَنْبُوتَ ضَمْرانا
أو تتركون الى القَسَّيْنِ هِجْـرَتَكم * ومَسْحَكم صُلْبَهم رَحمانَ قُربانا

قال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن : وقال أحمد بن يحيى : الرحيم عربىّ والرحمن عبرانىّ ، فلهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبو العباس : النعت قد يقع للمدح كما تقول : قال جرير الشاعر . وروى مطرّف عن قتادة فى قول الله عزّ وجلّ : بسم الله الرحمن الرحيم قال : مدح نفسه . قال أبو إسحاق : وهذا قول حسن . وقال قُطْرُب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو إسحاق :

وهذا قول حسن، وفي التوكيد أعظم الفائدة، وهو كثير في كلام العرب، ويستغنى عن الاستشهاد؛ والفائدة في ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إنه تفضُّلٌ بعد تفضّل، وإنعام بعد إنعام، وتقوية لمطامع الراغبين، ووعد لا يخيب آمله .

الرابعة والعشرون — واختلفوا هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟ فقيل : هما بمعنى واحد كندمان ونديم . قاله أبو عبيدة . وقيل : ليس بناء فَعلان كفَعيل، فإن فعلان لا يقع الا على مبالغة الفعل، نحو قولك : رجل غضبان، للمتلئ غضبا . وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال عَمَلَّس (١) :

فأما إذا عضّت بك الحرب عضّةً * فإنك معطوف عليك رَحيمُ

فالرحمن خاص الاسم عام الفعل . والرحيم عام الاسم خاص الفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو عليّ الفارسيّ : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، كما قال تعالى : « وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » . وقال العرزميّ (٢) : الرحمن بجميع خلقه في الأمطار ونعم الحواس والنعم العامة، والرحيم بالمؤمنين في الهداية لهم، واللطف بهم . وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسئل غضب . وروى ابن ماجه في سننه والترمذيّ في جامعه عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " من لم يسأل الله يغضب عليه " لفظ الترمذيّ . وقال ابن ماجه : "من لم يدع الله سبحانه غضب عليه " وقال : سألت أبا زرعة عن أبي صالح هذا، فقال : هو الذي يقال له : الفارسيّ وهو خوزيّ (٣) ولا أعرف اسمه . وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

الله يغضب إن تركت سؤاله * وبُنَيّ آدم حين يسئل يغضب

وقال ابن عباس : هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة .

---

(١) هو عملس بن عقيل كما في هامش بعض نسخ الأصل ولسان العرب مادة رحم . (٢) هو عبد الملك ابن أبي سليمان العرزمي كما في الخلاصة . (٣) نسبة الى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة .

قال الخطابيّ : وهذا مشكل، لأن الرقة لا مدخل لهـا فى شيء من صفات الله تعالى . وقال الحسين بن الفضل البجلى : هذا وَهَم من الراوى، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى فى شيء، وإنما هما اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر، والرفق من صفات الله عزّ وجلّ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف " .

الخامسة والعشرون — أكثر العلماء على أن الرحمن مختص بالله عزّ وجلّ، لا يجوز أن يسمى به غيره، ألا تراه قال : « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ » فعادل الاسم الذى لا يشركه فيه غيره . وقال : « وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ » فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة جلّ وعزّ . وقد تجاسر مسيلمة الكذاب — لعنه الله — فتسمى برحمان اليمامة، ولم يتسمّ به حتى قرع مسامعه نعت الكذاب فألزمه الله تعالى لذلك، وإن كان كل كافر كاذبا؛ فقد صار هذا الوصف لمسيلمة علَمًا يعرف به، ألزمه الله إياه . وقد قيل فى اسمه الرحمن : إنه اسم الله الأعظم؛ ذكره ابن العربيّ .

السادسة والعشرون — الرحيم صفة مطلقة للمخلوقين، ولما فى الرحمن من العموم قدّم فى كلامنا على الرحيم مع موافقة التنزيل، قاله المهدوى . وقيل : إن معنى الرحيم أى بالرحيم وصلتم إلى الله وإلى الرحمن، فالرحيم نعت محمد صلى الله عليه وسلم، وقد نعته تعالى بذلك فقال : « رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فكأن المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن وبالرحيم، أى وبمحمد صلى الله عليه وسلم وصلتم إلىّ، أى باتباعه وبما جاء به وصلتم إلى ثوابى وكرامتى والنظر إلى وجهى، والله أعلم .

السابعة والعشرون — روى عن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه أنه قال فى قوله بسم الله : إنه شفاء من كل داء، وعون على كل دواء . وأما الرحمن، فهو عون لكل من آمن به، وهو اسم لم يسم به غيره . وأما الرحيم، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقد فسره بعضهم على الحـروف ، فروى عن عثمان بن عفان أنه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم فقـال : " أما البـاء فبلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه وأما السين فسناء الله وأما الميم فملك الله وأما الله فـلا إله غيره وأما الرحمن فالعاطف على البر والفاجر من خلقه وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة" . وروى عن كعب الأحبار أنه قال : " الباء بهاؤه والسين سناؤه فلا شيء أعلى منه والميم ملكه وهو على كل شيء قدير فلا شيء يعازّه" . وقد قيل : إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه ؛ فالباء مفتاح اسمه بصير، والسين مفتاح اسمه سميع، والميم مفتاح اسمه مليـك، والألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والهـاء مفتاح اسمه هادى ، والراء مفتاح اسمه رازق، والحاء مفتاح اسمه حليم ، والنون مفتاح اسمه نور؛ ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند افتتاح كل شيء .

الثامنة والعشرون ـــ واختلف فى وصل الرحيم بالحمد لله؛ فروى عن أم سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، الرحيمْ الحمد يسكن الميم ويقف عليها، ويبتدئ بألف مقطوعة ؛ وقرأ به قوم من الكوفيين، وقرأ جمهور النـاس : الرحيمِ الحمـد ، تعرب الرحيم بالخفض وتوصـل الألف من الحمد . وحكى الكسائى عن بعض العرب أنها تقرأ الرحيمَ الحمد، بفتح الميم وصلة الألف كأنه سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت . قال ابن عطية: ولم ترو هذه قراءة عن أحد فيما علمت . وهذا نظر يحيى بن زياد فى قوله تعالى : «الٓمٓ ٱللّهُ» .

تفسير سورة الفاتحة

"بحـول الله وكرمه"

وفيهـا أربعـــة أبــواب :

البـاب الأوّل – فى فضائلها وأسمائها ، وفيه سبع مسائل

الأولى – روى الترمذىّ عن أبىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن وهى السبع المثـانى وهى مقسومة بينى وبين عبدى ولعبــدى ما سأل" . أخرج مالك عن العلاء بن عبـد الرحمن بن يعقوب : أن أبا سـعيد مولى [عبد الله بن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم نادى أبىّ بن كعب وهو يصلى ؛ فذكر الحـديث . قال ابن عبد البر : أبو سعيد لا يوقف له على اسم وهو معدود فى أهل المدينة ، روايته عن أبى هريرة وحديثه هـذا مرسل ؛ وقـد روى هذا الحديث عن أبى سعيد بن المُعَلَّى رجلٌ من الصحابة لا يوقف على اسمه أيضا ؛ رواه عنه حفص بن عاصم ، وعبيد بن حُنين .

قلت : كذا قال فى التمهيد : لا يوقف له على اسم . وذكر فى كتاب الصحابة الاختلاف فى اسمه . والحـديث خرّجه البخارى عن أبى سـعيد بن المعلّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، فقلت : يا رسول الله إنى كنت أصلى ؛ فقال : "ألم يقل الله ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ" – ثم قال : – "إنّى لأعلمنّك سـورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد" ثم أخذ بيدى ، فلمـا أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنّك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال : "الحمد لله ربّ العالمين هى السبع المثـانى والقرآن العظيم الذى أوتيته" . قال ابن عبد البر وغيره : أبو سعيد بن المعلى

من جِلّة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرّد به البخارى، واسمه رافع، ويقال : الحارث بن نفيع بن المعلى، ويقال : أوس بن المعلى، ويقال : أبو سعيد بن أوس بن المعلى ؛ تُوفّى سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وستين [سنة] (١)، وهو أوّل من صلى الى القبلة حين حُوّلت، وسيأتى . وقد أسند حديث أبى يزيد بن زريع قال : حدّثنا روح بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبىّ وهو يصلى ؛ فذكر الحديث بمعناه .

وذكر ابن الأنبارى فى كتاب الرّد له : حدّثنى أبى حدّثنى أبو عبيد الله الوراق حدّثنا أبو داود حدثنا شيبان عن منصور عن مجاهد قال : إنّ إبليس — لعنه الله — رَنّ أربع رنات : حين لُعن، وحين أهبط من الجنة، وحين بُعث محمد صلى الله عليه وسلم، وحين نزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة .

الثانيــة — اختلف العلماء فى تفضيل بعض السور والآى على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض ؛ فقال قوم : لا فضل لبعض على بعض ؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها ؛ ذهب الى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعرى، والقاضى أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حِبان البُستىّ، وجماعة من الفقهاء . وروى معناه عن مالك . قال يحيى بن يحيى : تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها . وقال عن مالك فى قول الله تعالى : «نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا» . قال محكمة مكان منسوخة . وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك . واحتج هؤلاء بأن قالوا : إن الأفضل يشعر بنقص المفضول ؛ والذاتيّة فى الكل واحدة، وهى كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه . قال البستىّ : ومعنى هذه اللفظة "ما فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن"، أن الله تعالى لا يعطى لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثل

(١) قال ابن حجر فى الاصابة : «وهو خطأ، فانه يستلزم أن تكون قصته مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو صغير، وسياق الحديث يأبى ذلك» .

ما يعطى لقــارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضّل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة. قال ومعنى قوله: "أعظم ســورة" أراد به فى الأجر، لا أن بعض القرآن أفضــل من بعض. وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى: «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ» وآية الكرسى، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودا مثلا فى «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» وما كان مثلها.

والتفضيل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة، وهذا هو الحق. وممن قال بالتفضيل إسحاق بن راهويه[(1)] وغيره من العلمــاء والمتكلمين، وهو اختيار القاضى أبى بكر بن العــربى وابن الحصار، لحديث أبى ســعيد بن المعلى وحديث أبىّ بن كعب أنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وســلم: "يا أبىّ أىّ آية معك فى كتاب الله أعظم" قال فقلت: «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ». قال: فضرب فى صدرى وقال: "لِيَهْنِكَ العلمُ يا أبا المنذر" أخرجه البخارى ومسلم.

قال ابن الحصار: عجبى ممن يذكر الخلاف مع هذه النصوص.

وقال ابن العربى: قوله: "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها" وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزّلة والزبور وغيرها؛ لأن هــذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشيء أفضل الأفضل، صار أفضل الكل، كقولك: زيد أفضل العلمــاء، فهو أفضل النــاس.

وفى الفــاتحة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل: إن جميع القرآن فيها. وهى خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن. ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القُربة إلا بها، ولا يلحق عمــل بثوابها، وبهــذا المعنى صارت أم القرآن العظيم،

(١) ضبطه ابن خلكان فقال: «بفتح الراء وبعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعــدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة، وقيل فيه أيضا: راهويه، بضم الهــاء وسكون الواو وفتح اليــاء».

كما صارت «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ ، و «قل هو الله أحد» فيها التوحيد كله ، وبهذا المعنى وقع البيان فى قوله عليه السلام لأبىّ : " أىّ آية فى القرآن أعظم " قال : «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» . وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لاشريك له" أفضل الذكر لأنها كلمات حوت جميع العلوم فى التوحيد ، والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير ، ولا يستبعد ذلك فى قدرة الله تعالى .

الثالثة — روى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، وشَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، هذه الآيات معلّقات بالعرش ليس بينهن وبين الله حجاب" . أسنده أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له .

الرابعة — فى أسمائها وهى اثنا عشر اسما :

(الأول) الصلاة ، قال الله تعالى[1] : "قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين" الحديث . وقد تقدّم .

(الثانى) الحمد ، لأن فيها ذكر الحمد كما يقال : سورة الأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ونحوها .

(الثالث) فاتحة الكتاب ، من غير خلاف بين العلماء ، وسميت بذلك لأنه تفتتح قراءة القرآن بها لفظا ، وتفتتح بها الكتابة فى المصحف خطا ، وتفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب ، وفى هذا الاسم خلاف ، جوّزه الجمهور ، وكرهه أنس والحسن وابن سيرين . قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام ، قال الله تعالى : «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» . وقال أنس وابن سيرين : أم الكتاب اسم اللوح المحفوظ . قال الله تعالى : «وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ» .

(١) أى فى الحديث القدسى .

(الخامس) أم القرآن، واختلف فيه أيضا ، فجوّزه الجمهور ، وكرهه أنس وابن سيرين؛ والأحاديث الثابتــة تردّ هذين القولين . روى الترمذيّ عن أبي هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني" قال : هــذا حديث حسن صحيح . وفي البخاري قال : وسميت أم الكتاب لأنه يبتــدأ بكتابتها في المصاحف ، ويبدأ بقراءتها في الصــلاة . وقال يحيي بن يعمر : أم القُرَى مكة . وأم خراسان : مَرْوُ . وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سميت أم القرآن لأنهــا أوّله ومتضمنة لجميع علومه ، وبه سميت مكة أم القرى لأنها أوّل الأرض ومنها دُحيت ، ومنه سميت الأم أُمًّا لأنها أصل النّسل ، والأرض أمّا ، في قول أمية بن أبي الصّلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمّنا * فيهــا مقابرنا وفيهــا نولد

ويقال لراية الحــرب : أمّ ، لتقدمها واتباع الجيش لهــا . وأصل أم أُمّهة ، ولذلك تجمع على أمهات ، قال الله تعالى : « وَأُمَّهَاتُكُمْ » . ويقال : أمّات بغير هاء . قال :

* فَرَجْتَ الظَّلَامَ بأُمّاتِكا *

وقيل : إن أمهات في الناس ، وأمات في البهائم ، حكاه ابن فارس في المجمل .

(السادس) المثاني ، سميت بذلك لأنهــا تُثنّى في كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها استثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخرا لها .

(السابع) القرآن العظيم ، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن ، وذلك أنهــا تشتمل على الثناء على الله عزّ وجلّ بأوصاف كما له وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها ، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منهــا إلا بإعانته تعالى ، وعلى الابتهال إليــه في الهداية الى الصراط المستقيم ، وكفاية أحوال الناكثين ، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين .

(الثامن) الشفاء ، روى الدارميّ(١) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب شفاء من كل سم" .

---

(١) في بعض الأصول : « الدارقطني » .

(التاسع) الرقية، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدري وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذي رقى سيد الحي : "ما أدراك أنها رقية" فقال : يا رسول الله شيء ألقي في رُوعِي، الحديث . خرّجه الأئمة وسيأتي بتمامه .

(العاشر) الأساس، شكا رجل الى الشعبي وجع الخاصرة، فقال : عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب، سمعت ابن عباس يقول : لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة، لأنها منها دحيت ؛ وأساس السموات غريبا (١) ، وهي السماء السابعة ؛ وأساس الأرض عجيبا ، وهي الأرض السابعة السفلى ؛ وأساس الجنان جنة عدن ، وهي سرة الجنان عليها أسست الجنة ؛ وأساس النار جهنم ،وهي الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات ؛ وأساس الخلق آدم ؛ وأساس الأنبياء نوح ؛ وأساس بني إسرائيل يعقوب ؛ وأساس الكتب القرآن ؛ وأساس القرآن الفاتحة ؛ وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم ؛ فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى .

(الحادي عشر) الوافية، قاله سفيان بن عيينة، لأنها لا تتنصف ولا تحتمل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة، ونصفها الآخر في ركعة، لأجزأ ؛ ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز .

(الثاني عشر) الكافية، قال يحيى بن أبي كثير : لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها . يدل عليه ما روى محمد بن خلاد الاسكندراني قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها منها عوضا " .

الخامسة — قال المهلب : إن موضع الرقية منها إنما هو «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» وقيل : السورة كلها رقية، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره : "وما أدراك أنها رقية" ولم يقل : أن فيها رقية . فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية، لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه، ومتضمنة لجميع علومه، كما تقدم والله أعلم .

(١) كذا في الأصول .

السادســـة — ليس فى تسميتها بالمثـانى وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عزّ وجلّ : «كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ» فأطلق على كتابه : مثانى، لأن الأخبار تثنى فيه . وقد سميت السبع الطُّوَل أيضا مثانى ، لأن الفرائض والقصص تثنى فيها . قال ابن عباس: أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا من المثانى ؛ قال : السبع الطُّوَل . ذكره النسائى ، وهى من البقرة إلى الأعراف ست، واختلفوا فى السابعة، فقيل : يونس، وقيل : الأنفال والتوبة، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلجُوا المسجد وادعوا ربكم * وادرسوا هذى المثانى والطُّوَل

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الحجر» إن شاء الله تعالى .

السابعـــة — المثانى جمع مثنى، وهى التى جاءت بعـد الأولى ، والطول جمع أطول . وقـد سميت الأنفال من المثانى لأنهـا تتلو الطول فى القدر . وقيل : هى التى تزيد آياتها على المفصّل وتنقص عن المئين . المئون : هى السور التى تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثانى — فى نزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة

الأولى — اجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات؛ إلا ما روى عن حسين الجُعْفِى : أنها ست، وهـذا شاذ . وإلا ما روى عن عمر بن عبيد أنه جعل «إياك نعبد» آية، وهى على عدّه ثمـان آيات، وهذا شاذ . وقوله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي» وقوله : "قسمت الصلاة" الحديث، يردّ هذين القولين .

وأجمعت الأمة أيضـا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود فى مصحفه، ولـمّـا لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن، كالمعوذتين عنده .

فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنبارى قال : حدّثنـا الحسن بن الحباب حدّثنا سليمان ابن الأشعث حدّثنا ابن أبى قـدامة حدّثنا جرير عن الأعمش قال : أظنه عن ابراهيم قال :

قيل لعبد الله بن مسعود : لِمَ لم تكتب فاتحة الكتاب فى مصحفك؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعنى أن كل ركعة سبيلهــا أن تفتتح بأم القرآن قبــل السورة المتلوة بعدها ، فقال : اختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها فى موضع فيلزمنى أن أكتبها مع كل ســورة، إذ كانت تتقدمها فى الصلاة .

الثانيــــة — اختلفوا أهى مكية أم مدنيــة ؟ . فقال ابن عباس وقتــادة وأبو العاليــة الرياحى — واسمه رفيع — وغيرهم : هى مكيــة . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى وغيرهم : هى مدنيــة . ويقال : نزل نصــفها بمكة ، ونصــفها بالمدينة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى فى تفسيره . والأوّل أصح لقوله تعالى : «ولقد آتيناك سبعا مِن المثانِى والقرآنَ العظِيم » والحجر مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حفظ أنه كان فى الإسلام قطّ صلاة بغير الحمد لله رب العالمين؛ يدل على هذا قوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ". وهذا خبر عن الحُكْم، لا عن الابتداء، والله أعلم .

وقد ذكر القاضى ابن الطيب اختلاف الناس فى أوّل ما نزل من القرآن، فقيل : المدّثر، وقيل : اقرأ، وقيل : الفاتحة . وذكر البيهقى فى دلائل النبوّة عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : "إنى اذا خلوت وحدى سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هــذا أمرا " قالت : معاذ الله! ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدّى الأمانة، وتصــل الرحم، وتَصْدُقُ الحديث . فلما دخل أبو بكر — وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمّ — ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : يا عتيق، اذهب مع محمد إلى ورَقة بن نوفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده، فقال : انطلق بنا الى ورَقة، فقال : "ومن أخبرك". قال : خديجة، فانطلقا اليه فقصا عليه؛ فقال : "اذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى يا محمد يا محمد فأنطلق هاربا فى الأرض" فقال : لا تفعل، إذا أتاك فاثْبُت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى فأخبرنى . فلمــا خلا ناداه : يا محمد، قل بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب

العالمين؛ حتى بلغ ولا الضالين، قل: لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر ذلك له؛ فقال له وَرَقة: أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذى بشر به عيسى آبن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبيّ مرسل، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، وإن يدركنى ذلك لأجاهدنّ معك. فلما تُوفّى ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد رأيت القَسّ فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدّقنى" يعنى ورقة. قال البيهقى رضى الله عنه: هذا منقطع. يعنى هــذا الحديث، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزل عليه «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ» و«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ».

الثالثـــة — قال ابن عطية: ظن بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد، لمـا رواه مسلم عن ابن عباس قال: بينما جبريل قاعد عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سمع نقيضا(١) من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قطّ إلا اليوم، فنزل منه مَلَك، فقال: هذا ملك نزل الى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم؛ فسلّم وقال: أبشر بنورين أوتيتَهما لم يُؤْتَهما نبيّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته. قال آبن عطية: وليس كما ظن، فان هــذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدّم المَلَك الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُعْلِمًا به وبما ينزل معه؛ وعلى هذا يكون جبريل شارك فى نزولها، والله أعلم.

قلت: الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم بشيء من ذلك. وقد بينا أن نزولهـا كان بمكة، نزل بها جبريل عليه السلام، لقوله تعالى: «نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ» وهذا يقتضى جميع القرآن، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة، ونزل المَلَك بثوابها بالمدينـــة. والله أعلم. وقد قيل: إنها مكية مدنية، نزل بها جبريل مرتين، حكاه الثعلبى. وما ذكرناه أولى، فإنه جمع بين القرآن والســنة، ولله الحمد والمنـــة.

---

(١) النقيض: الصوت.

الرابعة — قد تقدم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح ، و إذا ثبت ذلك فحكم المصلي اذا كبر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت، ولا يذكر توجيها ولا تسبيحا ، لحديث عائشة وأنس المتقدمين وغيرهما ، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه والتسبيح والسكوت ، قال بها جماعة من العلماء؛ فروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما أنهما كانا يقولان اذا افتتحا الصلاة : سبحانك اللهم و بحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ؛ و به قال سفيان وأحمد و إسحاق وأصحاب الرأى . وكان الشافعيّ يقول بالذى روى عن علىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان اذا افتتح الصلاة كبر ثم قال : "وجهت وجهى" الحديث، ذكره مسلم، وسيأتى بتمامه فى آخر سورة الأنعام ، وهناك يأتى القول فى هذه المسألة مستوفًى إن شاء الله .

قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا كبر فى الصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ يقول : "اللّهمّ باعد بينى و بين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقنى من خطاياى كما يُنَقَّ الثوب الأبيض من الدَّنَس اللّهمّ اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبَرَد" واستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتتان فاغتنموا فيهما القراءة . وكان الأوزاعىّ وسعيد بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل يميلون الى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب .

الخامسة — واختلف العلماء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه : هى متعينة للامام والمنفرد فى كل ركعة . قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَادُ البصرى المالكى : لم يختلف قول مالك أنه من نسيها فى صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه . واختلف قوله فيمن تركها ناسيا فى ركعة من صلاة رباعية أوثلاثية؛ فقال مرة : يعيد الصلاة ، وقال مرة أخرى : يسجد سجدتى السهو ؛ وهى رواية ابن عبد الحكم وغيره عن مالك . قال ابن خويز منداد وقد قيل : إنه يعيد تلك الركعة و يسجد للسهو بعد السلام. قال ابن عبد البرّ : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة و يأتى بركعة بدلا منها ، كمن

أســقط سجدةً سهوًا . وهو اختيار ابن القـاسم . وقال الحسن البصرى وأكثر أهـل البصرة والمغيرة بن عبـد الرحمن المخزومى المـدنى : إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة فى الصـلاة أجزأه ولم يكن عليــه إعادة؛ لأنها صـلاة قد قرأ فيها بأم القرآن؛ وهى تامة لقوله عليــه السلام : "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن" وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صـلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعة، وهــو الصحيح على ما يأتى ، ويحتمل لاصلاة لمن يقرأ بها فى أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم .

وقال أبو حنيفة والثورى والأوزاعىّ : إنـ تركها عامدا فى صـلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه ، على اختلاف عن الأوزاعىّ فى ذلك . وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدّين . وعن محمد بن الحسن أيضا قال : أسوغ الاجتهاد فى مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة؛ نحو : «الحمد لله» . ولا أسوغه فى حرف لا يكون كلاما .

وقال الطبرىّ : يقرأ المصلّى بأم القرآن فى كل ركعة ، فان لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلهـا من القرآن عدد آيهـا وحروفها . قال ابن عبد البرّ : وهذا لامعنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قـد خصها بهذا الحكم دون غيرها ؛ ومحال أن يجئ بالبدل منها من وجبت عليــه فتركها وهو قادر عليها ، وإنما عليه أن يجئ بها ويعود اليها ، كسائر المفروضات المتعينات فى العبادات .

السادســة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعا فالإمام يحمل عنه القراءة؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعا أنه يكبر ويركع ولا يقرأ شيئا ، وإن أدركه قائما فإنه يقرأ ، وهى المسئلة :

السابعــة — ولا ينبغى لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه فى صـلاة السرّ؛ فإن فعل فقد أساء ولا شىء عليه عند مالك وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهى المسئلة :

الثامنــة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها فى المشهور من مذهب مالك؛ لقول الله تعالى : «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » ، وقول رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "مالى أنازع القرآن" وقوله فى الإمام : "إذا قرأ فأنصتوا" وقوله : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" .

وقال الشافعى فيما حكى عنه البويطى وأحمد بن حنبل : لا تجزئ أحدا صلاة حتى يقرأ بفاتحة الكتاب فى كل ركعة، إماما كان أو مأموما ، جهر إمامه أو أسر . وكان الشافعى بالعراق يقول فى المأموم : يقرأ إذا أسر ولا يقرأ إذا جهر؛ كمشهور مذهب مالك . وقال بمصر فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ ، والآخر يجزئه ألا يقرأ ويكتفى بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر . وقال ابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم وابن حبيب والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئا ، جهر إمامه أو أسر؛ لقوله عليه السلام : "فقراءة الإمام له قراءة" وهذا عام، ولقول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا وراء الإمام .

التاسعة — الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعى وأحمد ومالك فى القول الآخر، وأن الفاتحة متعينة فى كل ركعة لكل أحد على العموم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب" وقوله : "من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج" ثلاثا . وقال أبو هريرة : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادى أنه : "لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد" أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ، فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها؛ وبه قال عبد الله بن عون وأيوب السختيانى وأبو ثور وغيره من أصحاب الشافعى وداود بن على، وروى مثله عن الأوزاعى؛ وبه قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبى هريرة وأبى بن كعب وأبى أيوب الأنصارى وعبد الله بن عمرو بن العاصى وعبادة بن الصامت وأبى سعيد الخدرى وعثمان ابن أبى العاصى وخوات بن جبير أنهم قالوا : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . وهو قول ابن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعى؛ فهؤلاء الصحابة بهم القدوة، وفيهم الأسوة، كلهم يوجبون الفاتحة فى كل ركعة .

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى فى سننه ما يرفع الخلاف ويزيل كل احتمال فقال : حدثنا أبو كريب حدثنا محمد بن فضيل، ح، وحدثنا سويد بن سعيد

حدّثنا على بن مُسْهِر جميعا عن أبى سفيان السعدى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "لا صـلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة بالحمد لله وسـورة فى فريضـة أو غيرها" . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه عليـه السلام قال للذى علمـه الصلاة : "وافعل ذلك فى صلاتك كلها" وسيأتى . ومن الحجة فى ذلك أيضا ما رواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصارى قال : أبطأ عبـادة بن الصامت عن صـلاة الصبح؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصـلاة فصلى أبو نعيم بالناس، وأقبل عبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبى نعيم ، وأبو نعيم يجهر بالقراءة ؛ فجعل عبادة يقرأ بأمّ القرآن ؛ فلمـا انصرف قلت لعبادة : سمعتك تقرأ بأمّ القرآن وأبو نعيم يجهر؛ قال : أجل ! صلى بنا رسول الله صلى الله عليـه وسلم بعض الصلوات التى يجهر فيها بالقراءة فالتبست عليـه ؛ فلما انصرف أقبـل علينا بوجهـه وقال : "هل تقرءون إذا جهرت بالقراءة" فقال بعضنا : إنا نصـنع ذلك، قال : "فلا وأنا أقول مالى ينازعنى القرآن فلا تقرءوا بشىء من القرآن إذا جهرت إلا بأمّ القرآن". وهذا نص صريح فى المأموم . وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث محمد بن إسحاق بمعناه ؛ وقال : حديث حسن . والعمل على هذا الحديث فى القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم والتابعين؛ وهو قول مالك بن أنس وابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق ، يرون القراءة خلف الإمام . وأخرجه أيضا الدارقطنى وقال : هـذا إسناد حسن، ورجاله كلهم ثقات ؛ وذكر أن محمود بن الربيع كان يسكن إيليـاء[(١)] ، وأن أبا نعيم أول من أذّن فى بيت المقـدس . وقال أبو محمـد عبد الحق : ونافع بن محمود لم يذكره البخارىّ فى تاريخـه ولا ابن أبى حاتم ؛ ولا أخرج له البخارى ومسلم شـيئا . وقال فيـه أبو عمر : مجهول . وذكر الدارقطنىّ عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام ، فأمرنى أن أقرأ، قلت : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ؛ قلت : وإن جهرت ؟ قال : وإن جهرت . قال الدارقطنىّ : هـذا إسناد صحيح . وروى عن جابر بن عبـد الله

(١) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس .

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الإمام ضامن فما صنع فاصنعوا" . قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ؛ وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسيَّ أن يقرأ بها فى نفسه حين قال له : إنى أحيانا أكون وراء الإمام ، ثم استدل بقوله تعالى(١) : "قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل" . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين" الحديث .

العاشرة — أمّا ما استدل به الأوّلون بقوله عليه السلام : "وإذا قرأ فأنصتوا" أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعرى ؛ وقال : وفى حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة "وإذا قرأ فأنصتوا" قال الدارقطنى : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمى فيها عن قتادة؛ وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها؛ منهم شعبة وهشام وسعيد بن أبي عَرُوبة وهمام وأبو عوانة ومعمر وعدى بن أبي عمارة . قال الدارقطنى : فاجماعهم يدل على وَهَمِه . وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمى ؛ ولكن ليس هو بالقوى ، تركه القطان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبي هريرة وقال : هذه الزيادة "إذا قرأ فأنصتوا" ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صحح حديث أبي هريرة وقال : هو عندى صحيح .

قلت : ومما يدل على صحتها عنده إدخالها فى كتابه من حديث أبي موسى وإن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الأمام أحمد بن حنبل وابن المنذر . وأما قوله تعالى : «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا» فإنه نزل بمكة، وتحريم الكلام فى الصلاة نزل بالمدينة — كما قال زيد بن أرقم — فلا حجة فيها ؛ فان المقصود كان المشركين ، على ما قال سعيد بن المسيب . وقد روى الدارقطنى عن أبي هريرة أنها نزلت فى رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة . وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام : "مالى أنازع القرآن" فأخرجه مالك عن ابن شهاب عن ابن أُكَيمة الليثى ، واسمه فيما قال مالك : عمرو،

(١) أى فى الحديث القدسى .

وغيره يقول عامر، وقيل يزيد، وقيل عمارة، وقيل عباد، يكنى أبا الوليد توفى سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وسبعين سنة، لم يرو عنه الزهرى إلا هذا الحديث الواحد، وهو ثقة ، وروى عنه محمد بن عمرو وغيره ، والمعنى فى حديثه : لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجاذب وتخالج ، اقرءوا فى أنفسكم . يبينه حديث عبادة وفتيا الفـاروق وأبى هريرة الراوى للحديثين . فلو فهم المنع جملة من قوله : "مالى أنازع القرآن" لمـا أفتى بخلافه ، وقول الزهرى فى حديث ابن أُكَيمة : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد بالحمد على ما بينا ؛ وبالله توفيقنا .

أما قوله صلى الله عليه وسلم : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك ، وأبو حنيفة[1] وهو ضعيف ، كلاهما عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر . أخرجه الدارقطنى وقال : رواه سفيان الثورى وشعبة وإسرائيل ابن يونس وشريك وأبو خالد الدالانى وأبو الأحوص وسفيان بن عيينة وجرير بن عبد الحميد وغيرهم ، عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شداد مرسلا عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وأما قول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيهـا بأم القرآن فـلم يصل إلا وراء الإمام ؛ فرواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر قوله ، قال ابن عبـد البر : ورواه يحيى ابن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبى نعيم وهب بن كيسان عن جابر عن النبى صلى الله عليـه وسلم . وصـوابه موقوف على جابر كما فى الموطأ . وفيـه من الفقه إبطال الركعة التى لا يقرأ فيها بأم القرآن ؛ وهو يشهد لصحة ما ذهب اليه ابن القاسم ورواه عن مالك فى إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتد المصلى بركعة لا يقرأ فيها بفاتحـة الكتاب . وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة ؛ وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره .

---

(١) قـد ترجمه ابن حجر فى التهذيب وابن خلكان فى الوفيات ولم يذكرا عنه ضعفا فى الحديث ولكن ابن سـعد فى الطبقات قد وصفه بذلك .

الحادية عشرة — قال ابن العربى : لما قال صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب" واختلف النـاس فى هذا الأصل هل يحمل هـذا النفى على التمام والكمال ، أو على الإجزاء ؟ اختلفت الفتوى بحسب اختلاف حال الناظر ، ولما كان الأشهر فى هـذا الأصـل والأقوى أن النفى على العموم، كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقـرأ الفاتحة فى صلاته بطلت . ثم نظرنا فى تكرارها فى كل ركعة؛ فمن تأول قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " افعل ذلك فى صلاتك كلها " لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة — ما ذكرناه فى هذا الباب من الأحاديث والمعانى فى تعيين الفاتحة يردّ على الكوفيين قولهم فى أن الفاتحة لا تتعين ، وأنهـا وغيرها من آى القرآن سواء ؛ وقد عيّنها النبيّ صلى الله عليـه وسلم بقوله كما ذكرناه ؛ وهو المبيِّن عن الله تعالى مراده فى قوله : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد روى أبو داود عن أبى سعيد الخدرى قال : أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسّر . فدل هـذا الحديث على أن قوله عليـه السلام للأعرابى : "اقرأ ما تيسر معك من القرآن" ما زاد على الفاتحة، وهو تفسير قوله تعالى : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . وقد روى مسلم عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرءان — زاد فى رواية — فصاعدا" . وقوله عليه السلام : "هى خداج — ثلاثا — غير تمام" أى غير مجزئة بالأدلة المـذكورة . والخِداج : النقص والفساد . قال الأخفش : خدجت النـاقة، اذا ألقت ولدها لغير تمـام، وأخدجت إذا قذفت به قبـل وقت الولادة وان كان تام الخَلْق .

والنظر يوجب فى النقصان ألا تجوز معه الصـلاة؛ لأنهـا صلاة لم تتم؛ ومن خرج من صلاته وهى لم تتم فعليه إعادتها كما أمر، على حسب حكمها . ومن ادعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل، ولا سبيل اليه من وجه يُلزم، والله أعلم .

الثالثة عشرة — روى عن مالك أن القراءة لا تجب فى شىء من الصـلاة؛ وكذلك كان الشافعىّ يقول بالعراق فيمن نسيها، ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة من يحسن

فاتحة الكتاب إلا بها ، ولا يجزئه أن ينقص حرفا منها ؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صلاته وإن قرأ بغيرها . وهـذا هو الصحيح فى المسئلة . وأما ما روى عن عمـر رحمه الله أنه صلى المغرب فلم يقرأ فيها ، فذُكر ذلك له فقال : كيف كان الركوع والسجود ؟ قالوا : حسن، قال : لا بأس إذًا ، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمى عن عمر ؛ ومرة يرويه إبراهيم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عمر ، وكلاهما منقطع لا حجة فيه ؛ وقد ذكره مالك فى الموطأ ، وهو عند بعض الرواة وليس عند يحيى وطائفة معه ، لأنه رماه مالك من كتابه بِأَخَرةٍ (١) ، وقال ليس عليـه العمل لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداج" وقد روى عن عمر أنه أعاد تلك الصـلاة ؛ وهو الصحيح عنـه . روى يحيى بن يحيى النيسابورى قال : حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعى عن همام بن الحارث أن عمر نسى القراءة فى المغرب فأعاد بهم الصلاة . قال ابن عبد البر : وهذا حديث متصل شهده همام من عمر روى ذلك من وجوه . وروى أشهب عن مالك قال : سـئل مالك عن الذى نسى القراءة ، أيعجبك ما قال عمر ؟ فقال : أنا أنكر أن يكون عمـر فعله — وأنكر الحديث — وقال : يرى الناس عمر يصنع هـذا فى المغرب ولا يسبحون به ! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة ، على ما تقدّم من أصولهم فى ذلك ، وأجمعوا على أن لا توقيت فى ذلك بعد فاتحة الكتاب ، إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر ممـا جاء عن النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم . قال مالك : وسـنة القراءة أن يقرأ فى الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة ، وفى الأخريين بفاتحة الكتاب . وقال الأوزاعىّ : يقرأ بأم القرآن فان لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزأه ، وقال : وإن نسى أن يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد . وقال الثورى : يقرأ فى الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ، ويسبح فى الأخريين إن شاء وإن شاء قرأ ، وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت

(١) أى بتأخر وبعد عن الخير .

صلاته ، وهو قول أبى حنيفة وسائر الكوفيين . قال ابن المنذر : وقد روينا عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : اقرأ فى الأوليين وسبح فى الأخريين ، و به قال النخعى . قال سفيان : فان لم يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة . قال : وكذلك إن نسى أن يقرأ فى ركعة من صلاة الفجر . وقال أبو ثور : لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فى كل ركعة ، كقول الشافعى المصرى ، وعليه جماعة أصحاب الشافعى . وكذلك قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد المالكىّ : قراءة الفاتحة واجبة عندنا فى كل ركعة ، وهذا هو الصحيح فى المسألة . روى مسلم عن أبى قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بنا فيقرأ فى الظهر والعصر فى الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، و يسمعنا الآية أحيانا، وكان يطول فى الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية، وكذلك فى الصبح . وفى رواية : و يقرأ فى الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب ،وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك، ونصٌّ فى تعين الفاتحة فى كل ركعة، خلافا لمن أبى ذلك، والحجة فى السنة لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور الى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبى هريرة قال : فى كل صلاة قراءة، فما أسمعنا النبىّ صلى الله عليه وسلم أسمعناكم ، وما أخفى منا أخفينا منكم ؛ فمن قرأ بأم القرآن فقد أجزأت عنه ، ومن زاد فهو أفضل . وفى البخارى : و إن زدت فهو خير . وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة؛ منهم عمران بن حُصين وأبو سعيد الخدرى وخوّات بن جبير ومجاهد وأبو وائل وابن عمر وابن عباس وغيرهم؛ قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشىء معها من القرآن ؛ فمنهم من حدّ آيتين، ومنهم من حدّ آية ، ومنهم من لم يَحُدّ ، وقال : شىء من القرآن معها، وكل هذا موجب لتعلّم ما تيسّر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ؛ لحديث عبادة وأبى سعيد الخدرى وغيرهما . وفى المدوّنة : وكيع عن الأعمش عن خيثمة قال: حدّثنى من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشىء معها . واختلف المذهب فى قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة، فضيلة، واجبة .

السادسة عشرة — من تعذر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا عَلِق منه بشيء، لزمه أن يذكر الله فى موضع القراءة بما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا صلى وحده أو مع إمام فيما أسر فيه الإمام؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبى أَوْفَى قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا، فعلمنى ما يجزئنى منه؛ قال : "قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله"؛ قال : يا رسول الله، هذا لله، فمالى ؟ قال : "قل اللّهمّ ارحمنى وعافنى واهدنى وآرزقنى" .

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده؛ فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله؛ وعليه أبدا أن يجهد نفسه فى تعلم فاتحة الكتاب فما زاد، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله .

الثامنة عشرة — من لم يواته لسانه إلى التكلم بالعربية من الأعجمين وغيرهم ترجم له الدعاء العربى بلسانه الذى يفقه لإقامة صلاته؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية فى قول الجمهور. وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية، لأن المقصود إصابة المعنى . قال ابن المنذر : لا يجزئه ذلك؛ لأنه خلاف ما أمر الله به، وخلاف ما علم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال .

الموفية العشرين — من آفتتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة، فطرأ عليه العلم بها فى أثناء الصلاة، ويتصوّر ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعلِقت بحفظه من مجرد السماع فلا يستأنف الصلاة؛ لأنه أدّى ما مضى على حسب ما أمر به؛ فلا وجه لإبطاله . قاله فى كتاب ابن سحنون .

الباب الثالث ـ فى التأمين، وفيه ثمان مسائل

الأولى ـ ويسنّ لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون «ولا الضالين» : آمين، ليتميز ما هو قرآن مما ليس بقرآن .

الثانيــة ـ ثبت فى الأمهات من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدّم من ذنبه" قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فترتبت المغفرة للذنب على مقدمات أربع تضمنها هذا الحديث؛ الأولى : تأمين الإمام، الثانية : تأمين من خلفه، الثالثة : تأمين الملائكة، الرابعة : موافقة التأمين؛ قيل فى الإجابة، وقيل فى الزمن، وقيل فى الصفة من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام : " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ " .

الثالثــة ـ روى أبو داود عن أبى مُصَبِّح المُقْرائى قال : كنا نجلس إلى أبى زهير النميرى وكان من الصحابة، فيحدث أحسن الحديث، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : اختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة؛ قال أبو زهير: ألا أخبركم عن ذلك، خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فأتينا على رجل قد ألح فى المسئلة، فوقف النبىّ صلى الله عليه وسلم يسمع منه، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أوجب إن ختم " فقال له رجل من القوم : بأىّ شىء يختم ؟ قال : " بآمين فانه إن ختم بآمين فقد أوجب " فانصرف الرجل الذى سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم، فأتى الرجلَ فقال له : اختم يافلان وأبشر . قال ابن عبد البر : أبو زهير النميرى اسمه يحيى بن نفير روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لا تقتلوا الجراد فانه جند الله الأعظم " وقال وهب بن منبه : آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف ملَكا يقول : اللّهــمّ اغفر لكل من قال آمين . وفى الخبر " لقّننى جبريل آمين عند

فراغى من فاتحة الكتاب وقال إنه كالخاتم على الكتاب " وفى حديث آخر : " آمين خاتم رب العالمين " . قال الهروى قال أبو بكر : معناه أنه طابع الله على عباده ؛ لأنه يدفع [به عنهم](١) الآفات والبـلايا ؛ فكان كخاتم الكتاب الذى يصونه ، و يمنع من إفساده و إظهار ما فيه . وفى حديث آخر : " آمين درجة فى الجنة " ؛ قال أبو بكر: معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة فى الجنة .

الرابعـــة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهم استجب لنا ، وضع موضع الدعاء. وقال قوم : هو اسم من أسماء الله ، روى عن جعفر بن محمد ومجاهد وهلال بن يِسَاف ورواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح ؛ قاله ابن العربى . وقيل معنى آمين : كذلك فليكن ؛ قاله الجوهرى . و روى الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى آمين ؟ قال : "رب افعل" . وقال مقاتل : هو قوة للدعاء ، واستنزال للبركة . وقال الترمذى : معناه لا تخيب رجاءنا .

الخامســة — وفى آمين لغتان : المدّ على وزن فاعيل كياسين . والقصر على وزن يمين . قال الشاعر فى المدّ :

يا ربّ لا تسلُبَنِّى حبّهـا أبدًا * ويرحمُ الله عبـــدا قال آمينا

وقال آخـــر :

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حـــتى أبلّغهـا ألفينِ آمينا

وقال آخر فى القصر :

تبـاعد منّى فُطْحُلٌ إذ سألتُه * أمينَ فزاد الله ما بيننـا بُعدَا

وتشديد الميم خطأ ؛ قاله الجوهرى . وقد روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد ؛ وهو قول الحسين بن الفضل ، من أمّ إذا قصد أى نحن قاصدون نحوك ؛ ومنه قوله : « وَلَا آمِّينَ

(١) الزيادة عن اللسان مادة (أمن) .

ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ » . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري . قال الجوهري : وهو مبنى على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين . وتقول منه : أمّن فلان تأمينا .

السادسة — واختلف العلماء هل يقولها الإمام وهل يجهر بها ؛ فذهب الشافعي ومالك في رواية المدنيين الى ذلك . وقال الكوفيون وبعض المدنيين : لا يجهر بها . وهو قول الطبري ؛ وبه قال ابن حبيب من علمائنا . وقال ابن بكير : هو مخير . وروى ابن القاسم عن مالك أن الإمام لا يقول آمين وإنما يقول ذلك من خلفه ؛ وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك ؛ وحجتهم حديث أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبيّن لنا سنّتنا وعلّمنا صلاتنا فقال : " إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ثم ليؤمكم أحدكم فإذا كبر فكبروا وإذا قال غير ٱلمغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله " وذكر الحديث ، أخرجه مسلم . ومثله حديث سُمَيّ عن أبي هريرة ؛ وأخرجه مالك . والصحيح الأوّل لحديث وائل بن حجر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ «ولا الضالين» قال : « آمين » يرفع بها صوته ؛ أخرجه أبو داود والدارقطني ، وزاد « قال أبو بكر : هذه سنة تفرّد بها أهل الكوفة ، هذا صحيح والذى بعده » . وترجم البخاري «باب جهر الإمام بالتأمين» .

وقال عطاء : آمين دعاء ؛ أمّن ابن الزبير ومن وراءه حتى إن للمسجد لَلَجّة (١) . قال الترمذي : وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم ، يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها . وبه يقول الشافعي وأحمد وإسحاق . وفي الموطأ والصحيحين قال ابن شهاب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « آمين » . وفي سنن ابن ماجة عن أبي هريرة قال : ترك الناس آمين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قال : « غيرِ ٱلمغضوبِ عليهم ولا الضالين » قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأوّل فيرتج بها المسجد . وأما حديث أبي موسى وسُمَيّ فمعناهما التعريف بالموضع الذى يقال فيه آمين ؛ وهو اذا قال الإمام : « ولا الضالين » ليكون قولهما معا ، ولا يتقدموه بقول : آمين

(١) اللجة : الصوت .

لمـا ذكرناه ، والله أعلم . ولقوله عليه الســلام : " اذا أمّن الإمام فأمّنـوا " وقال ابن نافع فى كتاب ابن الحارث : لا يقولها المأموم إلا أن يســمع الإمام يقول : « ولا الضالين » . واذا كان ببعد لا يسمعه فلا يقل . وقال ابن عبدوس : يتحرّى قدر القراءة و يقول : آمين .

السابعـــة ـــ قال أصحاب أبى حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . قالوا : والدليل عليه ما روى فى تأويل قوله تعالى : « قَـدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا » . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمّن ؛ فسماهما الله داعيين .

والجواب : أنّ إخفاء الدعاء إنمـا كان أفضل لمـا يدخله من الرياء . وأما ما يتـعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شـعار ظاهر ، و إظهار حق يندب العباد الى إظهاره ؛ وقد ندب الإمام الى إشهار قراءة الفاتحــة المشتملة على الدعاء والتأمين فى آخرها ؛ فاذا كان الدعاء مما يسنّ الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجار مجراه وهذا بيّن .

الثامنـــة ـــ كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما الســلام . ذكر الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) : حدّثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدّثنا أبى قال حدّثنـا رزين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدّثنا أنس بن مالك قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " إنــ الله أعطى أمتى ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام وهو تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون " قال أبو عبد الله : معناه أن موسى دعا على فرعون ، وأمّن هارون ، فقال الله تبارك اسمه عنــد ما ذكر دعاء موسى فى تنزيله : « قــد أجيبت دعوتكما » ولم يذكر مقالة هارون ؛ وقال موسى : ربّنـا ، فكان من هارون التأمين ، فسماه داعيا فى تنزيله ، إذ صيّر ذلك منه دعوة . وقــد قيل : إن آمين خاص لهذه الأمة ، لمـا روى عنــ النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين " أخرجه ابن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال، الحديث . وأخرج أيضا من

حديث ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين فأكثروا من قول آمين " . قال علماؤنا[1] رحمة الله عليهم : إنما حسدنا أهل الكتاب لأن أولها حمد لله وثناء عليه ثم خضوع له واستكانة، ثم دعاء لنا بالهداية الى الصراط المستقيم، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين .

الباب الرابع – فيما تضمنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ست وثلاثون مسئلة

الأولى – قوله سبحانه وتعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ . روى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى الحمد لى " وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها " . وقال الحسن : ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها . وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أخذ" . وفى (نوادر الأصول) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك" . قال أبو عبد الله : «معناه عندنا أنه قد أعطى الدنيا، ثم أعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية، هى من الباقيات الصالحات؛ قال [الله تعالى : «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ][2] خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا» . وقيل فى بعض الروايات : لكان ما أعطى أكثر مما أخذ . فصيّر الكلمة إعطاءً من العبد، والدنيا أخذًا من الله، فهذا فى

---

(١) هذا حمل منهم للحديث على الفاتحة مع آمين فى آخرها .

(٢) زيادة عن نوادر الأصول يقتضيها السياق .

التدبير[1]. كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد، والدنيا من الله ؛ وكلاهما من الله فى الأصل، الدنيـا منه والكلمة منـه؛ أعطاه الدنيـا فأغناه ، وأعطاه الكلمة فشرفه بهـا فى الآخرة . وروى ابن ماجه عن ابن عمـر أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم حدثهم : "أن عبدا من عباد الله قال يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا الى السماء وقالا يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها قال الله عزّ وجلّ وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدى قالا يا رب إنه قد قال يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها" .

قال أهل اللغة : أعضل الأمر : اشتد واستغلق؛ والمعضلات (بتشديد الضاد)، الشدائد. وعضّلت المرأة والشاة، إذا نَشِب ولدها فلم يسهل مخرجه؛ بتشديد الضاد أيضا؛ فعلى هـذا يكون : أعضلت الملكين أو عضلت الملكين بغـير باء . والله أعلم . وروى عن مسلم عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطهور شطر الإيمان والحمد لله يملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث .

الثانيـــة — اختلف العلماء أيـما أفضل؛ قول العبد : الحمد لله رب العالمين، أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمـد لله رب العالمين أفضل؛ لأن فى ضمنـه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله ؛ ففى قوله توحيد وحمـد ؛ وفى قوله لا إله إلا الله توحيـد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضـل؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك، وعليها يقاتل الخلق؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" . واختار هـذا القول ابن عطية قال : والحاكم بذلك قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لاشريك له" .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : «فى التذكير» .

الثالثة — أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه، وأن مما أنعم الله به الإيمان، فدل على أن الإيمان فعله وخلقه، والدليل على ذلك قوله : «رب العالمين» . والعالمون جملة المخلوقات، ومن جملتها الإيمان، لا كما قال القَدَرِيّةُ : إنه خَلْقٌ لهم، على ما يأتى بيانه .

الرابعة — الحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا، وقد جمع لفظ الحمد جمع القلة فى قول الشاعر :

وأبلج محمود الثناء خصصته * بأفضل أقوالى وأفضل أحمدى

فالحمد نقيض الذم، تقول : حمدت الرجل أحمده حمدا فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر، والمحمد : الذى كثرت خصاله المحمودة . قال الشاعر :

* إلى الماجد القَرْم الجَوَاد المُحَمَّد *

وبذلك سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الشاعر :

فشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

والمَحْمَدة : خلاف المذمة، وأحمد الرجل : صار أمره الى الحمد، وأحمدته : وجدته محمودا، تقول : أتيت موضع كذا فأحمدته، أى صادفته محمودا موافقا، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه، ورجل حُمَدَة — مثل همزة — يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها . وحَمَدَة النار — بالتحريك — : صوت التهابها .

الخامسة — ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبرد الى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بمرضى . وحكاه أبو عبد الرحمن السلمى فى كتاب «الحقائق» له عن جعفر الصادق وابن عطاء . قال ابن عطاء : معناه الشكر لله اذا كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه . واستدل الطبرى على أنهما بمعنًى بصحة قولك : الحمد لله شكرا . قال ابن عطية : وهو فى الحقيقة دليل على خلاف ماذهب اليه، لأن قولك شكرا، إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم . وقال بعض العلماء : إن الشكر أعم من الحمد، لأنه باللسان وبالجوارح

والقلب، والحمد إنما يكون باللسان خاصة . وقيل : الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح، وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد . وروى عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمة كل شاكر، و إن آدم عليه السلام قال حين عطس : الحمد لله . وقال الله لنوح عليه السلام : «فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» وقال ابراهيم عليه السلام : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ» . وقال فى قصة داود وسليمان : «وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ» وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا» . وقال أهل الجنة : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ» . «وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» . فهى كلمة كل شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان؛ والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان[1] . وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر، والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا؛ فصار الحمد أعم فى الآية لأنه يزيد على الشكر . ويذكر الحمد بمعنى الرضا؛ يقال: بلوته فحمدته، أى رضيته . ومنه قوله تعالى : «مَقَامًا مَحْمُودًا» وقال عليه السلام : "أحمد إليكم غسل الإحليل" أى أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق فى قوله : «الحمد لله» من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد، لأن الحمد حاء وميم ودال؛ فالحاء من الوحدانية، والميم من الملك، والدال من الديمومية؛ فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن ابراهيم فى تفسير «الحمد لله» قال : هو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . والثانى أن ترضى بما أعطاك . والثالث مادامت قوته فى جسدك ألا تعصيه؛ فهذه شرائط الحمد .

---

(١) عقب ذلك ابن عطية فى تفسيره بقوله : فالحامد من الناس قسمان : الشاكر والمثنى بالصفات . و به يتضح كلام المؤلف .

السادسة — أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن في ذلك لغيره، بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه عليه السلام، فقال: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ» وقال عليه السلام: "احثوا في وجوه المداحين التراب" رواه المقداد. وسيأتي القول فيه في النساء ان شاء الله تعالى.

فمعنى الحمد لله رب العالمين: أي سبق الحمد مني لنفسي قبل أن يحمدني أحد من العالمين، وحمدي نفسي لنفسي في الأزل لم يكن بعلة، وحمدي الخلق مشوب بالعلل. قال علماؤنا: فيستقبح من المخلوق الذي لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار. وقيل: لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل؛ فاستفراغ طوق عباده هو محل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: "لا أحصي ثناء عليك". وأنشدوا:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح * فأنت كما نُثْني وفوق الذي نُثْني

وقيل: حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المِنّة.

السابعة — وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من «الحمد لله». وروى عن سفيان بن عيينة ورُؤْبة بن العَجّاج الحمدَ لله، بنصب الدال وهذا على إضمار فعل. ويقال: الحمد لله بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمدا؛ إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله؛ والذي ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله. وقال غير سيبويه. إنما يتكلم بهذا تعرضا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال. وفي الحديث: "من شغل بذكري عن مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين". وقيل: إن مدحه عز وجل لنفسه وثناءه عليها ليعلم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبري:

الحمـد لله ثناء أثنى به على نفســه وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليــه ؛ فكأنه قال : قولوا الحمد لله؛ وعلى هذا يجيء قولوا إياك . وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه ؛ كما قال الشاعر :

وأعلم أنى ساكون رَمْسًا (١) * إذا سار النواعج لا يسـير

فقال السائلون لمن حفـرتم * فقال القـائلون لهم وزير

المعنى المحفور لهم وزير فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير . وروى عن ابن أبى عَبْلَةَ الحمد لُله، بضم الدال واللام على اتباع الثانى الأوّل وليتجانس اللفظ، وطلب التجانس فى اللفظ كثير فى كلامهم، نحو أجُوءُك، وهو منحدُرٌ من الجبل، بضم الدال والجيم . قال :

* أضرب الساقينُ أُمُك هابل *

بضم النون لأجل ضم الهمزة . وفى قراءة لأهل مكة « مُرُدفين » بضم الراء اتبـاعا للميم، وعلى ذلك « مُقُتلين » بضم القاف . وقالوا : لإِمِّك ، فكسروا الهمزة اتباعا للام ؛ وأنشـد النعمان بن بشير :

ويلِ آمِّها فى هـــواء الجو طالبــةً * ولا كهذا الذى فى الأرض مطلوب

الأصل : ويل لأمها ؛ فحذفت اللام الأولى واستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم اتبع اللام الميم . وروى عن الحسن بن أبى الحسن وزيد بن علىّ : الحمـِد لِله ؛ بكسر الدال على اتباع الأوّل الثانى .

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ أى مالكهم ، وكل من ملك شيئا فهو ربه؛ فالرب : المـالك . وفى الصحاح : والرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة؛ وقد قالوه فى الجاهلية للملك، قال الحارث بن حِلِّزة :

وهو الربّ والشهيد على يو * م الحِيَـارَينِ (٢) والبــلاء بلاء

(١) النواعج من الإبل : السراع . (٢) الحيارات : موضع غزا أهله المنذرين ماء السماء .

والرب : السيد؛ ومنه قوله تعالى : «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» وفى الحديث : "أن تلد الأَمَة ربَّتها" أي سيدتها ؛ وقد بيناه فى كتاب (التذكرة) . والرب : المصلح والمدبر والجابر والقائم . قال الهروى وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربّه يربه فهو رب له وراب؛ ومنه سمى الربّانيون لقيامهم بالكتب . وفى الحديث : " هل لك من نعمة تَرُبُّها عليه " أى تقوم بها وتصلحها . والرب : المعبود ؛ ومنه قول الشاعر :

أربٌّ يبول الثُّعْلُبَانُ برأسه　＊　لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب

ويقال على التكثير : ربّاه وربّبه وربته ؛ حكاه النحاس . وفى الصحاح : ورَبَّ فلان ولده يربه ربا وربّبه وتربّبه بمعنًى ، أى رباه . والمربوب : المربّى .

التاسعة — قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم ، لكثرة دعوة الداعين به؛ وتأمل ذلك فى القرآن، كما فى آخر آل عمران وسورة ابراهيم وغيرهما، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع مايتضمنه من العطف والرحمة والافتقار فى كل حال .

واختلف فى اشتقاقه ، فقيل : إنه مشتق من التربية؛ فالله سبحانه وتعالى مدبر لخلقه ومربيهم ، ومنه قوله تعالى : « وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ » . فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل ؛ وعلى أن الرب بمعنى المالك والسيد يكون صفة ذات .

العاشرة — متى أدخلت الألف واللام على رب اختص الله تعالى به لأنها للعهد ؛ وإن حذفتا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده ، فيقال : الله رب العباد ، وزيد رب الدار ؛ فالله سبحانه رب الأرباب ؛ يملك المالك والمملوك ، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمُمَلَّك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنما

يملك شيئا دون شيء ؛ وصفة الله تعالى مخالفة هــذه المعانى ، فهذا الفرق بين صــفة الخالق والمخلوقيـــن .

الحادية عشر — قوله تعـالى : ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ اختلف أهل التأويل فى العالمين اختــلافا كثيرا ؛ فقال قتادة : العالَمون جمع عالَم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالَم؛ قاله الحسين بن الفضل لقوله تعـالى: « أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ » أى من الناس . وقال العجاج :

* فخِنْدِفٌ هامةَ هذا العالَمِ *

وقال جرير بن الخَطَفَى :

تنصــفه البريّة وهو سامٍ * ويُضحِى العالَمون له عِيالا

وقال آبن عباس : العالمون الجن والإنس . دليله قوله تعالى « لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفرّاء وأبو عبيدة : العـالَم عبارة عمن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس والجن والملائكة والشياطين . ولا يقال للبهائم : عالَم لأن هذا الجمع إنمــا هو جمع من يعقل خاصة .

قال الأعشى :

* ما إن سمعت بمثلهم فى العالَمِينا *

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون ؛ ونحوه قول أبى عمرو بن العلاء : هم الروحانيون ، وهو معنى قول آبن عباس أيضــا : كل ذى روح دبّ على وجه الأرض . وقال وهب بن منبه : إن لله عزّ وجلّ ثمانية عشر ألف عالم؛ الدنيا عالم منها . وقال أبو سـعيد الخدرى : إن لله أربعين ألف عالم ؛ الدنيــا من شرقها إلى غربها عالم واحد . وقال مقاتل : العالمون ثمانون ألف عالم ، أربعون ألف عالم فى البر ، وأربعون ألف عالم فى البحر . وروى الربيــع آبن أنس عن أبى العالية قال : الجن عالم ، والإنس عالم؛ وســوى ذلك للأرض أربع زوايا فى كل زاوية ألف وخمسمائة عالم ، خلقهم لعبادته .

قلت : والقول الأوّل أصح هذه الأقوال ؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ، دليله قوله تعالى : « قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » ثم هو مأخوذ من العلم والعلامة ، لأنه يدل على موجده . كذا قال الزجاج قال : العالم كل ما خلقه الله فى الدنيا والآخرة . وقال الخليل : العَلَم والعَلَامة والمَعْلَم : ما دل على الشيء ؛ فالعالَم دال على أن له خالقا ومدبرا ، وهذا واضح . وقد ذُكر أن رجلا قال بين يدى الجُنَيد : الحمد لله ؛ فقال له : أتمها كما قال الله ، قل : رب العالمين ؛ فقال الرجل : ومن العالمين حتى تذكر مع الحق ؟ قال : قل يا أخى ، فإن المحدَث اذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر .

الثانية عشرة ــ يجوز الرفع والنصب فى رب ؛ فالنصب على المدح ، والرفع على القطع ؛ أى هو رب العالمين .

الثالثة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين ، بأنه الرحمن الرحيم ، لأنه لما كان فى اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم ، لما تضمن من الترغيب ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه ، والرغبة إليه ؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع ؛ كما قال : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » . وقال : « غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنِطَ من جنته أحد " . وقد تقدّم ما فى هذين الاسمين من المعانى ، فلا معنى لإعادته .

الرابعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قرأ محمد بن السَّمَيْقَع بنصب مالك ؛ وفيه أربع لغات : مالِك ومَلِك ومَلْك ــ مخففة من مَلِك ــ ومَلِيك ؛ قال الشاعر:(١)

وأيام لنا غُرٌّ طِوال * عصينا المَلْكَ فيها أن ندينا

(١) هو عمرو بن كلثوم .

وقال آخـر (١) :

فاقنع بما قسم المليك فإنما * قسم الخـلائق بيننا علّامُها

الخلائق : الطبائع التى جُبِل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة فى مَلِك ؛ فيقرأ مَلِكى على لغة من يشبع الحركات، وهى لغة للعرب ذ كرها المهدوى وغيره .

الخامسة عشرة — اختلاف العلماء أيما أبلغ : مَلِك أو مالك ؟ والقراءتان مرويتان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر، ذكرهما الترمذى؛ فقيل : مَلِك أعم وأبلغ من مالك؛ إذ كل مَلِك مالك، وليس كل مالك مَلِكا، ولأن أمر المِلك نافذ على المالك فى مِلْكه ، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيل : مالك أبلغ ؛ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم ؛ فالمالك أبلغ تصرفا وأعظم ، إذ اليه إجراء قوانين الشرع ، ثم عنده زيادة التملك .

وقال أبو علىّ : حكى أبو بكر بن السراج عن بعض من آختار القراءة بملك أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شىء بقوله : «رب العالمين» فلا فائدة فى قراءة من قرأ مالك لأنها تكرار . قال أبو على : ولا حجة فى هذا ، لأن فى التنزيل أشياء على هذه الصورة ، تقدّم العام ثم ذِكر الخاص كقوله : « هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ » فالخالق يعم . وذكر المصوّر لما فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة ؛ وكما قال تعالى : « وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » بعد قوله : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » . والغيب يعم الاخرة وغيرها ؛ ولكن ذكرها لعظمها ، والتنبيه على وجوب اعتقادها ، والرّد على الكفرة الجاحدين لها ؛ وكما قال : « الرحمن الرحيم» فذكر الرحمن الذى هو عام وذكر الرحيم بعده ، لتخصيص المؤمنين به فى قوله : « وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » . وقال أبو حاتم : إن مالكا أبلغ فى مدح الخالق من ملك ، وملك أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك ؛ والفرق بينهما أن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا ، واختار هـذا القول القاضى أبو بكر بن العربى وذكر ثلاثة

---

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرى .

أوجه ؛ الأوّل : أنك تضيفه إلى الخاص والعام فتقول : مالك الدار والأرض والثوب ، كما تقول : مالك الملوك . الثانى : أنه يطلق على مالك القليل والكثير ؛ واذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك المُلْك؛ ولا تقول : مَلِك المُلْك . قال ابن الحصار : إنما كان ذلك ، لأن المراد من مالك الدلالة على المِلك بكسر الميم وهو لا يتضمن المُلك بضم الميم ، ومَلِك يتضمن الأمرين جميعا فهو أولى بالمبالغة ؛ ويتضمن أيضا الكمال ، ولذلك آستحق المُلك على من دونه ؛ ألا ترى الى قوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ » ، ولهذا قال عليه السلام : "الإمامة فى قريش" وقريش أفضل قبائل العرب ، والعرب أفضل من العجم وأشرف ؛ ويتضمن الاقتدار والاختيار وذلك أمر ضرورى فى المَلِك إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره ، قهره عدوّه وغلبه غيره وازدرته رعيته ؛ ويتضمن البطش والأمر والنهى والوعد والوعيد ؛ ألا ترى الى قول سليمان عليه السلام : « مَا لِيَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا » . الى غير ذلك من الأمور العجيبة والمعانى الشريفة التى لا توجد فى المالك .

قلت : وقد احتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك . قلت : هذا نظر الى الصيغة لا الى المعنى ، وقد ثبتت القراءة بملك ، وفيه من المعنى ما ليس فى مالك ، على ما بينا والله أعلم .

السادسة عشرة — لا يجوز أن يتسمى أحد بهذا الاسم ولا يدعى به إلا الله تعالى ؛ روى البخارىّ ومسلم عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" وعنه أيضا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن أَخْنَع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك — زاد مسلم — لا مالك إلا الله عزّ وجلّ " قال سفيان[1] : « مثل : شاهان شاه . وقال أحمد بن حنبل : سألت أبا عمرو الشيبانىّ عن اخنع ؛ فقال : أوضع » . وعنه قال قال رسول الله صلى الله

(١) سفيان هذا ، أحد رواة سند هذا الحديث .

عليه وسـلم : " أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل [كان] يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سـبحانه " . قال ابن الحصـار : وكذلك ملك يوم الدين ، ومالك الملك ؛ لا ينبغى أن يختلف فى أن هـذا محرم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء ، وأما الوصف بمالك وملك وهى :

السابعة عشرة — فيجوز أن يوصف بهما من آتصف بمفهومهما ؛ قال الله العظـيم : «إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا» . وقال صلى الله عليه وسلم : " ناس من أمتى عُرِضُوا علىّ غُزاةً فى سبيل الله يركبون ثَبَجَ[(1)] هذا البحر ملوكا على الأسِرّة أو مثل الملوك على الأسرة" .

الثامنـــة عشرة — إن قال قائل : كيف قال « مالك يوم الدين » و يوم الدين لم يوجد بعدُ ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجده ؟ قيل له : اعلم أن مالكا اسم فاعل من ملك يملك ، واسم الفاعل فى كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل و يكون ذلك عندهم كلاما سديدا معقولا صحيحا ، كقولك : هذا ضارب زيد غدا ؛ أى سيضرب زيدا . وكذلك : هذا حاجّ بيت الله فى العـام المقبل ، تأويله سيحج فى العـام المقبل ؛ أفلا ترى أن الفعل قد ينسب اليه وهو لم يفعله بعـدُ ، وإنما أريد به الاسـتقبال؛ فكذلك قوله عزّ وجلّ : « مالك يوم الدين » على تأويل الاستقبال، أى سيملك يوم الدين أو فى يوم الدين اذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المـالك راجعا الى القدرة ؛ أى أنه قادر فى يوم الدين ، أو على يوم الدين وأحداثه ، لأن المـالك للشيء هو المتصرف فى الشيء والقادر عليـه ؛ والله عزّ وجلّ مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته ، لا يمتنع عليه منها شيء .

والوجه الأوّل أمس بالعربية وأنفذ فى طريقها ؛ قاله أبو القاسم الزجاجى .

ووجه ثالث : فيقال لِمَ خصص يوم الدين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن فى الدنيا كانوا منازعين فى الملك ، مثل فرعون ونمروذ وغيرهما ، وفى ذلك اليوم لا ينازعه أحد

(1) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

فى ملكه، وكلهم خضعوا له، كما قال تعالى : « لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ » فأجاب جميع الخلق : « لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ » فلذلك قال : مالك يوم الدين ؛ أى فى ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مُجازٍ غيره ؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة — إنْ وُصف الله سبحانه بأنه ملك كان ذلك من صفات ذاته ، وإنْ وصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

الموفية العشرين — اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر الى وقت غروب الشمس، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة الى وقت استقرار أهل الدارين فيهما . وقد يطلق اليوم على الساعة منه؛ قال الله تعالى : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » . وجمع يوم أيام؛ وأصله أَيْوَام فأدغم ؛ وربما عبّروا عن الشدة باليوم ، يقال : يوم أَيْوَم ، كما يقال : ليلة لَيْلاء . قال الراجز[(1)] :

* نِعمَ أخو الهيجاء فى اليوم ٱليَمِى *

وهو مقلوب منه[(2)] ، أخر الواو وقدّم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طَرَفا؛ كما قالوا : أَدْلٍ فى جمع دَلْوٍ .

الحادية والعشرون — الدّين : الجزاء على الأعمال والحساب بها ، كذلك قال ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وقتادة وغيرهم ، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ ويدل عليه قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ » أى حسابهم . وقال : « ٱلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » و « ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » وقال : « أَئِنَّا لَمَدِينُونَ » أى مجزيون محاسبون . وقال لَبيد :

حصَادُك يوما ما زرعتَ وإنما * يُدَانُ الفتى يوما كما هو دائن

آخر :

إذا ما رمونا رميناهمُ * ودِنّاهمُ مثل ما يُقرضونا

---

(١) هو أبو الأخزر الحمانى كما فى اللسان مادة « يوم » .　　(٢) وهو أى اليمى .

آخــــر :

وآعلم يقينــا(١) أن ملكك زائلٌ * وآعلم بأنّ كما تَدين تُدانُ

وحكى أهل اللغة : دِنْته بفعله دَينا بفتح الدال ودِينا بكسرها جزيته؛ ومنه الدّيّان في صفة الرب تعالى أي المجازي؛ وفي الحديث : "الكيِّس من دان نفسه" أي حاسب؛ وقيــل : القضاء . روى عن ابن عباس أيضا؛ ومنه قول طَرَفة :

لَعَمْرُكَ ما كانت حَمُولة(٢) مَعْبَــدٍ * على جُدّها(٣) حربا لدِينِكَ من مُضَرْ

ومعاني هذه الثلاثة متقاربة . والدِّين أيضا : الطاعة؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيامٍ لنــا غُــرٍّ طِــوالٍ * عصينا المَلْكَ فيها أن ندِينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهي :

الثانيــة والعشرون — قال ثعلب : دان الرجل إذا أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا عز، ودان إذا ذل، ودان إذا قهر؛ فهو من الأضداد . ويطلق الدِّين على العادة والشأن، كما قال :

* كدِينك من أمّ الحُوَيْرِث قبلها *

وقال المُثقِّب [يذكر ناقته] :

تقول إذا دَرَأْتُ لها وَضِيني(٤) * أهــذا دِينُــه أبدا ودِيني

والدِّين : سيرة الملك . قال زهير :

لئن حللتَ بجــوّ في بني أســد * في دِين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ

---

(١) في اللسان مادة (دين) : «قال خويلد بن نوفل الكلابي للحارث بن أبي شمر الغساني وكان قد اغتصبه ابنته :

يا حار أيقن أن ملكك زائل * ... ... الخ

(٢) الحمولة : الإبل التي يحمل عليها . (٣) الجد (بالضم) البئر الجيدة الموضع من الكلأ . والخطاب لعمرو ابن هند وقد أغار على إبل معبد أخي طرفة .

(٤) درأت وضين البعير، إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشده به . والوضين : بطان منسوج بعضه على بعض يشد به الرحل على البعير .

أراد في موضع طاعة عمرو . والدين : الداء، عن اللحياني وأنشد :

* يادِينَ قلبِكَ من سَلْمَى وقد دِينَا *

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : إِيَّاكَ نَعْبُدُ . رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلوين؛ لأن من أول السورة إلى هاهنا خبرا عن الله تعالى وثناء عليه، كقوله : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » . ثم قال : « إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً » . وعكسه : « حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم » . على ما يأتي . و(نعبد) معناه نطيع ؛ والعبادة الطاعة والتذلل، وطريق مُعَبَّد إذا كان مذللا للسالكين؛ قاله الهروي . ونُطقُ المكلف به إقرار بالربوبية وتحقيق لعبادة الله تعالى؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك .(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) أي نطلب العون والتأييد والتوفيق .

قال السلمي في حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغاني يقول : من أقر بإياك نعبد وإياك نستعين، فقد برئ من الجَبْر والقَدَر .

الرابعة والعشرون — إن قيل : لم قدم المفعول على الفعل؟ قيل له : قدم اهتماما، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابيا سبّ آخر فأعرض المسبوب عنه، فقال له الساب : إياك أعني ؛ فقال له الآخر : وعنك أُعرض ، فقدما الأهم ؛ وأيضا لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك فيقدم الفعل على كناية المفعول، وإنما يتبع لفظ القرآن . وقال العجاج :

إياك أدعو فتقبّل مَلَقِي (١) * واغفر خطاياي وكثّر ورقي

ويروى وثَمِّر . وأما قول الشاعر :

* إليكَ حتى بَلَغَتْ إيَّاكا *

فشاذ لا يقاس عليه . والورق بكسر الراء من الدراهم ، وبفتحها المال . وكرر الاسم لئلا يتوهم إياك نعبد ونستعين غيرك .

(١) هو حميد الأرقط . والمعنى : سارت هذه الناقة إليك حتى بلغتك .

الخامسة والعشرون — الجمهور من القرّاء والعلماء على شــدّ الياء من إياك فى الموضعين ؛ وقرأ عمرو بن فائد : إيَاكَ بكسر الهمزة وتخفيف الياء ، وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها ، وهذه قراءة مرغوب عنها ، فإن المعنى يصير : شمسَك نعبد أو ضوءك ؛ وإياة الشمس بكسر الهمزة : ضوءها وقد تفتح . وقال [1] :

سقته إياةُ الشمس إلا لِثاتِه * أُسِفَّ فلم تَكْدِم عليــه بإثمد

فإن أسقطت الهاء مددت . ويقال : الإياة للشمس كالهالة للقمر ، وهى الدارة حولها . وقرأ الفضل الرقاشىّ : أَياك بفتح الهمزة وهى لغة مشهورة ، وقرأ أبو السوّار الغنوى : هياك فى الموضعين وهى لغة ؛ قال :

فهِيّاكَ والأمرَ الذى إن توسعتْ * موارده ضاقت عليك مصــادره

السادسة والعشرون — وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ عطف جملة على جملة ؛ وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش : نِستعين بكسر النون ، وهى لغة تميم وأسد وقيس وربيعة ، ليدل على أنه من استعان فكسرت النون كما تكسر ألف الوصل . وأصل نستعين نستعْوِن ، قلبت حركة الواو الى العين فصارت ياء ، والمصدر استعانة ، والأصل اســتعوان ؛ قلبت حركة الواو الى العين فانقلبت ألفا ولا يلتقى ساكنان فحذفت الألف الثانية لأنهــا زائدة ، وقيل الأولى لأن الثانيــة للعنى ، ولزمت الهاء عوضا .

السابعة والعشرون — قوله تعــالى : ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب ؛ والمعنى دلّنا على الصراط المستقيم وأرشدنا اليه ، وأرنا طريق هدايتك الموصــلة الى أنسك وقربك . قال بعض العلمــاء : فجعل الله جلّ وعزّ عظم الدعاء وجملته موضوعا فى هذه السورة ، نصفها فيه مجمع الثناء ، ونصفها فيه مجمع الحاجات ، وجعل هــذا

(١) قائله طرفة بن العبد . والهاء فى «سقته» و «لثاته» يعود على الثغر، وكذا المضمر الذى فى «أسف» . ومعنى سقته : حسنته و بيضته وأشر به حسنا . وأسف : ذرّ عليه . ولم تكدم عليه ، أى لم تعضض عظما فيؤثر فى ثغرها . (عن شرح المعلقــات) .

الدعاء الذى فى هذه السورة أفضل من الذى يدعو به [الداعى] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين ، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذى تكلم به؛ وفى الحديث: "ليس شىء أكرم على الله من الدعاء" . وقيل المعنى : أرشدنا باستعمال السنن فى أداء فرائضك ؛ وقيل الأصل فيه الإمالة ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ» أى ملنا؛ وخرج عليه السلام فى مرضه يُهَادَى بين اثنين ، أى يتمايل ؛ ومنه الهدية لأنها تمال من مِلك الى مِلك . ومنه الهَدْىُ للحيوان الذى يساق الى الحرم ؛ فالمعنى مِل بقلوبنا الى الحق . وقال الفُضيل بن عِيَاض : الصراط المستقيم طريق الحج ، وهذا خاص والعموم أولى؛ قال محمد ابن الحنفية فى قوله عزّ وجل : «اهدِنا الصراط المستقيم» : هو دين الله الذى لايقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحول عن أبى العالية : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده؛ قال عاصم فقلت للحسن: إن أبا العالية يقول: الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه ، قال : صدق ونصح .

الثامنة والعشرون — أصل الصراط فى كلام العرب الطريق ؛ قال عامر بن الطُّفيل :

شحنّا أرضهم بالخيل حتى * تركناهم أذلّ من الصراط

وقال جرير :

أمير المؤمنين على صراطٍ * إذا اعوجّ الموارد مستقيمِ

وقال آخر :

* فصدّ عن نهج الصراط الواضح *

وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغة الروم ؛ قال ابن عطية : وهذا ضعيف جدّا ، وقرئ : السراط بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع ؛ كأن الطريق يسترط من يسلكه . وقرئ بين الزاى والصاد ؛ وقرئ بزاى خالصة والسين الأصل ؛ وحكى سَلَمَة عن الفرّاء قال : الزراط بإخلاص الزاى لغة لعُذْرة وكلب وبنى القَين، قال : وهؤلاء يقولون [فى أصدق] : أزدق . وقد قالوا : الأَزْد والأَسْد ، ولسق به ولصق به . والصراط نصب على المفعول الثانى لأن الفعل من الهداية يتعدّى الى المفعول الثانى بحرف جر؛ قال الله تعالى : « فَاهْدُوهُمْ

الَى صِرَاطِ الجَحِيمِ » . وبغير حرف كما فى هــذه الآية . المستقيم صــفة للصراط، وهو الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ومنه قوله تعالى : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ » وأصله مستقوم، نقلت الحركة الى القاف وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

التاسعة والعشرون — صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ . صراط بدل من الأول بدل الشيء من الشيء، كقولك : جاءنى زيد أبوك . ومعناه : أدم هدايتنا، فإن الإنسان قد يُهدَى الى الطريق ثم يقطع به، وقيل : هو صراط آخر، ومعناه العلم بالله جلّ وعزّ والفهم عنه ؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن الذين فى الرفع والنصب والجر، وهذيل تقول : اللذون فى الرفع، ومن العرب من يقول : اللذون، ومنهم من يقول : الذى وسيأتى .

وفى عليهم عشر لغات : قرئ بعامتها عليهُمْ بضم الهاء وإسكان الميم ، وعليهِم بكسر الهاء وإسكان الميم، وعليهِمِى بكسر الهاء والميم وإلحاق ياء بعد الكسرة ، وعليهِمُو بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعــد الضمة ، وعليهمو بضم الهــاء والميم كلتيهما وإدخال واو بعــد الميم ، وعليهُمُ بضم الهاء والميم من غير زيادة واو ؛ وهذه الأوجه الستة مأثورة عن الأئمة من القراء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب غير محكية عن القراء : عليهُمِى بضم الهاء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم، حكاها الحسن[3] البصرى عن العرب ؛ وعليهُمِ بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء، وعليهِمُ بكسر الهــاء وضم الميم من غير إلحاق واو، وعليهِمِ بكسر الهاء والميم ولا ياء بعــد الميم، وكلها صواب قاله ابن الأنبارى .

الموفية الثلاثين — قرأ عمر بن الخطاب وابن الزبير رضى الله عنهما «صراط من أنعمت عليهــم» . واختلف الناس فى المنعم عليهم ؛ فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين . وانتزعوا ذلك من قوله تعــالى : « وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ

(١) أى قوله تعالى : اهدنا وما بعده . (٢) أى افرادا أوجمعا فى الرفع والنصب والجر كما يؤخذ من لسان العرب . (٣) فى بعض نسخ الأصل : « الأخفش البصرى » وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة .

أُولَئِكَ رَفِيقًا » فالاية تقضى أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب فى آية الحمد، وجميع ما قيل الى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون — فى هذه الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله منـه، طاعة كانت أو معصية؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج فى صدورها عنه الى ربه؛ وقد أكذبهم الله تعالى فى هذه الآية إذ سألوه الهداية الى الصراط المستقم؛ فلوكان الأمر اليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال فى كل صلاة؛ وكذلك تضرعهم اليه فى دفع المكروه، وهو ما يناقض الهـداية حيث قالوا : « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » . فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألّا يضلهم، وكذلك يدعون فيقولون : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا» الآية .

الثانيـة والثلاثون — غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ اختلف فى المغضوب عليهم والضالين مَن هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى؛ وجاء ذلك مفسرا عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فى حديث عدىّ بن حاتم وقصة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده، والترمذى فى جامعه . وشهد لهذا التفسير أيضا قوله سبحانه فى اليهود: « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ» وقال : « وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » وقال فى النصارى : « قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ » . وقيل المغضوب عليهم المشركون . ولا الضالين المنافقون . وقيل المغضوب عليهم هو من أسقط فرض هذه السورة فى الصلاة؛ والضالين عن بركة قراءتها، حكاه السلمىّ فى حقائقه والمـاوردى فى تفسيره — وليس بشىء — قال المـاوردى : وهـذا وجه مردود؛ لأن ما تعارضت فيـه الأخبار وتقابلت فيـه الآثار وانتشر فيه الخلاف، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : المغضوب عليهم باتباع البدع؛ والضالين عن سنن الهدى .

قلت : وهذا حسن ؛ وتفسير النبيّ صلى الله عليــه وسلم أولى وأعلى وأحسن . وعليهم في موضع رفع ، لأن المعنى غضب عليهم . والغضب في اللغة الشــدّة؛ ورجل غضوب أى شديد الخُلُق . والغَضُوب : الحية الخبيثة لشدّتها . والغَضْبَة : الدَّرَقَة من جلد البعير يُطوى بعضها على بعض؛ سميت بذلك لشدّتها . ومعنى الغضب في صفة الله تعالى إرادة العقوبة ، فهو صفة ذات ، وإرادة الله تعــالى من صفات ذاته ؛ أو نفس العقوبة، ومنــه الحديث : "إن الصدقة لتطفئ غضب الرب" فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون — ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الضلال في كلام العرب هو الذهاب عن سَنَن القصد وطريق الحق، ومنــه : ضل اللبن في المــاء أى غاب . ومنــه : «أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ» أى غبنا بالموت وصرنا ترابا؛ قال :

ألم تســأل فتخــبرك الديار * عن الحيّ المضلّل أين ساروا

والضُّلَضِلَة : حجــر أملس يردّده المــاء في الوادى ؛ وكذلك الغَضْبة : صخرة في الجبــل مخالفة لونه، قال :

* وغضبة في هضبة ماأمنعا *

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطــاب وأبيّ بن كعب « غير المغضوب عليهم وغير الضالين » وروى عنهما في الراء النصب والخفض في الحرفين؛ فالخفض على البدل من الذين أو من الهاء والميم في عليهــم؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعــارف ، إلا أنّ الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام ؛ فالكلام بمنزلة قولك : إنى لأمُرّ بمثلك فأكرمه ؛ أو لأن غير تعرّفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما ، كما تقول : الحيّ غير الميت ، والساكن غير المتحرك ، والقائم غير القاعد ، قولان : الأوّل للفــارسيّ ، والثانى للزمخشريّ . والنصب في الراء على وجهين : على الحال من الذين، أو من الهــاء والميم في عليهــم ، كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم . أو على الاستثناء ، كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعنى وحُكى عن الخليل .

الخامسة والثلاثون — « لا » فى قوله « ولا الضالين » اختلف فيها، فقيل هى زائدة قاله الطبرى. ومنه قوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » وقيل : هى تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين، حكاه مكى والمهدوى. وقال الكوفيون : «لا» بمعنى غير وهى قراءة عمر وأبى وقد تقدم.

السادسة والثلاثون — الأصل فى الضالين : الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام فى اللام فاجتمع ساكنان مدة الألف واللام المدغمة. وقرأ أيوب السختيانى : ولا الضألين بهمزة غير ممدودة كأنه فر من التقاء الساكنين وهى لغة. حكى أبو زيد قال : سمعت عمرو بن عبيد يقرأ : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَأْنٌّ ». فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دأبة وشأبة؛ قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كُثَيّر :

* إذا ما العَوالى بالعبيط احمأرّت (١) *

نجز تفسير سورة الحمد، ولله الحمد والمنّة.

---

(١) عوالى الرماح : أسنتها. واحدتها عالية. العبيط : الدم الطرى. أحمر الشىء واحمأر بمعنى.

تفسير سورة البقرة

"بحول الله وكرمه ، لا رب سواه"

وأول مبدوء به الكلام فى نزولها وفضلها وما جاء فيها ؛ وهكذا كل سورة إن وجدنا لها ذلك؛ فنقول :

سـورة البقرة مدنيـة، نزلت فى مُدَد شتّى؛ وقيل : هى أوّل سـورة نزلت بالمدينـة، إلا قوله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » فإنه آخر آية نزلت من السماء ، ونزلت يوم النَّحْر فى حِجّة الوَداع بِمِنًى؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن .

وهــذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم ؛ ويقال لهـا : فسطاط القرآن . قاله خالد ابن مَعْدَان ؛ وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها ؛ وتعلمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى اثنتى عشرة سنة، وابنُه عبدُ الله فى ثمـانى سنين كما تقدّم

قال ابن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألف أمر وألف نهى وألف حُكْم وألف خبر . وبعَثَ رسول الله صلى الله عليه وسـلم بَعْثًا وهم ذوو عدد وقدّم عليهم أحدثهم سنا، لحفظه سورة البقرة، وقال له : "اذهب فأنت أميرهم" أخرجه الترمذى عن أبى هريرة وصححه . وروى مسلم عن أبى أمامة الباهلىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البَطَـلة" قال معاوية (١) : بلغنى أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : "لا تجعلوا بيوتكم مقابر إنّ الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سـورة البقرة" . وروى الدارمىّ عن عبد الله قال : ما من بيت يقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال : إن لكل شىء سَناما وإن سَنام القرآن سورة البقرة؛ وإن لكل شىء لُبابا وإن لباب القرآن المفصّل ؛ قال أبو محمد الدارمىّ : اللباب : الخالص . وفى صحيح البُستىّ

(١) معاوية هذا ، هو أحد رواة سند هذا الحديث .

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لكل شيء سناما وإن سنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها في بيته ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيتــه ثلاثة أيام" . قال أبو حاتم البستي : قوله صـلى الله عليـه وسلم : "لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام" أراد : مردة الشياطين . وروى الدارمي في مسنده عن الشعبي قال قال عبد الله : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليـلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح ، أربعا من أولهـا وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاثا خواتيمها ، أولهـا : « لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ » . وعن الشعبي عنـه : لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ، ولا يُقرأن على مجنون إلا أفاق . وقال المغيرة بن سبيع : — وكان من أصحاب عبد الله — لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى : لم ينس ما قـد حفظ . قال أبو محمد الدارمي : منهم من يقول : المغيرة بن سميع .

وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان لبيد بن ربيعة [بن عامر](1) بن مالك بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ، أدرك الإسلام فحسن إسلامه وترك قول الشعر في الإسلام ، وسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشده ، فقرأ سورة البقرة ؛ فقال : إنما سألتك عن شعرك ، فقال : ما كنت لأقول بيتا من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران ، فأعجب عمر قوله ، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقـد قال كثير من أهل الأخبار : إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل في الإسلام إلا قوله :

الحمــد لله إذ لم يأتني أجـلي * حتى اكتسيتُ من الإسلام سِربالا

قال ابن عبد البر : وقد قيل إن هـذا البيت لقَرَدة بن نُفاثة السَّلولي ، وهو أصح عندي ، وقال غيره : بل البيت الذي قاله في الإسلام :

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه * والمرءُ يصلحه القرينُ الصالح

وسيأتي ما ورد في آية الكرسي وخواتيم البقرة ، ويأتي في أول سورة آل عمران زيادة بيان لفضل هذه السورة إن شاء الله تعالى .

(١) الزيادة عن كتاب الإستيعاب (ج ١ ص ٢٣٥) طبع الهند .

بسم الله الرحمن الرحيم

" رب يسر وأعن "

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

اختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور ؛ فقال عامر الشعبى وسفيان الثورى وجماعة من المحدّثين : هى سر الله فى القرآن، ولله فى كل كتاب من كتبه سر ، فهى من المتشابه الذى انفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن يتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت، وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما . وذكر أبو الليث السمرقندى عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطعة فى القرآن إلا فى أوائل السور ، ولا ندرى ما أراد الله جلّ وعزّ بها .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنبارى : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا أبو بكر بن أبى طالب حدّثنا أبو المنذر الواسطى عن مالك بن مِغْوَل عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خُثَيْم(١) قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فآستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء، فأما ما آستأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه ، وأما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعملون. قال أبو بكر : فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم، اختبارا من الله عزّ وجلّ وامتحانا؛ فمن آمن بها أثيب وسعد، ومن كفر وشكّ أثِم وبَعُد. حدّثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضى حدّثنا محمد بن أبى بكر حدّثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حُرَيث بن ظُهَير عن عبد الله قال : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ؛ ثم قرأ : « ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ » .

(١) قال صاحب تهذيب التهذيب : «فى التقريب الربيع بن خثيم» بضم المعجمة وفتح المثلثة، ولكن فى الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

قلت : هــذا القول فى المتشابه وحكمه، وهو الصــحيح على ما يأتى بيانه فى آل عمران إن شاء الله تعــالى . وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيهــا، ونلتمس الفوائد التى تحتها ، والمعانى التى تتخرج عليهــا ، واختلفوا فى ذلك على أقوال عديدة ؛ فروى عن ابن عباس وعلى أيضا : أن الحروف المقطعة فى القرآن اسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قُطْرُب والفراء وغيرهما : هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بهــا العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى منهــا بناء كلامهم ، ليكون عجزهم عنــه أبلغ فى الحجة عليهم إذ لم يخــرج عن كلامهم . قال قطرب : كانوا ينفرون عنــد استماع القرآن ، فلما سمعوا : « الٓمٓ » و « الٓمٓصٓ » استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلّى الله عليه وسلّم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم. وقال قوم: روى أن المشركين لمــا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا: « لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ » نزلت ليستغربوها فيفتحون لهــا أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هى حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها ، كقول ابن عباس وغيره : الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد صلى الله عليه وســلم . وقيل : الألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد . وروى أبو الضُّحَى عن ابن عباس فى قوله : « الٓمٓ » قال : أنا الله أعلم، « الٓر » أنا الله أرى، « الٓمٓصٓ » أنا الله أفصل . فالألف تؤدّى عن معنى أنا ، واللام تؤدّى عن اسم الله، والميم تؤدّى عن معنى أعلم . واختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب الى أن كل حرف منها يؤدّى عن معنى؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لها ووضعا بدل الكلمات التى الحروف منها؛ كقوله :

* فقلت لها قفى فقالت قاف *

اراد : قالت وقفت . وقال زهير :

بالخير خيراتٍ وإن شرًّا فَا * ولا أريد الشر إلا أنْ تَا

أراد : وإن شرًّا فشرٌّ . وأراد : إلا أن تشاء .

وقال آخر :

نادوهم ألَا الجموا ألَا تَا * قالوا جميعا كلهــم ألَا فَا

أراد : ألا تركبون ، قالوا : ألا فاركبوا . وفى الحديث : " من أعان على قتــل مسلم بشــطر كلمة " قال شقيق : هو أن يقول فى اقتــل : اُقْ ؛ كما قال عليه الســلام " كفى بالسيف شا " معناه : شافيا .

وقال زيد بن أسلم : هى أسماء للســور . وقال الكلبى : هى أقسام أقسم الله تعــالى بها لشرفها وفضلها؛ وهى من أسمائه عن آبن عباس أيضا . وردّ بعض العلماء هذا القول فقال : لا يصح أن يكون قسما لأن القسم معقود على حروف مثل : إنّ وقــد ولقد وما ؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف ، فلا يجوز أن يكون يمينا . والجواب أن يقال : موضع القسم قوله تعالى : « لا ريب فِيهِ » فلو أن إنسانا حلف فقال : والله هذا الكتاب لَا رَيْبَ فيه ؛ لكان الكلام ســديدا ، وتكون لا ، جواب القسم . فثبت أن قول الكلبى وما روى عن آبن عباس سديد صحيح .

فإن قيل : ما الحكمة فى القسم من الله تعالى ، وكان القوم فى ذلك الزمان على صنفين : مصدق ، ومكذب؛ فالمصدق يصدق بغير قسم ، والمكذب لا يصدق مع القسم؟ . قيل له : القرآن نزل بلغة العرب ؛ والعرب اذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه ؛ والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أنّ القرآن من عنده . وقال بعضهم : « الم » أى أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة فى قوله : « الم » قال : اسم من أسماء القرآن . وروى عن محمد بن علىّ الترمذى أنه قال : إن الله تعالى أودع جميع مافى تلك السورة من الأحكام والقصص فى الحروف التى ذكرها فى أوّل السورة ، ولا يعرف ذلك إلا نبىّ أو ولىّ ، ثم بيّن ذلك فى جميع السورة ليفقه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال؛ فالله أعلم .

والوقف على هــذه الحروف على السكون لنقصانها إلا اذا أخبرت عنهــا أو عطفتها فإنك تعربها ؛ واختلف : هل لها محل من الإعراب ؟ فقيل : لا لأنها ليست أسماء متمكنة ، ولا افعالا مضارعة؛ وإنما هى بمنزلة حروف التهجى فهى محكية؛ هذا مذهب الخليل وسيبويه .

ومن قال : إنها أسماء السور فوضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ابتداء مضمر، أى هـذه « الم » كما تقول : هذه سورة البقرة ، أو تكون رفعا على الابتداء والخبر ذلك ؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ابن كيسان النحوى : « الم » فى موضع نصب ؛ كما تقول : آقرأ « الم » أو عليك « الم » وقيل : فى موضع خفض بالقسم، لقول ابن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ قيل : المعنى هذا الكتاب، وذلك قد تستعمل فى الإشارة الى حاضر، و إن كان موضوعا للاشارة الى غائب ، كما قال تعالى فى الإخبار عن نفســه جلّ وعزّ : « ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » ؛ ومنه قول خُفَاف بن نُدْبة :

أقول له والرمحُ يأطِرُ(١) مَتْنَه * تأمّل خُفافا إننى أنا ذلكا

أى انا هذا، فذلك إشارة إلى القرآن، موضوع موضع هذا، تلخيصه الم هذا الكتاب لا ريب فيه، وهذا قول أبى عبيدة وعكرمة وغيرهما، ومنه قوله تعالى : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ » « تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ » أى هذه، لكنها لمـا انقضت صارت كأنها بعدت، فقيل تلك . وفى البخارى وقال معمر : ذلك الكتاب، هذا القرآن : ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ بيان ودلالة كقوله : « ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ » هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء هذا بمعنى ذلك، ومنه قوله عليه السلام فى حديث أُمّ حَرام : "يركبون ثَبَج هذا البحر" أى ذلك البحر، والله أعلم . وقيل هو على بابه إشارة إلى غائب .

واختلف فى ذلك الغائب على أقوال عشرة، فقيــل : ذلك الكتاب، أى الكتاب الذى كتبتُ على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق لا ريب فيه، أى لا مبدل له . وقيل: ذلك الكتاب، أى الذى كتبتُ على نفسى فى الأزل أن رحمتى ســبقت غضبى . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "لمـا قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده أنّ رحمتى تغلب غضبى" فى رواية : «سبقت» . وقيل:

---

(١) يأطر : يثنى .

إن الله تعالى قد كان وعد نبيّه عليه السلام أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه المـاء؛ فأشار إلى ذلك الوعد كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حِمَار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ”إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال انمـا بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليـك كتابا لا يغسله المـاء تقرؤه نائمـا و يقظانَ“ الحديث . وقيل : الإشارة الى ما قـد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى لـما أنزل على نبيّه صلى الله عليه وسلم بمكة : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مستشرفا لإنجاز هـذا الوعد من ربّه عزّ وجلّ ؛ فلما أنزل عليه بالمدينة : « الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ » كان فيه معنى هـذا القرآن الذى أنزلته عليك بالمدينة، ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحيه اليك بمكة . وقيل : إن ذلك إشارة الى ما فى التوراة والإنجيل . و « الم » اسم للقـرآن؛ والتقدير هـذا القرآن ذلك الكتاب المفسر فى التـوراة والإنجيل؛ يعنى أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته و يستغرق ما فيهما و يزيد عليهما ما ليس فيهما . وقيـل : إن ذلك الكتاب إشارة إلى التـوراة والإنجيل كليهما؛ والمعنى : الم ذانك الكتابان أو مثل ذينك الكتابين؛ أى هـذا القرآن جامع لـما فى ذينك الكتابين فعبر بذلك عن الاثنين بشاهد من القرآن؛ قال الله تبارك وتعالى : « إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ » أى عوان بين تينك : الفارض والبكر ؛ وسيأتى . وقيل : إن ذلك إشارة إلى اللوح المحفوظ ؛ وقال الكسائى : ذلك إشارة إلى القـرآن الذى فى السماء لم ينزل بعدُ . وقيـل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد صلى الله عليـه وسلم كتابا ، فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرد : المعنى هـذا القرآن ذلك الكتاب الذى كنتم تستفتحون به على الذين كفروا . وقيـل : إلى حروف المعجم فى قول من قال : « الم » الحروف التى تحديتكم بالنظم منها .

والكتاب مصـدر من كتب يكتب إذا جمع ؛ ومنه قيـل : كَتِيبة لاجتماعها ، وتكتّبت الخيل صارت كتائب . وكتَبْتُ البغلةَ إذا جمعتَ بين شُفْرَىْ رَحِمِهَا بحلقة أو سير؛ قال :

لا تأمنَنّ فَزارِيًّا حللتَ به * على قَلُوصك وا كْتُبْها بأسيارِ

والكتبة (بضم الكاف) : الخُرْزَة، والجمع كُتَبٌ، والكَتْبُ : الخَرْز . قال ذو الرُّمة :

وَفْرَاءَ غَرْفِيَّةٍ أَثْأَى خَوارِزُها * مُشَلْشَلٌ ضَيَّعَتْه بينها الكُتَبُ (1)

والكتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أو متفرقة ، وسمى كتابا وإن كان مكتوبا كما قال الشاعر :

تُؤَمِّلُ رَجْعَـةً مِنِّى وفيهـا * كِتَابٌ مثلَ ما لَصِقَ الغِرَاء

والكتاب : الفَرْض والحُكم والقَدَر، قال الجعدى :

يَا ٱبْنَةَ عَمِّى كتاب الله أخرجنى * عنكم وهل أمنعنّ الله ما فعلا

قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ ﴾ نفى عام، ولذلك نصب الريب به . وفى الريب ثلاثة معان :

أحدها — الشك، قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

ليس فى الحق يا أُمَيْمَةُ رَيْبٌ * إنمـا الرَّيْبُ ما يقول الجهول

وثانيها — التُّهَمَة، قال جَميل :

بُثَينةُ قالت يا جَميلُ أَرَبْتَنِى * فقلت كلانا يابثين مُرِيب

وثالثها — الحاجة، قال (2) :

قضينا من تِهَامَةَ كلّ رَيْب * وخَيْـبَرَ ثم أَجْمَمْنَا السيوفا

فكتاب الله تعالى لا شك فيــه ولا ارتياب ؛ والمعنى أنه فى ذاته حق وأنه منزل من عند الله، وصفة من صفاته، غير مخلوق ولا محدث، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه النهى أى لا ترتابوا، وتم الكلام، كأنه قال ذلك الكتاب حقا . وتقول : رابنى هذا الأمرُ اذا أدخل عليك شكا وخوفا . وأراب : صار ذا ريبــة فهو مُرِيب . ورابنى أمره . ورَيْبُ الدهر : صروفه .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فيه ست مسائل :

---

(1) قوله : وفراء، أى واسعة . وغرفية : مدبوغة بالغرف، وهو نبت تدبغ به الجلود . وأثأى وأثاى (بسكون الهمزة وفتحها) : خرم خرز الأديم . والمشلشل : الذى يكاد يتصل قطاره وسيلانه لتتابعه .

(2) هو كعب بن مالك الأنصارى ؛ كما فى اللسان مادة (ريب) .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ﴾ الهاء في فيه في موضع خفض بفي ، وفيه خمسة أوجه ؛ أجودها : فيهِ هُدى ، ويليه فيهُ هُدى بضم الهاء بغير واو وهي قراءة الزهري وسلام أبي المنذر[1] ، ويليه فيهي هُدى بإثبات الياء وهي قراءة ابن كثير ، ويجوز فيهُو هُدى بالواو ، ويجوز فيه هدى مدغما ؛ وارتفع هدى على الابتداء والخبر فيه . والهُدَى في كلام العرب معناه الرشد والبيان ، أي فيه كشف لأهل المعرفة ورشد وزيادة بيان وهدى .

الثانية — الهُدَى هُديان : هُدَى دلالة ، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم ؛ قال الله تعالى : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » وقال : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه ؛ وتفرد هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب ؛ ومنه قوله تعالى : « أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ » وقوله : « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » . والهُدَى : الاهتداء ومعناه راجع الى معنى الإرشاد كيفما تصرفت . قال أبو المعالي : وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين الى مسالك الجنان والطرق المفضية اليها ؛ من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين : « فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ » ومنه قوله تعالى « فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » معناه فاسلكوهم اليها .

الثالثة — الهدى لفظ مؤنث . قال الفراء : بعض بني أسد تؤنث الهدى فتقول : هذه هُدَى حسنة . وقال اللحياني : هو مذكر ، ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرك ، ويتعدى بحرف وبغير حرف وقد مضى في الفاتحة ، تقول : هديته الطريق والى الطريق ، والدارَ والى الدار أي عرفته ، الأولى لغة أهل الحجاز والثانية حكاها الأخفش . وفي التنزيل : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » و « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا » . وقيل : إن الهدى اسم من أسماء النهار ، لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربهم ؛ ومنه قول ابن مُقْبل :

[حتى استبنتُ الهُدَى والبيدُ هاجمةٌ * يَخْشَعْنَ في الآل غُلْفًا أو يُصلِّينا][2]

(١) أي بعد الهاء من « فيه » .

(٢) هذا البيت ساقط في جميع الأصول ؛ والزيادة من اللسان مادة (هدى) . والبحر المحيط في هذا الموضوع .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خص الله تعالى المتقين بهدايته و إن كان هدى للخلق أجمعين تشريفا لهم ، لانهم آمنوا وصـدقوا بما فيه . وروى عن أبى رَوْق أنه قال : هدى للتقين أى كرامة لهم ، يعنى إنمـا أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامة لهم و بيانا لفضلهم . وأصـل للتقين : للوتقيين بياءين مخففتين حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم فى اجتماع الواو والتـاء وأدغمت التاء فى التاء فصار للتقين .

الخامســـة — التقوى يقال أصـلها فى اللغة قلة الكلام ؛ حكاه ابن فارس . قلت : ومنه الحديث : "التَّقِيُّ مُلْجَم والمتَّقِي فوق المؤمن والطائع" وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعـالى ، مأخوذ من اتقاء المكروه بمـا تجعله حاجزا بينك و بينه ؛ كما قال النابغـــة :

سقط النَّصِيفُ[(١)] ولم تُرِد إسقاطه * فتناولتـــه واتّقتـــنا باليـــد

وقال آخر :

فألقت قناعا دونه الشمس واتّقت * بأحسن موصـــولين كَفٍّ ومِعْصَم

وخرّج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبِى أبى عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زِرّ بن حُبَيش عن ابن مسـعود قال قال يوما لابن أخيه : يابن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قال : نعم ؛ قال : لا خير فيهـم إلا تائب أو تقى . ثم قال : يابن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ؛ قال : لا خير فيهـم إلا عالم أو متعـلم . وقال أبو يزيد البِسْطامى : المتّقى من اذا قال قال لله، ومن اذا عمـل عمل لله . وقال أبو سليمان الدّارانى : المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حبّ الشهوات . وقيـل : المتقى الذى اتقى الشرك وبرئ من النفاق . قال ابن عطية : وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسـق . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبَيًّا عن التقوى؛ فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ؛

(١) النصيف : ثوب تجلل به المرأة فوق ثيابها كلها ؛ سمى نصيفا لأنه نصف بين الناس وبينها فحجز أبصارهم عنها .

قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمّرت وحذرت ؛ قال : فذاك التقوى . وأخذ هــذا المعنى ابن المعتز فنظمه :

خَلِّ الذنوب صغيرها * وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنّ صغيرة * إن الجبال من الحصى

السادســة — التقوى فيها جماع الخير كله، وهى وصية الله فى الأولين والآخرين، وهى خير ما يستفيده الإنسان ؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشّعر وأنت ما حُفظ عنك شيء ؛ فقال :

يريد المرء أن يُؤتَى مُنَاه * ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما استفادا

وروى ابن ماجه فى سننه عن أبى أُمامة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه كان يقول : "ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر اليها سرّته وإن أقسم عليها أبرّته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله" .

والأصل فى التقوى : وَقْوَى على وزن فَعْلَى فقلبت الواو تاء من وَقَيْته أقيه أى منعته ؛ ورجلٌ تقِيّ أى خائف، أصله وقى؛ وكذلك تقاة كانت فى الأصل وقاة كما قالوا : تجاه وتراث، والأصل وجاه ووراث :

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ فيها ست وعشرون مسئلة .

الأولى — قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ فى موضع خفض نعت للتقين ، ويجوز الرفع على القطع أى هم الذين ، ويجوز النصب على المدح . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون ؛ والإيمان فى اللغة : التصديق ؛ وفى التنزيل : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا » أى بمصدق ؛ ويتعدى بالباء واللام ؛ كما قال : « وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ » « فَمَا آمَنَ لِمُوسَى » . وروى حجاج بن حجاج

الأحول — ويلقب بزق العسل — قال سمعت قتادة يقول : يا ابن آدم، إن كنت لاتريد أن تأتى الخير إلا عن نشـاط فان نفسك مائلة الى السآمة والفترة والملة ، ولكن المؤمن هو المتحامل[1] ، والمؤمن هو المتقوّى، والمؤمن هو المتشـدّد ، وإن المؤمنين هم العجّاجون[2] الى الله الليل والنهـار ؛ والله ما يزال المؤمن يقول : ربّنا ربّنا فى السرّ والعلانيـة حتى استجاب لهم فى السر والعلانية .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الغيب فى كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منـه : غابت الشمس تغيب ؛ والغيبة معروفة . وأغابت المرأة فهى مغيبة اذا غاب عنها زوجها ؛ ووقعنا فى غَيبة وغَيابة ، أى هبطة من الأرض ؛ والغيابة : الأجمة ، وهى جماع الشجر يغاب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثـــة — واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ؛ فقالت فرقة : الغيب فى هـذه الآية : الله سـبحانه . وضعّفه ابن العربى . وقال آخرون : القضا والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيـه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السـلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهـذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السـلام حين قال للنبىّ صـلّى الله عليه وسـلّم : فأخبرنى عن الإيمان . قال : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشره " . قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبدالله بن مسعود: ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: «الذين يؤمنون بالغيب» .

قلت : وفى التنزيل : « وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ » وقال : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُـمْ بِالْغَيْبِ » . فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مرئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاستـدلال ؛

(١) تحامل فى الأمر وبه : تكلفه على مشقة وإعياء .　　(٢) العج : رفع الصوت بالتلبية .

فهم يؤمنون أن لهم ربًّا قادرا يجازى على الأعمـال ، فهم يخشونه فى سرائرهم وخلواتهـم التى يغيبون فيها عن الناس ، لعلمهم باطلاعه عليهم ؛ وعلى هذا تتفق الآى ولا تتعارض ؛ والحمد لله . وقيل : بالغيب أى بضمائرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين ؛ وهذا قول حسن . وقال الشاعر :

وبالغيب آمنّا وقد كان قومُنا * يصلّون للأوثان قبل محمّـد

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ معطوف جملة على جملة ؛ وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها فى أوقاتها على ما يأتى بيانه ؛ يقال : قام الشىء أى دام وثبت ؛ وليس من القيام على الرِّجْل ؛ وإنما هو من قولك : قام الحق أى ظهـر وثبت ؛ قال الشاعر :

* وقامت الحرب بنـا على ساق *

وقال آخر :

وإذا يقال أتيتمُ لم يبرحـوا * حتى تُقيم الخيلُ سُوقَ طِعانِ

وقيـل : يقيمون يديمون ، وأقامه أى أدامه ؛ وإلى هـذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لمـا سواها أضيع .

الخامسـة — إقامة الصلاة معروفة ؛ وهى سنة عند الجمهور ، وأنه لا إعادة على تاركها ؛ وعند الأوزاعى وعطاء ومجاهـد وابن أبى ليلى هى واجبة وعلى من تركها الإعادة ؛ وبه قال أهل الظـاهر . وروى عن مالك ، واختـاره ابن العربى قال : لأن فى حديث الأعرابى "وأقم" فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والاستقبال والوضوء .

قال : فأما أنتم الآن وقد وقفتم على الحـديث فقد تعيّن عليكم أن تقولوا بإحدى روايتى مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض . قال ابن عبد البر قوله صلى الله عليه وسـلم : "وتحريمها التكبير" دليل على أنه لم يَدخل فى الصـلاة من لم يُحْرِم ، فـا كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شىء فيسلم للإجمـاع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك ؛ وقال بعض علمائنا : من تركها عمدا أعاد الصلاة ، وليس ذلك لوجوبهـا إذ لو كان ذلك لاستوى سهوها وعمدها ، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن ، والله أعلم .

السادســـة — واختلف العلمـاء فيمن سمع الإقامة هل يُسرع أوْلا ؟ فذهب الأكثر الى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام : "اذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تَسعَون وأتوها تمشون وعليكم السَّكينة فما أدركتم فصلُّوا وما فاتكم فأتمُّوا" . رواه أبوهريرة أخرجه مسلم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اذا ثُوِّب بالصـلاة فلا يَسْعَ اليها أحدكم ولكن لِيَمْشِ وعليـه السَّكينة والوقار صَـلِّ ما أدركت واْقضِ ما سبقك" . وهذا نص ؛ ومن جهة المعنى أنه اذا أسرع انبهر[1] فشوش عليه دخوله فى الصـلاة وقراءتهـا وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم ابن عمر وابن مسـعود على اختلاف عنه أنه اذا خاف فواتها أسرع . وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة ؛ وروى عن مالك نحوه، وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يحرك الفرس ؛ وتأوله بعضهم على الفرق بين المـاشى والراكب لأن الراكب لا يكاد أن ينبهر كما ينبهر المـاشى .

قلت : واستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى كل حال أولى، فيمشى كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار لأنه فى صلاة ؛ ومحال ان يكون خبره صلى الله عليه وسلم على خلاف ما أخبر؛ فكما أن الداخل فى الصلاة يلزم الوقار والسكون كذلك المـاشى، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه؛ ومما يدل على صحة هذا ما ذكرناه من السنة ، وما خرجه الدّرامى فى مسـنده قال : حدّثنا محمد بن يوسف قال حدّثنا سـفيان عن محمد بن عجلان عن المقبرى عن كعب بن عُجْرَة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اذا توضأت فعمدت الى المسجد فلا تشبكن بين أصابعك فانك فى صـلاة" . فمنع صلى الله عليه وسلم فى هـذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع وجعله كالمصلى ؛ وهذه السنن تبيّن معنى قوله تعـالى : «فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ» وأنه ليس المراد به الاشتداد على الأقدام، وإنما عنى العمل والفعل؛ هكذا فسره مالك ، وهو الصواب فى ذلك والله أعلم .

---

(١) البهر (بالضمّ) : تتابع النفس من الإعياء .

السابعـــة — واختلف العلماء فى تأويل قوله عليه السلام : "وما فاتكم فأتموا" وقوله : "واقض ما سبقك" هل هما بمعنًى واحد أو لا ؟ فقيل : هـما بمعنًى واحد وأن القضاء قد يطلق ويراد به التمـام، قال الله تعـالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلَاةُ » وقال : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ » . وقيل : معناهما مختلف وهو الصحيح، ويترتب على هـذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل هل هو أوّل صلاته أو آخرها ؟ فذهب الى الأوّل جماعة من أصحاب مالك ؛ منهم ابن القاسم ولكنه يقضى مافاته بالحمد وسورة، فيكون بانيا فى الأفعال قاضيا فى الأقوال. قال ابن عبـد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَادُ : وهو الذى عليـه أصحابنا ، وهو قول الأوزاعى والشافعى ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل والطبرى وداود بن ابن علىّ . وروى أشهب وهو الذى ذكره ابن عبـد الحكم عن مالك، و رواه عيسى عن ابن القاسم عن مالك ، أن ما أدرك فهو آخر صلاته ، وأنه يكون قاضـيا فى الأفعال والأقوال ؛ وهو قول الكوفيين . قال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال ابن عبد البر : من جعل ما أدرك أوّل صلاته فأظنهم راعوا الإحرام لأنه لا يكون إلا فى أوّل الصـلاة ، والتشهد والتسليم لا يكون إلا فى آخرها؛ فمن هاهنا قالوا : إن ما أدرك فهو أوّل صلاته، مع ما ورد فى ذلك من السنة من قوله : " فأتموا " والتمـام هو الآخر .

واحتج الآخرون بقوله : "فاقضوا" والذى يقضيه هو الفائت، إلا أن رواية من روى «فأتموا» أكثر، وليس يستقيم على قول من قال : إن ما أدرك أوّلُ صلاته ويطرد، إلا ما قاله عبـد العزيز بن أبى سَلَمة المـاجِشُون والمزنى و إسحاق وداود من أنه يقـرأ مع الإمام بالحمد وســورة إن أدرك ذلك معه ، و إذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها ؛ فهؤلاء اطرد على أصلهم قولهم وفعلهم، رضى الله عنهم .

الثامنـــة — الإقامة تمنع من ابتداء صلاة نافلة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أقيمت الصـلاة فلا صـلاة إلا المكتوبة" خرّجه مسلم وغيره؛ فأما إذا شرع فى نافلة

فلا يقطعها لقوله تعالى : « وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ » وخاصة إذا صلى ركعة منها . وقيل : يقطعها لعموم الحديث فى ذلك . والله أعلم .

التاســعة — واختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتى الفجر ثم أقيمت الصلاة ؛ فقال مالك : يدخل مع الإمام ولا يركعهما ؛ وإن كان لم يدخل المسجد فإن لم يخف فوات ركعة فليركع خارج المسجد ، ولا يركعهما فى شىء من أفنية المسجد — التى تصــل فيها الجمعة — اللاصقة بالمسجد ؛ وإن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه ؛ ثم يصليهما إذا طلعت الشمس إن أحب ؛ ولَأَنْ يصلّيهما اذا طلعت الشمس أحب إلىّ وأفضل من تركهما . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشى أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع فى الثانية دخل معه ، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتى الفجر خارج المسجد ، ثم يدخل مع الإمام ؛ وكذلك قال الأوزاعى ؛ إلا أنه يجوّز ركوعهما فى المسجد مالم يخف فوت الركعة الأخيرة ؛ وقال الثورى : إن خشى فوت ركعــة دخل معهم ولم يصلهما وإلا صلاهما وإن كان قد دخل المسجد . وقال الحسن بن حىّ ويقال ٱبن حيّان : إذا أخذ المقيم فى الإقامة فلا تطوع إلا ركعتى الفجر . وقال الشافعى : من دخل المسجد وقد أقيمت الصــلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا فى المسجد ؛ وكذلك قال الطبرى وبه قال أحمد بن حنبل ؛ وحكى عن مالك وهو الصحيح فى ذلك ؛ لقوله عليه السلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا صــلاة إلا المكتوبة " . وركعتا الفجر إما سنة ، وإما فضــيلة ، وإما رغيبة ؛ والحجــة عند التنازع حجة السنة . ومن حجة قول مالك المشهور وأبى حنيفة ما روى عن ٱبن عمر أنه جاء والإمام يصلى صلاة الصبح فصلاهما فى حجــرة حفصة ، ثم إنه صــلى مع الإمام . ومن حجة الثورى والأوزاعى ما روى عن عبــد الله بن مسعود أنه دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة فصلى إلى اسْــطُوَانَة[1] فى المسجد ركعتى الفجر ، ثم دخل الصلاة بمحضر من حذيفة وأبى موسى رضى الله عنهما . قالوا : وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن

(١) الأسطوانة : العامود .

المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك فى المسجد، روى مسلم عن عبد الله بن مالك ابن بُحَيْنة(١) قال : أقيمت صلاة الصبح فرأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلى والمؤذن يقيم، فقال : "أتصلى الصبح أربعا"! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل لصلاته ركعتى الفجر فى المسجد والإمام يصلى ؛ ويمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتى الفجر إن وقعت فى تلك الحال صحت؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته مع تمكنه من ذلك، والله أعلم .

العاشرة — الصلاة أصلها فى اللغة الدعاء، مأخوذة من صلى يصلى إذا دعا، ومنه قوله عليه السلام : "إذا دُعى أحدكم إلى طعام فليُجب فإن كان مفطرا فليطعم وإن كان صائما فليصل" أى فليدع . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة، فيصلى ركعتين وينصرف؛ والأول أشهر وعليه من العلماء الأكثر . ولما وَلدت أسماءُ عبدَ الله بن الزبير أرسلته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ قالت أسماء : ثم مسحه وصلّى عليه، أى دعا له . وقال تعالى : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ » أى ٱدع لهم .

وقال الأعشى :

تقول بِنْتِى وقد قَرُبت مرتحلا * يا ربّ جنّب أبِى الأوْصاب والوجَعَا
عليكِ مثلَ الذى صلّيتِ فاغْتمِضِى * نوماً فإن لجنبِ المرءِ مُضطجَعَا

وقال الأعشى أيضا :

وقابلها الرّيحُ فى دَنِّها * وصلَّى على دَنّها وارْتَسَمْ

ارتسم الرجل : كبّر ودعا، قاله فى الصحاح . وقال قوم : هى مأخوذة من الصَّلَا وهو عِرْق فى وسط الظهر ويفترق عند العَجْب فيكتنفه ؛ ومنه أُخِذ المُصلِّى فى سبق الخيل، لأنه يأتى فى الحَلْبة ورأسه عند صَلَوَى السابق؛ فاشتقت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمُصلِّى من الخيل، وإما لأن الراكع تثنى صَلَوَاه . والصَّلا مغرز الذَّنَب من الفرس،

(١) بحينة أمه وهى بنت الحارث بن عبد المطلب . وأبوه مالك بن القشب بن فضلة الأزدى .

والاثنان صلوان . والمُصَلِّى : تالى السابق، لأن رأسه عند صَلاه . وقال علىّ رضى الله عنه : سَبَقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصَلَّى أبو بكر وثَلَّث عمر . وقيل: هى مأخوذة من اللزوم؛ ومنه صلِى بالنار إذ لزمها؛ ومنه : « تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً » . قال الحارث بن عُبَاد :

لم أكن من جُنَاتِها علم اللـ * ـهُ وإنّى بحرّها اليومَ صالِ

أى ملازم لحرها، وكأنّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذى أمر الله تعالى به . وقيل : هى مأخوذة من صَلَيت العود بالنار إذا قوّمته وليّنته بالصّلاء؛ والصّلاء : صِلاء النار بكسر الصاد ممـدود، فإن فتحت الصاد قصرت، فقلت صَلا النار، فكأنّ المصلى يقوّم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع؛ قال الخارزنجى (١) :

فلا تَعْجل بأمرك واستدمْهُ * فما صَلَّى عصاكَ (٢) كمستديمِ

والصلاة : الدعاء، والصلاة : الرحمة، ومنه : "اللّهمّ صلّ على محمد" الحديث . والصلاة : العبادة، ومنه قوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ» الآية، أى عبادتهم . والصلاة : النافلة؛ ومنه قوله تعالى : «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ» . والصلاة : التسبيح؛ ومنه قوله تعالى: « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » أى من المصلين . ومنه سبحة الضحى . وقد قيل فى تأويل « نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ » نصلى . والصلاة : القراءة؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ » فهى لفظ مشترك . والصلاة : بيت يصلى فيه، قاله ابن فارس . وقد قيل : إن الصلاة اسم علم وضع لهـذه العبادة، فإن الله تعالى لم يُخْلِ زمانا من شرع ، ولم يُخْلَ شرع من صلاة ؛ حكاه أبو نصر القشيرى .

قلت : فعلى هذا القول لا اشتقاق لها؛ وعلى قول الجمهور وهى : —

الحادية عشرة — اختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الابتدائى، وكذلك الإيمـان والزكاة والصيام والحج، والشرع إنمـا تصرّف بالشروط والأحكام ، أو هل

---

(١) كذا فى جميع الأصول، وفى اللسان مادة (صلا) : « ... قيس بن زهير » . (٢) كذا فى جميع الأصول، وفى اللسان : « عصاه » .

تلك الزيادة من الشرع تصيّرها موضوعة كالوضع الابتدائى من قبل الشرع ؛ هنا اختلافهم والأول أصح، لأن الشريعة ثبتت بالعربية، والقرآن نزل بها بلسان عربى مبين؛ ولكن للعرب تحكّمٌ فى الأسماء، كالدابة وضعت لكل ما يدب؛ ثم خصصها العرف بالبهائم؛ فكذلك لعرف الشرع تحكّم فى الأسماء والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف فى المراد بالصلاة هنا؛ فقيل : الفرائض . وقيل : الفرائض والنوافل معا؛ وهو الصحيح لأن اللفظ عام والمتقى يأتى بهما .

الثالثة عشرة — الصلاة سبب للرزق؛ قال الله تعالى : «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ» الآية ، على ما يأتى بيانه فى «طه» إن شاء الله تعالى، وشفاء من وجع البطن وغيره؛ روى ابن ماجه عن أبى هريرة قال : هَجّر(١) النبىّ صلى الله عليه وسلم فهجّرتُ فصليتُ ثم جلستُ ؛ فالتفت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : "أشكيت دَرْدَ" قلت : نعم يا رسول الله؛ قال : "قم فصل فإن فى الصلاة شفاء" فى رواية : "أشكيت درد" يعنى تشتكى بطنك بالفارسية؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه(٢) أمرٌ فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة — الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض؛ فمن شروطها : الطهارة ، وسيأتى بيان أحكامها فى سورة النساء والمائدة . وستر العورة، يأتى فى الأعراف القول فيها إن شاء الله تعالى .

وأما فروضها : فاستقبال القبلة، والنية، وتكبيرة الإحرام والقيام لها، وقراءة أم القرآن والقيام لها، والركوع والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه ، والسجود والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من السجود، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه، والسجود الثانى والطمأنينة فيه . والأصل فى هذه الجملة حديث أبى هريرة فى الرجل الذى علمه النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخلّ بها ، فقال له : "إذا قمت الى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة ثم كبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع

(١) التهجير : التبكير الى كل شىء والمبادرة اليه . (٢) حزبه الأمر : نابه واشتد عليه، وقيل : ضغطه .

حتى تعتدل قائمـا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم افعل ذلك فى صلاتك كلهـا " خرّجه مسلم . ومثله حديث رفاعة بن رافع، أخرجه الدارقطنى وغيره . قال علماؤنا : فبين قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة، وسكت عن الإقامة ورفع اليدين وعن حدّ القـراءة وعن تكبير الانتقالات، وعن التسبيح فى الركوع والسجود، وعن الجلسة الوسطى وعن التشهد وعن الجلسة الأخيرة وعن السلام . أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما . وأما رفع اليـدين فليس بواجب عنـد جماعة العلمـاء وعامة الفقهاء، لحديث أبى هريرة وحديث رفاعة بن رافع ؛ وقال داود وبعض أصحـابه بوجوب ذلك عنـد تكبيرة الإحرام . وقال بعض أصحابه : الرفع عنـد الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب، وإن من لم يرفع يديه فصلاته باطلة، وهو قول الحميـدى ، ورواية عن الأوزاعى . واحتجوا بقوله عليـه السلام : "صلوا كما رأيتمونى أصلى" أخرجه البخارى . قالوا : فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل ، لأنه المبلِّغ عن الله مرادَه . وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور، وكان ابن قاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير فى الصلاة ثلاث تكبيرات فمـا فوقها سجد للسهو قبـل السلام ، وإن لم يسجد بطلت صـلاته؛ وإن نسى تكبيرة واحدة أو اثنتين سجد أيضا للسهو، فإن لم يفعل فلا شىء عليـه؛ وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيها. وهذا يدل على أن عظم التكبير وجملته عنده فرض ، وأن اليسير منه متجاوز عنه . وقال أَصْبَغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم : ليس على من لم يكبر فى الصلاة من أولها إلى آخرها شىء إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهيا سجد للسهو ، فإن لم يسجد فلا شىء عليه ؛ ولا ينبغى لأحد أن يترك التكبير عامدا، لأنه سنة من سنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء ولا شىء عليه وصلاته ماضية .

قلت : هذا هو الصحيح وهو الذى عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهـل الحديث والمـالكيين غيرَ من ذهب مذهب ابن القاسم . وقـد ترجم البخارى رحمه الله (باب إتمام التكبير فى الركوع والسجود) وساق حديث مُطرِّف بن عبـد الله قال :

صليت خلف علىّ بن أبى طالب أنا وعمران بن حُصين ، فكان إذا سجد كبر ، و إذا رفع رأسه كبر ، و إذا نهض من الركعتين كبر ، فلما قضى الصلاة أخذ بيدى عمران بن حصين فقال : لقد ذكرنى هذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو قال : لقد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم . وحديثَ عكرمة قال : رأيت رجلا عند المقام يكبر فى كل خفض ورفع ، و إذا قام و إذا وضع ، فأخبرت ابن عباس فقال : أو ليس تلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لا أُمَّ لك (١) ! فدلّك البخارى رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم . روى أبو إسحاق السبيعى عن يزيد بن أبى مريم عن أبى موسى الأشعرى قال : صلى بنا علىّ يوم الجَمَل صلاة أذكرنا بها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكبر فى كل خفض ورفع ، وقيام وقعود ؛ قال أبو موسى : فإما نسيناها و إما تركناها عمدا .

قلت : أتراهم أعادوا الصلاة ! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته ! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض ، والشيء إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه ؛ و بالله التوفيق .

الخامسة عشرة — وأما التسبيح فى الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور ؛ وأوجبه إسحاق بن رَاهَوَيْه ، وأن من تركه أعاد الصلاة ، لقوله عليه السلام : « أما الركوع فعظموا فيه الربّ وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم » .

السادسة عشرة — وأما الجلوس والتشهد فاختلف العلماء فى ذلك ؛ فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأول والتشهد له سنتان . وأوجب جماعة من العلماء الجلوس الأول وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعَرايا (٢) من المُزَابنة (٣) ، والقِراض (٤) من الإجارات ، وكالوقوف بعد الإحرام لمن وجد الإمام راكعا . واحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان

(١) قوله : لا أم لك . فى نهاية ابن الأثير : « هو ذم وسب . أى أنت لقيط لا تُعرَف لك أم . وقيل : قد يقع مدحا بمعنى التعجب منه وفيه بُعْد » .

(٢) العرايا : نخل كانت توهب للمساكين فلا يستطيعون أن ينتظروا بها رخص لهم أن يبيعوها بما شاءوا من التمر .

(٣) المزابنة : بيع الرطب على رءوس النخل بالتمر كيلا ، وبيع الزبيب بالكرم .

(٤) القراض (بالكسر) : اجارة على التّجْر فى مال بجزء من ربحه .

العامد لتركه تبطل صـلاته كما لا تبطل بترك سنن الصـلاة . احتج من لم يوجبه بأن قال : لو كان من فرائض الصـلاة لرجع الساهي عنه إليـه حتى يأتي به، كما لو ترك سجدة أو ركعة، ويراعى فيه ما يراعى في الركوع والسجود من الولاء والرتبة؛ ثم يسجد لسهوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما . وفي حديث عبد الله ابن بُحَيْنة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسي أن يتشهد فسبّح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائمـا فقاموا ؛ فلما فرغ من صلاته سجد سجدتي السهو قبل التسليم؛ فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو؛ لأن الفرائض في الصلاة يستوي في تركها السهو والعمد إلا في المؤتم. واختلفوا في حكم الجلوس الأخير في الصلاة وما الغرض من ذلك . وهي : —

السابعة عشرة — على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس فرض والتشهد فرض والسلام فرض؛ وممن قال ذلك الشافعي وأحمد بن حنبل في رواية، وحكاه أبو مصعب في مختصره عن مالك وأهل المدينة، وبه قال داود . قال الشافعي : من ترك التشهد الأوّل والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه وعليه سجدتا السهو لتركه . وإذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو عامدا أعاد . واحتجوا بأن بيان النبيّ صلى الله عليه وسلم في الصلاة فرض، لأن أصل فرضها مجمل يفتقر الى البيان إلا ما خرج بدليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " صلوا كما رأيتموني أصلي " .

القول الثاني : انّ الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب، وإنما ذلك كله سنة مسنونة؛ هذا قول بعض البصريين، وإليه ذهب ابراهيم بن عُلَيّة، وصرح بقياس الجلسة الأخيرة على الأولى، فخالف الجمهور وشذ؛ إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيأ من ذلك كله . ومن حجتهم حديث عبدالله بن عمرو بن العاصي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدةٍ في صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته" وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر؛ وقد بيناه في كتاب المقتبس[(1)] . وهذا اللفظ إنما يُسقط السلام لا الجلوس .

(1) في بعض الأصول : « المقتبن » .

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض، وليس التشهدولا السلام بواجب فرضا. قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين . واحتجوا بحديث ابن المبارك عن الإفريقي عبد الرحمن بن زياد وهو ضعيف ؛ وفيه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " اذا جلس أحدكم فى آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلّم فقد تمت صلاته " . قال ابن العربى : وكان شيخنا فخر الاسلام ينشدنا فى الدرس :

ويرى الخروج من الصلاة بضَرْطَة * أيْن الضّراطُ من السلامِ عليكُمُ

قال ابن العربى : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين ، أما أحدهما : فروى عبد الملك بن عبد الملك أن من سلم من ركعتين متلاعبا ، فخرج البيان أنه كان على أربع أن يجزئه، وهذا مذهب أهل العراق بعينه . وأما الثانى : فوقع فى الكتب المنبوذة أن الامام اذا أحدث بعد التشهد متعمدا وقبل السلام أنه يجزئُ مَن خلفه ؛ وهــذا مما لا ينبغى أن يلتفت اليه فى الفتوى ؛ وان عمرت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس والسلام فرض ، وليس التشهد بواجب . وممن قال هــذا مالك بن أنس وأصحابه وأحمد بن حنبل فى رواية . واحتجوا بأن قالوا : ليس شيء من الذكر يجب الا تكبيرة الإحرام ، وقراءة أم القرآن .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجبان، وليس السلام بواجب ؛ قاله جماعة منهم إسحاق بن رَاهْوَيْه ، واحتج إسحاق بحديث ابن مسعود حين علّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك " . قال الدار قطنى : قوله " اذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك " أدرجه بعضهم عن زهير فى الحديث، ووصله بكلام النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وفصله شَبَابَة عن زهير وجعله من كلام ابن مسعود ؛ وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه فى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم . وشَبَابة ثقة وقد تابعه غَسّان بن الربيع على ذلك . جعل آخر الحديث من كلام ابن مسعود ولم يرفعه الى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة — واختلف العلماء فى السلام؛ فقيل : واجب،وقيل : ليس بواجب . والصحيح وجوبه لحديث عائشــة وحديث علىّ الصحيح خرّجه أبو داود والترمــذىّ ورواه سفيان الثورىّ عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن محمد آبن الحنفية عن علىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" وهذا الحديث أصــل فى إيجاب التكبير والتسليم ، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها باتفاق . قال عبد الرحمن بن مهدى : لو افتتح رجل صــلاته بسبعين آسما من آسماء الله عز وجلّ ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه ، وان أحدث قبل أن يسلم لم يجزه ؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهــدى لحديث علىّ وهو امام فى علم الحــديث ومعرفة صحيحه من سقيمه . وحسبك به !

وقد اختلف العلماء فى وجوب التكبير عند الافتتاح وهى : —

التاسعة عشرة — فقال ابن شهاب الزهرى وسعيد بن المسيّب والأوزاعى وعبد الرحمن وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة . وقــد روى عن مالك فى المأموم ما يدل على هــذا القول؛ والصحيح من مذهبــه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنها فرض وركن من أركان الصــلاة؛ وهو الصواب وعليه الجمهور ، وكل من خالف ذلك فمحجوج بالسنة .

الموفية عشرين—واختلف العلماء فىاللفظ الذى يدخل به فى الصلاة؛فقال مالك وأصحابه وجمهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير، لا يجزئ منه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد . هــذا قول الحجازيين وأكثر العراقيين؛ ولا يجزئ عند مالك إلا « الله أكبر » لا غير ذلك . وكذلك قال الشافعى وزاد : ويجزئ « الله أكبر » و « الله الكبير » . والحجة لمــالك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ « الحمد لله رب العالمين » . وحديث علىّ : وتحريمها التكبير . وحديث الأعرابى : فكبر . وفى سنن ابن ماجه حدّثنا أبو بكر بن أبى شــيبة وعلىّ بن الطنافسى قالا : حدّثنا أبو أسامة قال حدّثنى عبد الحميد بن جعفر قال حدّثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال سمعت أبا حميد الساعدى يقول :

كان رســـول الله صلى الله عليه وســـلم إذا قام الى الصلاة استقبل القبلة ورفع يديه وقال : « الله أكبر » وهذا نص صريح وحديث صحيح فى تعيين لفظ التكبير؛ قال الشاعر :

رأيتُ اللهَ أكبرَ كلِّ شيء * محاولةً وأعظمه جنـــودا

ثم أنه يتضمن القـــدم، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم، فكان أبلغ فى المعنى والله أعلم .

وقال أبو حنيفة : إن افتتح بلا إله إلا الله يجزيه ، وإن قال : اللهم اغفر لى لم يجزه وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لايجزئه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم ابن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال ابن المنذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلل وكبر ولم يقرأ أن صلاته فاسدة ، فمن كان هـــذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يجزيه مكان التكبير غيره، كما لا يجزئ مكان القراءة غيرها . وقال أبو حنيفة : يجزئه التكبير بالفارسية وإن كان يحسن العربية . قال ابن المنذر : لا يجزيه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين ، وخلاف ما علّم النبيّ صلى الله عليه وســـلم أمته ؛ ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال والله أعلم .

الحادية والعشرون — واتفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيأ روى عن بعض أصحابنا يأتى الكلام عليه فى آية الطهارة ؛ وحقيقتها قصد التقرب الى الآمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال ابن العربى : والأصل فى كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل المنوىّ بهـــا، أو قبل ذلك بشرط استصحابها ، فان تقدّمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة فى تلك الحالة لم يعتد بها ، كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل؛ وقد رخص فى تقديمها فى الصوم لعظم الحرج فى اقترانها بأوله . قال ابن العربىّ وقال لنا أبو الحسن القروىّ بثغر عسقلان : سمعت إمام الحرمين يقول : يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية، ويجرد النظر فى الصانع وحدوث العـــالم والنبوّات حتى ينتهى نظره الى نية الصلاة؛ قال : ولا يحتاج ذلك الى زمان طويل، وإنما يكون ذلك فى أوحى[1] لحظة، لأن

(١) أوحى : أسرع .

تعليم الجمل يفتقر الى الزمان الطويل ، وتذكارها يكون فى لحظة ، ومن تمـام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها ، إلا أن ذلك لمـا كان أمرا يتعذر عليه سمح الشرع فى عزوب النية فى أثنائهـا . سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول قال محمد بن سحنون : رأيت أبي سحنونا ربمـا يكمل الصـلاة فيعيدها ؛ فقلت له ما هـذا ؟ فقـال : عَزَبت نيتى فى أثنائها فلأجل ذلك أعدتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة ، وسائر أحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعـالى ؛ فيأتى ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة الى الأوقات ، وبعض صلاة الخوف فى هذه السورة ، ويأتى ذكر قصر الصلاة وصلاة الخوف ، فى «النساء» والأوقات فى «هود وسبحان والروم» وصلاة الليل فى «المزمل» وسجود التلاوة فى «الأعراف» وسجود الشكر فى «ص» كلٌّ فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانيــة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ رزقناهم : أعطيناهم ، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما . خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه ، وإن الله لا يرزق الحرام وإنمـا يرزق الحلال ، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك .

قالوا : فلو نشأ صـبى مع اللصوص ولم يأكل شـيأ إلا ما أطعمه اللصوص الى أن بلغ وقوى وصار لصا ، ثم لم يزل يتلصص ويأكل ماتلصصه الى أن مات ، فإن الله لم يرزقه شيئا إذ لم يملكه ، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهــذا فاسد ، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا ، ولا البهـائم التى ترتع فى الصحراء ، ولا السِّخال من البهـائم ، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال .

ولمـا اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون ، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء لأن الأمة مُجمِعة على أن العبيد والإماء مرزوقون ،

وأن الله تعـالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين ؛ فعلم أن الرزق ما قلناه لا ما قالوه . والذى يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق : «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ» وقال : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ الْمَتِينُ » وقال : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا » وهـذا قاطع ؛ فالله تعالى رازق حقيقة وابن آدم رازق تجوزا ، لأنه يملك ملكا منتزعا كما بيناه فى الفاتحة ؛ مرزوق حقيقة كالبهائم التى لا ملك لها ؛ إلا أن الشىء إذا كان مأذونا له فى تناوله فهـو حلال حكما ، وما كان منـه غير مأذون له فى تناوله فهو حرام حكما ؛ وجميـع ذلك رزق .

وقد خرّج بعض النبلاء من قوله تعالى : « كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ » فقال : ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ الرزق مصـدره رزق يرزق رَزقا ورِزقا ، فالرَّزق بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم ، وجمعه أرزاق ؛ والرزق : العطاء . والرازقية : ثياب كتّان [بيض][(١)] . وارتزق الجند : أخذوا أرزاقهم . والرزقة : المرة الواحدة ؛ هكذا قال أهل اللغـة . وقال ابن السكيت : الرزق بلغة أزْد شَـنُوءَة : الشكر ؛ وهو قوله عزّ وجلّ : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكركم التكذيب . ويقول : رزقنى أى شكرنى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ ينفقون : يخرجون . والإنفاق : إخراج المـال من اليد ؛ ومنـه نَفَق البيع : أى خرج من يد البائع إلى المشـترى . ونَفَقت الدّابةُ : خرجت روحها ؛ ومنـه النافقاء لجحر اليربوع الذى يخرج منه إذا أُخذ من جهة أخرى . ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه ؛ ونَيْفَق السراويل معروفة وهو مخرج الرِّجل منها . ونَفِق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم : فنى زادهم ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ » .

---

(١) الزيادة عن اللسان مادة (رزق) .

الخامسة والعشرون — واختلف العلماء في المراد بالنفقة هاهنا ، فقيل : الزكاة المفروضة — روى عن ابن عباس — لمقارنتها الصــلاة . وقيل : نفقة الرجل على أهله — روى عن ابن مسعود — لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دينارٌ أنفقتَه فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رَقَبَة ودينار تَصدّقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرًا الذى أنفقتــه على أهلك" . وروى عن ثَوْبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفضلُ دينارٍ ينفقه الرجل دينارٌ ينفقه على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله عزّ وجلّ ودينارٌ ينفقه على أصحابه فى سبيل الله" قال أبو قِلابة[1] : وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قِلابة : وأىُّ رَجلٍ أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفّهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل : المراد صــدقة التطوّع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتى الا بلفظها المختص بها وهو الزكاة ، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة احتملت الفرض والتطوع ، فإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم تكن إلا التطوع . قال الضحاك : كانت النفقة قربانا يتقربون بهــا الى الله جلّ وعزّ على قدر جهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات[2] فى «براءة» . وقيــل : إنه الحقوق الواجبة العارضــة فى الأموال ما عدا الزكاة ، لأن الله تعالى لمــا قرنه بالصــلاة كان فرضا ، ولمــا عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل : هو عام وهو الصحيح ، لأنه خرج مخرج المدح فى الإنفاق مما رزقوا ، وذلك لا يكون إلا من الحلال ، أى يؤتون ما ألزمهــم الشرع من زكاة وغيرها ممــا يعنّ فى بعض الأحوال مع ما ندبهم إليــه . وقيــل : الإيمان بالغيب حظ القلب . وإقام الصــلاة حظ البــدن . ومما رزقناهم ينفقون حظ المــال ، وهذا ظاهر . وقال بعض المتقدّمين فى تأويل قوله تعالى : « ومِمّــا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أى مما علمناهم يعلمون ، حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشــــيرى .

(١) أبو قلابة : أحد رواة سند هذا الحديث .　(٢) مثل قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة» الآية . فقــد قال ابن العربى أنها ناسخة لآية « والذين يكنزون الذهب والفضة » الآية أنظر صفحة ٢٨١ من الجزء الأوّل من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١ هـ . وكذلك روى الجصاص نسخها بها عن عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قيل : المراد مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وفيه نزلت، ونزلت الأولى في مؤمني العرب. وقيل : الآيتان جميعا في المؤمنين، وعليه فإعراب الذين خفض على العطف، ويصح أن يكون رفعا على الاستئناف أي وهم الذين؛ ومن جعلها في صنفين فإعراب الذين رفع بالابتداء وخبره أولئك على هدى؛ ويحتمل الخفض عطفا .

قوله تعالى : ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني الكتب السالفة؛ بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم في قوله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا » الآية. ويقال : لما نزلت هذه الآية : «ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» . قالت اليهود والنصارى : نحن آمنا بالغيب؛ فلما قال : « وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » . قالوا : نحن نقيم الصلاة، فلما قال « ومما رزقناهم ينفقون » قالوا : نحن ننفق ونتصدّق ؛ فلما قال : « وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » نفروا من ذلك . وفي حديث أبي ذرّ قال قلت : يارسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : " مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ[(1)] ثلاثين صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان " . الحديث أخرجه الحسين الآجُرّي وأبو حاتم البستي .

وهنا مسئلة — ان قال قائل : كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافي أحكامها ؟ قيل له فيه جوابان : أحدهما — أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله ، وهو قول من أسقط التعبد بما تقدّم من الشرائع . الثاني — أن الإيمان بما لم ينسخ منها ، وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدّمة، على ما يأتي بيانه ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أي وبالبعث والنشر هم عالمون . واليقين : العلم دون الشك؛ يقال منه : يَقِنْتُ الأمرَ بالكسر يَقْنًا، وأيقنتُ واستيقنتُ وتيقّنتُ كله بمعنًى ؛

(١) أخنوخ هو إدريس عليه السلام .

وأنا على يقين منه . وإنما صارت الياء واوا فى قولك : مُوقِن، للضمة قبلها وإذا صغرته رددته الى الأصل ، فقلت مُيَيْقِن . والتصغير يرد الأشياء الى أصولها وكذلك الجمع ، وربما عبروا باليقين عن الظن ، ومنه قول علمائنا فى اليمين اللغو : هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ثم يتبين له أنه خلاف ذلك فلا شيء عليه ؛ قال الشاعر(١) :

تَحَسَّبَ هَوّاسٌ وأيْقنَ أنّنِي * بها مُفْتَدٍ مِن واحِدٍ لا أُغَامِرُهْ

يقول : تشمم الأسد ناقتي ، يظن أنني مفتد بها منه ، واستحمى نفسي فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته . فأما الظن بمعنى اليقين فورد فى التنزيل وهو فى الشعر كثير وسيأتى . والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها، كما أن الدنيا مشتقة من الدنو على ما يأتى .

قوله تعالى: أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قال النحاس أهل نجد يقولون : أولاك ، وبعضهم يقول ، ألاك والكاف للخطاب . قال الكسائى: من قال أولئك فواحده ذلك ، ومن قال ألاك فواحده ذاك ، وأُلَالِك مثل أولئك ؛ وأنشد ابن السكيت :

أُلَالِكَ قَومِى لم يكونوا أُشَابَةً(٢) * وهل يَعِظُ الضِّلِّيلَ إلا أُلَالِكَا

وربما قالوا : أولئك فى غير العقلاء ؛ قال الشاعر :

ذُمّ المنازلَ بعد منزلةِ اللِّوَى * والعيشَ بعد أولئك الأيامِ

وقال تعالى : « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » وقال علماؤنا : إن فى قوله تعالى : « مِنْ رَبِّهِمْ » ردّا على القَدَرية فى قولهم : يخلقون إيمانهم وهداهم، تعالى الله عن قولهم ! ولو كان كما قالوا لقال : « من أنفسهم »(٣) ؛ وقد تقدّم الكلام فيه وفى الهُدَى(٤) فلا معنى لإعادة ذلك .

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ هم، يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره المفلحون، والثانى وخبره خبر الأوّل؛ ويجوز أن تكون هم زائدة — يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا — والمفلحون خبر أولئك .

---

(١) هو أبو سدرة الأسدى، ويقال : الهجيمى .

(٢) الأشابة من الناس : الأخلاط . والأشابة فى الكسب : ما خالطه الحرام الذى لا خير فيه والسحت .

(٣) راجع المسئلة الحادية والثلاثين ص ١٤٩

(٤) راجع المسئلة الثانية ص ١٦٠ من هذا الجزء .

والفَلْحُ أصله فى اللغة الشق والقطع ؛ قال الشاعر :

* إن الحـــديد بالحـــديد يُفْلَح *

أى يشق ، ومنه فلاحة الأرضين انمــا هو شقها للحرث ؛ قاله أبو عبيد . ولذلك سمى الأَكّارُ فلاحا . ويقال للذى شقت شفته السفلى أفلح ، وهو بَيِّن الفَلَحة ، فكأن المفلح قـد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل فى الفوز والبقاء، وهو أصله أيضا فى اللغة، ومنه قول الرجل لامرأته : استَفْلِحى بأمْرِك ؛ معناه فوزى بأمرك ؛ وقال الشاعر :

لو كان حىّ مدرك الفــلاح * أدركه مُلاعب الرماح

وقال الأضْبط بن قُرَيع السعدىّ فى الجاهلية الجهلاء :

لــكلّ هَمٍّ من الهموم سَــعَهْ * والمُسْىُ والصُّبْحُ لا فَلاح مَعَهْ

يقول : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء؛ وقال آخر :

نحــل بلادا كلهــا حل قبلنا * ونرجوا الفلاح بعد عاد وحِمْيَرِ

أى البقاء؛ وقال عبيد :

أفْلِحْ بما شئتَ فقد يُدرك بالضّعـ * ـف وقـــد يُخَـــدَّعُ الأريبُ

أى أبق بما شئت من كيس وحُمْق فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل . فمعنى وأولئك هم المفلحون : أى الفائزون بالجنــة والباقون فيها . وقال ابن أبى إسحــاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ؛ والمعنى واحد. وقد استعمل الفلاح فى السحور؛ ومنه الحديث : حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وما الفلاح؟ قال : السحور.أخرجه أبو داود . فكأنّ معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سماه فلاحا . والفَلّاح بتشديد اللام : المُكارِى فى قول القائل (١) .

لها رِطْلٌ تَكِيلُ الزيتَ فيه * وفَلّاحٌ يسوق لها حِمـارَا

ثم الفلاح فى العرف : الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب .

(١) هو عمرو بن أحمر الباهلى ؛ كما فى اللسان مادة (فلح) .

مسئلة — إن قال قائل كيف قرأ حمزة : عليهُم وإليهُم ولديهُم ، ولم يقرأ من ربهُم ولا فيهُم ولا جنتيهُم ؟ فالجواب إن عليهم وإليهم ولديهم الياء فيه منقلبة من ألف ، والأصل علاهم ولداهم وألاهم فأقرت الهاء على ضمتها ؛ وليس ذلك فى فيهم ولا من ربهم ولا جنتيهم ، ووافقه الكسائى فى « عليهم الذلة وإليهم اثنين » على ما هو معروف من القراءة عنهما .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم . والكفر ضد الإيمان وهو المراد فى الآية ؛ وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان ، ومنه قوله عليه السلام فى النساء فى حديث الكسوف : " ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء " قيل : بِمَ يا رسول الله ؟ قال : " بكفرهن " ، قيل أيكفرن بالله ؟ قال : " يكفرن العَشِير ويكفرن الإحسان لو أحسنت الى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط " أخرجه البخارى وغيره .

وأصل الكُفْر فى كلام العرب : الستر والتغطية ؛ ومنه قول الشاعر :

* فى ليلة كَفَر النُّجومَ غَمَامُها *

أى سترها ؛ ومنه سمى الليل كافرا ؛ لأنه يغطى كل شىء بسواده ؛ قال الشاعر[1] :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلًا رَثِيدًا بَعْـدَ مَا * أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَهَا فى كافر

ذُكاء بضم الذال والمد اسم للشمس ؛ ومنه قول الآخر :

فوردَتْ قبل انبلاج الفجرِ * وابْنُ ذُكاءٍ كَامِنٌ فى كَفْرِ

أى فى ليل . والكافر أيضا البحر والنهر العظيم . والكافر : الزارع والجمع كُفّار ، قال الله تعالى : « كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ » . يعنى الزُّرّاع لأنهم يغطون الحب . ورماد

(١) هو ثعلبة بن صعيرة المازنى ، يصف الظليم والنعامة ورواحهما الى بيضهما عند غروب الشمس . والثقل (بالتحريك) هنا : بيض النعام المصون . والرثيد : المنضد بعضه فوق بعض أو إلى جنب بعض . وألقت يمينها فى كافر : أى بدأت فى المغيب . اللسان مادة (كفر) .

مكفور : سفت الريح عليه التراب . والكافر من الأرض : ما بَعُد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمرّ به أحد؛ ومَن حل بتلك المواضع فهم أهل الكفور؛ ويقال الكفور : القُرَى .

قوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه؛ أى سواء عليهم هذا . وجيء بالاستفهام من أجل التسوية ، ومثله قوله تعالى : « سَـوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ » .

وقال الشاعر(١) :

وليـل يقول الناس من ظلماته * سواء صحيحات العيون وعورها

قوله تعالى : ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ الإنذار الإبلاغ والإعلام ، ولا يكاد يكون إلا فى تخويف يتّسع زمانه للاحتراز، فان لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا؛ قال الشاعر :

أنذرتَ عَمرًا وهو فى مَهَـلٍ * قبلَ الصباح فقد عصى عَمْرُو

وتَناذَرَ بنو فلان هذا الأمر إذا خوّفه بعضُهم بعضا .

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية؛ فقيل : هى عامة ومعناها الخصوص فيمن حقّت عليه كلمة العذاب ، وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره. أراد الله تعالى أن يعلم أن فى الناس من هذه حاله دون أن يعين أحدا . وقال ابن عباس والكلبى : نزلت فى رؤساء اليهود ، منهـم حُيَيُّ بن أَخْطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتـل يوم بدر من قادة الأحزاب ؛ والأوّل أصح ، فإن من عيّن أحدا فإنمـا مثّل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر، وذلك داخل فى ضمن الآية .

قوله تعالى : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ موضعه رفعٌ خبر إن، أى إن الذين كفروا لا يؤمنون، وقيل خبر إن سواء، وما بعده يقوم مقام الصلة؛ قاله آبن كيسان . وقال محمد بن يزيد : سواء رفع بالابتداء ، ءأنذرتهـم أم لم تنذرهم الخبر، والجملة خبر إنّ . قال النحاس : أى أنهـم تبالهَوا فلم تغن فيهم النذارة شيئا . واختلف القراء فى قراءة «ءأنذرتهم» فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو

(١) هو أعشى قيس الملقب بالأعشى الأكبر .

والأعمش وعبد الله بن أبي إسحاق : آنذرتهم بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية، واختارها الخليل وسيبويه، وهي لغة قريش وسعد بن بكر، وعليها قول الشاعر (١) :

أيا ظَبيةَ الوَعْساءِ بين جُلاجِلٍ * وبين النقا آأنت أمْ أمُّ سالِمِ

هجاء « أنت » ألف واحدة . وقال الآخر :

تطاللتُ فاستشرفته فعرفتُه * فقلت له آنت زيد الأرانب

وروى عن ابن مُحَيصن أنه قرأ : « أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ » بهمزة لا ألف بعدها ، فحذف لالتقاء الهمزتين، أو لأن أم تدل على الاستفهام كما قال الشاعر :

تروح من الحيّ أم تبتكِرْ * وماذا يَضِيرك لو تنتظِرْ

أراد : أتروح فاكتفى بأم من الألف . وروى عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ : ءاءنذرتهم، فحقق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفف الثانية؛ وأبو عمرو ونافع يفعلان ذلك كثيرا؛ وقرأ حمزة وعاصم والكسائي بتحقيق الهمزتين : أأنذرتهم وهو اختيار أبي عبيد ، وذلك بعيد عند الخليل ؛ وقال سيبويه : يشبه في الثقل ضَنِنُوا . قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك رديء، لأنهم إنما يخففون بعد الاستثقال ، وبعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف الهمزتين جميعا . فهذه سبعة أوجه من القراءات، ووجه ثامن يجوز في غير القرآن، لأنه مخالف للسواد (٢)؛ قال الأخفش سعيد : تبدل من الهمزة هاء تقول : ها أنذرتهم، كما يقال هياك وإياك؛ وقال الأخفش في قوله تعالى : « هَا أَنْتُمْ » إنما هو أأنتم .

قوله تعالى : خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) فيها عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ ﴾ بيّن سبحانه في هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله : ختم الله . والختم مصدر ختمت الشيء ختما فهو مختوم ومختّم شدّد للمبالغة ؛ ومعناه

(١) هو ذو الرمة كما في كتاب سيبويه، والمفصل للزمخشري .　　(٢) السواد من الناس هم الجمهور الأعظم .

التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء، ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك، حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه .

وقال أهل المعانى : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف : بالختم والطبع والضيق والمرض والرَّيْن والموت والقساوة والانصراف والحَمِيّة والإنكار . فقال فى الإنكار : « قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » . وقال فى الحمية : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ » . وقال فى الانصراف : « ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » . وقال فى القساوة : « فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ » . وقال : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » . وقال فى الموت : « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ » . وقال : « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » . وقال فى الرين : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . وقال فى المرض : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » . وقال فى الضيق : « وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا » . وقال فى الطبع : «وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ». وقال : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » . وقال فى الختم : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ » . وسيأتى بيانها كلها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — الختم يكون محسوسا كما بينا، ومعنًى كما فى هذه الآية . فالختم على القلوب : عدم الوَعْى عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر فى آياته . وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أو دعوا الى وحدانيته . وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر فى مخلوقاته وعجائب مصنوعاته؛ هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم .

الثالثـــة — فى هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والكفر والإيمان؛ فاعتبروا أيها السامعون ، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا؛ وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فمتى يهتدون، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » ! وكان

فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل ، و إنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

فإن قالوا : إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسميةُ والحكمُ والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل . قلنا : هـذا فاسد ، لأن حقيقة الختم والطبع إنمـا هو فعل ما يصـير به القلب مطبوعا مختوما ، ولا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم ، ألا ترى أنه إذا قيـل : فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم ؛ هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم ؛ كما قال تعالى : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » . وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع ؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لمـا امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون ، لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهـم مختوم عليها وأنهـم في ضلال لا يؤمنون ؛ ويحكمون عليهـم بذلك . فثبت أن الختم والطبع هو معنًى غير التسمية والحكم ؛ و إنمـا هو معنًى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمـان به ؛ دليله قوله تعـالى : « كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ » . وقال : « وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » . أي لئلا يفقهوه ، وما كان مثله .

الرابعــة — قوله : ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِـمْ ﴾ فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح . والقلب للإنسان وغيره . وخالص كل شيء وأشرفه قلبه ؛ فالقلب موضع الفكر . وهو في الأصل مصدر قَلَبْتُ الشيء أقلبه قلبا إذا رددته على بداءته ؛ وقلبت الإناء : رددته على وجهه ؛ ثم نقل هـذا اللفظ فسمى به هذا العضو الذى هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه ، ولترددها عليه ؛ كما قيل :

ما سُمِّيَ القلب إلا من تقلُّبـه * فاحذر على القلب من قلب وتحويل

ثم لما نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف التزمت فيه تفخيم قافه، تفريقا بينه و بين أصله؛ روى ابن ماجه عن أبى موسى الأشعرى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَثَلُ القلب مَثَلُ ريشة تقلبها الرياح بفلاة " . ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : " اللّهمّ يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك " . فإذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول مع عظيم قدره وجلال منصبه فنحن أولى بذلك إقتداء به ؛ قال الله تعالى : « وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ » . وسيأتى .

الخامسة — الجوارح و إن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب — و إن كان رئيسها وملكها — بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليَصدُقُ فتُنكت فى قلبه نكتة بيضاء و إن الرجل ليكذب الكذبة فيسودّ قلبه " . وروى الترمذى وصححه عن أبى هريرة: "أن الرجل ليصيب الذنب فيسودّ قلبه فان هو تاب صقل قلبه " . قال : وهو الرّين الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . وقال مجاهد : القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب إصبع، ثم يطبع .

قلت : وفى قول مجاهد هذا، وقوله عليه السلام : " إن فى الجسد مُضْغةً إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" دليل على أن الختم يكون حقيقيا والله أعلم . وقد قيل : إن القلب يشبه الصَّنَوْبرة؛ وهو يَعْضُد قول مجاهد . والله أعلم .

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ؛ حدّثنا : " أن الأمانة نزلت فى جِذْر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلِموا من القرآن وعلِموا من السنة " ثم حدّثنا عن رفع الأمانة قال : " ينام الرجل النَّومةَ فتُقْبَض الأمانةُ من قلبه فيظَل أثرها مثلَ الوَكْت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْل كجَمْرٍ دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شىء — ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله — فيُصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدّى الأمانة حتى يقال إن

فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أَجْلَدَه ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيّكم بايعت لئن كان مسلما ليردّنه علىّ دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردّنه علىّ ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا".

ففى قوله : الوكت وهو الأثر اليسير؛ ويقال للبُسْر إذا وقعت فيه نكتة من الأرطاب قد وكت، فهو موكت . وقوله : المَجْل، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء؛ وقد فسّره النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله : "كجمر دحرجته" أى دورته على رجلك فنفط . فتراه منتبرا أى مرتفعا؛ مايدل على أن ذلك كله محسوس فى القلب يفعل فيه؛ وكذلك الختم والطبع والله أعلم. وفى حديث حذيفــة قال سمعت رســول الله صلى الله عليه وســلم يقول : تُعرَض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا فأىّ قلب أُشْرِبَها نُكِت فيه نُكتةٌ سوداء وأىّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصَّفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخرُ أسودُ مُرْبَادٌّ كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفا ولا يُنْكِر منكرا إلا ما أُشْرِب من هواه "وذكر الحــديث . مُجَخِّيًا : يعنى مائلا .

السادســـة ــ القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى : «كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» . وقال : «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ» يعنى فى الموضعين قلبك، وقد يعبر به عن العقل قال الله تعالى : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » أى عقل، لأن القلب محل العقل فى قول الأكثرين، والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد . والله أعلم .

السابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وعلَى سَمْعِهِم ﴾ اســتدل بها من فضّــل السمع على البصر لتقدّمه عليه، وقال تعالى : «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ» . وقال : «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ» . قال : والسمع يدرك به من الجهات الست، وفى النور والظلمة ؛ ولا يدرك بالبصر إلا من الجهة المقــابلة، وبواسطة من ضياء وشعاع . وقال أكثر المتكلمين بتفضيل البصر على السمع لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام، والبصر يدرك به

الأجسام والألوان والهيئات كلها . قالوا : فلمـا كانت تعلقاته أكثر كان أفضل ؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنـــة — إن قال قائل : لِمَ جمع الأبصار ووحّد السمع ؟ قيل له : إنما وحّده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير، يقال : سمعت الشيء أسمعه سمعا وسماعا، فالسمع مصدر سمعت؛ والسمع أيضا اسم للجارحة المسموع بها سُمّيت بالمصـدر . وقيـل : إنه لمـا أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة؛ كما قال الشاعر(1) :

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأما عِظامُها * فبيــضٌ وأما جلدها فصَلِيبُ

إنما يريد جلودها، فوحّد لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر(2) في مثله :

لا تُنكِرِ القتلَ وقـد سُبِينَا * فى حَلْقِكُمْ عَظْمٌ وقد شَجِينَا

يريد فى حلوقكم ومثله قول الآخر :

كأنه وجه تركين قـد غضبا * مستهدف لطعـان غير تذبيب

وإنما يريد وجهين، فقال وجه تركين لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجه واحد؛ ومثله كثير جدا . وقرئ : وعلى أسماعهم ؛ ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضـع سمعهم ؛ لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقد يكون السمع بمعنى الاستماع؛ يقال : سمعك حديثى — أى استماعك الى حديثى — يعجبنى، ومنه قول ذى الرُّمة، يصف ثورا تَسمَّع الى صوت صائد وكلاب :

وقد توجَّسَ رِكْزًا مُقْفِرٌ نَدُسٌ * بِنَبْأَةِ الصوتِ ما فى سَمْعه كَذِبُ

---

(1) هو علقمة بن عبدة . وصف طريقا بعيدا شاقا على من سلكه . بجيف الحسرى وهى المعيية من الإبل مستقرة فيه . وقوله : فأما عظامها فبيض ، أى أكلت السباع والطير ما عليها من اللحم فتعرت وبدا وضحها . وقوله : وأما جلدها الخ ، أى محرم يابس لأنه ملقى بالفلاة لم يدبغ ، ويقال : الصليب هنا الودك ، أى قد سال ما فيه من رطوبة لإحماء الشمس عليه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(2) هو المسيب بن زيد مناة الغنوى ، كما فى كتاب سيبويه .

أى ما فى استماعه كذب، أى هو صادق الاستماع، والنَّدُس : الحاذق . والنَّبْأَة : الصوت الخفى، وكذلك الرِّكز . والسِّمع بكسر السين و إسكان الميم : ذِكر الإنسان بالجميل، يقال : ذهب سِمْعه فى النـاس أى ذكره . والسِّمْع أيضا : ولد الذئب من الضبع . والوقف هنا : وعلى سمعهم . وغشاوة رفع على الابتداء وما قبله خبره . والضمائر فى قلوبهم وما عطف عليـه لمن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش، وقيل من المنافقين، وقيل من اليهود، وقيل من الجميـع، وهو أصوب لأنه يعم . فالختم على القلوب والأسماع . والغشاوة على الأبصار . والغشاء : الغطاء . وهى :

التاســعة — ومنه غاشية السَّرج، وغشيت الشيء أغشيه . قال النابغة :

هلّا سألت بنى ذبيان ما حسَبِى * إذا الدُّخَانُ تَغشَّى الأشْمطَ البَرَمَا (١)

وقال آخر (٢) :

صحِبتُـكَ إذ عينى عليهـا غشاوةٌ * فلما انجلَتْ قطّعتُ نفسى أَلُومُها

قال ابن كيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بحذف الهاء . وحكى الفراء : غشاوى مثل أداوى . وقرئ : غشاوة بالنصب على معنى وجعل، فيكون من باب قوله :

* علفتُها تبنًـا وماء باردا *

وقول الآخر (٣) :

يا ليت زوجَك قد غَدَا * متقلِّدا سـيفًا ورُمْحـا

المعنى وأسقيتها ماء، وحاملا رمحا؛ لأن الرمح لا يتقلد . قال الفارسي : ولا تكاد تجد هذا الاستعمال فى حال سـعة واختيار؛ فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة . قال : ولم أسمع من الغشاوة فعلا متصرفا بالواو . وقال بعض المفسرين : الغشاوة على الأسماع والأبصار، والوقف على قلوبهم . وقال آخرون : الختم فى الجميع، والغشاوة هى الختم فالوقف على هـذا على غشاوة؛ وقرأ الحسن غشاوة بضم الغين، وقرأ أبو حَيْوَة بفتحها؛ وروى عن

---

(١) الأشمط : الذى خالطه الشيب . والبَرَم : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر ويأكل معهم من لحمه .

(٢) هو الحارث بن خالد المخزومى، كما فى اللسان مادة (غشا) . (٣) هو عبد الله بن الزبعرى . كما فى الكامل للبرد ص ١٨٩ طبع أوربا .

أبى عمرو : غشوة رده إلى أصل المصدر، قال ابن كيسان : ويجوز غَشوة وغشوة وأجودها غشاوة ؛ كذلك تستعمل العرب فى كل ما كان مشتملا على الشيء ، نحو عمامة وكنانة وقلادة وعصابة وغير ذلك .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أى للكافـرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعته . والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد، إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان . وفى التنزيل : « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » وهو مشتق من الحبس والمنع ؛ يقال فى اللغة : أَعْذِبه عن كذا أى أحبسه وأمنعه ، ومنـه سمى عذوبة المـاء لأنها قـد أعذبت ، واستعذب بالحبس فى الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : أَعْذِبُوا نساءكم عن الخروج، أى احبسوهن . وعنه رضى الله عنه وقد شيّع سَرِيَّةً فقال : أَعْذِبُوا عن ذكر النساء [أنفسكم] فإن ذلك يَكْسِرُكم عن الغزو؛ وكل من منعته شيئا فقد أعذبته ؛ وفى المثل : « لألجمنّك لجاما معذبا » أى مانعا عن ركوب الناس ؛ ويقال : أَعْذَبَ أى امتنع . وأَعْذَبَ غيره فهو لازم ومتعد ؛ فسمى العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — روى ابن جريج عن مجاهد قال : نزلت أربع آيات من سورة البقرة فى المؤمنين ، واثنتان فى نعت الكافرين ، وثلاث عشرة فى المنافقين . وروى أسباط عن السدّى فى قوله : «وَمِنَ النَّاسِ» قال : هم المنافقون . وقال علماء الصوفية : الناس اسم جنس ، واسم الجنس لا يخاطب به الأولياء .

الثانيـة — واختلف النحاة فى لفظ الناس ؛ فقيل : هو اسم من أسماء الجموع ، جمع إنسان وإنسانة على غير اللفظ ، وتصغيره نُوَيس ، فالناس من النوس وهو الحركة يقال : ناس ينوس أى تحرك ، ومنه حديث أم زَرْع : « أَنَاسَ من حُلِيّ أُذُنَيَّ » . وقيل : أصله من نسى فأصل

ناس نسي قلب فصار نيس تحركت الياء فانفتح ما قبلها فانقلبت ألفا، ثم دخلت الألف واللام فقيل: الناس. قال ابن عباس: نسي آدم عهد الله فسمي إنسانا. وقال عليه السلام: "نسي آدم فنسيت ذريته". وفي التنزيل: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ» وسيأتي، وعلى هذا فالهمزة زائدة؛ قال الشاعر:

لا تنسين تلك العهود فإنما * سميت إنسانا لأنك ناسي

وقال آخر:

فإن نسيت عهودا منك سالفة * فاغفر فأول ناس أول الناس

وقيل: سمي إنسانا لأنسه بحواء. وقيل: لأنسه بربه، فالهمزة أصلية؛ قال الشاعر:

وما سمي الانسان إلا لأنسه * ولا القلب إلا أنه يتقلب

الثالثة — لما ذكر الله جل وتعالى المؤمنين أولا، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم، ذكر الكافرين في مقابلتهم؛ إذ الكفر والإيمان طرفان، ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم، لنفي الإيمان عنهم بقوله الحق: «وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ» ففي هذا رد على الكَرَّامِيَّة حيث قالوا: إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب، واحتجوا بقوله تعالى: «فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا». ولم يقل: بما قالوا وأضمروا؛ وبقوله عليه السلام: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا مني دماءهم وأموالهم". وهذا منهم قصور وجمود، وتركُ نظرٍ لما نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان". أخرجه ابن ماجه في سننه. فما ذهب إليه محمد بن كَرَّام السجستاني وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق؛ ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد.

الرابعة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم: المؤمن ضربان: مؤمن يحبه الله ويواليه، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه، بل يبغضه ويعاديه؛ فكل من علم الله أنه يوافي بالإيمان، فالله محب له، موال له، راض عنه. وكل من علم الله أنه يوافي بالكفر، فالله مبغض له، ساخط

عليه ، معاد له ، لا لأجل إيمانه ، ولكن لكفره وضلاله الذى يوافى به . والكافر ضربان : كافر يُعاقَب لا محالة ، وكافر لا يُعاقَب . فالذى يُعاقَب هو الذى يُوافِى بالكفر ، فالله ساخط عليه معادٍ له ؛ والذى لا يعاقب هو الموافى بالإيمان ، فالله غير ساخط على هذا ولا باغض له ، بل محب له موالٍ ؛ لا لكفره لكن لإيمانه الموافى به . فلا يجوز أن يطلق القول وهى : —

الخامسة — بأن المؤمن يستحق الثواب ، والكافر يستحق العقاب ، بل يجب تقييده بالموافاة ، ولأجل هذا قلنا إن الله راض عن عمر فى الوقت الذى كان يعبد الأصنام ، ومريد لثوابه ودخوله الجنة ؛ لا لعبادته الصنم ، لكن لإيمانه الموافى به . وإن الله تعالى ساخط على إبليس فى حال عبادته لكفره الموافى به .

وخالفت القَدَرية فى هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته ، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم . وهذا فاسد لما ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافى به إبليس لعنه الله ، وبما يوافى به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل ؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر ؛ ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار ، بل هو ساخط عليه ؛ وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علماء الصوفية : ليس الإيمان ما يتزيّن به العبد قولا وفعلا ؛ لكن الإيمان جَرْىُ السعادة فى سوابق الأزل ؛ وأما ظهوره على الهيا كل فربما يكون عاريا ، وربما يكون حقيقة .

قلت : هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن أحدكم يُجمع خَلْقُه فى بطن أمّه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك عَلَقَة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مُضْغَةً مثل ذلك ثم يُرسِل الله المَلَك فيَنْفُخ فيه الرُّوحَ ويُؤْمَر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعَمَله وشَقِيٌّ أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليَعْمَل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسْبِق عليه الكتابُ فيعمَلُ

بعمل أهل النار فيدخُلُها و إن أحدكم ليعمل بعمل أهلْ النار حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع فيَسْبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنه فيدخلها" . فان قيل وهي : —

السادســة — فقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد المصرى من حديث محمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة، وهو محمد بن أبى قيس، عن سليمان بن موسى وهو الأشدق ، عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس أخبرنا أبو رَزِين العقيلي قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لأشربن أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه" قال قلت : كيف يحيي الله الموتى؟ قال: "أما مررتَ بأرض لك مُجْدبة ثم مررت بها مخصبة ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة" قلت : بلى . قال : " كذلك النشور" قال قلت : كيف لى أن أعلم أنى مؤمن ؟ قال : "ليس أحد من هذه الأمة — قال ابن أبى قيس : أو قال من أمتى — عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شرا أو يغفرها إلا مؤمن" .

قلت : وهذا الحديث وإن كان سنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث ابن مسعود، فان ذلك موقوف على الخاتمة، كما قال عليه السلام : "و إنما الأعمال بالخواتيم" . وهذا إنما يدل على أنه مؤمن فى الحال والله أعلم .

السابعــة — قال علمـاء اللغة : إنمـا سمى المنافق منافقا لإظهاره غير ما يضمر تشبيها باليربوع له جحر يقال له : النافقاء، وآخر يقال له : القاصعاء . وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرق التراب، فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج ، فظاهر جحره تراب، و باطنه حفر، وكذلك المنافق ظاهره إيمان، و باطنه كفر، وقد تقدم هذا المعنى.

قوله تعـالى : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٩)

قال علمــاؤنا : معنى يخادعون الله أى يخادعونه عنـد أنفسهم وعلى ظنهم . وقيــل : قال ذلك لعملهم عمل المخادع . وقيــل : فى الكلام حذف، تقديره : يخادعون رسول الله

صلى الله عليـه وسلم؛ عن الحسن وغيرهُ . وجعـل خداعهم لرسوله خداعا لهم؛ لأنه دعاهم برسالته ؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله . ومخادعتهم : ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليَحْقُنوا دماءهم وأموالهم ، ويظنون أنهـم قد نجوا وخدعوا ؛ قاله جماعة من المتأولين . وقال أهل اللغـة : أصل الخدع فى كلام العرب الفساد ، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابى . وأنشد :

أبيضُ اللونِ لذيذٌ طعْمُه * طيّبُ الريق إذا الرِّيقُ خَدَعْ (١)

قلت : فيخادعون الله على هذا، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم و بين الله تعالى بالرياء . وكذا جاء مفسرا عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم على ما يأتى. وفى التنزيل : « يُرَاءُونَ النَّاسَ» . وقيل: أصله الإخفاء، ومنه مخدع البيت الذى يحرز فيه الشئ ؛ حكاه ابن فارس وغيره . وتقول العرب: انخدع الضب فى جحره .

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ نفى و إيجاب ، أى ما تَحِلّ عاقبة الخدع إلا بهم. ومن كلامهم : من خَدَع من لا يُخْدَع فإنما يَخْدع نفسه . وهذا صحيح لان الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معه فى الخداع فإنما يخدع نفسه . ودل هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع ؛ وقد تقدّم من قوله عليه السلام أنه قال : "لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونفسَه يخـدع لو يشعر" قالوا : يارسول الله، وكيف يُخادَع الله؟ قال : "تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره" . وسيأتى بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى : «اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» . وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو : «يخادعـون» فى الموضعين ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى وابن عامر : «يخدعون» الثانى . والمصدر خِدْع بكسر الخاء وخديعة؛ حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مُوَرِّقٌ العجلىّ : «يُخَدِّعون الله» بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال على التكثير . وقرأ أبو طالوت عبد السلام بن شـدّاد والجارود بضم الياء و إسكان الخـاء وفتح

(١) قاله سويد بن أبى كاهل . يصف ثغر امرأة، كما فى اللسان مادة (خدع) .

الدال، على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم؛ فحذف حرف الجر كما قال تعالى : «وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ» أى من قومه .

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى يفطُنون أنّ وبَال خدعهم راجع عليهم ؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخـدعهم وفازوا ؛ وإنمـا ذلك فى الدنيـا ، وفى الآخرة يقال لهم : « ٱرْجِعُـوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا» على مايأتى . قال أهل اللغة : شَعَرت بالشئ أى فَطِنت له ؛ ومنـه الشاعر لفطنته لأنه يَفْطُن لمـا لايَفْطُن له غيره من غريب المعانى . ومنه قولهم : ليت شِعْرِى ، أى ليتنى علمت .

قوله تعالى : فِى قُلُوبِهِـم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَـا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ابتداء وخبر . والمرض عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم . وذلك إما أن يكون شكا ونفاقا ، وإما جحدا وتكذيبا . والمعنى قلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد . قال ابن فارس اللغوى : المرض كل ماخرج به الإنسان عن حد الصحة من علة أو نفاق أو تقصير فى أمر . والقراء مجمعون على فتح الراء من « مَرَض » إلا ما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سكن الراء .

قوله تعالى : ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ قيل : هو دعاء عليهم . ويكون معنى الكلام : زادهم الله شكا ونفاقا جزاء على كفرهم وضعفا عن الانتصار وعجزا عن القدرة ؛ كما قال الشاعر :

يامُرسِلَ الريحِ جَنُوبًا وصبَا ＊ إذْ غَضبَتْ زيدٌ فزِدْها غَضَبا

أى لا تهدها على الانتصار فيما غضبت منه . وعلى هذا يكون فى الآية دليل على جـواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم ، لأنهم شر خلق الله . وقيل : هو إخبار من الله تعـالى عن زيادة مرضهم ، أى فزادهم الله مرضا الى مرضهم ؛ كما قال فى آية أخرى : « فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ » . وقال أرباب المعانى : فى قلوبهم مرض أى بسكونهم الى الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها . وقوله : «فزادهم الله مرضا» أى وكَلهم الى أنفسهم ،

وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك الى اهتمام بالدين. «ولهم عذاب أليم» بما يفنى عما يبقى. وقال الجنيد: عِلَلُ القلوب من آتباع الهوى، كما أن علل الجوارح من مرض البدن.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أليم فى كلام العرب معناه مؤلم أى موجع، مثل السميع بمعنى المسمع؛ قال ذو الرمّة يصف إبلا:

ونرفعُ من صدورِ شَمَرْدَلاتٍ * يَصُكُّ وُجُوهَهَا وَهَجٌ أَلِيمُ[1]

وآلم اذا أوجع. والإيلام: الايجاع. والألم: الوجع، وقد أَلِمَ يأْلَمُ أَلَمًا. والتألّم: التوجع. ويجمع أليم على ألام وأُلَمَاء مثل كريم وكرماء، وآلام مثل أشراف.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ما مصدرية، أى بتكذيبهم الرسل وردّهم على الله جلّ وعزّ وتكذيبهم بآياته، قاله أبو حاتم. وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف؛ ومعناه بكذبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين.

مسألة — واختلف العلماء فى إمساك النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال:

القول الأول — قال بعض العلماء: إنما لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه. وقد اتفق العلماء على بكرة أبيهم[2] على أن القاضى لا يَقتل بعلمه، وإن اختلفوا فى سائر الأحكام. قال ابن العربى: وهذا منتقض، فقد قُتِل بالمُجَذَّر بن ذِياد الحارثُ بن سُوَيد بن الصامت لأن المُجَذَّر قتل أباه سُويدا يوم بُعاث[3]؛ فأسلم الحارث وأغفله يوم أُحُد فقتله؛ فأخبر به جبريلُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم فقتله به لأن قتله كان غِيلة[4]؛ وقتل الغيلة حدٌّ من حدود الله.

---

(١) شمردلات: إبل طوال. ونرفع: نستحثها فى السير. والوهج: الحر الشديد المؤلم.

(٢) قوله: «على بكرة أبيهم» هذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفير العدد.

(٣) بعاث: موضع فى نواحى المدينة، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية. وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج.

(٤) راجع هذه القصة فى سيرة ابن هشام (ص ٣٥٦، ٥٧٩) طبع أوربا. وكتاب الاستيعاب فى اسم المجذر.

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر، لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وانقطاع الوحي، وعلى هذا فتكون تلك قضيّةً في عَيْنٍ بوحْيٍ ، فلا يحتج بها أو منسوخة بالإجماع . والله أعلم .

القول الثاني — قال أصحاب الشافعي : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذي يُسِرّ الكفر ويظهر الإيمــان يستتاب ولا يقتل . قال ابن العربي : وهذا وَهَمٌ، فإن النبيّ صلى الله عليــه وســلم لم يستتبهم ولا نقل ذلك أحد، ولا يقول أحد إن استتابة الزنديق واجبة(١) وقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم معرضا عنهم مع علمه بهم . فهــذا المتأخر من أصحاب الشافعي الذي قال : إن استتابة الزنديق جائزة(٢) قال قولا لم يصح لأحد .

القول الثالث — انما لم يقتلهم مصلحة لتأليف القلوب عليه، لئلا تنفر عنه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم الى هذا المعنى بقوله لعمر: "معاذ الله أن يتحدّث الناس أني أقتل أصحابي" أخرجه البخاري ومسلم . وقد كان يعطي للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألُّفًا ؛ وهــذا هو قول علمائنــا وغيرهم . قال ابن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك رحمــه الله في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ؛ نص على هذا محمد بن الجهم والقاضي اسماعيل والأبهري وابن المــاجشون ، واحتج بقوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » الى قوله . « وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا » . قال قتادة : معناه اذا هم أعلنوا النفاق . قال مالك رحمه الله : النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم ؛ فيقتل الزنديق اذا شهد عليه بها دون استتابة ؛ وهو أحد قولي الشافعي . قال مالك : وإنمــا كفّ رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذ لم يُشْهَد على المنافقين . قال القاضي اسمــاعيل : لم يَشْهد على عبد الله بن أُبَيّ(٣) إلا زيد بن أرقم وحده ؛

(١) الذي في كتاب الأحكام لابن العربي : « ... ان استتابة الزنديق غير واجبة » .

(٢) كذا في الأصول وكتاب الأحكام لابن العربي . ولعل صواب العبارة : « ان استتابة الزنديق واجبة » .

(٣) سيذكر الامام القرطبي قصته عند تفسير سورة «المنافقون» . وقد وردت في ســيرة ابن هشام ص ٧٢٦ طبــع أوربا .

ولا على الجُلَاس بن سُويد إلا عُمير بن سعد ربيبه (١) ؛ ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل . وقال الشافعي رحمه الله محتجا للقول الآخر : السنة فيمن شُهد عليه بالزندقة فجحد وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من إراقة دمه . وبه قال أصحاب الرأى وأحمد والطبرى وغيرهم . قال الشافعي وأصحابه : وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإســلام مع العــلم بنفاقهم ، لأن ما يظهرونه يَجُبُّ ما قبله . وقال الطبرى : جعل الله تعــالى الأحكام بين عباده على الظــاهر ، وتولى الحكم فى سرائرهم دون أحد من خلقه ، فليس لأحد أن يحكم بخــلاف ما ظهر لأنه حكم بالظنون ؛ ولو كان ذلك لأحدٍ كان أولى الناس به رســول الله صلى الله عليه وسلم ، وقــد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا ، ووَكَلَ سرائرهم الى الله . وقد كذب الله ظاهرهم فى قوله : « وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » . قال ابن عطية : ينفصل المــالكيون عما لزموه من هــذه الآية بأنهــا لم تُعيّن أشخاصهم فيها وإنمــا جاء فيها توبيخ لكل مغموص (٢) عليــه بالنفاق ؛ وبقى لكل واحد منهــم أن يقول : لم أُرَد بهــا وما أنا إلا مؤمن ، ولو عُيِّن أحد لمــا جبّ كذبه شيئا .

قلت : هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يَعْلَمُهم أو كثيرا منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه، وكان حذيفة يعلم ذلك بإخبار النبيّ عليه السلام إيّاه حتى كان عمر رضى الله عنه يقول له : ياحذيفة هل أنا منهم ؟ فيقول له : لا .

القول الرابع — وهو أن الله تعالى كان قد حفظ أصحاب نبيه عليــه السلام بكونه ثبتهم أن يفسدهم المنافقون أو يفســدوا دينهم فلم يكن فى تبقيتهم ضرر ، وليس كذلك اليوم ؛ لأنا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا .

قوله تعـالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

« إذا » فى موضع نصب على الظرف والعامل فيهـا قالوا ؛ وهى تؤذن بوقوع الفعـل المنتظر . قال الجوهرى : إذا اسم يدل على زمان مسـتقبل ولم تستعمل إلا مضافة إلى جمـلة، تقول : أجيئك إذا آحمرّ البُسْر و إذا قَدِم فلان . والذى يدل على أنهـا آسم وقوعها موقع قولك : آتيك يوم يَقْدَم فلان؛ فهى ظرف وفيها معنى المجازاة . وجزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء و إذا؛ فالفعل قولك : إن تأتنى آتك . والفاء إن تأتنى فأنا أحسن إليك . و إذا كقوله تعالى «وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ» . ومما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخطيم :

إذا قَصُرتْ أسيافُنا كان وصلُها * خُطانا إلى أعدائنا فنضارِبِ (١)

فعطف فنضارب بالجزم على موضع كان لأنه مجزوم، ولو لم يكن مجزوما لقال : فنضاربُ بالنصب . وقد تزاد على «إذا» «ما» تأكيدا، فيجزم بها أيضا؛ ومنه قول الفرزدق :

فقام أبو ليلى إليـه ابنُ ظـالِم * وكان إذا ما يَسْلُلِ السيفَ يضربِ

قال سيبويه : والجيد ما قال كعب بن زهير :

وإذا ما تشـاءُ تبعثُ منهـا * مغربَ الشمسِ ناشِطًا مَذْعُورَا (٢)

يعنى أن الجيد ألا يجزم بإذا كما لم يجزم فى هذا البيت . وحكى عن المبرد أنها فى قولك فى المفاجأة : خرجت فإذا زيد، ظـرف مكان، لأنها تضمنت جُثّـة، وهذا مردود ؛ لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد، فإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان ؛ ومنه قولهم : «اليومَ خَمْرٌ وغَدًا أَمْرٌ» فمعناه وجود خمر ووقوع أمر

(١) يقول : اذا قصرت اسيافنا فى اللقاء عن الوصول الى الأقران وصلناها بخطانا مقدمين عليهم حتى تنالهم .

(٢) وصف ناقته بالنشاط والسرعة بعد سير النهار كله ، فشبهها فى انبعاثها مسرعة بناشط قد ذعر من صائد أو سبع . والناشط : الثور يخرج من بلد الى بلد ، فذلك أوحش له وأذعر . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

قوله : ﴿قِيلَ﴾ من القول وأصله قَوِل، نقلت كسرة الواوالى القاف فانقلبت الواو ياء ؛ ويجوز: قيل لهم، بإدغام اللام في اللام . وجاز الجمع بين ساكنين لأن الياء حرف مدّ ولين . قال الأخفش : ويجوز قُيِل بضم القاف والياء . وقال الكسائى : ويجوز إشمام القاف الضم ليدل على أنه لما لم يسم فاعله ، وهى لغة قيس ؛ وكذلك جىء وغيض وحيل وسيق وسئ وسيئت . وكذلك روى هشام عن ابن عباس(1)، ورُوَيس(2) عن يعقوب؛ وأشم منها نافع سئ وسيئت خاصة؛ وزاد ابن ذكوان : حيل وسيق؛ وكسر الباقون في الجميع . فأما هذيل وبنودُبَير من أسد وبنى فَقْعَس فيقولون : قول بواوساكنة .

قوله : ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ لا ، نهى . والفساد ضدّ الصلاح، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدّها . فَسَدَ الشيء يَفْسُدُ فسادا وفسودا وهو فاسد وفسيد . والمعنى في الآية لا تفسدوا في الارض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقيل : كانت الارض قبل أن يُبْعث النبيّ صلى الله عليه وسلم فيها الفساد، ويُفْعل فيها بالمعاصى؛ فلما بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ارتفع الفساد وصلحت الأرض . فاذا عملوا بالمعاصى فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها؛ كما قال في آية أخرى : «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا » .

قوله : ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الأرض مؤنثة وهى آسم جنس، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرْضة، ولكنهم لم يقولوا . والجمع أَرَضات لأنهم قد يجمعون المؤنث الذى ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم: عُرُسات . ثم قالوا أَرَضون فجمعوا بالواو والنون؛ والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصا كثُبَة وظُبَة، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها، وربما سُكّنت . وقد تجمع على أُرُوض . وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون : أرْض وآراض، كما قالوا : أهل وآهال . والأراضى أيضا على غير قياس كأنهم جمعوا آرْضا ؛ وكل ما سفل فهو أرض . وأرْض أَرِيضة [وأَرِيضة] ، أى زكية بيِّنة الأَرَاضة ،

---

(1) في نسخة : «ابن عامر» . (2) رويس (كزبير) محمد بن المتوكل القارى ، راوى يعقوب بن إسحاق .

وقد أُرِضت بالضم أى زكت . قال أبو عمرو : نزلنا أرضا أريضة أى معجبة للعين؛ ويقال : لا أرض لك، كما يقال : لا أمّ لك . والأرض أسفل قوائم الدابة؛ قال حُمَيد يصف فرسا :

ولم يُقلِّب أرضَها البَيْطارُ ＊ ولا لِحَبْلَيْـــهِ بهـا حَبَـارُ

أى أثر . والأرض : النفضة والرِّعدة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبد الله بن الحـارث قال : زلزلت الأرض بالبصرة؛ فقال ابن عباس : والله ما أدرى! أزلزلت الأرض أم بى أرْض . أى أم بى رعدة؛ وقال ذو الرُّمة يصف صائدا :

إذا تَوَجّس رِكْزًا من سَنابكهـا ＊ أوكان صاحبَ أرْضٍ أو به المُومُ(١)

والأرض : الزكام؛ وقد آرضه الله إيراضا، أى أزكمه فهو ماروض . وفَسِيل مستأرِض، ووَدِيّة مستأرِضة بكسر الراء، وهو أن يكون له عِرق فى الأرض؛ فأما إذا نبت على جـذع النخل فهو الراكب . والإراض (بالكسر) : بساط ضخم من صوف أو وبر . ورجل أريض، أى متواضع خليق للخير . قال الأصمعى يقال : هو آرَضُهم أن يفعل ذلك أى أخلقهم . وشىء عريض أريض اتباع له؛ وبعضهم يفرده ويقول : جَدْىٌ أريض أى سمين .

قوله : ﴿نَحْنُ﴾ أصل نحن نَحُنْ، قلبت حركة الحـاء على النون وأسكنت الحـاء؛ قاله هشام بن معاوية النحوى . وقال الزجاج : نحن لجماعة، ومن علامة الجماعة الواو، والضمة من جنس الواو؛ فلمـا اضطروا إلى حركة نحن لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال : ولهذا ضموا واو الجمع فى قوله عزّ وجلّ : «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ» . وقال محمد ابن يزيد : نحن مثل قبلُ وبعـدُ لأنها متعلقة بالإخبار عن اثنين وأكثر، فأنا للواحد، ونحن للتثنية والجمع، وقد يخبر به المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن قمنا؛ قال الله تعالى : «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ» . والمؤنث فى هـذا اذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر؛ تقول المـرأة : قمت وذهبت، وقمنا وذهبنا، وأنا فعلت ذاك، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فاعلم .

---

(١) توجس : تسمع . الركز : الحس والصوت الخفى . سنابكها : حوافرها . الموم : البرسام وهو الخبل؛ وقيل : الموم الجدرى الكثير المتراكب . ومعناه أن الصياد يُذهِب نَفَسَه الى السماء ويَخْفَرَ اليها أبدا لئلا يجـد الوحش نَفَسَه فينفر . وشبه بالمبرسم أو المزكوم لأن البرسام مفغر والزكام مفغر . عن اللسان .

قوله تعالى ﴿مُصْلِحُونَ﴾ اسم فاعل من أصلح . والصلاح : ضد الفساد، وصلُح الشيء بضم اللام وفتحها لغتان؛ قاله ابن السكيت . والصُّلوح بضم الصاد مصدر صلح بضم اللام؛ قال الشاعر :

فكيف بإطْراقِي إذا ما شَتَمْتَنِي * وما بعــدَ شَتْمِ الوَالدَيْنِ صُـلُوحُ

وصَلاح من أسماء مكة . والصِّلح بكسر الصاد : نهر .

وإنما قالوا ذلك على ظنهم، لأن إفسادهم عندهم إصـلاح ، أى إن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله ابن عباس وغيره .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله عزّ وجلّ : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ردّا عليهـم وتكذيبا لقولهم . قال أرباب المعانى : من أظهر الدعوى كذب، ألا ترى أن الله عزّ وجلّ يقول : «ألا إنهم هم المفسدون» وهذا صحيح . وكسرت «إن» لأنها مبتدأ؛ قاله النحاس . وقال على بن سليمان . يجوز فتحها[1] كما أجاز سيبويه : حقا أنك منطلق، بمعنى ألا . وهم، يجوز أن يكون مبتدأ والمفسدون خبره والمبتدأ وخبره خبر إنّ . ويجوز أن تكون هم توكيدا للهاء والميم فى إنهم . ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمادا — والمفسدون خبر إنّ؛ والتقدير ألا إنهم المفسدون، كما تقدّم فى قوله : « وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن كيسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم، إنما يُذَم إذا علم أنه مفسد ثم أفسد على علم؛ قال : ففيه جوابان : أحدهما — أنهم كانوا يعملون الفساد سرا ويظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم . والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا وهم لايشعرون أن ذلك فساد، وقد عصوا الله ورسوله فى تركهم تبين الحق واتباعه . «ولكن» حرف تأكيد واستدراك،

(١) فى العبـارة غموض . ولعل المعنى المراد : يجوز فتحها كما أجاز سـيبويه أما أنك منطلق على معنى حقا أنك منطلق . وأما بمعنى ألا ؛ فاذا فتحت إن بعدهما كانتا بمعنى حقا أنك ... وإذا كسرت كانتا أداتى استفتاح . راجع كتاب سيبويه ج ١ ص ٤٦٢ طبع بولاق .

ولا بد فيه من نفى و إثبات ؛ إن كان قبله نفى كان بعده إيجاب ، و إن كان قبله إيجاب كان بعده نفى . ولا يجوز الاقتصار بعده على اسم واحد اذا تقـدّم الإيجاب، ولكنك تذكر جملة مضادة لمـا قبلها كما فى هذه الآية، وقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يجئ؛ ولا يجوز جاءنى زيد لكن عمرو ثم تسكت، لأنهم قد استغنوا ببل فى مثل هذا الموضع عن لكن، وإنما يجوز ذلك اذا تقدّم النفى كقولك : ما جاءنى زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين فى قول مقاتل وغيره . ﴿ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أى صدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ، كما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يَثْرِبَ . وألف آمنوا ألف قطع لأنك تقول : يؤمن ، والكاف فى موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف، أى إيمانا كإيمان الناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، عن ابن عباس؛ وعنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب . وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه فى خفاء واستهزاء فأطلع الله نبيـه والمؤمنين على ذلك، وقرر أن السفه ورقّـة الحُلوم وفساد البصائر إنما هى فى حيِّزهم وصـفة لهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرَّيْن الذى على قلوبهم . وروى الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس أنها نزلت فى شأن اليهود ، أى و إذا قيل لهم — يعنى اليهود — آمنوا كما آمن النـاس : عبـد الله بن سَلَام وأصحابه ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ! يعنى الجهال والخرقاء . وأصل السفه فى كلام العرب : الخفة والرقة، يقال : ثوب سـفيه اذا كان ردئ النسج خفيفه، أو كان باليـا رقيقا . وتسـفهت الريح الشجر : مالت به؛ قال ذو الرمة :

مَشَين كما اهتزّتْ رماحٌ تسفّهتْ * أعاليَها مرُّ الرياح النّواسِـــمِ (١)

(١) وصف نساء فيقول : اذا مشـين اهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت . والنواسم : الضعيفة الهبوب .

وتسفهت الشيء : استحقرته . والسفه : ضد الحلم . ويقال : إن السفه أن يكثر الرجل شرب الماء فلا يروى . ويجوز فى همزتى السفهاء[1] أربعة أوجه ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوا خالصة ، وهى قراءة أهل المدينة والمعروف من قراءة أبى عمرو . وإن شئت خففتهما جميعا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوا خالصة . وإن شئت خففت الأولى وحققت الثانية . وإن شئت حققتهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ مثل ولكن لا يشعرون ؛ وقد تقدم . والعلم معرفة المعلوم على ما هو به ، تقول : علمت الشيء أعلمه علما عرفته ، وعالمت الرجل فعلمته أعلُمه بالضم فى المستقبل غلبته بالعلم .

قوله تعالى : وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ أنزلت هذه الآية فى ذكر المنافقين . أصل لقوا : لَقِيُوا نقلت الضمة إلى القاف وحذفت الياء لالتقاء الساكنين . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع اليمانى : لاقوا الذين ءامنوا . والأصل لاقيوا تحركت الياء وقبلها فتحة انقلبت ألفا ، اجتمع ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ثم حركت الواو بالضم .

وإن قيل : لم ضمت الواو فى لاقوا فى الإدراج وحذفت من لقوا؟ فالجواب : أن قبل الواو التى فى لقوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها ، وحركت فى لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إن قيل : لم وصلت خلوا بإلى وعرفها أن توصل بالباء ؟ قيل له : خلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا ، ومنه قول الفرزدق :

كيف تَرَانِى قَالِبًا مِجَنِّى * [أَضْرِبُ أَمْرِى ظَهْرَه لِبَطْنِ][2]
* قد قتل الله زِيَادًا عَنِّى *

---

(١) أى مع كلمة الا التى بعدها .
(٢) الزيادة عن اب النقائض . وزياد ، هو زياد بن أبيه . والمجن : الترس .

لمـا أنزله منزله صرف؛ وقال قوم : إلى بمعنى مع، وفيه ضعف . وقال قوم : الى بمعنى الباء، وهـذا يأباه الخليل وسيبويه . وقيل : المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم، فإلى على بابهـا . والشياطين جمع شيطان على التكسير، وقـد تقدم القول فى اشـتقاقه ومعناه فى الاستعاذة .

واختلف المفسرون فى المراد بالشياطين هنا، فقال ابن عباس والسدى : هم رؤساء الكفر. وقال الكلبي : هم شـياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع من ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى مكذبون بما ندعى إليه؛ وقيل : ساخرون . والهزء : السخرية واللعب؛ يقال : هَزِئَ به واستهزأ؛ قال الراجز : (١)

قـــد هَزِئَت مِنّى أمُّ طَيْسَلَهْ * قالت أراه مُعدِما لا مالَ لَهْ

وقيل : أصل الاستهزاء : الانتقام؛ كما قال الآخر :

قد استهزءوا منهم بألفَىْ مُدَجَّج * سَرَاتُهم وسْطَ الصَّحاصِحِ جُثَّمُ (٢)

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أن ينتقم منهم ويعاقبهم، ويسـخربهم ويجازيهم على استهزائهم؛ فسمى العقوبة باسم الذنب . هذا قول الجمهور من العلماء؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم؛ من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألَا لا يَجهلَنْ أحـدٌ علينا * فنَجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

فسمى انتصاره جهلا، والجهل لا يفتخر به ذو عقل؛ وإنما قاله لِيَزْدَوِج الكلام فيكون أخفَّ على اللسان من المخـالفة بينهما . وكانت العرب اذا وضـعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفا له فى معناه؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسـنة . وقال

(١) هو صخر الغى الهذلى . والبيت كما ذكره القالى فى أماليه (ج ٢ ص ٢٨٤) طبع دار الكتب المصرية :

تهزأ منى أخت آل طيسله * قالت أراه مبلطا لا شىء له

(٢) الصحاصح (جمع صحصح) : الأرض ليس بها شىء ولا شجر ولا قرار للماء . والجاثم : اللازم مكانه لا يبرح .

الله عزّ وجلّ : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » . وقال : « فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق وجب ؛ ومثله : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ » . و « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا » . و « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » وليس منه سبحانه مكر ولا هزء ولا كيد ، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك « يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » . « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يَمَلّ حتى تَمَلّوا ولا يسأم حتى تسأموا " قيل : حتى بمعنى الواو أى وتملوا ؛ وقيل : المعنى وأنتم تملون . وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل . وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالا هى فى تأمل البشر هُزْءٌ وخَدْعٌ ومَكْرٌ ، حسب ما روى : " إن النار تجمد كما تجمد الإهالة(1) فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتخسف بهم " . وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا » هم منافقو أهل الكتاب ؛ فذكرهم وذكر استهزاءهم ، وأنهم اذا خلوا الى شياطينهم يعنى رؤساءهم فى الكفر — على ما تقدّم — قالوا : إنا معكم على دينكم « إنما نحن مستهزئون » بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . « الله يستهزئ بهم » فى الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا ، فيقبلون يسبحون فى النار ، والمؤمنون على الأرائك — وهى السرر — فى الحجال ينظرون اليهم ؛ فإذا انتهوا الى الباب سدّ عنهم ، فيضحك المؤمنون منهم ؛ فذلك قول الله عزّ وجلّ : « ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أى فى الآخرة ، ويضحك المؤمنون منهم حين غُلّقت دونهم الأبواب ؛ فذلك قوله تعالى : « فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى ٱلْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ » إلى أهل النار « هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » . وقال قوم : الخداع من الله والاستهزاء هو استدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم ؛ فالله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان فى الدنيا خلاف ما يُغيب عنهم ، ويستر عنهم من عذاب الآخرة ، فيظنون أنه راضٍ عنهم ، وهو تعالى

(1) الاهالة : ما أذيب من الألية والشحم . وقيل : الدسم الجامد .

قد حتم عذابهم. فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء ومكر وخداع ؛ ودل على هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الله عزّ وجلّ يعطى العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج " . ثم نزع بهذه الآية : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ أى يطيل لهم المدّة ويمهلهم ويملى لهم ؛ كما قال : « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » وأصــله الزيادة . قال يونس بن حبيب : يقال مدّ لهم فى الشر، وأمد فى الخير؛ قال الله تعالى : « وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ» . وقال : « وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ » . وحكى عن الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيته . وعن الفراء واللحيانى : مددت، فيما كانت زيادته من مثله ، يقال: مدّ النَّهْرُ [النهر](١) ، وفى التنزيل : « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ » . وأمددت، فيما كانت زيادته من غيره ؛ كقولك : أمددت الجيش بمدد ، ومنه : « يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » . وأمدّ الجرح لأن المِدّة من غيره، أى صارت فيه مدة .

قوله تعــالى : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ كفرهم وضلالهم . وأصــل الطغيان مجاوزة الحدّ ؛ ومنه قوله تعــالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ » أى ارتفع وعلا وتجاوز المقدار الذى قدرته الخزان . وقوله فى فرعون : « إِنَّهُ طَغَى » أى أسرف فى الدعوى حيث قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . والمعنى فى الآية يمدهم بطول العمر حتى يزيدوا فى الطغيان فيزيدهم فى عذابهم .

قوله تعالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون . وقال مجاهد : أى يتردّدون متحيرين فى الكفر . وحكى أهل اللغة : عَمِه الرجلُ يَعْمَه عُموهًا وعَمَهًا فهو عَمِه وعامِه إذا حار، ويقال رجل عامِه وعَمِه : حائر متردد ، وجمعه عُمَّــه . وذهبت إبلُه العُمَّهى إذا لم يدر أين ذهبت . والعمى

(١) الزيادة عن اللسان مادّة (مد) .

فى العين ، والعَمَه فى القلب ؛ وفى التنزيل : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ » .

قوله تعالى : أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ قال سيبويه : ضُمّت الواو فى «اشتروا» فرقا بينها و بين الواو الأصلية، نحو : «وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ» . وقال ابن كيسان : الضمة فى الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حركت بالضم كما فعل فى نحن . وقرأ ابن أبى إسحاق ويحيى بن يعمر[1] بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصارى عن قَعْنَب أبى السَّمّال العدوى أنه قرأ بفتح الواو لخفة الفتحة وأنّ كان[2] ماقبلها مفتوحا . وأجاز الكسائى همز الواو وضمها كأدؤر . واشتروا : من الشراء . والشراء هنا مستعار . والمعنى استحبوا الكفر على الإيمان كما قال : « فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ » فعبر عنه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه . فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا ، لإن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم . وقال ابن عباس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى . ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان . وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسعا لأن الشراء والتجارة راجعان الى الاستبدال ؛ والعرب تستعمل ذلك فى كل من استبدل شيئا بشىء . قال أبو ذؤيب :

فإن تَزْعُمينِي كنت أجهلُ فيكمُ * فإنى شَرِيتُ[3] الحِلمَ بعدكِ بالجهلِ

---

(١) قال صاحب تهذيب التهذيب : «فى التقريب» بفتح التحتانية والميم وبينهما مهملة ساكنة . وفى المغنى» بفتح الميم وضمها » . (٢) فى بعض الأصول : « وأن ما قبلها مفتوحا » ؛ وفى بعض الآخر : « وأن كان قبلها مفتوحا » . والظاهر أنه يريد : لخفة الفتحة وسكون ما قبلها مفتوحا . وهذا المعنى لا يتأتى الا بما أثبتناه من مجموع النسخ . (٣) ويروى : « اشتريت » كما فى ديوان أبى ذؤيب . يقول : ان كنت تزعمين أنى كنت أجهل فى هواى لكم وصبوتى اليكم فقد شريت بذلك الجهل والصبا حلما وعقلا ، ورجعت عما كنت عليه . (عن شرح الشواهد) .

وأصل الضلالة : الحيرة ؛ ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة ؛ قال جلّ وعزّ : « فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ » أى الناسين . ويسمى الهلاك ضلالة ؛ كما قال عزّ وجلّ : « وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ ﴾ أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : رَبِحَ بيعُك ، وخسرت صفقتك ؛ وقولهم : ليل قائم ، ونهار صائم ؛ والمعنى رَبِحت وخَسِرْتَ فى بَيعك ، وقمت فى ليلك وصمت فى نهارك ؛ أى فما ربحوا فى تجارتهم . وقال الشاعر :

نَهـارُك هائمٌ وليـلُكَ نائمُ ＊ كذلك فى الدنيا تَعيشُ البهائمُ

ابن كيسان : ويجوز تجارة وتجائر ، وضلالة وضلائل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ فى اشترائهم الضلالة . وقيل : فى سابق علم الله . والاهتداء ضد الضلال ، وقد تقدّم (١) .

قوله تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ فمثلهم رفع بالابتداء والخبر فى الكاف ، فهى اسم ، كما هى فى قول الأعشى :

أتنتهون ولن يَنْهى ذوِى شَـطَطٍ ＊ كالطّعن يذهب فيه الزّيتُ والفُتُلُ (٢)

وقول امرئ القيس :

ورُحْنا بِكابْنِ المـاءِ يُجْنَبُ وسطَنا ＊ تَصَوَّبُ فيــه العينُ طَوْرًا وترتقِى (٣)

---

(١) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .　(٢) المعنى : لا ينهى أصحاب الجور مثل طعن جائف ، أى نافذ الى الجوف ، يغيب فيه الزيت والفتل . (عن خزانة الأدب) .　(٣) يقول : رجعنا بفرس كأنه ابن ماء (طير ماء) خفة وحسنا وطول عنق . وهو يجنب ، أى يقاد فلا يركب .

أراد مثل الطعن، وبمثل آبن المـاء . ويجوز أن يكون الخبر محذوفا تقديره مثلهم مستقر كمثل، فالكاف على هـذا حرف . والمَثَل والمِثل والمثيل واحد ومعناه الشّبه ، والمتماثلان : المتشابهان؛ هكذا قال أهل اللغة .

قوله : ﴿ ٱلَّذِى ﴾ يقع للواحد والجمع؛ قال ابن الشَّجَرى هبةُ الله بن علىّ : ومن العرب من يأتى بالجمع بلفظ الواحد كما قال :

وإن الذى حَانَتْ بفَلْجٍ دماؤهُمْ * هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ (١)

وقيل فى قول الله تعالى : «وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ» إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله : «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى» قيل : المعنى كمثل الذين استوقدوا، ولذلك قال : «ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ»؛ فحمل أوّل الكلام على الواحد، وآخره على الجمع. فأمّا قوله تعـالى : «وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا» فإن الذى هاهنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذى خاضوا . وقيل : إنمـا وحّد الذى واستوقد لأن المستوقد كان واحدا من جماعة تولّى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعا فقال بنورهم . واستوقد بمعنى أوقد؛ مثـل استجاب بمعنى أجاب؛ فالسين والتاء زائدتان، قاله الأخفش؛ ومنه قول الشاعر (٢) :

وَداعٍ دعا يا منْ يُجيب إلى النَّدَى * فلم يَستجِبْه عنـد ذاك مُجيبُ

أى يجبـه . واختلف النحاة فى جواب لمـّا ، وفى عود الضمير من نورهم ؛ فقيـل : جواب لمـّا محذوف وهو طَفِئت ، والضمير فى نورهم على هذا للمنافقين، والإخبار بهذا عن حال تكون فى الآخرة؛ كما قال تعالى : «فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ» ، وقيل: جوابه ذهب، والضمير فى نورهم عائد على الذى؛ وعلى هـذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد لأنـ بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردّده . والمعنى المراد بالآية ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين،

---

(١) فلج (بفتح أوله وسكون ثانيه) : موضـع بين البصرة وضرية . وقيل : هو واد بطريق البصرة الى مكة ، ببطنه منازل للحاج . قائله الأشهب بن رميلة يرثى قوما قتلوا فى هذا الموضع . (عن اللسان) .

(٢) هو كعب ابن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار . (عن اللسان) .

وذلك أن ما يظهرونه من الإيمـان الذى تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناكح والتـوارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد نارا فى ليـلة مظلمة فاستضاء بهـا ورأى ما ينبغى أن يتقيه وأمن منه؛ فإذا طفئت عنه أو ذهبت وصل اليـه الأذى وبقى متحيرا؛ فكذلك المنافقون لمّـا آمنوا اغترّوا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم — كما أخبر التنزيل : « إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ» — ويذهب نورهم؛ ولهـذا يقولون : « ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ » . وقيـل : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار؛ وانصرافهم عن مودتهم وارتكاسهم عندهم كذهابها . وقيل غير هذا .

قوله : ﴿ نَاراً ﴾ النـار مؤنثة وهى من النـور وهو أيضا الإشراق . وهى من الواو لأنك تقول فى التصغير : نويرة، وفى الجمـع نُورٌ وأنْوُرٌ ونِيرَانٌ، انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها . وضاءت وأضاءت لغتان؛ يقال : ضاء القمرُ يَضُوءُ ضَـوْءاً ، وأضاء يُضيء . ويكون لازما ومتعديا . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع : ضاءت بغير ألف، والعامة بالألف؛ قال الشاعر :

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم * دُجَى الليل حتى نَظَّم الجَزْعَ(1) ثاقبه

﴿ ما حَوْلَهُ ﴾ ما زائدة مؤكدة . وقيل : مفعولة بأضاءت . وحوله ظرف مكان، والهاء فى موضع خفض بإضافته اليها . و ﴿ ذَهَبَ ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوال الشيء . ﴿ وتَرَكَهُمْ ﴾ أى أبقاهم . ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ جمع ظُلْمة . وقرأ الأعمش : ظُلْمات بإسكان اللام على الأصـل . ومن قرأها بالضم فللفرق بين الاسم والنعت . وقرأ أشهب العقيلى : ظُلَمات بفتح اللام . قال البصريون : أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف . وقال الكسائى : ظلمات جمع الجمع، جمع ظُلَم . ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فعل مستقبل فى موضع الحال؛ كأنه قال : غير مبصرين، فلا يجوز الوقف على هذا على ظلمات .

قوله تعالى : صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

(1) الجزع (بفتح الجيم وكسرها) : ضرب من الخرز. وقيل : هو الخرز اليمانى، وهو الذى فيـه بياض وسواد، فشبه به الأعين .

قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ صمٌّ أى هم صمٌّ، فهو خبر ابتداء مضمر. وفى قراءة عبد الله ابن مسعود وحفصــة : صُمًّا بكمًا عميًا، فيجوز النصب على الذم ؛ كما قال تعالى : « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا » ، وكما قال : « وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ » ، وكما قال الشاعر (١) :

سَـقَوْنِى الخمـرَ ثم تكنَّفُونِى * عُداةَ اللهِ من كَذِبٍ وزُورِ

فنصب عُداةَ الله على الذم . فالوقف على يبصرون على هــذا المذهب صواب حسن . ويجوز أن ينصب صُمًّا بتركهم ؛ كأنه قال : وتركهم صما بكما عميا؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على يبصرون . والصمم فى كلام العرب : الانسداد ؛ يقال : قناة صمّـاء إذا لم تكن مجوّفة . وصَمَمت القارورة إذا سددتها . فالأصم : من انسدت خروق مسامعه . والأبكم : الذى لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس . وقيل : الأخرس والأبكم واحد . ويقال رجل أبكم وبَكِيم أى أخرس بيّن الخرس والبكم؛ قال :

فليت لِسانِى كان نِصْفَينِ منهما * بَكِيمٌ ونِصفٌ عند مَجْرَى الكواكبِ

والعمى : ذهاب البصر . وقد عَمِىَ فهو أعْمَى، وقوم عُمْىٌ، وأعماه الله . وتعامى الرجل أرى ذلك من نفسه . وعمِى عليــه الأمر إذا التبس ؛ ومنــه قوله تعالى : « فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ » .

وليس الغرض ممــا ذكرناه نفى الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنمــا الغرض نفيهــا من جهة مّا؛ تقول : فلان أصمّ عن الخنا . ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

* أَصَمُّ عمّا سَاءَه سَمِيعُ *

وقال آخـــر :

وَعوراءُ الكلامِ صَمَمتُ عنها * ولو أنّى أشاء بهــا سَمِيــعُ

وقال الدارمىّ :

أعمى إذا ما جارتى خرجت * حتى يُوارِىَ جارتِى الخِــدْرُ

(١) هو عروة بن الورد . وصف ما كان من فعل قوم امرأته حين احتالوا عليــه وسقوه الخمر حتى أجابهم الى مفاداتها وكانت سبيّة عنده . (عن شرح الشواهد) .

وقال بعضهم فى وَصَاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أُدخُـلْ إذا ما دخلتَ أعمَى * وآخرُجْ إذا ما خرجتَ أخرس

وقال قتادة : صمّ عن استماع الحق، بكم عن التكلم به، عمى عن الإبصار له .

قلت : وهذا المعنى هو المراد فى وصف النبىّ صلى الله عليه وسلم وُلاة آخر الزمان فى حديث جبريل "وإذا رأيت الحُفَاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكْمَ ملوك الأرض فذاك من أشراطها" . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم . يقال : رجع بنفسه رجوعا، ورَجَعه غيره، وهُذيل تقول : أرجعه غيره . وقوله تعالى : « يَرْجِـعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » أى يتلاومون فيما بينهم، حسب ما بيّنه التنزيل فى سورة « سبأ » .

قوله تعـالى : أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال الطبرى : أو بمعنى الواو؛ وقاله الفرّاء . وأنشـد :

وقد زَعَمتْ ليـلَى بأنِّىَ فاجرٌ * لنفسى تُقَاها أو عليها فُجُورُها (١)

وقال آخـر (٢) :

نالَ الخلافةَ أو (٣) كانت له قَدَرًا * كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

أى وكانت . وقيل : أو للتخيير أى مثلوهم بهذا أو بهذا، لا على الاقتصار على أحد الأمرين . والمعنى أو كأصحاب صَيِّب . والصَّيِّبُ : المطر . واشـتقاقه من صَابَ يَصُـوبُ إذا نزل؛ قال عَلْقَمة :

فلا تَعْـدِلى بَيْنِى وبيـن مُغَمَّرٍ (٤) * سَقَتْكِ روايا المُزْنِ حيث تَصُوبُ

(١) البيت من قصـيدة لتوبة الخفاجى قالها فى ليلى الأخيلية .
(٢) هو جرير بن عطية يمدح عمر بن عبد العزيز .
(٣) فى ديوانه المخطوط : « إذ » بدل أو .
(٤) المُغَمَّر والغُمْر : الجاهل الذى لم يجرب الأمور؛ كأن الجهل غمره واستولى عليـه . وروايا المزن : ما حمل الماء منه . والراوية : البعير يستق عليه .

وأصــله : صَيْوِب ، اجتمعت اليـاء والواو وسـبقت إحداهمـا بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ؛ كما فعلوا فى ميّت وسيّد وهيّن وليّن . وقال بعض الكوفيين : أصله صَوِيب على مثال فعيل . قال النحاس : « لو كان كما قالوا لمـا جاز إدغامه ، كما لا يجوز إدغام طويل . وجمع صيب صيايب. والتقدير فى العربية مثلهم كمثل الذى استوقد نارا أو كمثل صيّب » (١) .

قوله تعـالى : ﴿ مِنَ السَّمَآءِ ﴾ السماء تذكر وتؤنث ، وتجمع على اسمية وسموات وسُمِىّ على فُعُول ؛ قال العجاج :

* تَلُفُّـــه الرِّياحُ والسُّـــمِىُّ (٢) *

والسماء : كل ما علاك فأظلّك ؛ ومنه قيل لسقف البيت : سماء . والسماء : المطر سمى به لنزوله من السماء ؛ قال حسان بن ثابت :

ديارٌ من بنى الحَسْحاسِ قَفْرٌ * تُعَفِّيهـا الرّوامِسُ والسماءُ

وقال آخــــر (٣) :

إذا سَقَط السماءُ بأرض قومٍ * رَعَيناه وإن كانوا غِضـابَا

ويسمى الطين والكلأ أيضا سمـاء ؛ يقال : ما زِلنا نطأ السماء حتى أتيناكم . يريدون الكلأ والطين . ويقال لظهر الفرس أيضا سماء لعلوه ؛ قال (٤) :

وأحْمَر كالدِّيباج أمّا سمـاؤه * فَرِيّا وأمّا أرضُــه فَمُحولُ

والسماء : ما علا ، والأرض : ما سفل ، على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ معطوف عليه . وقال : ظلمات بالجمع إشارة الى ظُلْمة الليل وظُلمة الدَّجْن ، وهو الغيم . ومن حيث تتراكب وتتزايد جمعت . وقد مضى مافيه من اللغات (٥) فلا معنى للإعادة ، وكذا كل ما تقدّم إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل : « ... نارا أو كصيب » . والتصويب عن كتاب إعراب القرآن للنحاس . (٢) السمى : يريد الأمطار . (٣) هو معاوية بن مالك . (٤) القائل هو طفيل الغنوى ، كما فى اللسان مادة (سما) .
(٥) راجع ص ٢١٣ من هذا الجزء .

واختلف العلمــاء فى الرعد، ففى الترمذى عن ابن عباس قال : سألتِ اليهودُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الرعد ما هو ؟ قال : " ملك من الملائكة [موكل بالسحاب](١) معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله ". فقالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : "زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهى الى حيث أمر الله" قالوا : صدقت. الحديث بطوله. وعلى هــذا التفسير أكثر العلماء . فالرعد : اسم الصوت المسموع، وقاله علىّ رضى الله عنه، وهو المعلوم فى لغة العرب، وقد قال لبيد فى جاهليته :

فَجَّعَنِي الرعدُ والصّواعقُ بالـ * ـفارِسِ يومَ الكريهةِ النَّجِدِ

وروى عن ابن عباس أنه قال : الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوّت ذلك الصوت. واختلفوا فى البرق، فروى عن علىّ وابن مسعود وابن عباس رضوان الله عليهم : البرق مخراق حديد بيد المَلَك يسوق به السحاب — قلت : وهو الظاهر من حديث الترمذى — وعن ابن عبّاس أيضــا هو سوط من نور بيــد الملك يزجربه السحاب . وعنــه أيضا : الــبرق ملَك يتراءى .

وقالت الفلاسفة : الرعد صــوت اصطكاك أجرام الســحاب . والبرق ما ينقــدح من اصطكاكها . وهذا مردود لا يصح به نقل، والله أعلم . ويقال : أصل الرعد من الحركة؛ ومنه الرِّعديد للجبان . وارتعد : اضطرب ؛ ومنــه الحديث : " فجيء بهما تُرْعَدُ فَرَائصهما " الحديث . أخرجه أبو داود . والبرق أصــله من البَرِيق والضوء؛ ومنــه البُرَاق : دابّة ركبها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليلة أُسرِيَ به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبله . ورَعَدت السماء من الرعد، وبَرَقت من الــبرق . ورَعَدت المرأة وبَرَقت : تحسّنت وتزيّنت . ورَعَد الرجل وبَرَق تهدّد وأوعد؛ قال ابن أحمر :

يا جُلَّ ما بَعُدَتْ عليك بِلادُنا * وطِلابُنا فَابْرُقْ بأرضك وارْعُدِ

(١) زيادة عن الترمذى .

وأرعد القوم وأبرقو : أصابهم رعد وبرق . وحكى أبو عبيدة وأبو عمرو : أرعدت السماء وأبرقت، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهدّد وأوعد؛ وأنكره الأصمعى . وآحتج عليه بقول الكميت :

أبْرِق وأرْعِــد يا يزيـ * ـدُ فما وعيدُكَ لى بِضائرْ

فقال : ليس الكميت بحجة .

فائدة — روى ابن عباس قال : كنا مع عمر بن الخطاب فى سَفْرة بين المدينــة والشام ومعنا كعب الأحبار، قال : فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد، وفَرِق الناس . قال فقال لى كعب : إنه من قال حين يســمع الرعد : سبحان من يُسبِّح الرعد بحمــده والملائكة من خيفته، عُوفى ممــا يكون فى ذلك السحاب والبرد والصواعق . قال : فقلتها أنا وكعب ، فلما أصبحنا واجتمع الناس قلت لعمر : يا أمير المؤمنين، كأنا كنا فى غير ما كان فيه الناس . قال : وما ذاك؟ قال : فحدّثته حديث كعب . قال: سبحان الله! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم! فى رواية فإذا بَرَدة(١) قد أصابت أنف عمر فأثّرت به . وستأتى هذه الرواية فى ســورة « الرعد » إن شاء الله . ذكر الروايتين أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الخطيب فى روايات الصحابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين . وعن ابن عمر أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : "اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تُهلكنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك".

قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ ﴾ جعلهم أصابعهم فى آذانهم لئلا يســمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام؛ وذلك عندهم كفر والكفر موت . وفى واحد الأصابع خمس لغات : إصبع بكسر الهمزة وفتح الباء، وأَصبِــع بفتح الهمزة وكسر الباء، ويقال بفتحهما جميعا، وضمهما جميعا، وبكسرهما جميعا؛ وهى مؤنثة، وكذلك الأُذن وتخفّف وتثقّل وتصغّر؛ فيقال: أذينة . ولو سمّيت بها رجلا ثم صغّرته قلت: أُذَين؛ فلم تؤنث لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر . فأما قولهم : أذينة فى الاسم العَلَم فإنما سُمّى به مصغّرا ، والجمع آذان . وتقول : أَذَنته إذا ضربت أذنه . ورجل أُذُنٌ إذا كان يسمع كلام كل أحد ، يستوى فيه الواحد

---

(١) البرد (بالتحريك) : حب الغمام .

والجمع . وأُذانيّ : عظيم الأذنين؛ ونعجة أَذْناء، وكبش آذن؛ وأَذَّنت النّعلَ وغيرها تأذينا إذا جعلت لها أُذُنا، وأَذَّنت الصبيّ . عَرَكت أذنه .

قوله تعالى : ﴿ مِنَ الصَّوَاعِقِ ﴾ أى من أجل الصواعق . والصواعق جمع صاعقة . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : إذا اشتدّ غضب الرعد الذى هو المَلَك طار النار من فِيــهِ وهى الصواعق . وكذا قال الخليل، قال : هى الواقعة الشـديدة من صوت الرعد ، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد : الصاعقة نار تسقط من السماء فى رعد شديد . وحكى الخليل عن قوم: الساعقة بالسين. وقال أبو بكر النقاش: يقال صاعقة وصَعْقة وصاقعة بمعنًى واحد؛ وقرأ الحسن : من الصّواقع بتقديم القاف؛ ومنه قول أبى النّجْم :

يَحكُونَ بالمَصْقُولة القواطِعِ ＊ تَشَقُّقَ البرقِ عن الصّواقِعِ

قال النحاس : وهى لغــة تميم وبعض بنى ربيعــة . ويقال : صَعَقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب؛ قال الله عزّ وجلّ : « فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَــةُ العَذَابِ الهُونِ » . ويقال : صَعِق الرجل صَعقة وتَصعاقا أى غُشى عليه؛ ومنه قوله تعالى : « وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا » فأصعقه غيره؛ قال ابن مقبل :

تَرَى النُّعَرات الزُّرقَ تحت لَبانِه ＊ أُحادَ ومَثْنَى أَصْعَقَتْها صَواهِلُهْ (1)

وقوله تعــالى : « فَصَعِقَ مَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلأَرْضِ » أى مات . وشــبّه الله تعالى فى هذه الآية أحوال المنافقين بما فى الصَّيِّب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق. فالظلمات مَثَل لمــا يعتقدونه من الكفر، والرعد والبرق مَثَل لمــا يخوّفون به . وقيــل : مَثّل الله تعالى القرآن بالصّيب لمــا فيه من الإشكال عليهم والعمى هو الظلمات ؛ وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد؛ وما فيه من النور والحجج الباهرة التى تكاد أحيانا أن تبهرهم هو البرق. والصواعق

(1) النعرة (مثال الهمزة) : ذباب ضخم أزرق العين أخضر، له إبرة فى طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة . واللبان : الصدر، وقيــل : وسطه، وقيــل : ما بين الثديين، و يكون للانسان وغيره . وأصعقتها صواهله . أى قتلها صهيله .

مَثَل لمـا فى القرآن من الدعاء إلى القتال فى العاجل والوعيـد فى الآجل . وقيل : الصواعق تكاليف الشرع التى يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما .

قوله : ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ حَذَرَ وحِذارَ بمعنًى؛ وقرئ بهما . قال سيبويه : هو منصوب لأنه مفعول له أى مفعول من أجله؛ وحقيقته أنه مصدر، وأنشد سيبويه :

وأغفرُ عَوراءَ الكريم ٱدّخارَه * وأُعرِض عن شَتم اللئيم تَكَرُّما (١)

وقال الفراء : هو منصوب على التمييز . والموت : ضدّ الحياة . وقد مات يموت، ويَمات أيضا؛ قال الراجز :

بُنَيَّــتِى سَــيِّدةَ البَناتِ * عِيشِى ولا يُؤمَن أن تَمَاتى

فهو ميِّت وميْت، وقوم موتى وأموات وميِّتون وميْتون . والمُوات بالضم : الموت . والمَوات بالفتح : ما لا روح فيه . والمَوات أيضا : الأرض التى لا مالك لها من الآدميين ولا ينتفع بهـا أحد . والمَوَتان بالتحريك خلاف الحيوان؛ يقال : اِشْترِ الموتان ، ولا تشترِ الحيوان؛ أى اشتر الأرضين والدور، ولا تشتر الرقيق والدواب . والموتان بالضم : موت يقع فى المـاشية؛ يقال : وقع فى المـال مُوتان . وأماته الله وموّته شدّد للمبالغة؛ وقال :

فَعُرْوةُ مات مَوتاً مستريحاً * فهأنذا أُمَــوَّت كلَّ يومِ

وأماتت الناقة إذا مات ولدها، فهى مُميت ومُميتة . قال أبو عبيد : وكذلك المرأة، وجمعها مَماوِيت . قال ابن السكيت : أمات فلان إذا مات له ٱبن أو بَنُونَ . والمُتَماوِت من صـفة الناسك المرائى . وموت مائت، كقولك : لَيلٌ لائلٌ؛ يؤخذ من لفظه مايؤكد به . والمُستميتُ للأمر : المُسْترسِلُ له؛ قال رؤبة :

(١) البيت لحاتم الطائى . يقول : اذا جهل علىّ الكريم احتملت جهله إبقاء عليه وادّخارا له ، وان سبنى اللئيم أعرضت عن شتمه .

وزَبَدُ البحـــرِ له كَتِيتُ * والليل فوق المـاءِ مُسْتَمِيتُ (١)

والمستميت أيضـا : المُسْتقتِلُ الذى لا يُبـالى فى الحرب من الموت ؛ وفى الحـديث : "أرَى القَوْمَ مُسْتَمِيتِين" وهم الذين يقاتلون على الموت . والمُوتة بالضم : جنس من الجنون والصَّرْع يعترى الإنسان، فإذا أفاق عاد إليه كمال عقله كالنائم والسكران . ومُؤْتة بضم الميم وهمز الواو : اسم أرض (٢) قُتل بها جعفر بن أبى طالب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ابتداء وخبر، أى لا يفوتونه . يقال أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذًا حاصرا من كل جهة؛ قال الشاعر :

أحَطْنا بهـم حتى إذا ما تيقّنوا * بما قد رأَوْا مالوا جميعا الى السِّلْمِ

ومنه قوله تعالى : « وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ » . وأصله مُحْيِط، نقلت حركة الياء الى الحاء فسكنت . فالله سبحانه محيـط بجميع المخلوقات ، أى هى فى قبضته وتحت قهره ؛ كما قال : « وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقيل : محيط بالكافرين، أى عالم بهم . دليله : « وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا » . وقيل مهلكهم وجامعهم . دليله قوله تعالى: « إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ » أى إلا أن تهلكوا جميعا . وخص الكافرين بالذكر لتقدّم ذكرهم فى الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

---

(١) كذا فى الأصول واللسان مادة « موت » . والذى فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ٥١٦ أدب :

وزبد البحـر له كتيت * تراه والحـوت له نثيت
كلاهما مغتمس مفتوت * وكلكل الماء له ميت
والليل فوق الماء مستميت * يدفع عنه جوفه المسحوت

الكتيت : الهدير . والنثيت والزحير والطحير والأنيت كله الزحير (إخراج الصوت أو النفس عند عمل بأنين أو شدّة) . المفتوت : المغموم . والمسحوت : الذى لا يشبع .

(٢) وقيل إنها قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام . وقيل : إنها بمشارف الشام على اثنى عشر ميلا من أذرح . راجع تاج العروس مادة : « مات » .

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ يكاد معناه يقارب ، يقال : كاد يفعل كذا إذا قارب ولم يفعل . ويجوز فى غير القرآن يكاد أن يفعل؛ كما قال رؤبة :

* قد كادَ من طُولِ البِلَى أن يَمْصَحا(١) *

مشتق من المَصْح وهو الدرس . والأجود أن تكون بغير «أنْ» لأنها لمقاربة الحال، و «أن» تصرف الكلام إلى الاستقبال ، وهذا متناف؛ قال الله عزّ وجلّ : « يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » . ومن كلام العرب : كاد النعام يطير، وكاد العروس يكون أميرا ؛ لقربهما من تلك الحـال . وكاد فعل متصرف على فَعِل يَفْعَل . وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل ، قال : «وما كِدْتُ آئبًا» . ويجرى مجرى كاد كَرَب وجعل وقارب وطَفِق، فى كون خبرها بغير أن؛ قال الله عزّ وجلّ : « وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » لأنهـا كلها بمعنى الحـال والمقاربة، والحال لا يكون معها أن، فاعلم .

قوله تعـالى : ﴿ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ الخطف : الأخذ بسرعة، ومنه سُمّى الطير خُطّافا لسرعته . فمن جعل القرآن مثلا للتخويف فالمعنى أنّ خوفهم مما ينزل بهم يكاد يذهب أبصارهم . ومن جعله مثـلا للبيان الذى فى القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما بَهَرَهم . ويَخْطَف ويَخْطِف لغتان قرئ بهما . وقد خطِفه بالكسر يَخْطَفه خَطْفًا، وهى اللغة الجيدة . واللغة الأخرى حكاها الأخفش : خَطَف يَخْطِف؛ الجوهرى : وهى قليلة رديئـة لا تكاد تعرف. وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ » . وقال النحاس: فى يخطف سبعة أوجه؛ القراءة الفصيحة : يَخْطَفُ؛ وقرأ علىّ بن الحسين ويحيى بن وثّاب : يخطِف بكسر الطاء ؛ قال سعيد الأخفش : هى لغة . وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجَحْدَرىّ وأبو رجاء العُطَارِدى بفتح الياء وكسر الخـاء والطاء . وروى عن الحسن أيضـا أنه قرأ بفتح الخاء . قال الفرّاء : وقرأ بعض أهل المدينـة بإسكان الخاء وتشـديد الطاء . قال الكسائى والأخفش والفرّاء : يجوز يِخِطِّف بكسر الياء والخاء والطاء . فهذه ستة أوجه موافقة للخط .

(١) يمصح : يذهب .

والسابعة حكاها عبد الوارث قال : رأيت فى مصحف أُبَىّ بن كعب يَتَخَطَّف ، وزعم سيبويه والكسائى أن من قرأ يَخِطِّف بكسر الخاء والطاء فالأصل عنده يَخْتَطِف ، ثم أدغم التاء فى الطاء فالتقى ساكنان فكسرت الخاء لالتقاء الساكنين . قال سيبويه : ومن فتح الخاء ألقى حركة التاء عليها . وقال الكسائى : ومن كسر الياء فلأن الألف فى اختطف مكسورة . فأما ما حكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولا يجوز، لأنه جمع بين ساكنين . قاله النحاس وغيره .

قلت : وروى عن الحسن أيضا وأبى رجاء يَخْطِف . قال ابن مجاهد : وأظنه غلط ؛ واستدل على ذلك بأن « خَطِفَ الْخَطْفَةَ » لم يقرأه أحد بالفتح .

﴿ أَبْصَارَهُمْ ﴾ جمع بصر، وهى حاسة الرؤية . والمعنى : تكاد حجج القرآن و براهينه الساطعة تَبْهرهم . ومن جعل البرق مثلا للتخويف فالمعنى أنّ خوفهم مما ينزل بهم يكاد يذهب أبصارهم .

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ كلما منصوب لأنه ظرف . وإذا كان كلما بمعنى إذا فهى موصولة والعامل فيه مَشَوْا وهو جوابه . ولا يعمل فيه أضاء لأنه فى صلة ما . والمفعول فى قول المبرّد محذوف، التقدير عنده : كلما أضاء لهم البرق الطريق . وقيل : يجوز أن يكون فَعَل وأَفْعَل بمعنًى، كَسَكت وأَسْكَت ؛ فيكون أضاء وضاء سواء فلا يحتاج الى تقدير حذف مفعول . قال الفراء : يقال ضاء وأضاء، وقد تقدّم . والمعنى أنهم كلما سمعوا القرآن وظهرت لهم الحجج أَنِسوا ومشوا معه، فإذا نزل من القرآن ما يَعْمَوْن فيه و يَضلون به أو يكلفونه قاموا، أى ثبتوا على نفاقهم، عن ابن عباس . وقيل : المعنى كلما صلحت أحوالهم فى زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم النعم قالوا : دِين محمد مبارك، و إذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدّة سخطوا وثبتوا فى نفاقهم، عن ابن مسعود وقتادة . قال النحاس : وهذا قول حسن، ويدل على صحته : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ » . وقال علماء الصوفية : هذا مَثَل ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الإرادة بَدْءًا، فارتقى من تلك الأحوال بالدعاوى الى أحوال الأكابر، كان تضىء عليه أحوال

الإرادة لو صححها بملازمة آدابها، فلمـا مزجها بالدعاوى أذهب الله عنـه تلك الأنوار وبق في ظلمات دعاويه لايبصر طريق الخروج منها . وروِى عن ابن عباس أن المراد اليهود، لمـا نُصر النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم ببـدر طمعوا وقالوا : هـذا والله النبيّ الذى بشّرنا به موسى لا ترد له راية، فلمـا نُكب بأُحُد ارتدّوا وشكوا؛ وهذا ضعيف . والآية في المنافقين، وهذا أصح عن ابن عباس؛ والمعنى يتناول الجميع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ لو حرف تمنّ وفيه معنى الجزاء، وجـوابه اللام . والمعنى : ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهـم فذهب منهم عِزّ الإسـلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم . وخص السمع والبصر لتقدّم ذكرهما في الآية أوّلا، أو لأنهما أشرف ما في الإنسان . وقرئ بأسماعهم على الجمع؛ وقد تقدّم الكلام في هذا(١) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ عموم، ومعناه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه . وأجمعت الأمة على تسمية الله تعـالى بالقدير، فهو سبحانه قدير قادر مقتدر . والقدير أبلغ في الوصف من القادر؛ قاله الزّجاجيّ . وقال الهرويّ : والقدير والقادر بمعنًى واحد؛ يقال : قَدَرت على الشيء أقـدُر قَدْرا وقَدَرا ومقـدَرة ومقدُرة وقُدْرانا، أى قُدْرة . والاقتدار على الشيء : القدرة عليه . فالله جلّ وعزّ قادر مقتدر قدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم . فيجب على كل مكلّف أن يعلم أن الله تعالى قادر، له قدرة بها فَعَل ويَفْعَل ما يشاء على وَفْق علمه واختياره . ويجب عليـه أيضا أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بهـا ما أقدره الله تعالى عليه على مجرى العادة ، وأنه غير مستبدّ بقدرته . وإنمـا خص هنا تعالى صفته التي هي القدرة بالذّكر دون غيرها؛ لأنه تقدّم ذِكر فعـلٍ مضمّنه الوعيـد والإخافة؛ فكان ذكر القدرة مناسبا لذلك . والله أعلم .

فهذه عشرون آية على عدد الكوفيين؛ أربع آيات في وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان في ذكر الكافرين، وبقيتها في المنافقين . وقد تقدّمت الرواية فيها عن ابن جريج، وقاله مجاهد أيضا .

(١) راجع المسألة الثامنة ص ١٩٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ قال علقمة ومجاهد : كل آية أولها « يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ » فإنما نزلت بمكة، وكل آية أولها « يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فإنما نزلت بالمدينة .

قلت : وهـذا يردّه أن هـذه السورة والنساء مدنيتان وفيهما يأيها النـاس . وأما قولها فى « يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فصحيح . وقال عروة بن الزبير : ما كان من حدّ أو فريضـة فإنه نزل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة . وهذا واضح .

و « يا » فى قوله : « يأيهـا » حرف نداء . « أى » منادى مفرد مبنى على الضم لأنه منادى فى اللفظ ، و « ها » للتنبيه . الناس مرفوع صفة لأى عند جماعة النحويين ما عدا المـازنى فإنه أجاز النصب قياسا على جوازه فى يا هذا الرجل . وقيـل : ضمت أى كما ضم المقصود المفرد، وجاءوا بـ « ها » عوضا عن ياء أخرى، وإنما لم يأتوا بياء لئلا ينقطع الكلام فجاءوا بـ « ها » حتى يبقى الكلام متصلا . قال سـيبويه : كأنك كررت «يا» مرتين وصار الاسم بينهما ؛ كما قالوا : هاهو ذا . وقيـل : لمـا تعذّر عليهم الجمع بين حرفى تعريف أتوا فى الصورة بمنادى مجرّد عن حرف تعريف، وأجروا عليـه المعرّف باللام المقصود بالنـداء، والتزموا رفعه لأنه المقصود بالنداء ؛ فجعلوا إعرابه بالحركة التى كان يستحقها لو باشرها النداء تنبيها على أنه المنادى، فاعلمه .

واختلف من المراد بالناس هنا على قولين، أحدهما : الكفار الذين لم يعبدوه؛ يدل عليه قوله : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ » . الثانى : أنه عام فى جميع النـاس ، فيكون خطابه للؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها، وهذا حسن .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْبُدُوا ﴾ أمرٌ بالعبادة له . والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصـل العبادة الخضوع والتذلل؛ يقال: طريق مُعبَّدة إذا كانت موطوءة بالأقدام.

قال طرَفـــة :

* وظِيفًا وظِيفًا فوق مَوْرٍ معبَّدِ (١) *

والعبادة : الطاعة . والتعبد : التّنسك . وعبَّدت فلانا : اتخذته عبدا .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ خصّ تعالى خلقه لهم من بين سائر صـفاته إذ كانت العرب مقرّة بأن الله خلقها ؛ فذكر ذلك حجة عليهم وتقريعا لهم . وقيـل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم . وفى أصل الخلق وجهان ؛ أحدهما : التقدير؛ يقال : خَلقتُ الأديم للسقّاء إذا قدّرته قبل القطع؛ قال الشاعر (٢) :

ولأَنتَ تَفْرِى ما خَلقتَ وبعـ * ـضُ القوم يَخلُقُ ثم لا يَفْرِى

وقال الحجاج : ما خَلقتُ إلا فَريْتُ ، ولا وَعدتُ إلا وَفَّيْتُ . الثـانى : الإنشاء والاختراع والإبداع؛ قال الله تعالى : « وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فيقال إذا ثبت عندهم خلقهم ثبت عنـدهم خلق غيرهم؛ فالجواب : أنه إنما يجرى الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ فى العظة؛ فذكّرهم من قبلهم ليعلموا أن الذى أمات مَن قبلهم وهو خلقهم يميتهـم ؛ وليفكروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا، وعلى أىّ الأمور مضوا من إهلاك من أهلك ؛ وليعلموا أنهم يبتلون كما ابتلوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لعل متصلة باعبدوا لا بخلقكم ؛ لأن من ذرأه الله لجهنم لم يخلقه ليتّقى . وهـذا وما كان مثله فيما ورد فى كلام الله تعالى من قوله : « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فيه ثلاث تأويلات :

(١) صدر البيت : * تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت *

تبارى : تعارض؛ يقال : هما يتباريان فى السير؛ إذا فعل هذا شيئا فعل هذا مثله . والعتاق : الكرام من الابل البيض . والناجيات : السراع . والوظيف : عظم الساق . وقوله : اتبعت وظيفا وظيفا ؛ أى اتبعت هذه الناقة وظيف رجلها وظيف يدها ؛ ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها فى موضع يدها اذا سارت . والمور : الطريق . (عن شرح المعلقـات) . (٢) هو زهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان . يقول : أنت اذا قدرت أمرا قطعته وأمضيته ، وغيرك يقدر ما لا يقطعه لأنه ليس بماضى العزم وأنت مضاء على ما عزمت عليه . (عن اللسان) .

الأول — أن لعل على بابها من الترجى والتوقع، والترجى والتوقع إنما هو فى حيز البشر؛ فكأنه قيل لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا وأن تذكّروا وأن تتقوا . هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان. قال سيبويه فى قوله عزّ وجلّ : « ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ » قال معناه : اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتـذكر أو يخشى . واختار هذا القول أبو المعالى .

الثـانى — أن العرب استعملت لعلّ مجرّدة من الشـك بمعنى لام كى . فالمعنى لتعقلوا ولتذكّروا ولتتقوا؛ وعلى ذلك يدلّ قول الشاعر :

وقلتم لنـا كُفُّوا الحروب لعلّنا * نَكُفُّ ووثّقتم لنا كلّ مَوْثِقِ
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم * كلَمْعِ سَـرابٍ فى المَـلا مُتألِّقِ

المعنى كفّوا الحروب لنكف، ولو كانت لعـلّ هنا شكًّا لم يوثقوا لهم كل موثق ؛ وهذا القول عن قُطْرب والطبرى .

الثالث — أن تكون لعلّ بمعنى التعرّض للشىء؛ كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرّضين لأن تعقلوا، أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا . والمعنى فى قوله : «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» أى لعلكم أن تجعلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم وبين النار. وهذا من قول العرب : اتّقاه بحقه إذا استقبله به؛ فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : كنا إذا ٱحْمَرّ البأسُ اتّقينا بالنبىّ صلّى الله عليه وسلّم، أى جعلناه وقاية لنا من العدوّ؛ وقال عنترة :

ولقد كَرَرْتُ المُهْرَ يَدْمَى نحرُه * حتى ٱتّقتنِى الخيلُ با بنى حِذْيَمِ

قوله تعالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ ﴾ معناه هنا صيّر لتعدّيه الى مفعولين . ويأتى بمعنى خلق ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ » وقوله : « وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ » . ويأتى بمعنى سمّى ؛ ومنه قوله تعالى : « حمٓ . وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقوله : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » . « وَجَعَلُوا ٱلْمَلَائِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا » أى سمّوهم . ويأتى بمعنى أخذ كما قال الشاعر (١) :

وقد جَعلتْ نفسى تَطيبُ لضَغْمةٍ * لضَغْمِهِمَا هَا يَقْـرَعُ العظمَ نابُهـا

وقد تأتى زائدة ؛ كما قال الآخر :

وقد جَعلتُ أرى الاثنين أربعة * والأربع اثنين لـمّا هدّنى الكِبَرُ

وقد قيل فى قوله تعالى : « وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ » إنها زائدة . وجعل واجتعل بمعنى واحد ؛ قال الشاعر (٢) :

ناط أَمْرَ الضِّعاف واجتعل اللّيـ * ـلَ كحَبْـلِ العـادِيّةِ المـمْدُودِ

﴿ فِرَاشًا ﴾ أى وِطاء يفترشونها ويستقرّون عليها . وما ليس بفراش كالجبـال والأوعار والبحار فهى من مصالح ما يفترش منها ؛ لأن الجبال كالأوتاد ؛ كما قال : « أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا » . والبحار تركب إلى سائر منافعها ؛ كما قال : « وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ » .

الثانيـــة — قال أصحاب الشافعى : لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أولا يستسرج بسراج فبات على الأرض وجلس فى الشمس لم يحنث ؛ لأن اللفظ لا يرجع إليهما عرفا . وأما المـالكية فبنوه على أصلهم فى الأيمان أنهـا محمولة على النيـة أو السبب أو البساط الذى جرت عليه اليمين ؛ فإن عدم ذلك فالعرف .

(١) هو مغلس بن لقيط الأسدى . وصف شـدّة أصابه بها رجلان من قومه ، فيقول : قد جعلت نفسى تطيب لاصابتهما بمثل الشدّة التى أصابانى بها . وضرب الضغمة مثلا ثم وصف الضغمة فقال : يقرع العظم نابها . فجعل لها نابا على السعة . والمعنى : يصل الناب فيها الى العظم فيقرعه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(٢) هو أبو زبيد الطائى يرثى اللجلاج ابن أخته . يقول : جعل يسـير الليل كله مستقيما كاستقامة حبل البئر الى الماء . ناط : علق . والعادية : البئر القديمة . (عن اللسان) .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ السماء للأرض كالسقف للبيت؛ ولهذا قال وقوله الحـق : « وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا » . وكل ما علا فأظل قيـل له سمـاء ؛ وقد تقدّم القول فيـه (١) . والوقف على « بِنَـاءً » أحسن منه على « تَتَّقُونَ » ؛ لأن قوله : « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا » نعت للرّب . ويقال : بَنَى فلان بيتا ، وبَنَى على أهله بِنـاء فيهما أى زَفّها . والعامة تقول : بَنَى بأهله ، وهو خطأ؛ وكأنّ الأصل فيـه أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قُبّة ليلة دخوله بها؛ فقيل لكل داخل بأهله : بانٍ؛ وبَنَّى مقصورا شدّد للكثرة . وابتنى دارا وبنى بمعنًى؛ ومنه بنيان الحائط؛ وأصله وضع لَبِنَة على أخرى حتى تثبت .

وأصل المـاء مَوَهٌ؛ قلبت الواو ألفا لتحرّكها وتحرّك ما قبلها فقلت مَاهٌ؛ فالتقى حرفان خفيفان فأبدلت من الهاء همزة لأنها أجلد، وهي بالألف أشبه؛ فقلت : ماء؛ الألف الأولى عين الفعل، وبعدها الهمزة التي هي بدل من الهاء، وبعد الهمزة ألف بدل من التنوين . قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب إلا بألفين عند البصريين ، وإن شئت بثلاث ؛ فاذا جمعوا أو صغّروا ردّوا إلى الأصل؛ فقالوا : مُوَيْهٌ وأَمْوَاهٌ ومِيَاهٌ؛ مثل جِمَال وأَجْمَال .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ الثمرات جمع ثمـرة . ويقال : ثَمَر مثل شجر . ويقال : ثُمُر مثل خشب . ويقال : ثُمْر مثل بُدْن . وثِمار مثـل إكام جمع ثمرة . وسيأتى لهـذا مزيد بيان فى « الأنعام » إن شاء الله . وثِمار السّياط : عُقَدُ أطرافهـا .

والمعنى فى الآية أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات، وأنواعا من النبات . ﴿ رِزْقًا ﴾ طعاما لكم، وعلفا لدوابكم ؛ وقد بين هذا قوله تعالى : « إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » . وقد مضى الكلام فى الرزق (٢) مستوفًى والحمد لله .

(١) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء .　　(٢) راجع ص ١٧٧ و ١٧٨ من هذا الجزء .

فإن قيل : كيف أطلق اسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التّملك ؟ قيل له : لأنها معدّة لأن تملك ويصح بها الانتفاع، فهى رزق .

الخامســـة — قلت : ودلّت هذه الاية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق؛ ولهذا قال عليه السلام مشيرا إلى هـذا المعنى : " واللهِ لَأنْ يأخذ أحدُكم حبلَه فيَحتطِبَ على ظهره خيرله من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه " . أخرجه مسلم. ويدخل فى معنى الاحتطاب جميع الأشـغال من الصنائع وغيرها ؛ فمن أحوج نفسه إلى بَشَر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة فى زخرف الدنيا فقـد أخذ بطَرَف من جعل لله نِدًّا . وقال علماء الصّوفية : أعلم الله عزّ وجلّ فى هذه الاية سبيل الفقر، وهو أن تجعل الأرض وِطاء والسماء غِطاء ، والمـاء طيّبا والكلأ طعاما ؛ ولا تعبد أحدا فى الدنيا من الخلق بسبب الدنيا، فإن الله عزّ وجلّ قد أتاح(١) لك ما لا بدّ لك منه ، من غير مِنّة فيــه لأحد عليك . وقال نَوْفٌ البِكَالِيّ : رأيت عليّ بن أبى طالب خرج فنظر إلى النجوم فقال : يا نَوْف ، أراقِـدٌ أنت أم رامق ؟ قلت : بل رامق يا أمير المؤمنين ؛ قال : طُوبَى للزاهدين فى الدنيا والراغبين فى الآخرة ؛ أولئك قوم اتخـذوا الأرض بساطا ، وترابها فراشا ، وماءها طِيبا ، والقرآن والدعاء دِثارا وشِعارا ؛ فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام . وذكر باقى الخبر ، وسيأتى تمامه فى هذه السورة عند قوله تعالى : « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ » إن شاء الله تعالى .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ نهى . ﴿ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أكفاء وأمثالا ونظراء، واحدها نِدّ، وكذلك قرأ محمد بن السَّمَيْقَع : نِدًّا، قال الشاعر :

نحمـــد الله ولا نِدّ له * عنده الخير وما شاء فعل

وقال حسان :

أتهجوه ولستَ له بِنِدٍّ * فشرّكما لخيرِكما الفِـداء

(١) فى الأصول : « أباح » بالباء الموحدة، وهو تصحيف .

ويقال : نِدٌّ ونَدِيدٌ ونَدِيدَةٌ على المبالغة؛ قال لبيد :

لكيلا يكونَ السَّنْدَرِىُّ نَديدتِى * وأجعلَ أقواماً عُموماً عَماعِمـا (١)

وقال أبو عبيدة : أندادا أضدادا . النحاس : أندادا مفعول أوّل ، ولله فى موضع الثانى . الجوهرى : والنَّدّ بفتح النون : التَّلّ المرتفع فى السماء . والنَّـد من الطيب ليس بعربىّ . ونَدّ البعيرُ ينِدُّ نَدًّا ونِدادا ونُدودا : نفر وذهب على وجهه؛ ومنه قرأ بعضهم « يَوْمَ التَّنَادِّ » . ونَدَّدَ به أى شهّره وسمّع به .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وخبر ، والجملة فى موضع الحال ، والخطاب للكافرين والمنافقين؛ عن ابن عباس .

فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الختم والطبع والصمم والعمى . فالجواب من وجهين : أحدهما — وأنتم تعلمون ، يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل الماء وأنبت الرزق، فيعلمون أنه المنعم عليهم دون الأنداد . الثانى — أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبّرتم ونظرتم ؛ والله أعلم . وفى هـذا دليل على الأمر باستعمال حجج العقول و إبطال التقليد . وقال ابن فُورَك : يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين ؛ فالمعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادا بعـد علمكم الذى هو نفى الجهل بأن الله واحد .

قوله تعالى : وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾ أى فى شك . ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعنى القرآن، والمراد المشركون الذين تُحُدُّوا ، فإنهم لما سمعوا القرآن قالوا : ما يشبه هذا كلامَ الله، و إنّا لفى شك

(١) السندرى : ابن يزيد الكلابى ، شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان لبيد مع عامر بن الطفيل ، فدُعى لبيد الى مهاجاته فأبى وقال البيت . والعماعم : الجماعات المتفرقون . ومعنى الشطر الثانى : وأجعل أقواما مجتمعين فرقا . (عن شرح القاموس واللسان) .

منه . فنزلت الآية . ووجه اتصالها بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر فى الآية الأولى الدلالة على وحدانيتــه وقدرته ذكر بعــدها الدلالة على نبوّة نبيّــه ، وأن ما جاء به ليس مفترًى من عنـــده .

قوله : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعنى محمدا صلّى الله عليه وسلّم . والعبد مأخوذ من التعبّد وهو التذلّل ؛ فسُمّى المملوكُ — من جنس ما يفعله — عبدًا لتذلّله لمولاه ؛ قال طَرَفة :

إلى أن تحامَتْنِي العشيرةُ كلُّها * وأُفردتُ إفرادَ البعيرِ المُعبَّدِ

أى المُـذلّل . قال بعضهم : لما كانت العبـادة أشرف الخصال والتّسمى بها أشرف الخطط ، سَمّى نبيّه عبدا ، وأنشدوا :

ياقوم قلبي عند زهراء * يعرفه السّامع والرّائى
لاتَدْعُنِى إلا بيا عبدها * فإنه أشرف أسمـائى

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب الشرط ، ائتُوا مقصور لأنه من باب المجيء ؛ قاله ابن كَيْسان . وهو أمر معناه التعجيز لأنه تعالى علم عجزهم عنه . والسُّورَة واحدة السُّوَر وقد تقدم الكلام فيهـا (1) وفى إعجاز القرآن (2) ، فلا معنى للإعادة . ومن — فى قوله : « مِنْ مِثْـلِهِ » — زائدة ؛ كما قال : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » والضمير فى مثله عائد على القرآن عند الجمهور من العلمـاء ؛ كقتادة ومجاهد وغيرهما . وقيل : يعود على التوراة والإنجيل . فالمعنى فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدق ما فيــه . وقيل : يعود على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . المعنى من بَشَر أُمّيّ مثله لا يكتب ولا يقرأ . فمن على هذين التأويلين للتبعيض . والوقف على «مثله» ليس بتام ؛ لأن « وادعوا » نسق عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم . الفـراء : آلهتكم . وقال ابن كيسان : فان قيـل كيف ذكر الشهداء هاهنا ، وإنما يكون الشهـداء ليشهدوا أمرا ، أو ليخبروا بأمر شهدوه ، وإنما قيل لهم : فأتوا بسورة من مثله؟ فالجواب أن المعنى استعينوا

(1) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . (2) راجع ص ٦٩ — ٧٨ من هذا الجزء .

بمن وجدتموه من علمائكم ، وأحضروهم ليشاهدوا ما تأتون به ؛ فيكون الرّد على الجميـع أوكد في الحجة عليهم .

قلت : هذا هو معنى قول مجاهد . قال مجاهد : معنى وادعوا شهداءكم، أى ادعوا ناسا يشهدون لكم أى يشهدون أنكم عارضتموه . النحاس : شهداءكم نصب بالفعـل جمع شهيد ؛ يقال : شاهد وشهيد ، مثـل قادر وقدير . وقوله : ﴿ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى من غيره ، ودُونُ نقيض فوق ؛ وهو تقصير عن الغاية، ويكون ظرفا . والدون : الحقير الخسيس؛ قال :

إذا ما علا المـرءُ رام العَـلَاء * ويَقْنع بالدُّون من كان دُونَا

ولا يُشتق منـه فعل؛ وبعضهم يقول منـه : دَانَ يَدُونُ دَوْنًا . ويقال : هـذا دون ذاك ، أى أقرب منـه . ويقال في الإغراء بالشيء : دُونَكَه . قالت تميم للحجاج : أَقْبِرْنَا (١) صالحاً — وكان قد صلبه — فقال : دُونَكُمُوه .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة، لقولهم في آية أخرى : « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا » . والصدق : خلاف الكذب، وقد صدق في الحديث . والصَّدْق : الصُّلب من الرماح . ويقال : صَدَقوهم القتالَ . والصِّدّيق : الملازم للصدق ؛ ويقال : رَجلُ صِدْقٍ، كما يقال : نِعْمَ الرجلُ . والصّداقة مشتقة من الصدق في النّصح والوّد .

قوله تعالى : فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ يعنى فيما مضى ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ أى تطيقوا ذلك فيما يأتى . والوقف على هذا على «صادقين» تام . وقال جماعة من المفسرين : معنى الآية وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا، فإن لم تفعلوا فاتقوا النار . فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على «صادقين» .

(١) أقبرنا ، أى ائذن لنا في أن نقبره . وصالح : هو صالح بن عبد الرحمن مولى تميم ، كان كاتبا للحجاج ، ويرى رأى الخوارج .

فإن قيل : كيف دخلت « إنْ » على « لم » ولا يدخل عامل على عامل؟ فالجـواب أن « إنْ » هاهنا غير عاملة فى اللفظ، فدخلت على «لم» كما تدخل على المـاضى؛ لأنها لا تعمل فى لم كما لا تعمل فى المـاضى؛ فمعنى إن لم تفعلوا : إن تركتم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ نصب بلن، ومن العرب من يجزم بها، ذكره أبو عبيدة ؛ ومنه بيت النابغة :

* فلن أُعَرِّضْ[1] أَبيتَ اللَّعنَ بالصَّفَدِ *

وفى حديث ابن عمر حين ذُهب به الى النار فى منامه فقيل لى : لن تُرَعْ . هذا على تلك اللغة . وفى قوله : « وَلَنْ تَفْعَلُوا » إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها . وقال ابن كيسان : ولن تفعلوا، توقيفا لهم على أنه الحق، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب، وأنه مفترًى وأنه سحر وأنه شِعْر، وأنه أساطير الأولين؛ وهم يدّعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جواب فإن لم تفعلوا ، أى اتقوا النار بتصديق النبيّ صلى الله عليه وسلّم وطاعة الله تعالى . وقد تقدّم معنى التقوى[2] فلا معنى لإعادتها . ويقال : إن لغة تميم وأسد «فَتَقُوا النار» . وحكى سيبويه : تَقَى يَتْقِى، مثل قضى يقضى . «النار» مفعولة . «التى» من نعتها، وفيها ثلاث لغات : الّتى واللّتِ بكسر التاء واللّتْ بإسكانها . وهى اسم مبهم للمؤنث وهى معرفة ؛ ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتنكير، ولا تتم إلا بصلة . وفى تثنيتها ثلاث لغات أيضا : اللّتانِ واللّتـا بحذف النون واللّتانّ بتشديد النون . وفى جمعهـا خمس لغات :

---

(١) رواية الديوان وهى المشهورة فى مصادر الأدب : « فلم أعرض » . ويروى : « فما عرضـت » . وصدر البيت :

* هذا الثناء فان تسمع به حسنا *

وقوله : أبيت اللعن . تحية كانوا يحيون بهـا الملوك . والصـفد : العطاء . معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تلعن عليه وتذم . يقول : هـذا الثناء الصحيح الصادق فمن الحق أن تقبله منى ؛ فلم أمدحك متعرضا لعطائك ؛ لكن امتدحتك اقرارا بفضلك . (عن شرح الديوان) .

(٢) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء .

اللَّاتِى وهى لغـة القرآن . واللّاتِ بكسر التاء بلا ياء . واللَّوَاتِى . واللّواتِ بلا ياء، وأنشـد أبو عبيدة :

من اللّواتِى والّتِي واللّاتِي * زَعَمْنَ أنْ قد كَبِرَتْ لِدَاتِى

واللَّوَا بإسقاط التاء، هـذا ما حكاه الجوهرى . وزاد ابن الشجرى : اللائى بالهمز و إثبات الياء، واللاءِ بكسر الهمزة وحذف الياء، واللَّا بحذف الهمزة . فإن جمعت الجمع قلت فى اللاتى : اللـواتى ، وفى اللائى : اللـوائى . قال الجوهرى : وتصـغير التى اللَّتَيّا بالفتح والتشديد ، قال الراجز (١) :

بعد اللُّتَيّا واللَّتَيّا والّتِي * إذَا عَلَتْهَا أَنْفُسٌ تردّتِ

و بعض الشعراء أدخل على التى حرف النداء، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا فى قولنـا : يا ألله ، وحده . فكأنه شبهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها، وقال :

من اَجْلِكِ يا التى تَيَّمْتِ قلبى * وأنتِ بخيـــلةٌ بالـودِّ عنّى

و يقال : وقع فلان فى اللُّتَيَّـا والّتِي ؛ وهما اسمان من أسمـاء الداهية . والوَقود بالفتح : الحطب ، و بالضم : التوقد . و «الناس» عموم، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطبا لهـا، أجارنا الله منها . «والحجارة» هى حجارة الكبريت الأسود ــ عن ابن مسعود والفراء ــ وخصت بذلك لأنهـا تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب : سرعة الانقاد، نتن الرائحة، كثرة الدخان، شـدّة الالتصاق بالأبدان ، قوة حَرّها إذا حَميت . وليس فى قوله تعالى : «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» دليل على أن ليس فيها غير الناس والحجارة، بدليل ما ذكره فى غير موضع من كون الجن والشياطين فيها . وقيل : المراد بالحجارة الأصنام؛ لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » أى حطب جهنم . وعليـه فتكون الحجارة والناس وقودا للنار، وذكر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس .

(١) هو العجاج . وصف دواهى شنيعة . يقول : بعـد الجهد والمُشْرِف الذى أشرفت عليـه . ومعنى تردت : سقطت هاوية وهلكت .

وعلى التأويل الأوّل يكونون معذبين بالنار والحجارة . وقــد جاء الحديث عن النبيّ صــلّى الله عليــه وسلّم أنه قال : "كل مُؤذٍ فى النار" . وفى تأويله وجهان : أحدهما — أن كل من آذى الناس فى الدنيا عذبه الله فى الآخرة بالنار . الثــانى أن كل ما يؤذى الناس فى الدنيا من السبــاع والهوام وغيرها فى النار مُعَدٌّ لعقوبة أهل النار . وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هى نار الكافرين خاصة . والله أعلم .

روى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال قلت : يا رسول الله، إنـــ أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهــل نفعه ذلك ؟ قال : "نعم وجدته فى غَمَرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضاح(1) — فى رواية — ولولا أنا لكان فى الدَّرْك الأسفل من النار" . «وقودها» مبتدأ . «الناس» خبره . «والحجارة» عطف عليهم . وقرأ الحسن ومجاهــد وطلحة بن مُصَرِّف : وُقودها بضم الواو . وقرأ عُبيد بن عُمير : وقيــدُها الناس . قال الكسائى والأخفش : الوَقود بفتح الواو : الحطب، وبالضم الفعل؛ يقال : وَقَدتِ النارُ تَقِد وُقودا بالضم ووَقَدًا وقِدَةً [ووَقِيدا ووَقْدا(2)] ووَقَدانا، أى توقدت . وأَوْقدتها أنا واستوقدتها أيضا، والاتقاد مثل التّوقد، والموضــع مَوْقِد ، مثــل مجلس ، والنار مُوقَــدة . والوَقْدة : شــدّة الحر ، وهى عشرة أيام أو نصف شهر . قال النحاس : يجب على هذا ألا يقرأ إلا وقودها [بفتح الواو(3)] لأن المعنى حطبها، إلا أن الأخفش قال : وحكى أن بعض العرب يجعل الوَقود والوُقود بمعنى الحطب والمصدر . قال النحاس : وذهب إلى أن الأوّل أكثر، قال : كما أن الوَضوء الماء، والوُضوء المصدر .

قوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك ؛ بدليل ما ذكره فى غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة فى الشفاعة على ما يأتى . وفيــه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النــار موجودة مخلوقة؛ خلافا للمبتدعة فى قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن . وهو القول الذى سقط فيه القاضى منذر بن سعيد البَلُّوطى الأندلسى .

---

(1) الضحضاح فى الأصل : مارق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين ، واستعار للنار .

(2) الزيادة عن هامش بعض نسخ الأصل . (3) الزيادة عن كتاب «إعراب القرآن للنحاس» .

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال (١) : كنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذ سمع وجبة (٢)؛ فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "تدرون ما هذا" قال قلنا : الله ورسوله أعلم؛ قال : "هذا حجر رُمِي به فى النار منذ سبعين خريفا فهو يهوِى فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها" .
وروى البخاريّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "احتجت النار والجنة فقالت هذه يدخلنى الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلنى الضعفاء والمساكين فقال الله عزّ وجلّ لهذه أنتِ عذابى أعذب بِك من أشاء وقال لهذه أنتِ رحمتى أرحم بِك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها" . وأخرجه مسلم (٣) بمعناه . يقال : احتجت بمعنى تحتج ، للحديث المتقدّم حديث ابن مسعود (٤)؛ ولأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد أريهما فى صلاة الكسوف ، ورآهما أيضا فى إسرائه ودخل الجنة؛ فلا معنى لما خالف ذلك . وبالله التوفيق . و ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ يجوز أن يكون حالا للنار على معنى مُعَدَّة ، وأضمرت معه قد؛ كما قال : « أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ » فمعناه قد حصرت صدورهم ، فمع «حَصِرت» قد مضمرة لأن الماضى لا يكون حالا إلا مع قد؛ فعلى هذا لا يتم الوقف على الحجارة . ويجوز أن يكون كلاما منقطعا عما قبله ؛ كما قال : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » . وقال السجستانى : أعدت للكافرين من صلة التى؛ كما قال فى آل عمران : « وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » . ابن الأنبارى : وهذا غلط ، لأن التى فى سورة البقرة قد وصلت بقوله : « وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ » فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية؛ وفى آل عمران ليس لها صلة غير « أعدت » .

قوله تعالى : وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

---

(١) كذا فى الأصول . وفى صحيح مسلم : « عن أبى هريرة » .	(٢) الوجبة : صوت الشىء يسقط فيسمع له ، كالهدّة .	(٣) بمراجعة صحيحى البخارى ومسلم وجدنا أن الرواية لمسلم ، وأخرجه البخارى بمعناه .
(٤) يلاحظ أن راوى الحديث المتقدم فى صحيحى مسلم والبخارى أبو هريرة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لمـا ذكر الله عزّ وجلّ جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا . والتبشير : الإخبار بمـا يظهر أثره على البَشرة وهى ظاهر الجلد لتغيرها بأوّل خبر يَرِد عليـك؛ ثم الغالب أن يستعمل فى السرور مقيّدا بالخير المبَشَّر به ، وغير مقيد أيضا . ولا يستعمل فى الغم والشر إلا مقيّدا منصوصا على الشّر المبَشَّر به؛ قال الله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . ويقال: بشّرته و بشَرته — مخفف ومشدد — بشارة بكسر البـاء فأَبْشَر واستبشر . وبَشِر يَبْشَر إذا فرح . ووجه بَشيرٌ إذا كان حسَنا بيّن البَشارة بفتح الباء . والبُشرى : ما يعطاه المبشِّر . وتباشير الشيء : أوّله .

الثانيـــة — أجمع العلماء على أن المكلّف إذ قال: من بشرنى من عبيدى بكذا فهو حُرّ، فبشره واحد من عبيده فأكثر فإن أوّلهم يكون حُرًّا دون الثانى . واختلفوا إذا قال : من أخبرنى من عبيدى بكذا فهو حر فهل يكون الثانى مثل الأوّل؛ فقال أصحاب الشافعى : نعم، لأن كل واحد منهـم مخبر . وقال علماؤنا : لا ، لأن المكلف إنمـا قصد خبرا يكون بشارة؛ وذلك يختص بالأوّل؛ وهذا معلوم عرفا فوجب صرف القول إليه . وفرّق محمد بن الحسن بين قوله : أخبرنى، أو حدثنى؛ فقال : إذا قال الرجل أىّ غلام لى أخبرنى بكذا ، أو أعلمنى بكذا وكذا فهو حر — ولا نيـة له — فأخبره غلام له بذلك بكتاب أو كلام أو رسول فإن الغلام يَعتِق؛ لأن هــذا خبر . و إن أخبره بعد ذلك غلام له عَتَق؛ لأنه قال : أىّ غلام أخبرنى فهو حر . ولو أخبروه كلهم عَتَقُوا ؛ و إن كان عَنَى حين حلف بالخبر كلام مشافهة لم يَعتِق واحد منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر . قال : و إذا قال أىّ غلام لى حدثنى ؛ فهــذا على المشافهة، لا يعتق واحد منهم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ردّ على من يقول : إن الإيمان بمجرّده يقتضى الطاعات ، لأنه لو كان ذلك ما أعادها؛ فالجنة تنال بالإيمان والعمل الصالح . وقيل: الجنة تنال بالإيمان؛ والدرجات تستحق بالأعمال الصالحات . والله أعلم .

﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ فى موضـع نصب ببشر ، والمعنى وبشر الذين آمنوا بأن لهم ، أو لأن لهم ؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل . وقال الكسائى وجماعة من البصريين : أن فى موضع خفض بإضمار البـاء .

﴿ جَنَّاتٍ ﴾ فى موضع نصب اسم أنّ ، وأنّ وما عملت فيـه فى موضع المفعول الثـانى . والجنات : البساتين ، وإنمـا سميت جنات لأنها تُجِنّ مَن فيها أى تستره بشجرها ؛ ومنـه : المِجَنّ والجَنين والجنة .

﴿ تَجْرِى ﴾ فى موضـع النعت لجنات ، وهو مرفوع لأنه فعل مستقبل فحذفت الضمة من الياء لثقلها معها .

﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت أشجارها ، ولم يجر لها ذكر لأن الجنات دالة عليها .

﴿ ٱلْأَنْهَارُ ﴾ أى ماء الأنهار ؛ فنسب الجرى إلى الأنهار توسُّعًا ، وإنما يجرى المـاء وحده فحذف اختصارا ، كما قال تعالى : « وَٱسْئَلِ الْقَرْيَةَ » أى أهلها . وقال الشاعر[1] :

نُبِّئْتُ أن النار بَعدكَ أُوقدَتْ * وٱستبَّ بعدكَ يا كُليبُ المجلِسُ

أراد : أهل المجلس فحذف . والنهر : مأخوذ من أنهرت أى وسّعت ؛ ومنه قول قيس ابن الخطيم :

مَلكتُ[2] بها كَفِّى فأنهرتُ فتقَها * يَرَى قائمٌ من دونهـا ما وراءها

أى وسعتها ، يصف طعنة ؛ ومنه قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "ما أنهر الدمَ وذُكر اسم الله عليه فكلوه" . معناه : ما وسع الذبح حتى يجرى الدم كالنهر . وجمع النَّهر : نُهُر وأنهار . ونَهَرٌ نَهِر : كثير المـاء ؛ قال أبو ذؤيب :

أقامت به فابتَنَتْ خيمةً * على قَصَبٍ وفُراتٍ نَهِــرْ[3]

---

(١) هو مهلهل أخو كليب .		(٢) ملكت ، أى شددت وقويت .

(٣) قال الأصمعى : «قصب البطحاء مياه تجرى الى عيون الركايا (الآبار) . يقول : أقامت بين قصب أى ركايا وماء عذب ، وكل فرات فهو عذب» . (عن اللسان وشرح الديوان) .

وروى : أن أنهار الجنة ليست فى أخاديد، إنما تجرى على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها . والوقف على «الأنهار» حسن وليس بتام ؛ لأن قوله : « كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ » من وصف الجنات .

﴿ رِزْقًا ﴾ مصدر، وقد تقدّم القول فى الرزق (١) . ومعنى ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى فى الدنيا؛ وفيه وجهان : أحدهما — أنهم قالوا هذا الذى وُعِدنا به فى الدنيا . والثانى — هذا الذى رُزقنا فى الدنيا؛ لأن لونهـا يشبه لون ثمـار الدنيا؛ فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيـل : « من قبـل » يعنى فى الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون ؛ فإذا أُتُوا بطعام وثمـار فى أول النهار فأكلوا منها، ثم أُتُوا منها فى آخر النهار قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل، يعنى أطعمنا فى أول النهار لأن لونه يشبه ذلك؛ فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعما غير طعم الأول .

﴿ وَأُتُوا ﴾ فُعِلُوا من أتيت . وقرأه الجماعة بضم الهمزة والتاء . وقرأ هارون الأعور «وَأَتَوْا» بفتح الهمزة والتاء . فالضمير فى القراءة الأولى لأهل الجنة؛ وفى الثانية للخدام .

﴿ بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ حال من الضمير فى به ، أى يشبه بعضـه بعضا فى المنظر ويختلف فى الطعم . قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . وقال عكرمة : يشبه ثمـر الدنيا ويباينه فى جُلّ الصفات . ابن عباس : هذا على وجه التعجب ، وليس فى الدنيا شىء ممـا فى الجنة سوى الأسماء ؛ فكأنهم تعجّبوا لمـا رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها . وقال قتادة : خيارا لا رَذْلَ فيه؛ كقوله تعالى : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا » وليس كثمار الدنيا التى لا تتشابه؛ لأن فيها خيارا وغير خيار .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ ﴾ ابتداء وخبر . وأزواج : جمع زوج؛ والمرأة : زوج الرجل؛ والرجل زوج المرأة . قال الأصمعىّ : ولا تكاد العرب تقول زوجة . وحكى الفراء أنه يقال : زوجة؛ وأنشد الفرزدق :

وإن الذى يسعى ليُفسِد زوجتى * كساع إلى أُسْد الشَّرَى يَسْتَبِيلها (٢)

(١) راجع ص ١٧٧ من هذا الجزء .

(٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل . يستبيلها ، أى يأخذ بولها فى يده .

وقال عمّــار بن ياسر فى شأن عائشــة أم المؤمنين رضى الله عنها : والله إنى لأعلم أنها زوجته فى الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم . ذكره البخارى، واختاره الكسائى .

﴿ مُطَهَّرَةٌ ﴾ نعت للأزواج . ومطهرة فى اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ؛ ومعنى هذه الطهارة من الحيض والبصاق وسائر أقذار الآدميات . ذكر عبــد الرزاق قال أخبرنى الثورىّ عن ابن أبى نَجِيح عن مجاهــد : مطهرة، قال : لا يَبُلْن ولا يَتَغَوَّطْن ولا يَلِدن ولا يَحِضن ولا يمنين ولا يَبْصُقْن . وقــد أتينا على هــذا كله فى وصف أهــل الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة . والحمد لله .

﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ هم مبتدأ . خالدون خبره، والظرف ملغًى . ويجوز فى غير القرآن نصب خالدين على الحال . والخلود : البقاء؛ ومنه جنّة الخُلْد. وقد تستعمل مجازا فيما يطول؛ ومنه قولهم فى الدعاء : خلّد الله مُلْكه، أى طوّله . قال زهير :

ألَا لا أرى على الحوادث باقيًا ﴿ ولا خالدًا إلا الجبال الرّواسيَا

وأما الذى فى الآية فهو أبدىّ حقيقة .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ قال ابن عبـاس فى رواية أبى صـالح : لمـا ضرب الله سبحانه هــذين المثلين للمنـافقين : يعـنى « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا » وقوله : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ » قالوا : الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثـال؛ فأنزل الله هــذه الآية . وفى رواية عطاء عن ابن عباس قال : لمـا ذكر الله آلهة المشركين فقال : « وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ » وذكر كيد الآلهة

بجعله كبيت العنكبوت ، قالوا : أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد، أيّ شيء يصنع ؟ فأنزل الله الآية . وقال الحسن وقتادة : لما ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب للشركين به المثل ، ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله؛ فأنزل الله الآية .

و(يَسْتَحْيِي) أصله يستحيِيُ،عينه ولامه حرفا علة؛أُعلّت اللام منه بأن استثقلت الضمة على الياء فسكنت . واسم الفاعل على هذا : مستحيي ، والجمع مستحيون ومستحيين . وقرأ ابن مُحَيْصن يستحِي بكسر الحاء وياء واحدة ساكنة؛ وروى عن ابن كَثِير وهى لغة تميم و بكر ابن وائل ؛ نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ، ثم استثقلت الضمة على الثانية فسكنت ، فحذفت إحداهما للالتقاء ؛ واسم الفاعل مستحٍ ، والجمع مستحون ومستحين . قاله الجوهرى . واختلف المتأولون فى معنى يستحيي فى هذه الآية ؛ فقيل : لا يخشى؛ورجحه الطبرى؛ وفى التنزيل : «وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » بمعنى تستحى . وقال غيره : لا يترك . وقيل : لا يمتنع . وأصل الاستحياء الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفا من مواقعة القبيح؛ وهذا محال على الله تعالى . وفى صحيح مسلم عن أمّ سَلَمة رضى الله عنها قالت : جاءت أمّ سُليم إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق . المعنى لا يأمر بالحياء فيه، ولا يمتنع من ذكره .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ﴾ يضرب معناه يبيّن،وأنْ مع الفعل فى موضع نصب بتقدير حذف مِن . « مَثَلًا » منصوب بيضرب « بَعُوضَةً » فى نصبها أربعة أوجه :

الأول — تكون «ما» زائدة، وبعوضة بدلا من مَثَلًا .

الثانى — تكون ما نكرة فى موضع نصب على البدل من قوله : «مثلا» . و بعوضة نعت لما ، فوصفت ما بالجنس المنكّر لإبهامها لأنها بمعنى قليل ؛ قاله الفراء والزجاج وثعلب .

الثالث — نصبت على تقدير إسـقاط الجار ، المعنى أن يضرب مثلا ما بين بعوضـة ؛ فحذفت «بين» وأعربت بعوضة بإعرابها ؛ والفاء بمعنى إلى ، أى إلى ما فوقها . وهذا قول الكسائى والفراء أيضا؛ وأنشد أبو العباس :

يا أحسنَ الناسِ ما قَرْنًا إلى قَدَمٍ * ولا حِبـالَ مُحِبٍّ واصِلٍ تَصِلُ

أراد ما بين قَرْن، فلما أسقط بين نصب .

الرابـع — أن يكون يضرب بمعنى يجعل، فتكون بعوضة المفعول الثانى . وقرأ الضحاك وابراهيم بن أبى عَبْلَةَ ورُؤْبة بن العجّاج « بعوضةٌ » بالرفع، وهى لغة تميم . قال أبو الفتح : ووجه ذلك أن «ما» اسم بمنزلة الذى، و بعوضة رفع على إضمار المبتدأ، التقدير : لا يستحيي أن يضرب الذى هو بعوضة مثلا؛ فحذف العائد على الموصول وهو مبتدأ . ومثله قراءة بعضهم: « تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِى أَحْسَنُ » أى على الذى هو أحسن . وحكى سيبويه : ما أنا بالذى قائل لك شيئا؛ أى هو قائل . قال النحاس : والحذف فى « ما » أقبح منه فى الذى، لأن الذى إنما له وجه واحد والاسم معه أطول . ويقال : إن معنى ضربت له مثلا، مثّلت له مثلا . وهـذه الأبنية على ضرب واحد، وعلى مثال واحد ونوع واحد؛ والضرب النوع . والبعوضة : فَعُولة من بَعَض إذا قطع اللحم؛ يقال : بَضَع و بَعَض بمعنًى، وقد بعّضته تبعيضا، أى جزّأته فتبعّض . والبعوض : البق، الواحدة بعوضة، سميت بذلك لصغرها . قاله الجوهرى وغيره .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ قد تقدّم أن الفاء بمعنى إلى، ومن جعل ما الأولى صلة زائدة فما الثانية عطف عليها . وقال الكسائى وأبو عبيدة وغيرهما : معنى فما فوقها — والله أعلم — ما دونها ، أى أنها فوقها فى الصغر . قال الكسائى : وهذا كقولك فى الكلام : أتُراه قصيرا؟ فيقول القائل : أو فوق ذلك ، أى هو أقصر مما ترى . وقال قتادة وابن جُريج : المعنى فى الكبر . والضمير فى «أنّه» عائد على المثـل؛ أى أن المثل حق . والحق خلاف الباطل . والحق : واحد الحقوق . والحقّة بفتح الحاء أخصّ منه ؛ يقال : هذه حقّتى، أى حقّى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لغة بنى تميم و بنى عامر فى أمّا : أَيْمَـا ، يبدلون من إحدى الميمين ياء كراهية التضعيف ؛ وعلى هذا يُنْشَد بيت عمر بن أبى ربيعة :

رأتْ رجلًا أيْمَا إذا الشمس عارضَتْ * فيَضْـــحَى وأَيْمَـا بالعَشِيّ فيَخْصَرُ[1]

قوله تعالى : ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ اختلف النحويون فى «ماذا» ، فقيل : هى بمنزلة اسم واحد بمعنى أى شيء أراد الله؛ فيكون فى موضع نصب بأراد. قال ابن كيسان : وهو الجيد. وقيل : ما ، اسم تام فى موضع رفع بالابتداء؛ وذا ، بمعنى الذى وهو خبر الابتداء ، ويكون التقدير : ما الذى أراده الله بهذا مثلا . ومعنى كلامهم هذا : الانكار بلفظ الاستفهام . و « مثلا » منصوب على القطع؛ التقدير : أراد مثلا ؛ قاله ثعلب . وقال ٱبن كيسان : هو منصوب على التمييز الذى وقع موقع الحال .

قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا ﴾ قيل : هو من قول الكافرين ، أى ما مراد الله بهذا المثل الذى يُفرّق به الناس إلى ضلالة و إلى هدى . وقيل : بل هو خبر من الله عزّ وجلّ ، وهو أشبه ؛ لأنهم يقرّون بالهدى أنه من عنده ؛ فالمعنى : قل يضل الله به كثيرا ويهدى به كثيرا ؛ أى يوفق ويخذل ؛ وعليه فيكون فيــه رد على من تقدّم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم فى قولهم : إن الله لا يخلق الضــلال ولا الهــدى . قالوا : ومعنى « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا » التسمية هنا ، أى يسميه ضالا ؛ كما يقال : فسّقت فلانا ، يعنى سميته فاســقا ؛ لأن الله تعالى لا يضل أحدا . هذا طريقهم فى الإضلال ، وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل فى اللغة ؛ لأنه يقال : ضلّله إذا سمّــاه ضالًّا ؛ ولا يقال : أضله إذا سماه ضالًّا ؛ ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهــل التأويل من الحق أنه يخذل به كثيرا من النــاس مجازاة لكفرهم . ولا خلاف أن قوله :

﴿ وَمَا يُضِــلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ ﴾ أنه من قوله تعــالى . والفاسقين نصب بوقوع الفعل عليهم ؛ والتقــدير : وما يضــل به أحدا إلا الفاسقين الذى ســبق فى علمه أنه لا يهديهم .

(١) الخصر (بالتحريك) : البرد .

ولا يجوز ان تنصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمام الكلام . وقال نَوْفٌ البِكَالِيّ قال قال عزير فيما يناجى ربّه عزّ وجلّ : إلهى تخلق خلقا فتضل من تشاء وتهـدى من تشاء . قال فقيل : يا عزير أعرض عن هذا ! لتُعْرِضَنّ عن هذا أو لأمحُوَنّكَ من النبوّة ، إنى لا أسأل عما أفعل وهم يسألون . والضلال أصله الهلاك ؛ يقال منـه : ضلّ الماءُ فى اللبن إذا استهلك ؛ ومنه قوله تعالى : « أَإِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ » وقـد تقدّم فى الفاتحة . والفسق أصـله فى كلام العرب الخروج عن الشىء ؛ يقال : فسَقَتِ الرُّطَبة إذا خرجت عن قشرها ؛ والفأرة من جحرها . والفُوَيْسِقة : الفأرة ؛ وفى الحديث : "خمسٌ فواسِـقُ يقتلن فى الحِلّ والحَرَم الحيـة والغراب الأبقع والفأرة والكلب العقور والحُدَيّا" . روته عائشة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، أخرجه مسلم . وفى رواية "العقرب" مكان الحية . فأطلق صلّى الله عليه وسلّم عليها آسم الفسق لأذيّتها ، على ما يأتى بيانه فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . وفَسَق الرجل يَفْسِق ويَفْسُق أيضا عن الأخفش فِسْقًا وفسوقا ، أى فَجَر . فأما قوله تعالى : «فَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» فمعناه خرج . وزعم ابن الأعرابىّ أنه لم يسمع قطّ فى كلام الجاهليـة ولا فى شـعرهم فاسق(١) . قال : وهـذا عجب ، هو كلام عربىّ حكاه عنـه ابن فارس والجوهرى .

قلت : قد ذكر أبو بكر بن الأنبـارى فى كتاب «الزاهر» له لمـا تكلم على معنى الفســق قول الشاعر :

يَذْهَبْنَ فى نَجْـدٍ وغَوْرًا(٢) غائرًا * فواسقًا عن قصدها جوائرًا

والفِسِّيق : الدائم الفسق . ويقال فى النداء : يافُسَقُ ويا خُبَثُ ، يريد : يأيها الفاسق ، ويأيها الخبيث . والفسق فى عرف الاستعمال الشرعى : الخروج من طاعة الله عزّ وجلّ ، فقد يقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان .

---

(١) أى بمعنى الخارج من طاعة الله ، وهو بهذا المعنى حقيقة شرعية . (٢) غورا ، منصوب بفعل محذوف ، أى ويسلكن . (راجع كتاب سيبويه ج ١ ص ٤٩ طبع بولاق) .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ الذين فى موضع نصب على النعت للفاسقين ، وإن شئت جعلته فى موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف، أى هم الذين؛ وقد تقدّم (١) .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ يَنقُضُونَ ﴾ النقض : إفساد ما أبرمته من بناء أو حبل أو عهد . والنُّقاضة : ما نقض من حبل الشَّعر . والمناقضة فى القول : أن تتكلم بما تناقض معناه . والنَّقيضة فى الشِّعر : ما يُنْقَض به . والنِّقض : المنقوض . واختلف الناس فى تعيين هـذا العهد ؛ فقيل : هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين استخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصيّة الله تعالى إلى خلقه ، وأمْرُه إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيُه إياهم عما نهاهم عنه عن معصيته فى كتبه على ألسـنة رسله ؛ ونقضهم ذلك ترك العمل به . وقيـل : بل نَصْب الأدلة على وحدانيته بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد ؛ ونقضهم ترك النظر فى ذلك . وقيـل : هو ما عهده إلى من أوتى الكتاب أن يبيّنوا نبوّة محمد عليـه السلام ولا يكتموا أمره . فالآية على هذا فى أهل الكتاب . قال أبو إسحاق الزجاج : عهده جلّ وعزّ ما أخذه على النبيّين ومن اتّبعهم ألا يكفروا بالنبيّ صـلّى الله عليـه وسلّم . ودليـل ذلك : «وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ» إلى قوله تعالى : «وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى» أى عهده .

قلت : وظاهر ما قبلُ وما بعــدُ يدل على أنها فى الكفار . فهذه خمسة أقوال ؛ والقول الثانى يجمعها .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ الميثاق : العهد المؤكد باليمين ، مِفعال من الوَثاقة والمعاهدة ، وهى الشدّة فى العقــد والربط ونحوه . والجمع المواثيق على الأصل — لأن

---

(١) راجع ص ١٦٢ من هذا الجزء .

أصـل ميثاق مِوثاق، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها — والمياثق والمياثيق أيضا؛ وأنشد ابن الأعرابي :

حِمًى لا يُحَلُّ الدهرَ إلا بإذننا * ولا نسأل الأقوامَ عهدَ المياثِق (١)

والمَوْثِق : الميثاق . والمواثقة : المعاهدة؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ » .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ ﴾ القطع معروف، والمصـدر — في الرَّحِم — القطيعة؛ يقال : قَطَع رَحِمه قطيعة فهو رجل قُطَعٌ وقُطَعَة، مثال هُمَزة . وقَطَعت الحبل قَطْعا، وقَطَعت النهر قُطوعا ، وقَطَعتِ الطَّيْرُ قُطوعا وقُطاعا وقِطاعا إذا خرجت من بلد إلى بلد . وأصاب الناسَ قُطْعةٌ إذا قلّت مياهم . ورجل به قُطْعٌ أي انبهار (٢) .

الخامســة — قوله تعـالى : ﴿ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ ما، في موضع نصب بيقطعون . و«أَنْ» ، إن شئت كانت بدلا من ما، وإن شئت من الهاء في به وهو أحسن . ويجوز أن يكون لئلا يوصل ، أي كراهة أن يوصل . واختُلف ما الشيء الذي أمر بوصله؟ فقيل : صلة الأرحام . وقيـل : أمر أن يوصـل القول بالعمل؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا . وقيل : أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم . وقيل : الإشارة إلى دين الله وعبادته في الأرض، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده . فهي عامة في كل ما أمر الله تعـالى به أن يوصل ؛ هـذا قول الجمهور . والرَّحِم جزء من هـذا .

السادســة — قوله تعـالى : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يعبـدون غير الله تعالى ويجورون في الأفعال، إذ هي بحسب شهواتهم؛ وهذا غاية الفساد .

---

(١) في اللسان وشرح القاموس مادة (وثق) : «عقد المياثق» والبيت لعياض بن درة الطائي .

(٢) البهر (بالضم) : تتابع النَّفَس من الإعياء، وقيل انقطاعه .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴾ ابتداء وخبر . وهم زائدة؛ ويجوز أن تكون هم ابتداء ثانٍ ، الخاسرون خبره ، والثانى وخبره خبر الأول كما تقـدّم[1] . والخاسر : الذى نقص نفســه حظها من الفلاح والفوز . والخُسْران : النقصان كان فى ميزان أو غيره؛ قال جرير :

إن سَلِيطًا فى الخَسار إنّهْ * أولادُ قومٍ خُلِقوا أَقِنَّهْ[2]

يعنى بالخسار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم . قال الجوهرى : وخَسِرت الشىء بالفتح وأخسرته نقصته . والخَسَار والخَسَارة والخَيْسَرى : الضلال والهلاك؛ فقيل للهالك : خاسر، لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومُنع منزله من الجنة .

السابعــة — فى هــذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهـد جائز ألزمه المـرء نفسه فلا يحلّ له نقضـه سواء أكان بين مسلم أم غيره لذمّ الله تعالى من نقض عهده؛ وقد قال : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » ، وقد قال لنبيّه عليـه السلام : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » فنهاه عن الغدر، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد، على ما يأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

كيف، سؤال عن الحال وهى اسم فى موضع نصب بتكفرون ، وهى مبنيـة على الفتح وكان سبيلها أن تكون ساكنة ، لأن فيها معنى الاستفهام الذى معناه التعجب فأشبهت الحروف ، واختير لهـا الفتح لخفتـه ؛ أى هؤلاء ممن يجب أن يتعجّب منهـم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة .

فإن قيـل : كيف يجوز أن يكون هـذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله ؟ فالجواب ما سبق من أنهم لمّـا لم يثبتوا أمر محمد عليـه السلام ولم يصـدقوه فيما جاء به فقد

---

(١) راجع ص ١٨١ من هذا الجزء . (٢) سليط . أبو قبيلة . والقن : الذى مُلك هو وأبواه .

أشركوا؛ لأنهم لم يقرّوا بأن القرآن من عند الله. ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضا للعهد. وقيل: كيف، لفظه لفظ الاستفهام وليس به، بل هو تقرير وتوبيخ؛ أى كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هـذه! قال الواسطىّ: وبخهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن الموات والجماد لا ينازع صانعه فى شيء، وإنما المنازعة من الهيا كل الروحانية.

قوله تعالى: ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ هذه الواو واو الحال، وقد مضمرة. قال الزجاج: التقدير وقد كنتم ثم حذفت قد. وقال الفرّاء: أمواتا خبر كنتم.

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ هذا وقف التمام؛ كذا قال أبو حاتم. ثم قال: ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾.

واختلف أهل التأويل فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين، وكم من موتة وحياة للإنسان؟ فقال ابن عباس وابن مسـعود: أى كنتم أمواتا معدومين قبل أن تُخلقوا فأحياكم — أى خلقكم — ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يحييكم يوم القيامة. قال ابن عطيّة: وهـذا القول هو المراد بالآية، وهو الذى لا محيد للكفار عنه لإقرارهم بهما؛ وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين، ثم للإحياء فى الدنيا، ثم للإماتة فيها قوى عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها. قال غيره: والحياة التى تكون فى القبر على هـذا التأويل فى حكم حياة الدنيا. وقيل: لم يعتد بها كما لم يعتد بموت من أماته فى الدنيا ثم أحياه فى الدنيا. وقيـل: كنتم أمواتا فى ظهر آدم، ثم أخرجكم من ظهره كالذّرّ، ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم. وقيل: كنتم أمواتا أى نُطفا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، ثم نقلكم من الأرحام فأحياكم، ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم فى القبر للمسئلة، ثم يميتكم فى القبر، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر؛ وهى الحياة التى ليس بعدها موت.

قلت: فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات، وثلاث إحياءات. وكونهم موتى فى ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نُطَفًا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء؛ فعلى هذا يجيء أربع موتات وأربع إحياءات. وقد قيل: إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهبَاء ثم أماتهم؛ فيكون على هذا خمس موتات، وخمس إحياءات، وموتة سادسة

للعصاة من أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم إذا دخلوا النار ، لحديث أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكنْ ناس أصابتهم النار بذنوبهم — أو قال بخطاياهم — فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحْمًا أُذِن في الشفاعة فجيء بهم ضَبَائِرَ ضبائِرَ فبُثّوا على أنهار الجنة ثم قيل يأهل الجنة أفيضوا عليهم فينْبُتون نباتَ الحِبَّة تكون في حَمِيل السَّيْل" . فقال رجل من القوم : كأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد كان يرعى بالبادية (١) . أخرجه مسلم .

قلت — فقوله : "فأماتهم الله" حقيقة في الموت لأنه أكّده بالمصدر وذلك تكريما لهم . وقيل : يجوز أن يكون " أماتهم " عبارة عن تغيبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتا على الحقيقة، والأول أصح . وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكّدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا، وإنما هو على الحقيقة، ومثله : « وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا » على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وقيل : المعنى وكنتم أمواتا بالخمول فأحياكم بأن ذُكِرتم وشُرِّفتم بهذا الدِّين والنبيِّ الذي جاءكم، ثم يميتكم فيموت ذكركم ثم يحييكم للبعث .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى إلى عذابه مرجعكم لكفركم . وقيل : إلى الحياة وإلى المسألة، كما قال تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » فإعادتهم كابتدائهم ، فهو رجوع . و « تُرْجَعُونَ » قراءة الجماعة . ويحيى بن يَعْمَر وابن أبي إسحاق ومجاهد وابن مُحَيصن وسلام ابن يعقوب يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

---

(١) الذى فى صحيح مسلم : «... قد كان بالبادية» . والضبائر : هم الجماعات فى تفرقة ، واحدتها ضبارة، مثل عمارة وعمائر، وكل مجتمع ضبارة . والحبة (بالكسر) : بذور البقل . وقيل هو نبت صغير ينبت فى الحشيش ؛ فأما الحبة (بالفتح) فهى الحنطة والشعير ونحوهما . وحميل السيل : هو ما يجيء به السيل من طين أو زبد ووسخ .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — ﴿خَلَقَ﴾ معناه اخترع وأوجد بعد العدم؛ وقد يقال فى الإنسان : خلق عند إنشائه شيئا؛ ومنه قول الشاعر :

من كان يخلق ما يقو * ل لحيلتى فيــه قليله

وقد تقدّم[1] هذا المعنى . وقال ابن كيسان : خلق لكم أى من أجلكم . وقيل : المعنى أن جميع ما فى الأرض مُنْعَم به عليكم فهو لكم . وقيل : إنه دليل على التوحيد والاعتبار .

قلت : وهــذا هو الصحيح على ما نبيّنه . ويجوز أن يكون عَنَى به ماهم إليه محتاجون من جميع الأشياء .

الثانيـــة — استدل من قال إن أصل الأشياء التى ينتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها؛ كقوله : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » الاية . حتى يقوم الدليل على الحظر . وعَضَدوا هذا بأن قالوا : إن المآكل الشّهية خُلقت مع إمكان ألا تخلق فلم تخلق عبثا؛ فلا بد لها من منفعة . وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لاستغنائه بذاته ، فهى راجعــة إلينا . ومنفعتنا إمّا فى نيل لذتهـا ، أو فى اجتنابهـا لنختبر بذلك ، أو فى اعتبارنا بهـا . ولا يحصـــل شىء من تلك الأمور إلا بذوقها؛ فلزم أن تكون مباحة . وهــذا فاسد ، لانا لا نسلم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة ، بل خَلَقها كذلك لأنه لا يجب عليه أصل المنفعة، بل هو الموجب . ولا نسلم حصر المنفعة فيما ذكروه، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالذوق، بل قد يستدلّ على الطعوم بأمور أُخَر، كما هو معروف عند الطبائعيين ثم هو معارَض بمـا يخاف أن تكون سموما مهلكة ، ومعارضـون بشبهات أصحاب الحظر . وتوقّف آخرون وقالوا : ما من فعل لا ندرك منه حُسْنا ولا قُبحا إلّا ويمكن أن يكون حَسَنا فى نفسه؛ ولا مُعَيِّن قبــل ورود الشرع، فتعيّن الوقف إلى ورود الشرع . وهــذه الأقاويل الثلاثة للمعتزلة . وقــد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحابه وأكثر المـالكية والصيرفى فى هــذه

(١) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء .

المسئلة القولَ بالوقف . ومعناه عنــدهم أن لا حكم فيها فى تلك الحال، وأن للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوب ولا غيره، و إنما حظه تعرُّف الأمور على ما هى عليـه . قال ابن عطيــة : وحكى ابن فُورَك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يخل العقل قطّ من السمع ، ولا نازلة إلا وفيها سمع، أوْ لها تعلّق به، أوْ لها حال تُستصحَب . قال : فينبغى أن يعتمد على هذا، ويغنى عن النظر فى حظر و إباحة ووقف .

الثالثـــة ـــ الصحيح فى معنى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الاعتبار . يدل عليـه ما قبله وما بعده من نصب العبَر : الإحياء والإماتة والخلق والاســتواء إلى السماء وتسو يتها؛ أى الذى قدر على إحيائكم وخلقكم وخلق السموات والأرض، لا تبعد منه القدرة على الإعادة .

فإن قيل : إن معنى «لكم» الانتفاع ، أى لتنتفعوا بجميع ذلك؛ قلنا : المراد بالانتفاع الاعتبار لمـا ذ كرنا . فإن قيــل : وأىّ اعتبار فى العقارب والحيات؛ قلنا : يتذكّر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدّ الله للكفار فى النــار من العقوبات فيكون سببا للإيمـان وترك المعاصى؛ وذلك أعظم الاعتبار . قال ابن العربىّ : وليس فى الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضى حظرا ولا إباحة ولا وقفا؛و إنما جاء ذ كر هذه الآية فى معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته .

وقال أرباب المعانى فى قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ لتتقوّوْا به على طاعته، لا لتصرفوه فى وجوه معصيته . وقال أبو عثمان : وهب لك الكل وسخره لك لتستدل به على ســعة جوده ، وتسكن الى ما ضمن لك من جزيل عطائه فى المعاد، ولا تستكثر كثير برّه على قليل عملك؛ فقد ابتدأك بعظيم النّعم قبل العمل وهو التوحيد .

الرابعـــة ـــ روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أن رجلا أتى رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم فسأله أن يعطيه؛ فقال رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم : "ما عندى شىء ولكن ابتع علىّ فإذا جاء شىء قضينا" فقال له عمر : هــذا أعطيت اذا كان

عندك فما كلفك الله ما لا تقدر . فكره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قول عمر؛ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله؛

* أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا *

فتبسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعرف السرور فى وجهه لقول الأنصارى . ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "بذلك أمرت". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لخوف الإقلال من سوء الظن بالله، لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم؛ وقال فى تنزيله : « خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا »، « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ». فهذه الأشياء مسخرة للآدمى قطعًا لعذره وحجة عليه، ليكون له عبدا كما خلقه عبدا؛ فإذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه؛ كما قال تعالى : « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ». وقال : « فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ »، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال الله تعالى : "سبقتْ رحمتى غضبى يابن آدم أنفق أنفق عليك يمينُ الله ملأى سحًّا(1) لا يغيضها شىءٌ الليلَ والنهارَ". وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا ملَكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهمّ أعطِ منفقا خلَفًا ويقول الآخر اللّهمّ أعطِ ممسكًا تلفًا". وكذا فى المساء عند الغروب يناديان أيضا؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله . فمن استنار صدره، وعلم غنى ربّه وكرمه أنفق ولم يخف الإقلال؛ وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا، واجتزأ باليسير من القوت المقيم لمهجته، وانقطعت مشيئته لنفسه؛ فهذا يعطى من يسره وعسره ولا يخاف إقلالا . وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة فى الأشياء؛ فإذا أعطى اليوم وله غدا مشيئة فى شىء خاف ألا يصيب غدا، فيضيّق عليه الأمر فى نفقة اليوم لمخافة إقلاله . روى مسلم عن أسماء بنت أبى بكر قالت: قال لى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "انفحى أو انضحى(2) أو انفق ولا تُحصى فيُحصىَ الله عليك ولا تُوعى(3) فيُوعىَ الله عليك". وروى النسائى عن عائشة قالت : دخل علىّ

(1) أى دائمة الصب والهطل بالعطاء . (2) قال النووى : « والنفح والنضح العطاء، ويطلق النضح أيضا على الصب فلعله المراد هنا ويكون أبلغ من النفح » . (3) الايعاء : « جعل الشىء فى الوعاء . أى لا تجمعى وتشحى بالنفقة فيشح عليك » .

سائل مرّة وعندى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأمرت له بشىء ثم دعوت به فنظرت اليه؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أمَا تريدين ألا يدخل بيتك شىء ولا يخرج إلا بعلمك" قلت : نعم؛ قال : "مَهْلًا يا عائشة لا تُحْصِى فيُحصِى الله عزّ وجلّ عليكِ" .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى ﴾ ثم لترتيب الإخبـار لا لترتيب الأمر فى نفسه . والاستواء فى اللغة : الارتفاع والعلو على الشىء؛ قال الله تعالى : « فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ » ، وقال « لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ » ، وقال الشاعر :

فأوردتهـم ماء بفَيْفاء قَفْـــرةٍ * وقد حلّق النجم اليمانىّ فاستوى

أى ارتفع وعلا . واستوت الشمس على رأسى ، واستوت الطير على قمة رأسى ، بمعنى علا . وهذه الآية من المشكلات، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه، قال بعضهم : نقرؤها ونؤمن بهـا ولا نفسرها؛ وذهب إليـه كثير من الأئمة، وهـذا كما روى عن مالك رحمه الله أن رجلا سأله عن قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَى » قال مالك : الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأراك رجل سَوْء! أخرجوه . وقال بعضهم : نقرؤها ونفسّرها على ما يحتمله ظاهر اللغة . وهذا قول المشبّهة . وقال بعضهم : نقرؤها ونتأوّلها ونُحيل حَمْلَها على ظاهرها . وقال الفرّاء فى قوله عزّ وجلّ : « ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ » قال : الاستواء فى كلام العرب على وجهين، أحدهما : أن يَسْتوِيَ الرجل وينتهى شـبابه وقوّته ، أو يستوى عن اعوجاج . فهذان وجهان . ووجه ثالث أن تقول : كانَ[(1)] فلان مقبلا على فلان ثم استوى علىّ وإلىّ يشاتمنى . على معنى أقبل إلىّ وعلىّ . فهذا معنى قوله : «ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ» والله أعلم . قال وقد قال ابن عباس : ثم استوى الى السماء صَعِد . وهذا كقولك : كان قاعدا فٱستوى قائما ، وكان قائما فٱستوى قاعدا ؛ وكل ذلك فى كلام العـرب جائز . وقال البيهقى أبو بكر أحمـد بن علىّ بن الحسين : قوله :

(١) عبارة الأصـول : « ... كان مقبلا علىّ يشاتمنى وإلىّ سواء ، على معنى ... الخ » وبها لا يستقيم المعنى . والتصويب عن اللسان وشرح القاموس وتفسير الطبرى .

«آستوى» بمعنى أقبل صحيح؛ لأن الإقبال هو القصد الى خلق السماء؛ والقصد هو الإرادة، وذلك جائز في صفات الله تعالى . ولفظة «ثم» تتعلق بالخلق لا بالإرادة . وأما ما حكى عن ابن عباس فإنما أخذه عن تفسير الكلبيّ، والكلبيّ ضعيف. وقال سفيان بن عُيينة وابن كَيسان في قوله : « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ » قصـد إليها، أى بخلقه واختراعه؛ فهذا قول . وقيل : على دون تكييف ولا تحديد، واختاره الطبرى . ويُذكر عن أبي العالية الرّياحيّ في هذه الآية أنه يقال : اسـتوى بمعنى أنه ارتفع . قال البيهقي : ومراده من ذلك — والله أعلم — ارتفاع أمره ، وهو بخار المـاء الذى وقع منـه خلق السماء . وقيل : إن المستوى الدخان . وقال ابن عطية : وهـذا يأباه وصف الكلام . وقيل : المعنى استولى ، كما قال الشاعر[(١)] :

قد آستَوَى بِشْرٌ على العِراق * مِن غيرِ سَيفٍ ودَمٍ مُهْرَاق

قال ابن عطية : وهذا إنمـا يجئ في قوله تعالى : «ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ» .

قلت : قد تقدّم في قول الفرّاء عليّ و إلىّ بمعنًى؛ وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان في سورة «الأعراف» إن شاء الله تعالى . والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة .

السادســـة — يظهر من هـذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبـل السماء ؛ وكذلك في حم السـجدة . وقال في النازعات : «ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَاهَا» فوصف خلقهـا ؛ ثم قال : « وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا» . فكأن السماء على هـذا خلقت قبل الأرض ؛ وقال تعالى : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ» وهـذا قول قتادة : إن السماء خلقت أولا؛ حكاه عنـه الطبريّ . وقال مجاهد وغيره من المفسرين : إنه تعالى أيبس المـاء الذى كان عرشه عليـه، فجعله أرضا وثار منه دخان فارتفع ؛ فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثم قصـد أمره الى السماء فسوّاهن سـبع سموات ، ثم دحا[(٢)] الأرض بعد ذلك ، وكانت إذ خلقها غير مدحوّة .

---

(١) هو الأخطل ، كما في شرح القاموس .   (٢) دحا الشيء : بسطه .

قلت : وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى، وهو أن الله تعالى خلق أولا دخان السماء ثم خلق الأرض ، ثم استوى الى السماء وهى دخان فسوّاها ، ثم دحا الأرض بعد ذلك .

ومما[1] يدل على أن الدخان خلق أولا قبل الأرض ما رواه السّدى عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مُرّة الهمدانىّ عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فى قوله عزّ وجلّ : « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ » قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء ؛ فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء ، فسما عليه ، فسماه سماء ؛ ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين، فى الأحد والاثنين . فجعل الأرض على حوت — والحوت هو النّون الذى ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن بقوله : « نٓ وَٱلْقَلَمِ » — والحوت فى الماء و[2] [الماء] على صَفاة[3]، والصفاة على ظهر ملَك، والملَك على الصخرة، والصخرة فى الريح — وهى الصخرة التى ذكر لقمان : ليست فى السماء ولا فى الأرض — فتحرّك الحوت فاضطرب ؛ فتزلزلت الأرض ؛ فأرسل عليها الجبال فقرّت ؛ فالجبال تفخر على الأرض، وذلك قوله تعالى : « وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » وخلق الجبال فيها ، وأقوات أهلها وشجرها، وما ينبغى لها فى يومين، فى الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول : « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ » يقول : من سأل فهكذا الأمر، « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ » وكان ذلك الدخان من تنفّس الماء حين تنفّس ؛ فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين ، فى الخميس والجمعة ؛ وإنما سُمّى يوم الجمعة لأنه جمع

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله خرج عما سنّه فى مقدّمته لهذا الكتاب من إضرابه عن هذا القصص وأمثاله مما ملئت به كتب التفسير الأخرى والذى لا يتمشى مع روح الدين الاسلامى ؛ يجلّ من له العصمة . — (٢) تكملة عن تفسير الطبرى وتاريخه . — (٣) الصفاة : العريض من الحجارة الأملس .

فيه خلق السموات والأرض ، « وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » قال : خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلم ؛ ثم زيّن السماء الدنيا بالكواكب ، فجعلها زينة وحفظًا تحفظ من الشياطين . فلما فرغ من خلق ما أحبّ استوى على العرش ؛ قال فذلك حين يقول : « خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » ويقول : « كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » وذكر القصة فى خلق آدم عليه السلام ، على ما يأتى بيانه فى هذه السورة إن شاء الله تعالى .

وروى وكيع عن الأعمش عن أبى ظَبْيان عن ابن عباس قال : إن أوّل ما خلق الله عزّ وجلّ من شيء « القلم » فقال له اكتب . فقال : يارب وما أكتب . قال : اكتب القَدَر . فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة . قال : ثم خلق النُّونَ فدحا الأرض عليها ، فارتفع بخار الماء ففتق منه السموات ؛ واضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال ؛ فان الجبال تفخر على الأرض الى يوم القيامة . ففى هذه الرواية خلق الأرض قبل ارتفاع بخار الماء الذى هو الدخان ؛ خلاف الرواية الأولى . والرواية الأولى عنه وعن غيره أولى ؛ لقوله تعالى : « وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا » والله أعلم بما فعل ؛ فقد اختلفت فيه الأقاويل وليس للاجتهاد فيه مدخل .

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار أن إبليس تغلغل الى الحوت الذى على ظهره الأرض كلها ، فألقى فى قلبه ، فقال : هل تدرى ما على ظهرك يالوثيا من الأمم والشجر والدوابّ والناس والجبال ! لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك ؛ فبعث الله دابّة فدخلت فى منخره ؛ فعجّ الى الله منها فخرجت . قال كعب : والذى نفسى بيده ، إنه لينظر اليها بين يديه وتنظر اليه إن همّ بشيء من ذلك عادت حيث كانت .

السابعـــة — أصل خلق الأشياء كلها من الماء لما رواه ابن ماجه فى سننه ، وأبو حاتم البستى فى صحيح مسنده عن أبى هريرة قال قلت : يارسول الله ، إذا رأيتك طابت نفسى وقرّت عينى ، أنبئنى عن كلّ شيء . قال : "كلّ شيء خلق من الماء" فقلت : أخبرنى عن

شىء إذا عملت به دخلت الجنة . قال : " أطعم الطعام وأفش السـلام وصِلِ الأرحام وقُم الليل والناسُ نيام تدخل الجنةَ بسلام" . قال أبو حاتم قول أبى هريرة : «أنبئنى عن كل شىء» أراد به عن كل شىء خلق من المـاء ، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السـلام إياه حيث قال : "كل شىء خلق من المـاء" وإن لم يكن مخلوقا . وروى سـعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يحدّث أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : " إن أوّل شىء خلقه الله القلم وأمره فكتب كل شىء يكون " ويروى ذلك أيضا عن عُبادة بن الصّامت مرفوعا . قال البيهقى : وإنمـا أراد – والله أعلم – أوّل شىء خلقه بعـد خلق المـاء والريح والعرش « القـلم » . وذلك بيّن فى حديث عمران بن حُصين ؛ ثم خلق السموات والأرض . وذكر عبد الرّزاق بن عمر بن حبيب المكى عن حُميد بن قيس الأعرج عن طاوس قال : جاء رجل إلى عبدالله بن عمرو بن العاص فسأله : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمـة والريح والتراب . قال الرجل : فمِمّ خُلق هـؤلاء ؟ قال : لا أدرى . قال : ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله ؛ فقال مثـل قول عبدالله بن عمرو . قال : فأتى الرجل عبد الله بن عباس فسأله ؛ فقال : مِمّ خلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمة والريح والتراب . قال الرجل : فمِمّ خلق هؤلاء ؟ فتلا عبد الله بن عباس : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » فقال الرجل : ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهـل بيت النبىّ صلى الله عليه وسلم . قال البيهقى : أراد أن مصدر الجميع منه ؛ أى من خلقه وإبداعه واختراعه . خلق المـاء أوّلا ، أو المـاء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ولا على مثال سبق ، ثم جعله أصلا لمـا خلق بعدُ؛ فهو المبدع وهو البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه، سبحانه جلّ وعزّ .

الثامنـــة – قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ ذكر تعالى أن السموات سـبع ، ولم يأت للأرض فى التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى : « وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » وقد اختلف فيه ؛ فقيل : ومن الأرض مثلهنّ أى فى العدد، لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار ؛ فتعيّن العدد . وقيـل : ومن الأرض مثلهنّ أى فى غلظهن

وما بينهن . وقيل : هى سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض؛ قاله الداودىّ . والصحيح الأول ، وأنها سبع كالسموات سبع . روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " من أخذ شبرا من الأرض ظلما طُوِّقه إلى سبع أرضين" . وعن عائشة رضى الله عنها مثله ، إلا أن فيه « من » بدل « إلى » . ومن حديث أبى هريرة : " لا يأخذ أحد شبرا من الأرض بغير حقه إلا طَوّقه الله إلى سبع أرضين [يوم القيامة] (١) " . وروى النّسائى عن أبى سعيد الخدرىّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : " قال موسى عليه السلام ياربّ علّمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به قال ياموسى قل لا إله إلا الله قال موسى يارب كل عبادك يقول هذا قال قل لا إله إلا الله قال لا إله إلا أنت إنما أريد شيئا تخصّنى به قال يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع فى كَفّة ولا إله إلا الله فى كَفّة مالت بهنّ لا إله إلا الله " . وروى الترمذىّ عن أبى هريرة قال : بينما نبىّ الله صلّى الله عليه وسلّم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب ؛ فقال نبىّ الله صلّى الله عليه وسلّم : " هل تدرون ما هذا " فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " هذا العنان هذه روايا الأرض يسوقه الله الى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه — قال — هل تدرون ما فوقكم " قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : " فإنها الرَّقيع (٢) سقف محفوظ وموج مكفوف — ثم قال — هل تدرون كم بينكم و بينها " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " بينكم و بينها [مسيرة] (٣) خمسمائة عام — ثم قال : — هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : " [فان فوق (٣) ذلك] سماءين بُعْد ما بينهما [مسيرة (٣)] خمسمائة سنة" ثم قال كذلك حتى عدّد سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض . ثم قال : "هل تدرون ما فوق ذلك" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال " فإن فوق ذلك العرش و بينه و بين السماء بُعْد ما بين السماءين — ثم قال : — هل تدرون ما الذى تحتكم" قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : " فإنها الأرض — ثم قال : — هل تدرون ما تحت ذلك" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإن تحتها الأرض الأخرى

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) الرقيع : اسم سماء الدنيا . (٣) زيادة عن صحيح الترمذى .

بينهما مسيرة خمسمائة سنة " حتى عدّد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سـنة ؛ ثم قال : " والذى نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل الى الأرض السفلى لهبط على الله — ثم قرأ — هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " . قال أبو عيسى : قراءة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الآية تدل على أنه أراد لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه ، [علم الله وقدرته وسلطانه][1] فى كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفسـه فى كتابه . قال : هـذا حديث غريب والحسن لم يسمع من أبى هريرة . والآثار بأن الأرضين سـبع كثيرة ؛ وفيما ذكرنا كفاية . وقـد روى أبو الضُّحَى — واسمه مسـلم — عن ابن عباس أنه قال : « اللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » قال : سـبع أرضين فى كل أرض نبىّ كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقى : إسناد هذا عن ابن عباس صحيح ، وهو شاذ بمرّة لا أعلم لأبى الضحا عليه دليلا[2] ، والله أعلم .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ابتداء وخبر . ما ، فى موضع نصب . ﴿ جَمِيعًا ﴾ عند سيبويه نصب على الحال . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى ﴾ أهل نجد يميلون ليدلوا على أنه من ذوات الياء ، وأهل الحجاز يفخمون . ﴿ سَبْعَ ﴾ منصوب على البـدل من الهاء والنون ، أى فسوّى سـبع سموات . ويجوز أن يكون مفعولا على تقدير يسوى بينهن سبع سموات ؛ كما قال الله جلّ وعزّ : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا » أى من قومه ؛ قاله النحاس . وقال الأخفش : انتصـب على الحـال . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ابتـداء وخبر . والأصل فى هو تحريك الهاء، والإسكان استخفاف .

والسماء تكون واحدة مؤنثة ؛ مثل عنان ، وتذكيرها شاذ ؛ وتكون جمعا لسماوة فى قول الأخفش، وسماءة فى قول الزجاج ؛ وجمع الجمع سماوات وسماءات . فجاء « سواهن » إما على أن السماء جمع وإما على أنها مفرد اسم جنس . ومعنى سـواهن سوّى سطوحهن بالإملاس . وقيل : جعلهن سواء .

---

(١) زيادة عن صحيح الترمذى . (٢) فى نسخة من الأصل : « متابعا » .

العــاشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى بما خلق ، وهو خالق كل شيء ، فوجب أن يكون عالمــا بكل شيء ؛ وقد قال : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلى واحد قائم بذاته ؛ ووافقنا المعتزلة على العالمية دون العلمية . وقالت الجَهْمية : عالم بعلم قائم لا فى محل ، تعــالى الله عن قول أهل الزيغ والضلالات ؛ والردّ على هؤلاء فى كتب الديانات . وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال : « أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ » ، وقال : « فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ، وقال : « فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ » ، وقال : « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ » ، وقال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » الآية . واستدل على ثبوت علمه وسائر صفاته فى هذه السورة عند قوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » إن شاء الله تعالى . وقرأ الكسائى وقالون عن نافــع بإسكان الهــاء من هو وهى ، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو ثم ؛ وكذلك فعل أبو عمرو إلا مع ثم . وزاد أبو عون عن الحُلْوانىّ عن قالون إسكان الهاء من « أَنْ يُمِلَّ هُوَ » ، والباقون بالتحريك .

قوله تعــالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فيه سبع عشرة مســـألة :

الأولى ــ قوله تعــالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ إذ وإذا حرفا توقيت ؛ فإذ للمــاضى ، وإذا للمستقبل ؛ وقد توضع إحداهما موضــع الأخرى . وقال المبرد : إذا جاء « إذ » مع مستقبل كان معناه ماضيا ؛ نحو قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ » « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » معناه إذ مكروا ، وإذ قلت . وإذا جاء « إذا » مع المــاضى كان معناه مستقبلا ؛ كقوله تعــالى : « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ » « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ » و « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ »

أى يجئ . وقال مَعمَر بن المُثنّى أبو عبيدة : إذ زائدة والتقدير : وقال ربك ؛ واستشهد بقوله الأسود بن يَعْفُر :

فإذ (١) وذلك لا مَهــاةَ لذِكــرِه * والدهر يُعقِب صالحا بفسادِ

وأنكر هذا القول الزجاج والنحاس وجميع المفسرين . قال النحاس : وهــذا خطأ ؛ لأن إذ اسم وهى ظرف زمان ليس مما تزاد . وقال الزجاج : هــذا اجترام من أبى عبيدة . ذكر الله عزّ وجلّ خلق النــاس وغيرهم ؛ فالتقدير وابتداء خلقكم إذ قال ؛ فكان هــذا من المحذوف الذى دل عليه الكلام ؛ كما قال :

فإن المنيّــة من يخشها * فسوف تصادفه أينما

يريد أينمــا ذهب . ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدّر تقديره وآذكر إذ قال . وقيــل : هو مردود الى قوله تعالى : « ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ » فالمعنى الذى خلقكم إذ قال ربك للملائكة . وقول الله تعــالى وخطابه للملائكة متقرّر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم . وهكذا الباب كله فى أوامر الله تعــالى ونواهيه ومخاطباته؛ وهــذا مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، وهو الذى ارتضاه أبو المعالى . وقد أتينا عليه فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى .

والربّ : المــالك والسيد والمصلح والجابر؛ وقد تقدّم بيانه (٢) .

الثانيــــة ـــ قوله تعالى : ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ الملائكة واحدها ملك . قال ابن كيسان وغيره : وزن مَلَك فَعَــل من الملك . وقال أبو عبيــدة : هو مفعل من لأَكَ إذا أرســل . والألُوكة والمَــألَكة والمَــألُكة : الرسالة ؛ قال لبيد :

وغلام أرســلتْهُ أمُّه * بألُوكٍ فبذلنا ما سألْ

وقال آخر (٣) :

أبلــغ النعمانَ عنى مألُكا * إنه قد طال حَبْسى وانتظارِى

(١) يلاحظ أن رواية البيت : «فاذا» ولا يستقيم الوزن إلا به . (٢) راجع المسألة الثامنة وما بعدها ص ١٣٦ من هذا الجزء. (٣) هو عدى بن زيد؛ كما فى اللسان مادة (ألك) .

ويقال : أَلِكْنِي أى أرسلني ؛ فأصله على هـذا مَألَك، الهمزة فاء الفعل فإنهم قلبوها إلى عينه فقالوا : مَلأَك؛ ثم سهلوه فقالوا مَلَك . وقيل : أصله مَلْأَك من مَلَك يملِك ، نحو شمأل من شَمَل ؛ فالهمزة زائدة عن ابن كيسان أيضا ؛ وقد تأتى فى الشـعر على الأصل ؛ قال الشاعر :

فلستَ لإنسيٍّ ولكن لمَـــلأَكٍ * تنزّلَ من جوّ السماء يَصوبُ

وقال النّضر بن شُمَيل : لا آشتقاق للملك عند العرب . والهاء فى الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع؛ ومثله الصَّلادمة . والصَّلادم : الخيل الشداد، واحدها صِلْدِم . وقيل : هى للمبالغة، كعلامة ونسّابة . وقال أرباب المعانى : خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبـادة والتسبيح والتقديس ، ثم ردّهم إلى قيمتهـم ؛ فقال عزّ وجلّ : « آسْجُدُوا لِآدَمَ » .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ جاعل هنا بمعنى خالق ، ذكره الطبرى عن أبى رَوْق، ويقضى بذلك تعدّيها إلى مفعول واحد وقد تقدّم . والأرض قيل إنها مكة . روى ابن سابط عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " دُحِيت الأرض من مكة " ولذلك سميت أمّ القرى ؛ قال : وقبر نوح وهود وصـالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام . و « خليفة » يكون بمعنى فاعل ، أى يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض ، أو من كان قبـله من غير الملائكة على ما رُوى . ويجوز أن يكون خليفة بمعنى مفعول أى مُخْلَف ، كما يقال : ذبيحة بمعنى مفعولة . والخَلَف بالتحريك من الصالحين ، و بتسكينها من الطالحين ؛ هذا هو المعروف، وسيأتى له مزيد بيان فى «الأعراف» إن شاء الله . وخليفة بالفاء قراءة الجمـاعة ، إلا ما رُوى عن زيد بن علىّ فإنه قرأ خليقة بالقاف . والمعنّى بالخليفة هنا ، فى قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل ، آدم عليه السلام، وهو خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره لأنه أوّل رسول إلى الأرض؛ كما فى حديث أبى ذرّ قال قلت : يارسول الله أنبياً كان مرسلا ؟ قال : " نعم " الحديث . ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن

فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولا إلى ولده، وكانوا أربعين ولدا فى عشرين بطنا فى كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا، كما قال الله تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً » . وأنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير . وعاش تسعمائة وثلاثين سنة ؛ هكذا ذكر أهل التوراة ، وروى عن وهب بن منبه أنه عاش ألف سنة ، والله أعلم .

الرابعـــة — هذه الآية أصـــل فى نَصْب إمام وخليفة يسـمع له ويطاع ، لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ به أحكام الخليفة . ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما روى عن الأصم(١) حيث كان عن الشريعة أصم ، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه ، قال : إنها غير واجبة فى الدين بل يسوغ ذلك ، وإن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم ، وتناصفوا فيما بينهم ، وبذلوا الحق من أنفسهم ، وقسموا الغنائم والفيء والصدقات على أهلها ، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه ، أجزأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماما يتولى ذلك . ودليلنا قول الله تعالى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » ، وقوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ » ، وقال : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآى .

وأجمعت الصحابة على تقديم الصدّيق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى التعيين، حتى قالت الأنصـار : منّا أمير ومنكم أمير ؛ فدفعهـم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك ، وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحىّ من قريش ، ورووا لهم الخبر فى ذلك ، فرجعوا وأطـاعوا لقريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا فى قريش ولا فى غيرهم لمـا ساغت هـذه المناظرة والمحاورة عليها، ولقال قائل : إنهـا ليست بواجبة لا فى قريش ولا فى غيرهم، فما لتنازعكم وجه ولا فائدة فى أمر ليس بواجب . ثم إن الصديق رضى الله عنه لمـا حضرته الوفاة عهـد الى عمر فى الإمامة ، ولم يقل له أحد هـذا أمر غير

(١) الأصم : من كبار المعتزلة واسمه أبو بكر .

واجب علينا ولا عليك ؛ فدل على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذى به قوام المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلا ، وإن السمع إنمـا ورد على جهة التأكيد لقضيـة العقل ؛ فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرك من جهة السمع دون العقل . وهـذا فاسد ، لأن العقل لا يوجب ولا يُحظر ولا يُقبِّح ولا يُحسّن ؛ وإذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل ، وهذا واضح .

فإن قيل وهى :

الخامســـة — إذا سلم أن طريق وجوب الإمامة السمع ، فخبرونا هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، أم من جهة اختيار أهل الحل والعقد له ، أم بكمال خصال الأئمة فيه ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كاف فيه ؟ .

فالجواب أن يقال : اختلف الناس فى هذا الباب ، فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذى يعرف به الإمام هو النّص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للاختيار فيه . وعندنا : النظر طريق إلى معرفة الإمام ، وإجماع أهل الاجتهاد طريق أيضا إليه ؛ وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النّص بنوه على أصلهم أن القياس والرأى والاجتهاد باطل لا يعرف به شىء أصلا ، وأبطلوا القياس أصلا وفرعا . ثم اختلفوا على ثلاث فرق : فرقة تدّعى النّص على أبى بكر ، وفرقة تدّعى النّص على العباس ، وفرقة تدّعى النّص على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم . والدليل على فقد النّص وعدمه على إمام بعينه هو أنه صلّى الله عليه وسلّم لو فرض على الأمة طاعة إمام بعينه بحيث لايجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله فى غير معين ؛ ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف ؛ وإذا وجب العلم به لم يخل ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلة العقول أو الخبر ، وليس فى العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معين ، وكذلك ليس فى الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معين ؛ لأن ذلك الخبر إما أن يكون تواترا أوجب العلم ضرورة أو استدلالا ، أو يكون من أخبـار الآحاد ؛ ولا يجوز أن يكون

طريقه التواتر الموجب للعـلم ضرورة أو دلالة ، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلّف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذلك المعين وأن ذلك من دين الله عليــه ، كما أن كل مكلّف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات ، وصوم رمضان ، وحج البيت ونحوها ؛ ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة ، فبطلت هــذه الدعوى ، وبطل أن يكون معلوما بأخبار الآحاد لاستحالة وقوع العلم به . وأيضا فإنه لو وجب المصير إلى نقل النص على الإمام بأيّ وجه كان وجب إثبات إمامة أبى بكر والعباس ؛ لأن لكل واحد منهما قوما ينقلون النّص صريحا فى إمامته ؛ وإذا بطل إثبـات الثلاثة بالنّص فى وقت واحد — على ما يأتى بيانه — كذلك الواحد ، إذ ليس أحد الفِرق أولى بالنّص من الآخر . وإذا بطل ثبوت النّص لعدم الطريق الموصل إليه ثبت الاختيار والاجتهاد . فإن تَعسَّف مُتعسِّف وادعى التّواتر والعـلم الضرورى بالنّص فينبغى أن يقابلوا على الفور بنقيض دعواهم فى النّص على أبى بكر وبأخبـار فى ذلك كثيرة تقوم أيضا فى جملتها مقام النص ؛ ثم لا شك فى تصميم من عدا الإمامية على نفى النص ؛ وهم الخلق الكثير والجم الغفير . والعلم الضرورى لا يجتمع على نفيه من ينحط عن معشار أعداد مخالفى الإماميــة ؛ ولو جاز ردّ الضرورى فى ذلك لجاز أن ينكر طائفة ببغـداد والصين الأقصى وغيرهما .

السادســـة — فى ردّ الأحاديث التى احتج بها الإمامية فى النّص على علىّ رضى الله عنه ، وأن الأمة كفرت بهذا النّص وارتدت ، وخالفت أمر الرسول عنادا ؛ منها قوله عليه السلام : " من كنت مولاه فعلىّ مولاه اللّهمّ وَالِ من والاه وعاد من عاداه " . قالوا : والمَوْلى فى اللغة بمعنى أولى ؛ فلما قال : " فعلىّ مولاه " بفاء التعقيب عُلِم أن المراد بقوله « مولى » أنه أحق وأولى . فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنه مفترض الطاعة ؛ وقوله عليه السلام لعلىّ : " أنت مِنّى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى " . قالوا : ومنزلة هارون معروفة ، وهو أنه كان مشاركا له فى النبوة ولم يكن ذلك لعلىّ ، وكان أخًا له ولم يكن ذلك لعلىّ ، وكان خليفة ؛ فعُلِم أن المراد به الخلافة ، إلى غير ذلك مما احتجوا به على ما يأتى ذكره فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

والجواب عن الحديث الأول أنه ليس بمتواتر ؛ وقد اختلف فى صحته ، وقــد طعن فيه أبو داود السّجستانى وأبو حاتم الرازىّ ، واستدلا على بطلانه بأن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "مُزَيْنَةُ وجُهَيْنةُ وغِفَارُ وأَسْلَمُ موالىَّ دون الناس كلهم ليس لهم مولًى دون الله ورسوله" . قالوا : فلو كان قد قال : "من كنت مولاه فعلىّ مولاه" لكان أحد الخبرين كذبا .

جواب ثان — وهو أن الخبر و إن كان صحيحا رواه ثقة عن ثقة فليس فيــه ما يدل على إمامته ، و إنما يدل على فضيلته ، وذلك أن المولى بمعنى الولىّ ، فيكون معنى الخبر : من كنت وليّه فعلىّ وليّه ؛ قال الله تعالى : « فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ » أى وليّه . وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر علىّ كباطنه ، وذلك فضيلة عظيمة لعلىّ .

جواب ثالث — وهو أن هــذا الخبر ورد على سبب ، وذلك أن أسامة وعليًّا آختصما ، فقال علىّ لأسامة : أنت مولاى . فقال : لست مولاك ، بل أنا مولى رســول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فذكر للنبىّ صلى الله عليه وسلّم ، فقال : "من كنت مولاه فعلىّ مولاه".

جواب رابع — وهو أن عليًّا عليه السلام لمــا قال للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى قصة الإفك فى عائشة رضى الله عنها : النساء ســواها كثير . شق ذلك عليها ، فوجد أهل النفاق مجالا فطعنوا عليه وأظهروا البراءة منه ؛ فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم هذا المقال ردّا لقولهم ، وتكذيبا لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والطعن فيه ؛ ولهذا ما روى عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلّى الله عليه وســلّم إلا ببغضهم لعلىّ عليه السلام . وأما الحديث الثانى فلا خلاف أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم لم يُرِد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده ، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام — على ما يأتى من بيان وفاتيهما فى سورة « المــائدة » — وما كان خليفة بعده و إنمــا كان خليفة يوشع بن نون ؛ فلو أراد بقوله : "أنت منّى بمنزلة هارون من موسى" الخلافة لقال : أنت منى بمنزلة يوشع من موسى ، فلما لم يقل هــذا دل على أنه لم يرد هذا ، و إنمــا أراد أنى استخلفتك على أهلى فى حياتى وغيبوبتى عن أهلى ، كما كان هارون خليفة موسى على قومه لمــا خرج الى مناجاة

ربّه . وقد قيل إن هــذا الحديث خرج على سبب، وهو أن النبيّ صــلّى الله عليه وسلّم لمــا خرج إلى غزوة تبُوك استخلف عليًّا عليه السلام فى المدينة على أهــله وقومه؛ فأرجف أهل النفاق وقالوا : إنما خلفه بُغضًا وقِلًى له، فخرج علىّ فلحق بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقال له : إن المنافقين قالوا كذا وكذا . فقال : "كذبوا بل خلفتك كما خلف موسى هارون" . وقال : "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى". وإذا ثبت أنه أراد الاستخلاف على زعمهم فقد شارك عليًّا فى هــذه الفضيلة غيره ؛ لأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم استخلف فى كل غزاة غزاها رجلا من أصحــابه ، منهم : ابن أم مكتوم، ومحمــد بن مسلمة وغيرهما من أصحابه ؛ على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبى وقّاص وهو خبرُ واحدٍ . وروى فى مقابلته لأبى بكر وعمر ما هو أولى منه . وروى أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمــا أنفذ معاذ بن جبل الى اليمن قيل له : ألا تنفذ أبا بكر وعمر، فقال : "إنهما لا غنى بى عنهما إن منزلتهما من الرأس بمنزلة السمع والبصر" . وقال : "هما وزيراى فى أهل الأرض" . وروى عنه عليه السلام أنه قال : "أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى". وهذا الخبر ورد ابتداء، وخبر علىّ ورد على سبب، فوجب أن يكون أبو بكر أولى منه بالإمامة، والله أعلم .

السابعــة — واختلف فيما يكون به الإمام إماما وذلك ثلاث طرق؛ أحدها : النّص، وقد تقدّم الخلاف فيه، وقال به أيضا الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصرى وبكر ابن أخت عبد الواحد وأصحابه وطائفة من الخوارج. وذلك أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم نصّ على أبى بكر بالإشارة؛ وأبو بكر على عمــر . فإذا نصّ المستخلف على واحد معيّن كما فعل الصدّيق، أو على جماعة كما فعل عمر،وهو الطريق الثانى؛ ويكون التخيير اليهم فى تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضى الله عنهم . الطريق الثالث : إجماع أهل الحلّ والعقــد؛ وذلك أن الجماعة فى مصر من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمام ولا استخلف فأقام أهل ذلك المصر الذى هو حضرة الإمام وموضعه إمامًا لأنفسهم اجتمعوا عليــه ورضوه فإن كل مَن خلفهم وأمامهم من المسلمين فى الآفاق يلزمهم الدخول فى طاعة ذلك الإمام؛ إذا لم

يكن الإمام معلنا بالفسق والفساد؛لأنها دعوة محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحدا التخلف عنها لمـا فى إقامة إمامين من اختلاف الكلمة وفساد ذات البين ؛ قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلّم : " ثلاث لا يُغِل عليهن قلبُ مؤمنٍ إخلاصُ العمل لله ولزومُ الجماعة ومناصحةُ ولاة الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة " .

الثامنـــة — فإنْ عَقَدها واحد من أهل الحلّ والعقـد فذلك ثابت و يلزم الغير فعـله ، خلافا لبعض الناس حيث قال : لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحلّ والعقد . ودليلنا أن عمر رضى الله عنه عقد البيعة لأبى بكر ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك ؛ولأنه عَقْدٌ فوجب ألا يفتقر إلى عدد يعقدونه كسائر العقود . قال الإمام أبو المعالى : من انعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت ، ولا يجوز خلعه من غير حَدَث وتغيّر أمر ؛ قال : وهذا مجمع عليه .

التاســـعة — فإن تغلّب من له أهلية الإمامة وأخذها بالقهر والغَلَبة فقد قيـل إن ذلك يكون طريقا رابعا ، وقد سئل سهل بن عبد الله التُّسْتَرى : ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام؟ قال : تجيبه وتؤدّى اليه ما يطالبك من حقه ، ولا تنكر فعاله ولا تفرّ منـه ، و إذا ائتمنـك على سرّ من أمر الدين لم تفشه . وقال ابن خُوَيْزِمَنْـدَادُ : ولو وثب على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار و بايع له الناس تمّت له البيعة ، والله أعلم .

العـاشرة — واختلف فى الشهادة على عقد الإمامة ؛ فقال بعض أصحابنا : إنه لا يفتقر إلى الشهود لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع ، وليس ها هنا سمع قاطع يدل على إثبات الشهادة . ومنهم من قال : يفتقر إلى شهود ؛ فمن قال بهـذا احتج بأن قال : لو لم تعقد فيه الشهادة أدّى الى أن يدّعى كل مدّع أنه عقد له سرا ، ويؤدّى الى الهَرْج والفتنة ، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة و يكفى فيها شاهدان ، خلافا للجُبّائى حيث قال باعتبار أربعة شهود وعاقد ومعقود له ؛ لأن عمر حيث جعلها شورى فى ستّة[1] دل على ذلك . ودليلنا أنه لا خلاف بيننا

(١) الستة هم الذين نصح عمر — رضى الله عنه — للسلمين أن يختاروا واحدا منهم لولاية الأمر بعده حين طلب اليه أن يعهد عهدا . وهم : علىّ وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله . راجع قصة الشورى فى تاريخ ابن الأثير (ج ٣ ص ٥٠) طبع أوربا .

وبينه أن شهادة الاثنين معتبرة ، وما زاد مختلف فيه ولم يدل عليه الدليل فيجب ألا يعتبر .

الحادية عشرة — فى شرائط الإمام وهى أحد عشر :

الأول — أن يكون من صميم قريش؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "الأئمة من قريش". وقد اختلف فى هذا .

الثانى — أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضيا من قضاة المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره فى الاستفتاء فى الحوادث، وهذا متفق عليه .

الثالث — أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسدّ الثغور وحماية البيضة(١) وردع الأمة والانتقام من الظالم والأخذ للظلوم .

الرابع — أن يكون ممن لا تلحقه رِقّة فى إقامة الحدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار . والدليل على هذا كله إجماع الصحابة رضى الله عنهم ؛ لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بدّ من أن يكون ذلك كله مجتمع فيه ، ولأنه هو الذى يولّى القضاة والحكام ، وله أن يباشر الفصل والحكم ، ويتفحص أمور خلفائه وقضاته ؛ ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالما بذلك كله قيّما به . والله أعلم .

الخامس — أن يكون حرا؛ ولا خفاء باشتراط حرية الإمام وإسلامه وهو السادس .

السابع — أن يكون ذكرا، سليم الأعضاء وهو الثامن . وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما وإن اختلفوا فى جواز كونها قاضية فيما يجوز شهادتها فيه .

التاسع والعاشر — أن يكون بالغا عاقلا؛ ولا خلاف فى ذلك .

الحادى عشر — أن يكون عدلا ؛ لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تعقد الإمامة لفاسق؛ ويجب أن يكون من أفضلهم فى العلم؛ لقوله عليه السلام : " أئمتكم شفعاؤكم فانظروا

(١) بيضة الإسلام : جماعتهم .

بمن تستشفعون ". وفى التنزيل فى وصف طالوت : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ » فبدأ بالعلم ثم ذكر ما يدل على القوة وسلامة الأعضاء. وقوله : « ٱصطفاه » معناه اختاره، وهذا يدل على شرط النسب. وليس من شرطه أن يكون معصوما من الزلل والخطأ، ولا عالما بالغيب، ولا أفرس الأمة ولا أشجعهم، ولا أن يكون من بنى هاشم فقط دون غيرهم من قريش؛ فإن الإجماع قد انعقد على إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وليسوا من بنى هاشم.

الثانية عشرة — يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة ؛ وذلك أن الإمام إنما نُصب لدفع العدو وحماية البيضة وسدّ الخلل واستخراج الحقوق و إقامة الحدود وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها. فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدول عن الفاضل إلى المفضول؛ ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأمة وقت الشورى بأن الستة فيهم فاضل ومفضول، وقد أجاز العقد لكل واحد منهم اذا أدّى المصلحة الى ذلك واجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم ؛ والله أعلم.

الثالثة عشرة — الإمام اذا نُصب ثم فَسَق بعد انبرام العقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويخلع بالفسق الظاهر المعلوم؛ لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر فى أمورهم إلى غير ذلك مما تقدّم ذكره؛ وما فيه من الفسق يقعده عن القيام بهذه الأمور والنهوض فيها. فلو جوّزنا أن يكون فاسقا أدّى إلى إبطال ما أقيم لأجله ، ألا ترى فى الابتداء إنما لم يجز أن يعقد للفاسق لأجل أنه يؤدى الى إبطال ما أقيم له ، وكذلك هذا مثله. وقال آخرون : لا يخلع إلا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك الى دعائها أو شيء من الشريعة ؛ لقوله عليه السلام فى حديث عُبَادة : " وألا نُنَازِع الأمر أهله [قال[1]] إلا أن تَرَوْا كُفراً بَوَاحًا عندكم من الله فيه برهان ".

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم (ج ٦ ص ١٧) طبع الآستانة. وبواحا ، أى جهارا ، من باح بالشيء يبوح به اذا أعلنه.

وفى حديث عوف بن مالك : "لا ما أقاموا فيكم الصلاة" الحديث . أخرجهما مسلم . وعن أم سلمة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "إنه يُستعمَل عليكم أُمراءُ فتَعرِفون وتُنكِرون فمن كَرِه فقد بَرِئ ومن أنكر فقد سلِم ولكن مَن رَضِيَ وتابع — قالوا : يا رسول الله ألاَ نقاتلهم ؟ قال : — لا ما صَلَّوْا" . أى من كره بقلبه وأنكر بقلبه . أخرجه أيضا مسلم .

الرابعة عشرة — ويجب عليــه أن يخلع نفسه إذا وجد فى نفسه نقصا يؤثر فى الإمامة . فأما اذا لم يجــد نقصا فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره ؟ اختلف الناس فيه ؛ فمنهــم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وإن فعل لم تنخلع إمامته . ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك . والدليل على أن الإمام اذا عزل نفسه انعزل قول أبى بكر الصــدّيق رضى الله عنه : أقيلونى أقيلونى . وقول الصحابة : لا نقيلك ولا نستقيلك، قدّمك رســول الله صلّى الله عليه وســلم لديننا فمن ذا يؤخرك ! رَضِيك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لديننا فلا نرضاك ! فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه ولقالت له : ليس لك أن تقول هذا ، وليس لك أن تفعله . فلمــا أقرته الصحابة على ذلك علم أن للإمام أن يفعل ذلك ، ولأن الإمام ناظر للغيب(1) فيجب أن يكون حكمه حكم الحاكم . والوكيل اذا عزل نفسه فإن الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ، ولمــا اتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من ناب عن غيره فى شيء له أن يعزل نفسه ، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله . والله أعلم .

الخامسة عشرة — إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحلّ والعقد أو بواحد على ما تقدّم وجب على الناس كافة مبايعته على السمع والطاعة ، وإقامة كتاب الله وسنة رســوله صلّى الله عليه وسلم . ومن تأبّى عن البيعة لعــذر عُذِر ، ومن تأبّى لغير عذر جُبِر وقُهِر لئلا تفترق كلمة المسلمين . وإذا بويع لخليفتين فالخليفة الأول وقُتِل الآخر؛ واختلف فى قتله هل هو محسوس أو معنًى فيكون عزله قتــله وموته . والأول أظهر ؛ قال رســول الله صلّى الله عليه وســلّم : "إذا بويع لخليفتيــن فاقتلوا الآخر منهما" . رواه أبو ســعيد الخدرىّ أخرجه مســلم .

(1) فى بعض الأصول : «للغير» .

وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه سمعه يقول : "ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر" . رواه مسلم أيضا ؛ ومن حديث عَرْفَجَة : " فاضربوه بالسيف كائنا من كان " . وهذا أدل دليل على منع إقامة إمامين ؛ ولأن ذلك يؤدى إلى النفاق والمخالفة والشقاق وحدوث الفتن وزوال النعم؛ لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السادسة عشرة — لو خرج خارجىّ على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده؛ فإن كان الإمام فاسقا والخارجىّ مظهر للعدل لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجىّ حتى يتبيّن أمره فيما يظهرا من العدل، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأول ، وذلك أن كل من طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى اذا تمكن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر .

السابعة عشرة — فأما إقامة إمامين أو ثلاثة فى عصر واحد و بلد واحد فلا يجوز إجماعا لما ذكرنا . قال الإمام أبو المعالى : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين فى طرق العالَم ؛ ثم قالوا : لو اتفق عقد الإمامة لشخصين نُزِّل ذلك منزلة تزويج وليّين امرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما بعقد الآخر . قال : والذى عندى فيه أن عقد الإمامة لشخصين فى صُقع واحد متضايق الخطط والمخاليف(١) غير جائز وقد حصل الإجماع عليه . فأما إذا بَعُد المَدَى وتخلّل بين الإمامين شسوع النّوى فللاحتمال فى ذلك مجال وهو خارج عن القواطع . وكان الأستاذ أبو إسحاق يجوّز ذلك فى إقليمين متباعدين غاية التباعد لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم . وذهبت الكَرّامية إلى جواز نصب إمامين من غير تفصيل ؛ ويلزمهم إجازة ذلك فى بلد واحد ، وصاروا إلى أن عليًّا ومعاوية كانا إمامين . قالوا : وإذا كانا اثنين فى بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط لما يليه، ولأنه

(١) المخاليف : الأطراف والنواحى .

لما جاز بعثة نبيين فى عصر واحد ولم يؤدّ ذلك إلى إبطال النبوّة كانت الإمامة أولى، ولا يؤدّى ذلك إلى إبطال الإمامة . والجواب أن ذلك جائز لولا منع الشرع منـه ، لقوله : " فاقتلوا الآخر منهما " ولأن الأمة عليه . وأما معاوية فلم يدّع الإمامة لنفسه و إنما ادّعى ولاية الشام بتولية من قبله من الأئمة . ومما يدل على هذا إجماع الأمة فى عصرهما على أن الإمام أحدهما، ولا قال أحدهمـا إنى إمام ومخالفى إمام . فإن قالوا : العقل لا يحيل ذلك وليس فى السمع ما يمنع منه . قلنا : أقوى السمع الإجماع، وقد وجد على المنع .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوٓا أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ﴾ قد علمنا قطعا أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت ولا تَسبِق بالقول، وذلك عام فى جميع الملائكة؛ لأن قوله : « لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ » خرج على جهة المدح لهم، فكيف قالوا : « أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا » فقيل : المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد ، لكن عمموا الحكم على الجميع بالمعصية ؛ فبيّن الربّ تعـالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييبا لقلوبهم : « إِنِّىٓ أَعۡلَمُ » وحقق ذلك بأن علّم آدم الأسماء ، وكشف لهم عن مكنون علمه . وقيل : إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء؛ وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء؛ فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العزة؛ فجاء قولهم : « أَتَجۡعَلُ فِيهَا » على جهة الاستفهام المحض : هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجن أم لا ؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب . وقال ابن زيد وغيره : إن الله تعـالى أعلمهم أن الخليفة سـيكون من ذريته قوم يفسدون فى الأرض ويسـفكون الدماء ؛ فقالوا لذلك هذه المقالة، إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه أو من عصيان الله من يستخلفه فى أرضه وينعم عليه بذلك ، و إما على طريق الاسـتعظام والإكبار للفصلين جميعا : الاستخلاف والعصيان . وقال قتادة : كان الله أعلمهم أنه إذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال : « إِنِّى جَاعِلٞ فِى ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ » أهو الذى أعلمهم أم غيره .

وهذا قول حسن، رواه عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن قتادة في قوله : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » قال : كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فلذلك قالوا : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » وفي الكلام حذف على مذهبه . والمعنى إني جاعل في الأرض خليفة يفعل كذا ويفعل كذا ، فقالوا : أتجعل فيها الذي أعلمتناه أم غيره ؟ والقول الأول أيضا حسن جدا ، لأن فيه استخراج العلم واستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء ، وما بين القولين حسن فتأمله . وقد قيل : إن سؤاله تعالى للملائكة بقوله : "كيف تركتم عبادي" على ما ثبت في صحيح مسلم وغيره إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال : أتجعل فيها ، وإظهار لما سبق في معلومه إذ قال لهم : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قوله : ﴿ مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ من ، في موضع نصب على المفعول بتجعل والمفعول الثاني يقوم مقامه فيها . يفسد على اللفظ ، ويجوز في غير القرآن يفسدون على المعنى ؛ وفي التنزيل : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ ، « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ » على المعنى . « وَيَسْفِكُ » عطف عليه ، ويجوز فيه الوجهان . وروى أسيد عن الأعرج أنه قرأ : « ويسفِكَ الدماء » بالنصب، يجعله جواب الاستفهام بالواو ، كما قال[1] :

ألم أكُ جارَكم وتكونَ بيني * وبينكمُ المــودّةُ والإخاءُ

والسَّفْك : الصّب . سفكت الدم أسفِكه سَفْكًا : صببته ، وكذلك الدمع ، حكاه ابن فارس والجوهري . والسـفّاك : السفاح ، وهو القـادر على الكلام . قال المهـدوي : ولا يستعمل السفك إلا في الدم ، وقد يستعمل في نثر الكلام ؛ يقال : سَفَك الكلام إذا نثره . وواحد الدماء دم، محذوف اللام . وقيل : أصله دَمْيٌ . وقيـل : دَمَيٌ ، ولا يكون اسم على حرفين إلا وقـد حذف منـه ، والمحذوف منـه ياء وقد نطق به على الأصـل ؛ قال الشاعر :

فــلو أنا على حجــر ذُبِحنـا * جَرَى الدّميانِ بالخبر اليقينِ

(١) القائل هو الحطيئة .

قوله تعـالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أى ننزّهك عمـا لا يليق بصفاتك . والتسبيح فى كلامهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم ؛ ومنه قول أعشى بنى ثعلبة :

أقـول لمـا جاءنى فَخْـرُه * سبحانَ من عَلْقَمةَ الفاخِرِ

أى براءة من علقمـة . وروى طلحة بن عبيد الله قال : سألت رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم عن تفسـير سبحان الله فقال : "هو تنزيه الله عزّ وجلّ عن كل سـوء" . وهو مشتق من السّبح وهو الجرى والذهاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً » فالمسبح جارٍ فى تنزيه الله تعالى وتبرئتـه من السوء . وقـد تقدّم الكلام فى نحن (1) ، ولا يجوز ادغام النون فى النون لئلا يلتقى ساكنان .

مســألة : واختلف أهل التأويل فى تسبيح الملائكة ، فقال ابن مسعود وابن عباس : تسبيحهم صلاتهم؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » أى المصلين . وقيل : تسبيحهم رفع الصوت بالذكر، قاله المفضل، واستشهد بقول جرير :

قَبَّحَ الإلهُ وجوهَ تَغلِبَ كلما * سَبَحَ (2) الحجيجُ وكبّروا إهلالَا

وقال قتادة : تسبيحهم سبحان الله، على عُرفه فى اللغة، وهو الصحيح لمـا رواه أبو ذرّ أن رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم سئل : أىّ الكلام أفضل ؟ قال : "ما اصطفى الله لملائكته [أو لعباده (3)] سبحان الله وبحمده" . أخرجه مسـلم . وعن عبد الرحمن بن قُرْط أن رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم ليلة أُسرى به سمع تسبيحا فى السموات العلا : سبحانَ العلىّ الأعلى سبحانه وتعالى؛ ذكره البيهقى .

---

(1) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء . (2) فى ديوان جرير : « شبح » . وفسر الشبح بأنه رفع الأيدى بالدعاء . وعلى هـذا فيكون الاستشهاد بهـذا البيت فى غير محله . راجع اللسان مادة « شبح » وديوان جرير المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١ أدب ش . (3) زيادة عن صحيح مسلم (ج ٨ ص ٨٦ طبع الآسـتانة) .

قوله تعالى : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ أى وبحمدك نخلط التسبيح بالحمد ونصله به . والحمد : الثناء ، وقد تقدّم [1] . ويحتمل أن يكون قولهم : بحمدك ، اعتراضا بين الكلامين، كأنهم قالوا : ونحن نسبح ونقدّس، ثم اعترضوا على جهة التسليم ، أى وأنت المحمود فى الهداية إلى ذلك . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أى نعظمك ونمجدك ونطهر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون؛ قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما . وقال الضحاك وغيره : المعنى نطهّر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك . وقال قوم منهم قتادة : نقدّس لك معناه نصلى . والتقديس : الصلاة . قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل معناه صحيح ، فإن الصلاة تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده: "سُبُّوح قُدُّوس ربّ الملائكة والروح" . روته عائشة أخرجه مسلم . وبناء «قدس» كيفما تصرف فإن معناه التطهير، ومنه قوله تعالى : «ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ» أى المطهرة . وقال : «ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ» يعنى الطاهر، ومثله : « بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى » . وبيت المَقْدِس سمى به لأنه المكان الذى يتقدّس فيه من الذنوب أى يتطهر، ومنه قيل للسَّطْل: قَدَسٌ، لأنه يتوضأ فيه ويتطهر، ومنه القادوس. وفى الحديث: " لا قُدّست أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها " . يريد لا طهرها الله . أخرجه ابن ماجه فى سننه . فالقُدْس : الطهر من غير خلاف، وقال الشاعر [2] :

فأدْرَكْنه يأخُـذْنَ بالسّاق والنَّسا * كما شَبْرَقَ الولدانُ ثوبَ المُقَـدِّسِ

أى المطهِّر، فالصلاة طهرة للعبد من الذنوب ، والمصلى يدخلها على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال، والله أعلم .

---

(١) راجع المسئلة الرابعة ص١٣٢ من هذا الجزء .

(٢) هو امرؤ القيس . والهاء فى « أدركنه » ضمير الثور، والنون ضمير الكلاب . والنسا : عرق فى الفخذ . والشبرقة : تقطيع الثوب وغيره . والمقدّس (بكسر الدال وتشديدها) : الراهب . وبالفتح : المبارك . يقول : ادركت الكلاب الثور يأخذن بساقه ونخذه، وشبرقت جلده كما شبرق ولدان النصارى ثوب الراهب المسبح لله عز وجل اذا نزل من الصومعة فقطعوا ثيابه تبركا به . (عن شرح الديوان واللسان) .

قوله تعـالى : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أعلمُ فيه تأويلان؛ قيل : إنه فعل مستقبل. وقيل : إنه اسم بمعنى فاعل؛ كما يقال : الله أكبر ، بمعنى كبير ، وكما قال(١) :

لعمْرُكَ ما أدرى وإنّى لأوْجَلُ * على أيّنا تعدُو المنيّـــةُ أوّلُ

فعلى أنه فعل تكون ما فى موضع نصب بأعلم، ويجوز إدغام الميم فى الميم . وإن جعلته اسمـا بمعنى عالم تكون ما فى موضـع خفض بالإضافة . قال ابن عطيـة : ولا يصح فيـه الصرف بإجماع من النحاة ، وإنمـا الخلاف فى « أفعل » إذا سمى به وكان نكرة، فسيبويه والخليـل لا يصرفانه، والأخفش يصرفه . قال المهدوىّ : يجوز أن تقدّر التنوين فى «أعلم» إذا قدّرته بمعنى عالم ، وتنصب «ما» به فيكون مثل حَواجٌّ بيتَ الله . قال الجوهرى : ونسوةٌ حواجُّ بيتِ الله، بالإضافة إذا كُنّ قد حَجَجْن، وإن لم يكنّ حججن قلت : حواجٌّ بيتَ الله، فتنصب البيت لأنك تريد التنوينَ فى حواجٌّ .

قوله تعـالى : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ اختلف علمـاء التأويل فى المـراد بقوله تعـالى : « ما لا تعلمون » . فقـال ابن عباس : كان إبليس — لعنه الله — قد أعجب ودخله الكبر لمـا جعله خازن السماء وشرّفه، فاعتقد أن ذلك لمزية له؛ فاستخفّ الكفر والمعصية فى جانب آدم عليـه السلام . وقالت الملائكة : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » وهى لا تعـلم أن فى نفس إبليس خلاف ذلك؛ فقال الله تعالى لهم : « إنى أعلم ما لا تعلمون » . وقال قتادة : لمـا قالت الملائكة « أتجعل فيها » وقد علم الله أن فيمن يستخلف فى الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم « إنى أعلم ما لا تعلمون » .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى إنى أعلم ما لا تعلمون مما كان ومما يكون ومما هو كائن؛ فهو عام .

---

(١) القائل هو معن بن أوس . كان له صديق وكان معن متزوّجا بأخته ، فاتفق أنه طلقها وتزوج غيرها ، فآلى صديقه إلا يكلمه أبدا فأنشأ معن يستعطف قلبه عليه ويسترقه له . (عن أشعار الحماسة) .

قوله تعـالى : وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ علّم معناه عرّف . وتعليمه هنا إلهام علمه ضرورة . ويحتمل أن يكون بواسطة ملَك وهو جبريل عليه السلام على ما يأتى . وقرئ : «وعُلِّمَ» غير مسمّى الفاعل . والأول أظهر على ما يأتى . قال علماء الصوفية : علمها بتعلم الحق إياه وحفظها بحفظه عليه ونسى ما عهد إليه لأنه وكّله فيه إلى نفسه فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » . وقال ابن عطاء : لو لم يكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة فى الإخبار عنها . وهذا واضح .

وآدم عليه السلام يكنى أبا البشر . وقيل : أبا محمد، كنى بمحمد خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم ؛ قاله السهيلى . وقيل : كنيته فى الجنة أبو محمد ، وفى الأرض أبو البشر . وأصله بهمزتين لأنه أفعل إلا أنهم ليّنوا الثانية ، فإذا احتجت إلى تحريكها جعلتها واوا فقلت : أَوَادِم فى الجمع لأنه ليس لها أصل فى الياء معروف ، فجعلت الغالب عليها الواو؛ عن الأخفش .

واختلف فى اشتقاقه؛ فقيل : هو مشتق من أَدَمة الأرض وأديمها وهو وجهها؛ فسمى بما خلق منه؛ قاله ابن عباس . وقيل : إنه مشتق من الأُدْمة وهى السمرة . واختلفوا فى الأدمة ، فزعم الضحاك أنها السمرة ؛ وزعم النّضر أنها البياض ، وأن آدم عليه السلام كان أبيض ؛ مأخوذ من قولهم : ناقة أدماء ، اذا كانت بيضاء . وعلى هذا الاشتقاق جمعه أُدْم وأوادم ؛ كحمر وأحامر ، ولا ينصرف بوجه . وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون ، ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه .

قلت : الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال سعيد بن جُبير : إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وإنما سمى إنسانا لأنه نسِى . ذكره ابن سعد فى الطبقات . وروى

السُّـدّى عن ابى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مُرّة الهمدانى عن ابن مسـعود فى قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السـلام الى الأرض ليأتيه بطين منها ؛ فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص(١) منى أو تشيننى ؛ فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنهـا عاذت بك فأعذتهـا . فبعث مكائيل فعاذت منـه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ؛ فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفـذ أمره . فأخذ من وجه الأرض وخلط ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين — ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض — فصعد به ، فقال الله تعـالى له : " أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك " فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها . فقال : " أنت تصلح لقبض أرواح ولده " فبلّ التراب حتى عاد طينا لازبا ؛ اللازب : هو الذى يلتصق بعضه ببعض ثم ترك حتى أنتن ؛ فذلك حيث يقول : « مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » قال : منتن . ثم قال للملائكة : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » . فخلقه الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه . يقول : أتتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنـه ! فخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سـنة من مقـدار يوم الجمعة ، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لمـا رأوه وكان أشدّهم منه فزعا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوّت الفخار تكون له صلصلة ؛ فذلك حين يقول : «مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ» . ويقول: لأمرٍ مّا خلقت ! . ودخل من فمه وخرج من دبره ؛ فقال إبليس للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سلطت عليـه لأهلكنّه . ويقال : إنه كان إذا مرّ عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هـذا الذى لم تروا من الخلائق يشبهه إن فُضّل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ! قالوا : نطيع أمر ربنا ؛ فأسرّ إبليس فى نفسه لئن فضل علىّ فلا أطيعه ، ولئن فضّلت عليه لأهلكنّه ؛ فلما بلغ الحين الذى أريد أن ينفخ فيه الروح

(١) فى نسـخة : « أن تقبض منى أو تشيننى » . وفى تاريخ الطبرى (ص ٨٧ قسم أوّل طبـع أوربا) : « أن تنقص منى شيئا وتشيننى » .

قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ؛ فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس ؛ فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ؛ فقال : الحمد لله ، فقال الله له : رحمك ربك ؛ فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ » وذكر القصة . وروى الترمذىّ عن أبى موسى الأشعرى قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " إن الله عزّ وجلّ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحَزْن والخبيث والطيب " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . أَدِيم : جمع أَدَم ؛ قال الشاعر :

النـاسُ أخيافٌ[1] وشتّى فى الشِّيَمْ * وكلّهم يجمعهـم وَجه الأَدَمْ

فآدم مشتق من الأديم والأَدَم لا من الأُدْمة ، والله أعلم ؛ ويحتمل أن يكون منهما جميعا . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى خلق آدم فى « الأنعام » وغيرها إن شاء الله تعالى .

وآدم لاينصرف . قال أبو جعفر النحاس : «آدم لا ينصرف فى المعرفة بإجماع النحويين لأنه على أفعل وهو معرفة ، ولا يمتنع شىء من الصرف عند البصريين إلا لعلتين ، فان نكرته ولم يكن نعتا لم يصرفه الخليل وسيبويه ، وصرفه الأخفش سعيد ؛ لأنه كان نعتا وهو على وزن الفعل ، فاذا لم يكن نعتا صرفه ؛ قال أبو إسحاق الزجاج : القول قول سيبويه ولا يفرق بين النعت وغيره لأنه هو ذاك بعينه » .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ الأسماء هنا بمعنى العبارات ، فإن الاسم قد يطلق ويراد به المسمّى ؛ كقولك : زيد قائم ، والأسد شجاع . وقد يراد به التسمية ذاتها ؛ كقولك : أسد ثلاثة أحرف ؛ ففى الأول يقال : الاسم هو المسمّى بمعنى يراد به المسمّى ، وفى الثانى لا يراد به المسمّى ؛ وقد يجرى اسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من

(١) الأخياف : الضروب المختلفة فى الأخلاق والأشكال .

استعمالها؛ ومنه قوله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » على أشهر التأويلات؛ ومنه قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "إن لله تسعة وتسعين اسما". ويجرى مجرى الذات، يقال : ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ واسمٌ بمعنًى؛ وعلى هـذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى : « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » «تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ» «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا» .

الثالثـــة — واختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علمها لآدم عليه السلام؛ فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير : علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها . وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن علىّ قال : كنت جالسا عنـد ابن عباس فذكروا اسم الآنية واسم السوط؛ قال ابن عباس : وعلم آدم الأسماء كلها .

قلت : وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتى،وهو الذى يقتضيه لفظ « كلها» اذ هو اسمٌ موضوع للإحاطة والعموم؛ وفى البخارىّ من حديث أنس عن النبىّ صلّى الله عليه وسـلّم قال : "ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسمـاء كل شيء" الحديث . قال ابن خُوَيْزِ مَنْدادُ : فى هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفا، وأن الله تعالى علمها آدم عليه السلام جملة وتفصيلا . وكذلك قال ابن عباس : علّمه أسماء كل شىء حتى الجَفْنة والمِحْلب . وروى شيبان عن قتادة قال : علّم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يُعلّم الملائكة ، وسمى كل شيء باسمه وأنحى منفعة كل شيء الى جنسه . قال النحاس : وهذا أحسن ما روى فى هذا . والمعنى علّمه أسماء الأجناس وعرّفه منافعها ، هذا كذا وهو يصلح لكذا . وقال الطبرىّ : علمه أسماء الملائكة وذريته،واختار هذا ورجحه بقوله : «ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ» . وقال ابن زيد : علّمه أسمـاء ذريته كلهم . الربيع بن خُثيم : أسماء الملائكة خاصـة . القُتَبىّ : أسماء ما خلق فى الأرض . وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

قلت : القول الأول أصح؛ لمـا ذكرناه ولمـا بينته آنفا إن شاء الله تعالى .

الرابعـــة — واختلف المتأولون أيضا هـل عرض على الملائكة أشخاص الأسمـاء أو الأسماء دون الأشخاص؛ فقال ابن مسعود وغيره: عرض الأشخاص لقوله تعالى: «عَرَضَهُمْ» وقوله: «أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ». وتقول العرب: عَرَضْتُ الشيء فأَعْرَض، أى أظهرته فظهر؛ ومنه: عرضت الشيء للبيع. وفى الحديث: "إنه عرضهم أمثال الذرّ". وقال ابن عباس وغيره: عرض الأسماء. وفى حرف ابن مسعود: عرضهن؛ فأعاد على الأسماء دون الأشخاص، لأن الهاء والنون أخص بالمؤنث. وفى حرف أُبَىّ: عرضها. مجاهد: أصحاب الأسماء. فمن قال فى الأسمـاء إنها التسميات فاستقام على قراءة أُبىّ «عرضها». وتقول فى قراءة مَن قرأ «عرضهم»: إن لفظ الأسمـاء يدل على أشخاص؛ فلذلك ساغ أن يقال للأسماء: عرضهم. وقال فى «هؤلاء» المراد بالإشارة: الى أشخاص الأسماء، لكن وان كانت غائبة فقد حضر ما هو منها بسببٍ وذلك أسماؤها. قال ابن عطية: والذى يظهر أن الله تعالى علم آدم الأسمـاء وعرضهن عليـه مع تلك الأجناس بأشخاصها، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التى قد تعلمها، ثم إن آدم قال لهم: هذا اسمه كذا، وهـذا اسمه كذا. وقال المـاوردى: وكان الأصح توجّه العرض الى المسمَّين. ثم فى زمن عرضهـم قولان: أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم. الثانى — أنه صوّرهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم.

الخامســـة — واختلف فى أول من تكلم باللسان العربىّ؛ فروى عن كعب الأحبار: أن أوّل من وضـع الكتاب العربىّ والسريانىّ والكتب كلها وتكلم بالألسنة كلهـا آدم عليه السلام. وقاله غير كعب الأحبار.

فإن قيـل: قد روى عن كعب الأحبار من وجه حسن قال: أوّل من تكلم بالعربيـة جبريل عليه السلام وهو الذى ألقاها على لسان نوح عليه السلام وألقاها نوح على لســان ابنه سام، رواه ثور بن يزيد عن خالد بن معْدان عن كعب. ورُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "أوّل من فتق لسانه بالعربيـة المبينة إسماعيل وهو ابن عشر سنين". وقد رُوى أيضا: أن أوّل من تكلم بالعربية يَعْرُب بن قَحْطان، وقد رُوى غير ذلك. قلنا: الصحيح أن

أوّل من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام والقرآن يشهد له ؛ قال الله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » واللغات كلها أسماء فهى داخلة تحته و بهذا جاءت السنة ؛ قال صلّى الله عليه وسلم : " وعلم آدم الأسماء كلها حتى القَصْعة والقُصيعة " وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أوّل من تكلم بالعربية من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ عليه السلام ، وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أول من تكلم من قبيلته بالعربيــة بدليل ما ذكرنا، والله أعلم . وكذلك جبريل أوّل من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعد أن علمها الله آدم أو جبريل على ما تقدّم ، والله أعلم .

قـــوله : ﴿ هَٰؤُلَاءِ ﴾ لفظ مبنيّ على الكسر، ولغة تميم و بعض قيس وأَسَد فيه القصر؛ قال الأعشى :

هؤلا ثم هؤلا كُلًّا أعطيـ * ـتَ نعالًا مَحْذُوَّةً بمثالِ

ومن العرب من يقول : هولاءِ ؛ فيحذف الألف والهمزة[1] .

السادســـة — قوله تعـالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرط، والجواب محذوف تقديره : إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الأرض فأنبئونى ؛ قاله المبرد . ومعنى صادقين عالمين ، ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهـاد وقالوا : سـبحانك ! حكاه النقاش قال : ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق فى الإنبـاء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذى أماته الله مائة عام حين قال له : « كَمْ لَبِثْتَ » فلم يشترط عليــه الإصابة ، فقال ولم يُصب ولم يُعنَّف ؛ وهــذا بيّن لا خفاء فيه . وحكى الطبرى وأبو عبيد : أن بعض المفسرين قال إن معنى « إن كنتم » : إذ كنتم ، وقالا : هذا خطأ . و « أَنْبِئُونِي » معناه أخبرونى . والنبأ : الخبر؛ ومنــه النَّبىء بالهمز، وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السابعـــة — قال بعض العلماء : يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق لأنه علم أنهم لا يعلمون . وقال المحققون من أهل التأويل : ليس هذا على جهة التكليف وإنمـا

(١) فى البحر لأبى حيان : « بحذف ألف ها وهمزة أولاء و إقرار الواو التى بعد تلك الهمزة » .

هو على جهة التقرير والتوقيف . وسيأتى القول فى تكليف ما لا يطاق — هل وقع التكليف به أم لا — فى آخر السورة، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيها لك عن أن يعلم الغيب أحد سواك . وهذا جوابهم عن قوله : « أَنْبِئُونِى » فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطوا ما لا علم لهم به كما يفعله الجهال منا . وما ، فى « ما علمتنا » بمعنى الذى ، أى إلا الذى علمتنا، ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إلا تعليمك إيانا .

الثانيـــة — الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدرى، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء ؛ لكن قد أخبر الصادق أنّ بموت العلماء يُقبض العلم، فيبقى ناس جهّال يُستفتَوْن فيفتون برأيهم فيَضلّون ويُضلّون . وأما ما ورد من الأخبار عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه والتابعين بعدهم فى معنى الآية فروى البُستى (1) فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أىّ البقاع شر؟ قال : " لا أدرى حتى أسأل جبريل " فسأل جبريل ؛ فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل؛ فجاء فقال : خير البقاع المساجد، وشرها الأسواق . وقال الصّديق للجدّة : ارجعى حتى أسأل الناس . وكان علىّ يقول : وابردها على الكبد، ثلاث مرات . قالوا : وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يسئل الرجل عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابنَ عمر رجل عن مسئلة فقال : لا علم لى بها ؛ فلما أدبر الرجل قال ابن عمر : نِعْمَ ما قال ابن عمر، سئل عما لا يعلم فقال لا علم لى به ! ذكره الدارمى فى مسنده . وفى صحيح مسلم عن أبى عَقيل

---

(1) فى نسخة «النسائى» .

يحيي بن المتوكل صاحب بُهيّة(١) قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيي بن سعيد ، فقال يحيي للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيمٌ أن يُسأل عن شيء من أمر هذا الدّين فلا يوجد عندك منه علم ولا فرج، أو علم ولا مخرج! فقال له القاسم : وعمّ ذاك؟ قال: لأنك ابن إمَامَيْ هُدًى : ابنُ أبي بكر وعمر(٢). قال يقول له القاسم : أقْبَحُ من ذاك عند مَن عَقَل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة . فسكت فما أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت ابن هُرْمُز يقول : ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا في أيديهم ؛ فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى . وذكر الهيثم بن جميل قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال في اثنتين وثلاثين منها : لا أدرى .

قلت : ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف في العلم . قال ابن عبد البر : من بركة العلم وآدابه الانصافُ فيه ، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهّم . روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت ابن وهب يقول سمعت مالك بن أنس يقول : ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف .

قلت : هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذى عمّ فينا الفساد وكثر فيه الطَّغام ! وطُلب فيه العلم للرياسة لا للدّراية، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذى يُقسِى القلب ويورث الضِغن؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما رُوى عن عمر رضى الله عنه وقد قال: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقيّة ولو كانت بنت ذى العَصَبة — يعنى يزيد بن الحصين الحارثى — فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال؛ فقامت امرأة من صوب النساء طويلة فيها فَطَس(٣) فقالت : ما ذلك لك !

(١) بهية (بالتصغير) : مولاة أبي بكر رضى الله عنه، تروى عن عائشة . وروى عنها أبو عقيل المذكور .

(٢) القاسم هذا ، هو ابن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأم القاسم هي أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه؛ فأبو بكر جده الأعلى لأمه ، وعمر جده الأعلى لأبيه ، وابن عمر جده الحقيق لأبيه . رضى الله عنهم أجمعين . (عن شرح النووى على صحيح مسلم) .

(٣) الفطس (بالتحريك) : انخفاض قصبة الأنف وتطامنها وانتشارها .

قال : ولم؟ قالت لأن الله عزّ وجلّ يقول : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا » فقــال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وكيـع عن أبي معشر عن كعب القُرَظي قال : سأل رجل عليّـا رضى الله عنه عن مسئلة فقال فيهـا ، فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ، فقال عليّ : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوق كل ذى علم عليم . وذكر أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ قال : لمـا رحَلت الى المشرق نزلت القيروانَ فأخذت على بكر ابن حماد حديث مسدّد ، ثم رحَلت الى بغداد ولَقيت الناس ، فلما انصرفت عدت اليه لتمـام حديث مسدّد ، فقرأت عليه فيه يوما حديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "أنه قدم عليه قوم من مضر من مُجْتَابِى النِّمار" فقال : إنما هو مجتابى الثّمار ، فقلت إنما هو مجتابى النمار ، هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق ، فقال لى : بدخولك العراق تُعارضنا وتفخَر علينا ! أو نحو هـذا . ثم قال لى : قم بنا الى ذلك الشيخ — لشيخ كان فى المسجد — فإن له بمثل هذا علمًا ، فقمنا اليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مجتابى النمار ، كما قلتَ . وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشــقّقة (١) ، جيوبهُـم أمامَهم . والنِّمـار جمع نَمِرة . فقــال بكر بن حماد وأخذ بأنفـه : رَغِمَ أنفِى للحق ، رَغِم أنفى للحق . وانصرف . وقال يزيد بن الوليد بن عبـد الملك فأحسن :

إذا ما تحــدّثتُ فى مجلس　＊　تناهى حديثى الى ما عَلمتُ
ولم أَعْــدُ علمى الى غيره　＊　وكان اذا ما تنـاهى سَكتُّ

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ سبحان منصوب على المصــدر عند الخليــل وسيبويه ، يؤدّى عن معنى نسـبّحك تسبيحا . وقال الكسائى : هو منصــوب على أنه نداء مضاف . و﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فعيل للمبالغة والتكثير فى المعلومات فى خلق الله تعالى . و ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ معناه الحاكم ، وبينهما مزيد المبالغة . وقيل معناه المُحكم ، ويجيء الحكيم على هذا من صفات الفعل ، صُرف عن مُفْعِل الى فَعِيل ، كما صرف عن مُسمِع الى سميع ومُؤلِم الى أليم ؛ قاله ابن

---

(١) مشققة : مخططة .

الأنبارى . وقال قوم : الحكيم المانع من الفساد، ومنه سميت حَكَمَةُ اللجام لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب فى غير قصد؛ قال جرير :

أبنى حنيفة أَحْكِموا سفهاءكم * إنى أخاف عليكمُ أن أَغْضَبا

أى امنعوهم من الفساد . وقال زهير :

القائد الخيل منكوبًا دوابرُها(١) * قد أُحكمت حَكَمات القِدّ والأَبَقا

القِدّ : الجلد . والأَبَق القِنَّب(٢) . والعرب تقول : أَحْكِم اليتيم عن كذا وكذا يريدون منعه . والسورة المُحْكَمَة : الممنوعة من التغيير وكل التبديل ، وأن يلحق بها ما يخرج عنها ، ويزاد عليها ما ليس منها؛ والحِكمة من هذا ، لأنها تمنع صاحبها من الجهل . ويقال : أَحْكَمَ الشيء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد . فهو مُحْكَم وحكيم على التكثير .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ أمره الله أن يُعْلِمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيها على فضله وعلو شأنه؛ فكان أفضل منهم بأن قدّمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلموا منه . فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن جعله مسجودا له ، مختصا بالعلم .

الثانيـــة — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله؛ وفى الحديث : "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم" أى تخضع وتتواضع؛ وإنما تفعل ذلك لأهل(٣) العلم خاصة

(١) النَّكَب : أن ينكب الحجر ظفرا أو حافرا . والدوابر : أواخر الحوافر . يقول : يقود الخيل فى الغزو ويبعد بها حتى تنكب دوابرها ، أى تأكلها الأرض وتؤثر فيها . (٢) القنب (بكسر القاف وضمها) : ضرب من الكتان . (٣) فى نسخة من الأصل : « لأجل » .

من بين سائر أعمال الله؛ لأن الله تعالى ألزمها ذلك فى آدم عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب. فكلما ظهر لها علم فى بشر خضعت له وتواضعت وتذللت إعظاما للعــلم وأهله، ورضًى منهم (١) بالطلب له والشغل به . هذا فى الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربانيين منهم ! جعلنا الله منهم وفيهم ، إنه ذو فضل عظيم .

الثالثـــة — اختلف العلماء فى هذا الباب ، أيّما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين؛ فذهب قوم الى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. وذهب آخرون الى أن الملأ الأعلى أفضل . احتج من فضل الملائكة بأنهم « عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » . وقوله : « لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ » وقوله : « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ» . وفى البخارى يقول الله عزّ وجلّ : "من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم" وهــذا نصّ . احتج من فضل بنى آدم بقوله تعــالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ » بالهمز من برأ الله الخلق . وقوله عليه السلام: "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم" الحــديث . أخرجه أبو داود، وبمــا جاء فى أحاديث من أن الله تعالى يباهى بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهى إلا بالأفضل، والله أعلم. وقال بعض العلماء: ولا طريق الى القطع بأن الأنبيــاء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهــم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رســوله أو إجماع الأمة ؛ وليس هاهنا شىء من ذلك ، خلافا للقَدَرية والقاضى أبى بكر رحمه الله حيث قالوا : الملائكة أفضل . قال : وأما من قال من أصحابنا والشِّيعة : إن الأنبياء أفضل لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فيقال لهم : المسجود له لا يكون أفضــل من الساجد ، ألا ترى أن الكعبة مسجود لهــا والأنبياء والخلق يسجدون نحوها، ثم إن الأنبياء خير من الكعبة باتفاق الأمة. ولا خلاف أن السجود

(١) فى نسخة : « ورضى الله عنهم ... الخ » .

لا يكون إلا لله تعالى لأن السجود عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله، فإذا كان كذلك فكون السجود الى جهة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد العابد ، وهذا واضح وسيأتى له مزيد بيان فى الآية بعد هذا .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ دليل على أن أحدا لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه من أعلمه الله تعالى ؛ فالمنجمون والكهان وغيرهم كذبة . وسيأتى بيان هذا فى « الأنعام » إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أى من قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » حكاه مكّى والماوردىّ . وقال الزهراوىّ : ما أبدوه هو بِدارُهم بالسجود لآدم.

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير : المراد ما كتمه إبليس فى نفسه من الكبر والمعصية . قال ابن عطية : وجاء تكتمون للجماعة ؛ والكاتم واحد فى هذا القول على تجوّز العرب واتساعها؛ كما يقال لقوم قد جَنَى سفيه منهم : أنتم فعلتم كذا . أى منكم فاعله ، وهذا مع قصد تعنيف؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » وإنما ناداه منهم عُيينة، وقيل الأقرع . وقالت طائفة : الإبداء والمكتوم ذلك على معنى العموم فى معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع . وقال مهدى بن ميمون : كنا عند الحسن فسأله الحسن بن دينار ما الذى كتمت الملائكة ؟ قال : ان الله عزّ وجلّ لما خلق آدم رأت الملائكة خلقا عجبا، وكأنهم دخلهم من ذلك شيء، قال: ثم أقبل بعضهم على بعض وأسرّوا ذلك بينهم، [فقالوا[(١)] : و] ما يهمكم من هذا المخلوق! إن الله لم يخلق خلقا إلا كنا أكرم عليه منه . و«ما» فى قوله : « ما تبدون » يجوز أن ينتصب بأعلم على أنه فعل، ويجوز أن يكون بمعنى عالم وتنتصب به «ما» ، فيكون مثل حواج بيت الله، وقد تقدّم[(٢)] .

(١) زيادة عن تفسير الطبرى . (٢) راجع ص ٢٧٨

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ أى واذكر . وأما قول أبى عبيدة : إنّ إذْ زائدة فليس بجائز؛ لأن إذ ظرف وقد تقدم[1] . وقال : « قلنا » ولم يقل قلت لأن الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعل الجماعة تفخيما وإشادة بذكره . والملائكة جمع ملك . وقد تقدّم[2] . وتقدّم القول أيضا فى آدم واشتقاقه[3] فلا معنى لإعادته؛ وروى عن أبى جعفر بن القَعْقاع أنه ضم تاء التأنيث من الملائكة اتباعا لضم الجيم فى اسجدوا . ونظيره الحمد لله .

الثانيـــة — قوله تعالى:﴿ ٱسْجُدُوا ﴾ السجود معناه فى كلام العرب التذلل والخضوع؛ قال الشاعر :

بِجَمع تَضِلّ البُلْقُ فى حَجَراته * ترى الأُكْم فيها سُجَّدا للحوافر

الأُكْم : الجبال الصغار . جعلها سجدا للحوافر لقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها . وعين ساجدة أى فاترة عن النظر؛ وغايته وضع الوجه بالأرض . قال ابن فارس : سجد اذا تطامن، وكل ما سجد فقد ذلّ . والإسجاد: إدامة النظر . قال أبوعمرو : وأسجد اذا طأطأ رأسه؛ قال[4]:

فُضُــولَ أزِمّتِها أسْجدت * سجودَ النصارى لأحبارها

قال أبو عبيدة : وأنشدنى أعرابى من بنى أسد :

* وقلنَ له أسجِدْ لِليْلَى فأسجدَا *

يعنى البعير إذا طأطأ رأسه . ودراهم الإسجاد: دراهم كانت عليها صُور كانوا يسجدون لها؛ قال:

* وافى بها كدراهم الإسجاد *

---

(١) راجع المسئلة الأولى ص ٢٦١ (٢) راجع المسئلة الثانية ص ٢٦٢ (٣) راجع المسئلة الأولى ص ٢٧٩ (٤) هو حميد بن ثور يصف نساء . يقول : لما ارتحلن ولوين فضول أزمة جمالهن على معاصمهن أسجدت — طأطأت رءوسها — لهن . (عن اللسان وشرح القاموس) .

الثالثـــة ـــ استدل من فضـــل آدم و بنيه بقوله تعالى للملائكة : « ٱسْجُدُوا لِآدَمَ » . قالوا : وذلك يدل على أنه كان أفضل منهم . والجواب أنـــ معنى اسجدوا لآدم اسجدوا لى مستقبلين وجه آدم . وهو كقوله تعالى : « أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ » أى عنـد دلوك الشمس؛ وكقوله : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أى فقعوا لى عند إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين . وقد بيّنا أنـــ المسجود له لا يكون أفضـــل من الساجد بدليل القِبلة .

فإن قيل : فإذا لم يكن أفضل منهم فما الحكمة فى الأمر بالسجود له؟ قيل له : إن الملائكة لـمـا استعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليُريهم استغناءه عنهم وعن عبادتهم . وقال بعضهم : عيّروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصنع به فأمروا بالسجود له تكريما . ويحتمل أن يكون الله تعـالى أمرهم بالسجود له معاقبــة لهم على قولهم : « أتجعل فِيها من يفسِد فِيها » لـمـا قال لهم : « إِنى جاعِل فِى الارض خلِيفة » وكان علم منهم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هذا، فقال لهم : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » وجاعله خليفة ، فإذا نفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . والمعنى ليكون ذلك عقوبة لكم فى ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لى الآن .

فإن قيل : فقد استدل ابن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلّى الله عليه وسلّم فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » . وأمّنه من العـــذاب بقوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » . وقال للملائكة : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ » . قيل له : إنما لم يقسم بحياة الملائكة كما لم يقسم بحياة نفسه سبحانه؛ فلم يقل : لعمرى . وأقسم بالسماء والأرض؛ ولم يدل على أنهما أرفع قدرا من العرش والجنان السبع . وأقسم بالتين والزيتون . وأما قوله سبحانه : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ » فهو نظير قوله لنبيّه عليه السلام : «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ» فليس فيه إذًا دلالة، والله أعلم .

الرابعـــة ــ واختلف الناس فى كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن السجود عبادة ؛ فقال الجمهور : كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد فى الصلاة، لأنه الظاهر من السجود فى العرف والشرع ؛ وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم و إظهارا لفضله ، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا . ومعنى لآدم: إلى آدم؛ كما يقال صلّى للقبلة، أى الى القبلة . وقال قوم : لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذى هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مُبقّى على أصل اللغــة ؛ فهو من التذلّل والانقياد، أى آخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل . ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ أى امتثلوا ما أمروا به .

واختُلف أيضا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا الله تعالى ، أم كان جائزا بعـده الى زمان يعقوب عليه السلام لقوله تعـالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » فكان آخر ما أبيح من السجود للخلوقين ؟ والذى عليه الأكثر أنه كان مباحا الى عصر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أولى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد ؛ فقال لهم : ”لا ينبغى أن يُسجد لأحد إلا الله ربّ العالمين“. روى ابن ماجه فى سننه والبستى فى صحيحه عن أبى واقد قال : لمــا قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلّى الله عليه وسـلّم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما هذا “ فقال : يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك؛ قال :”فلا تفعل فإنى لو أمرت شـيئا أن يسجد لشىء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدّى المرأة حقّ ربّها حتى تؤدّى حق زوجها حتى لو سألها نفسها وهى على قَتَب لم تمنعه “ . لفظ البستى . ومعنى القَتَب أن العرب يعزّ عندهم وجود كرسى للولادة فيحملون نساءهم على القتب (١) عند الولادة . وفى بعض طرق معاذ : ونهى عن السجود للبشر وأمر بالمصافحة .

---

(١) القتب : رحل صغير على قدر السنام .

قلت : وهذا السجود المنهيّ عنه قد اتخذه جهّال المتصوّفة عادة فى سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم ؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحـال بزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه؛ ضلّ سعيهم وخاب عملهم .

الخامســـة — قوله :﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نصب على الاستثناء المتصل، لأنه كان من الملائكة على قول الجمهـور : ابن عبـاس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيّب وقتادة وغيرهم؛ وهو اختيار الشيخ أبى الحسن، ورجّحه الطبرى وهو ظاهر الآية . قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة وكان من الأجنحة الأربعة ثم أبلس بعـد . روى سِماك ابن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان إبليس من الملائكة فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانا . وحكى المـاوردى عن قتادة : أنه كان أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجنّة . وقال سعيد بن جبير : إن الجنّ سِبْط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم ، وخلق سائر الملائكة من نور . وقال ابن زيد والحسن وقتادة أيضا : إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن ملَكا؛ ورُوى نحوه عن ابن عباس وقال : اسمه الحارث . وقال شَهْرُ ابن حَوْشَب وبعض الأصوليين : كان من الجن الذين كانوا فى الأرض وقاتلتهم الملائكة فسبَوْه صغيرا وتعبّد مع الملائكة وخوطب؛ وحكاه الطبرى عن ابن مسعود . والاستثناء على هذا منقطع، مثل قوله تعالى : «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ»، وقوله : «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» فى أحد القولين؛ وقال الشاعر :

ليس عليك عطش ولا جوع * إلا الرقاد والرقاد ممنـــوع

واحتج بعض أصحاب هذا القول بأن الله جلّ وعزّ وصف الملائكة فقال : «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ»، وقوله تعالى : «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ» والجنّ غير الملائكة . أجاب أهل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لما سبق فى علم الله بشقائه عدلا منه، لا يسئل عما يفعل؛ وليس فى خلقه من نار ولا فى تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة . وقول من قال : إنه كان من جنّ الأرض فسُبى،

فقد رُوى فى مقابلته أن إبليس هو الذى قاتل الجنّ فى الأرض مع جند من الملائكة؛ حكاه المهدوىّ وغيره . وحكى الثعلبي عن ابن عباس : أن إبليس كان من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ خلقوا من نار السموم، وخلقت الملائكة من نور، وكان اسمه بالسريانية عزازيل، وبالعربية الحارث، وكان من خُزّان الجنة وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما، وكان يسوس ما بين السماء والأرض؛ فرأى لنفسه بذلك شرفا وعظمة، فذلك الذى دعاه الى الكفر فعصى الله فمسخه شيطانا رجيما ؛ فاذا كانت خطيئة الرجل فى كِبْر فلا تَرْجُه ، وإن كانت خطيئته فى معصية فَارْجُه؛ وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية، وخطيئة إبليس كبرا . والملائكة قد تُسمّى جِنًّا لاستتارها ؛ وفى التنزيل : «وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا» ؛ وقال الشاعر (١) فى ذكر سليمان عليه السلام :

وسخّر من جِنّ الملائك تسعةً * قياما لديه يعملون بلا أجْرِ

وأيضا لما كان من خزان الجنة نسب اليها فاشتق اسمه من أسمها؛ والله أعلم . وإبليس وزنه إفعيل مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى؛ ولم ينصرف لأنه معرفة ولا نظير له فى الاسماء فشبه بالأعجمية؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : هو أعجمى لا اشتقاق له فلم ينصرف للعُجْمة والتعريف؛ قاله الزجاج وغيره .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَبَى ﴾ معناه امتنع من فعل ما أُمر به؛ ومنه الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "إذا قرأ ابن آدم السجدة [فسجد] (٢) اعتزل الشيطانُ يبكى يقول يا وَيْله — وفى رواية : يا ويلي — أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فِلَى النار" . خرّجه مسلم . يقال : أَبَى يَأْبَى إباءً، وهو حرف نادر جاء على فَعَل يَفْعَل ليس فيه حرف من حروف الحلق؛ وقد قيل : إن الألف مضارِعة لحروف الحلق . قال الزجاج : سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضي يقول : القول

(١) هو أعشى قيس، كما فى تفسير الطبرى وأبى حيان . (٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

عندى أن الألف مضارِعة لحروف الحلق . قال النحاس : ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحوًا غير هذا الحرف .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ الاستكبار : الاستعظام ؛ فكأنه كره السجود فى حقه واستعظمه فى حق آدم؛ فكان تركه السجود لآدم تسفيهًا لأمر الله وحكمته . وعن هـذا الكبر عبّر عليه السـلام بقوله : " لا يدخل الجنـة من [كان](١) فى قلبه مثقالُ حبّة من خردل من كبر" . فى رواية فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة . قال : "إن الله جميل يحبّ الجمال الكبْرُ بطَرُ الحق وغَمْطُ الناس". أخرجه مسلم . ومعنى بطر الحق : تسفيهه وإبطاله . وغمط الناس: الاحتقار لهم والازدراء بهم . ويروى : «وغَمْصُ» بالصاد المهملة، والمعنى واحد؛ يقال : غَمَصه يَغْمَصه غَمْصا واغْتَمصه، أى استصغره ولم يره شيئا . وغَمَص فلان النعمة اذا لم يشكرها . وغَمَصتُ عليه قولا قاله، أى عبته عليه . وقد صرّح اللّعين بهذا المعنى فقال : «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» . «ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا» . «لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» فكفره الله بذلك؛ فكل من سفه شيئا من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليـه السلام كان حكمه حكمه ، وهذا ما لا خلاف فيه . وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال : بلغنى أن أوّل معصية كانت الحسد والكبر؛ حسد إبليس آدم، وشح آدم فى أكله من شجـرة . وقال قتادة : حسد إبليس آدم، على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا نارىّ وهذا طينىّ . وكان بدء الذنوب الكبر، ثم الحرص حتى أكل آدم من الشجرة، ثم الحسد إذ حسد ابن آدم أخاه .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ قيـل : كان هنا بمعنى صار؛ ومنه قوله تعالى : «فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ»، وقال شاعر(٢) :

بتَيهـاءَ قَفْـرٍ والمطِىُّ كأنهـا * قطا الحَزْن قد كانت فِراخًا بيُوضُها

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) هو ابن أحمر، كما فى اللسان مادة «كون» .

أى صارت . وقال ابن فُورَك : كان هنا بمعنى صار خطأ تردّه الأصول . وقال جمهور المتأولين : المعنى أى كان فى علم الله تعالى أنه سيكفر، لأن الكافر حقيقة والمؤمن حقيقة هو الذى قد علم الله منه الموافاة .

قلت : وهذا صحيح، لقوله صلّى الله عليه وسلّم فى صحيح البخارى : "وإنما الأعمال بالخواتيم" . وقيل : إن إبليس عبَد الله تعالى ثمانين ألف سنة ، وأعطى الرياسة والخزانة فى الجنة على الاستدراج؛ كما أُعْطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم ، وكما أُعْطى بلْعَامُ[(1)] الاسم الأعظم على طرف لسانه ؛ فكان فى رياسته والكبر فى نفسه متمكن . قال ابن عباس : كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بما عنده ؛ فلذلك قال : أنا خير منه؛ ولذلك قال الله عزّ وجلّ : «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ» أى استكبرت ولا كبر لك، ولم أتكبر أنا حين خلقته بيدى والكبر لى ! فلذلك قال : «وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ» . وكان أصل خلقته من نار العزّة، ولذلك حلف بالعزّة فقال : «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» فالعزة أورثته الكبر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام . وعن أبى صالح قال : خُلقت الملائكة من نور العزة وخلق إبليس من نار العزة .

التاسعة — قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : ومن أظهر الله على يديه ممن ليس بنبيّ كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته، خلافا لبعض الصوفية والرافضة حيث قالوا : إن ذلك يدل على أنه ولىّ، إذ لو لم يكن ولياً ما أظهر الله على يديه ما أظهر . ودليلنا أن العلم بأن الواحد منا ولىّ لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمنا، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكنا أن نقطع على أنه ولىّ لله تعالى، لأن الولىّ لله تعالى من علم الله تعالى أنه لا يوافى إلا بالإيمان . ولما اتفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافى بالإيمان، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافى بالإيمان، عُلم أن ذلك ليس يدل على

---

(1) فى تاريخ ابن الأثير والطبرى إنه بلعم بن باعور من ولد لوط ، كان فى عهد موسى عليه السلام ، وهو من أهل كنعان . راجع تاريخ ابن الأثير ج ١ ص ١٤٠ ، وتاريخ الطبرى قسم أول ص ٥٠٨ طبع أوربا .

ولايته لله . قالوا : ولا نمنع أن يطلع الله بعض أوليـائه على حسن عاقبته وخاتمة عمله وغيره معه؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشعرى وغيره . وذهب الطبرى إلى أن الله تعـالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بنى آدم وهم اليهود الذى كفروا بمحمد عليه السلام مع علمهم بنبوّته، ومع قِدَم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم .

العـاشرة — واختلف هل كان قبل إبليس كافر أولا؟ فقيل : لا، وإن إبليس أوّل من كفر . وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا فى الأرض . واختلف أيضا هل كفر إبليس جهلا أو عنادا على قولين بين أهـل السنة ، ولا خلاف أنه كان عالمـا بالله تعالى قبل كفره . فمن قال إنه كفر جهلا قال : إنه سُلب العـلم عند كفره . ومن قال كفر عنادا قال : كفر ومعه علمه . قال ابن عطية : والكفر [عنادا](1) مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندى جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الاولى — قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ ٱسْكُنْ ﴾ لا خلاف أن الله تعـالى أخرج إبليس عنـد كفره وأبعـده عن الجنة، وبعـد إخراجه قال لآدم اسكن؛ أى لازم الإقامة واتّخذها مسكنا، وهو محل السكون . وسَكَن إليه يَسْكُن سكونا . والسَّكَن : النار؛ قال الشاعر :

* قد قُوِّمت بسَكَن وأدْهان *

والسَّكَن : كل ما سُكن إليه . والسِّكِّين معروفة، سمىّ به لانه يسكن حركة المذبوح؛ ومنه المِسكين لقلة تصرفه وحركته . وسُكَّان(2) السفينة عربىّ، لانه يُسكّنها عن الاضطراب .

(1) زيادة عن تفسير ابن عطية . (2) السكان (بالضم) : ذنب السفينة التى به تعدل .

الثانيـــة ـــ فى قوله تعالى : ﴿ ٱسْكُنْ ﴾ تنبيه على الخروج،لأن السُّكْنى لاتكون مِلْكا؛ ولهذا قال بعض العارفين : السكنى تكون إلى مدّة ثم تنقطع، فدخولهما فى الجنة كان دخول سكنى لا دخول ثواء (١) .

قلت : وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء : إن من أسكن رجلا مسكنا له أنه لا يملكه بالسكنى، وأن له أن يخرجه إذا انقضت مدّة الإسكان . وكان الشعبيّ يقول : اذا قال الرجل دارى لك سكنى حتى تموت فهى له حياتَه وموته،واذا قال: دارى هذه ٱسكنها حتى تموت فإنها ترجع الى صاحبها اذا مات . ونحوٌ من السُّكْنى العُمْرَى ، إلا أن الخلاف فىالعمرى أقوى منه فى السكنى.وسيأتى الكلام فى العمرى فى«هود» إن شاء الله تعالى . قال الحربى : سمعت ابن الأعرابى يقول : لم يختلف العرب فى أن هذه الأشياء على ملك أربابهــا ومنافعها لمن جُعلت له العمرى والرُّقْبَى والإفقار والإخبــال والمِنْحة والعرِيّة والسكنى والإطراق؛ وهذا حجة مالك وأصحابه فى أنه لايملك شىء من العطايا إلا المنافع دون الرقاب؛ وهو قول الليث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قُسيط .

العُمْرَى هو إسكانك الرجل فى دار لك مدّة عمرك أو عمره ؛ ومثــله الرقبى ، وهو أن يقول : إن مُتّ قبلى رجعتْ إلىّ ، وإن مُتُّ قبلك فهى لك؛ وهى من المراقبة . والمراقبة: أن يرقب كلٌّ واحد منهما موت صاحبــه ، ولذلك اختلفوا فى إجازتها ومنعها ، فأجازها أبو يوسف والشافعى، وكأنها وصية عنــدهم . ومنعها مالك والكوفيون لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لايدرى هل يحصل له ، ويتمنّى كل واحد منهما موت صاحبه . وفى الباب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ابن ماجه فى سننه؛ الأول رواه جابر بن عبــد الله قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "العمرى جائزة لمن أُعمِرها والرقبى جائزة لمن أُرقِبها" ففى هــذا الحديث التسوية بين العمرى والرقبى فى الحكم . الثــانى رواه ابن عمر قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "لا رُقْبَى فمن أُرقِب شيئا فهو له حياتَه ومماتَه" . قال : والرقبى أن

(١) الثواء : طول المقام . وفى الأصول : « لا دخول ثواب » .

يقول هو للآخر: منّى ومنك موتا . فقوله : لا رقبى؛ نهى يدل على المنع؛ وقوله : "من أرقب شيئا فهو له" يدل على الجواز؛ وأخرجهما أيضا النسائى . وذكر عن ابن عباس قال : العمرى والرقبى سواء . وقال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: "العمرى جائزة لمن أُعْمِرها والرقبى جائزة لمن أُرقبها" . فقد صحح الحديث ابن المنذر؛ وهو حجة لمن قال بأن العمرى والرقبى سواء . ورُوى عن علىّ وبه قال الثورى وأحمد، وأنها لا ترجع الى الأوّل أبدا؛ وبه قال إسحاق . وقال طاوس : من أرقب شيئا فهو سبيل الميراث .

والإفقار مأخوذ من فَقار الظهر . أفقرتك ناقتى : أعرتكَ فقارها لتركبها . وأفقرك الصيد اذا أمكنك من فَقاره حتى ترميه . ومثله الإخبال ، يقال : أخبلت فلانا اذا أعرته ناقة يركبها أو فرسا يغزو عليه؛ قال زهير :

هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا المالَ يُخْبِلوا * وإن يُسئلوا يُعْطوا وإن يَيْسِروا يَغْلوا

والمِنْحة : العطية . والمِنحة : مِنحة اللبن . والمنيحة : الناقة أو الشاة يعطيها الرجلُ آخَر يحتلبها ثم يردّها؛ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "العاريّة مؤدّاة والمنحة مردودة والدَّين مَقضِىّ والزعيم غارم" . رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذىّ والدارقطنىّ وغيرهما، وهو صحيح .

والإطراق : إعارة الفحل؛ استطرق فلان فلانا فحله : اذا طلبه ليضرب فى إبله؛ فأطرقه إياه . ويقال : أطرقنى فحلك أى أعرنى فحلك ليضرب فى إبلى. وطَرَق الفحلُ الناقةَ يَطرُق طُروقا ، أى قَعَا عليها . وطَرُوقة الفحل : أنثاه؛ يقال : ناقة طَروقة الفحل للتى بلغت أن يضربها الفحل .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ أنت، تأكيد للضمر الذى فى الفعل؛ ومثله «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ» . ولا يجوز اسكن وزوجك ، ولا اذهب وربك الا فى ضرورة الشعر؛ كما قال :

قلتُ اذ أقبلتْ وزُهْرٌ تَهادَى * كنِعاج المَلَا تعسَّفنَ رَمْلًا (١)

(١) قائله عمر بن أبى ربيعة . وزهر جمع زهراء وهى البيضاء المشرقة . والتهادى : المشى الرويد الساكن . والنعاج : بقر الوحش . تعسفن : ركبن .

فزهر معطوف على المضمر فى أقبلت ولم يؤكد ذلك المضمر . ويجوز فى غير القرآن على بُعد : قم وزيد .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ لغة القرآن «زوج» بغير هاء، وقد تقدّم القول فيه[١] . وقد جاء فى صحيح مسلم زوجة، حدّثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البُنَانى عن أنس أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان مع إحدى نسائه فمرّ به رجل فدعاه فجاء فقال : "يا فلان هذه زوجتى فلانة" فقال : يا رسول الله، مَن كنتُ أظنّ به فلم أكن أظنّ بك؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم" . وزوج آدم عليه السلام هى حوّاء عليها السلام، وهو أوّل من سماها بذلك حين خلقت من ضلعه من غير أن يحسّ آدم عليه السلام بذلك؛ ولو ألِمَ بذلك لم يعطف رجل على امرأته؛ فلما انتبه قيل له : مَن هــذه ؟ قال : امرأة؛ قيل : وما اسمها ؟ قال : حوّاء؛ قيل : ولم سمّيت امرأة ؟ قال : لأنها من المرء أخذت؛ قيل : ولم سمّيت حوّاء ؟ قال : لأنها خلقت من حىّ . روى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرّب علمه، وأنهم قالوا له : أتحبهـا يا آدم ؟ قال : نعم؛ قالوا لحوّاء : أتحبينه يا حوّاء ؟ قالت : لا؛ وفى قلبها أضعاف ما فى قلبه من حبه . قالوا : فلو صدقت امرأة فى حبها لزوجها لصدقت حوّاء . وقال ابن مسعود وابن عباس : لمـا أُسكن آدم الجنة مشى فيهـا مستوحشا فلما نام خلقت حوّاء من ضلعه القُصْرَى من شقه الأيسر ليسكن اليهـا ويأنس بها؛ فلما انتبه رآها فقال : من أنت؟ ! قالت : امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلىّ، وهو معنى قوله تعالى : «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» . قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عوجاء لأنها خلقت من أعوج وهو الضلع . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم : "إن المرأة خلقت من ضلع — فى رواية : وإنّ أعوج شىء فى الضلع أعلاه — لن تستقيم

(١) راجع ص ٢٤٠ من هذا الجزء .

لك على طريقة واحدة فإن استمتعت بها استمتعت [بها](١) وبها عوج وإن ذهبتَ تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها" . وقال الشاعر :

هى الضِّلَع العوجاء لستَ تقيمها * ألَا إنّ تقويم الضلوع انكسارها
أتجمع ضَعفا واقتدارا على الفتى * أليس عجيبا ضعفها واقتدارها

ومن هذا الباب استدل العلماء على ميراث الخنثى المُشْكل اذا تساوت فيه علامات النساء والرجال من اللحية والثدى والمبال بنقص الأعضاء . فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المرأة أعطى نصيب رجل؛ رُوى ذلك عن علىّ رضى الله عنه لخلق حوّاء من أحد أضلاعه ، وسيأتى فى المواريث بيان هذا ان شاء الله تعالى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ الجنة : البستان ، وقد تقدّم القول فيها(٢) . ولا التفات لما ذهبت اليه المعتزلة والقَدَرية من أنه لم يكن فى جنة الخلد وإنما كان فى جنة بأرض عدن . واستدلوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما وصل اليه ابليس، فإن الله يقول: «لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ» وقال: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا» وقال: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا» . وأنه لا يخرج منها أهلها لقوله : «وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ» . وأيضا فإن جنة الخلد هى دار القدس، قدّست عن الخطايا والمعاصى تطهيرا لها، وقد لَغَا فيها إبليس وكذب، وأخرج منها آدم وحوّاء بمعصيتهما .

قالوا : وكيف يجوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو فى دار الخلد والمُلْك الذى لا يبلى ؟

فالجواب : أن الله تعالى عرّف الجنة بالألف واللام ؛ ومن قال : أسأل الله الجنة ، لم يفهم منه فى تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد . ولا يستحيل فى العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم، وقد لقى موسى آدم عليهما السلام فقال له موسى: أنت أشقيت ذرّيتك وأخرجتهم من الجنة ، فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد المعروفة، فلم ينكر ذلك آدم ، ولو كانت

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع ص ٢٣٩ من هذا الجزء .

غيرها لرّد على موسى ؛ فلمـا سكت آدم على ما قرره موسى صح أن الدار التى أخرجهم الله عزّ وجلّ منها بخلاف الدار التى أخرجوا إليها . وأما ما احتجوا به من الآى فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها يوم القيامة، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قضى عليه بالفناء . وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم انتزعت منه بعد المعصية . وقد دخلها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليـلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بمـا فيها وأنها هى جنة الخلد حقا . وأما قولهم : إن الجنة دار القدس وقد طهّرها الله تعالى من الخطايا فجهل منهم ؛ وذلك أن الله تعالى أمر بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة وهى الشام، وأجمع أهـل الشرائع على أن الله تعالى قدّسها وقد شوهد فيها المعاصى والكفر والكذب ولم يكن تقديسها ممـا يمنع فيهـا المعاصى ؛ فكذلك دار القدس . قال أبو الحسن بن بَطّال : وقـد حكى بعض المشايخ أن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هى التى أهبط منها آدم عليه السلام، فلا معنى لقول من خالفهم . وقولهم : كيف يجوز على آدم فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخـلد وهو فى دار الخلد ؛ فيعكس عليهم ويقال : كيف يجوز على آدم فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد فى دار الفناء ! هذا ما لا يجوز على من له أدنى مُسْكة من عقل، فكيف بآدم الذى هو أرجح الخلق عقلا، على ما قال أبو أمامة على ما يأتى .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿وَكُلَا مِنْهَـا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ قراءة الجمهور رغَدا بفتح الغين . وقرأ النّخعىّ وابن وثّاب بسكونها . والرغد : العيش الدارُّ الهنىّ الذى لا عَناء فيه ؛ قال :

بينما المـــرء تراه ناعمـا * يأمن الأحداث فى عيش رغد[1]

ويقال : رَغَد عيشهم ورَغُد بضم الغين وكسرها . وأرغد القوم : أخصبوا وصاروا فى رغد من العيش . وهو منصوب على الصفة لمصدر محـذوف . وحيثُ وحيثَ وحيثِ، وحوثُ وحوثَ وحوثِ وحاث، كلها لغات، ذكرها النحاس وغيره .

(١) القائل هو امرؤ القيس ؛ كما فى تفسير أبى حيان والطبرى .

السابعـــة – قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ أى لا تقربا ها بأكل ، لأن الإباحة (١) فيه وقعت . قال ابن العربى : سمعت الشاشىّ فى مجلس النضر [بن شميل (٢)] يقول : إذا قيل لا تقرَب بفتح الراء كان معناه لا تَلبَّس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء فإن معناه لا تدن منه . وفى الصحاح : قَرُب الشيء يقرُب قُربا أى دنا ؛ وقرِبتــه بالكسر أقرَبه قُربانا أى دنوت منه ؛ وقَرَبت أقرُب قِرابة – مثل كتبت أكتب كتابة – إذا سِرت إلى الماء وبينك وبينه ليلة ؛ والاسم القَرَب . قال الأصمعى : قلت لأعرابىّ : ما القَرَب؟ فقال : سير الليل لوِرْد الغد . وقال ابن عطية قال بعض الحذاق : إن الله تعالى لما أراد النهى عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضى الأكل وما يدعو إليه وهو القرب . قال ابن عطية : وهذا مثال بيّن فى سدّ الذرائع . وقال بعض أرباب المعانى قوله : «ولا تقربا» إشعار بالوقوع فى الخطيئة والخروج من الجنة ، وأن سكناه فيها لا يدوم ؛ لأن المخلد لا يحظر عليه شيء ولا يؤمر ولا ينهى . والدليل على هذا قوله تعالى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » فدل على خروجه منها .

الثامنـــة – قوله تعالى : ﴿ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ الاسم المبهم ينعت بما فيه الألف واللام لا غير ، كقولك : مررت بهذا الرجل وبهذه المرأة وهذه الشجرة . وقرأ ابن مُحَيصن : «هذى الشجرة» بالياء وهو الأصل ، لأن الهاء فى هـذه بدل من ياء ولذلك انكسر ما قبلها ، وليس فى الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها ، وذلك لأن أصلها الياء .

---

(٢) فى الأصول : « مجلس النظر يقول » . والتصويب والزيادة عن كتاب البحر لأبى حيان . وقد عقب عليه بقوله : «وفى هـذه الحكاية عن ابن العربى من التخليط ما يتعجب من حاكيها ، وهو قوله : سمعت الشاشى فى مجلس النضر بن شميل ، وبين النضر والشاشى من السنين مئون إلا إن كان ثَمّ مكان معروف بمجلس النضر بن شميل فيمكن» .

والشاشى هنا هو محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر المعروف بأبى بكر الشاشى ولد بميافارقين سنة ٤٢٩ هـ وتوفى سنة ٥٠٧ هـ (راجع طبقات الشافعية ج ٤ ص ٥٧) .

أما النضر بن شميل فقد توفى سنة ثلاث وقيل أربع ومائتين (راجع بغية الوعاة ووفيات الأعيان) .

وولد أبو بكر بن العربى سنة ٤٦٨ هـ وتوفى سنة ٥٤٣ هـ (راجع طبقات المفسرين) .

(١) أى من غير تلك الشجرة .

والشَّجَرة والشِّجَرة والشِّيرة ثلاث لغات، وقرئ الشِّجرة بكسر الشين . والشَّجرة والشَّجرة : ما كان على ساق من نبات الأرض . وأرض شَجِيرة وشَجْـراء أى كثيرة الأشجار ، وواد شَجِير، ولا يقال : وادٍ أشجر . وواحد الشَّجْراء شَجَرة ، ولم يأت من الجمع على هــذا المثال إلا أحرف يسيرة، شَجَرَة وشَجْراء، وقَصَبة وقَصْباء، وطَرَفة وطَرْفاء، وحَلَفَة وحَلْفاء . وكان الأصمعى يقول فى واحد الحَلْفاء حَلِفة، بكسر اللام مخالفة لأخواتها . وقال سيبويه : الشَّجْراء واحد وجمع، وكذلك القصباء والطرفاء والحلفاء. والمَشْجَر موضع الأشجار . وأرض مَشْجَرة، وهذه الأرض أشجر من هذه أى أكثر شجرا؛ قاله الجوهرى .

التاســـعة — واختلف أهل التأويل فى تعيين هذه الشجرة التى نُهِى عنها فأكل منها؛ فقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وجعدة بن هُبيرة : هى الكَرْم ؛ ولذلك حُرِّمت علينا الخمر . وقال ابن عباس أيضا وأبو مالك وقتادة : هى السنبلة، والحبة منها ككُلَى البقر، أحلى من العسل وألين من الزُّبد ؛ قاله وهب بن منبّه . ولمـا تاب الله على آدم جعلهـا غذاء لبنيه . وقال ابن جريج عن بعض الصحابة : هى شجرة التين ، وكذا روى سعيد عن قتادة(١)، ولذلك تعبر فى الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها؛ ذكره السهيلى . قال ابن عطية : وليس فى شىء من هذا التعيين ما يَعضُده خبر ، وإنما الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى فى الأكل منها . وقال القشيرى أبو نصر: وكان الإمام والدى رحمه الله يقول : يعلم على الجملة أنها كانت شجرة المحنة .

العـاشرة — واختلفوا كيف أكل منهـا مع الوعيد المقترن بالقــرب وهو قوله تعالى : « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ »؛ فقال قوم : أكلا من غير التى أشير إليهـا، فلم يتأولا النهى واقعا على جميع جنسها ، فإن إبليس غرّه بالظاهر . قال ابن العربى : وهى أوّل معصية عصى الله بها على هــذا القول . قال : « وفيه دليل على أن من حلف ألّا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حنث . وتحقيق المذاهب فيه أن أكثر العلماء قالوا : لا حنث فيه . وقال مالك

(١) فى نسخة : «شعبة» وكلاهما يروى عن قتادة .

وأصحابه : إن اقتضى بساط اليمين تعيين المشار اليه لم يحنَث بأكل جنسه ، وان اقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حمل عليه وحنث بأكل غيره؛وعليه حملت قصة آدم عليه السلام فإنه نهى عن شجرة عُيّنت له وأريد به جنسها ؛ فحمل القـول على اللفظ دون المعنى . وقـد اختلف علماؤنا فى فرع من هذا وهو أنه إذا حلف ألا يأكل هذه الحنطة فأكل خبزا منها على قولين؛ قال فى الكتاب يحنث، لأنها هكذا تؤكل . وقال ابن المَوّاز : لا شئ عليـه؛ لأنه لم يأكل حنطة انما أكل خبزا فراعى الاسم والصـفة ، ولو قال فى يمينـه : لا آكل من هـذه الحنطة لحنث بأكل الخبز المعمول منها » . وفيما اشترى بثمنها من طعام وفيما أنبتت خلاف . وقال آخرون : تأوّلا النهى على الندب . قال ابن العربىّ : وهذا و إن كان مسئلة من أصول الفقه فقد سقط ذلك هاهنا لقوله : « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » فقرن النهى بالوعيد ، وكذلك قوله سبحانه : « فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ » . وقال ابن المسيّب : إنمـا أكل آدم بعد أن سقته حواء الخمر فسكر وكان فى غير عقله ؛ وكذلك قال يزيد بن قُسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . قال ابن العربى : وهذا فاسد نقلا وعقلا ، أما النقل فلم يصح بحال، وقد وصـف الله عزّ وجلّ خمر الجنة فقال : «لَا فِيهَا غَوْلٌ» . وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوّة معصومون عما يؤدّى إلى الإخلال بالفرائض واقتحام الجرائم .

قلت : قد استنبط بعض العلماء نبوّة آدم عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى : «فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ» فأمره الله تعالى أن ينبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله جلّ وعزّ . وقيل : أكلها ناسيا، ومن الممكن أنهما نسيا الوعيد . قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى كتابه بذلك حتما وجزما فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » . ولكن لمـا كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم مالا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهى تضيعا صار به عاصيا، أى مخالفا . قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم منذ خلق الله الخلق الى يوم القيامة وضعت فى كفة ميزان ووضع حلم آدم فى كفة أخرى لرجحهم؛ وقد قال الله تعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

قلت : قول أبى أمامة هذا عموم فى جميع بنى آدم . وقد يحتمل أن يخص من ذلك نبينا محمد صلّى الله عليه وسلّم فإنه كان أوفر الناس حلما وعقلا . وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بنى آدم من الأنبياء . والله أعلم .

قلت : والقـــول الأوّل أيضا حسن ؛ فظنّا أن المراد العين وكان المراد الجنس ؛ كقول النبيّ صلّى الله عليـــه وسلّم حين أخذ ذهبا وحريرا فقال : "هذان حرامان على ذكور أمتى" . وقال فى خبر آخر : "هذان مهلكان أمتى" . وإنما أراد الجنس لا العين .

الحادية عشرة — يقـــال : إن أوّل من أكل من الشـــجرة حوّاء بإغواء إبليس إياها، على ما يأتى بيانه ، وإن أوّل كلامه كان معها لأنها وسواس المِخَـــدّة، وهى أوّل فتنة دخلت على الرجال من النساء، فقال : ما مُنعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد، لأنه علم منهما أنهما كانا يحبان الخلد، فأتاهما من حيث أحبا — «حبّك الشيء يعمى ويصم» — فلما قالت حواء لآدم أنكر عليها وذكر العهد، فألح على حواء وألحت حواء على آدم ، الى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابنى شيء سلمت أنت، فأكلت فلم يضرها ، فأتت آدم فقـــالت : فإنى قد أكلت فلم يضرنى ، فأكل فبـــدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب، لقول الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ » بجمعهما فى النهى، فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وجد المنهيّ عنه منهما جميعا، وخفيت على آدم هذه المسئلة . ولهذا قال بعض العلماء : إن من قال لزوجتيه أو أَمَتيه : إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حرتان، إن الطلاق والعتق لا يقع بدخول إحداهما . وقـــد اختلف علمـــاؤنا فى ذلك على ثلاثة أقوال ؛ قال ابن القـــاسم : لا تطلقان ولا تعتقان إلا باجتماعهما فى الدخول؛ حملا على هذا الأصل وأخذا بمقتضى مطلق اللفظ . وقاله سُحنون . وقال ابن القاسم مرة أخرى : تَطلُقان جميعا وتَعتِقان جميعا بوجود الدخول من احداهما، لأن بعض الحنث حنث؛ كما لو حلف ألا يأكل هذين الرغيفين فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بأكل لقمة منهما . وقال أشهب : تَعتِق وتَطلُق التى دخلت وحدها، لأن دخول

كل واحدة منهما شرط فى طلاقها أو عتقها . قال ابن العربى : وهذا بعيد لأن بعض الشرط لا يكون شرطا إجماعا .

قلت : الصحيح الأول، وإن النهى إذا كان معلقا على فعلين لا تحقق المخالفة إلا بهما؛ لأنك إذا قلت : لا تدخلا الدار؛ فدخل أحدهما ما وجدت المخالفة منهما؛ لأن قول الله تعالى «وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ» نهى لهما «فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» جوابه، فلا يكونا من الظالمين حتى يفعلا ؛ فلما أكلت لم يصبها شىء لأن المنهىّ عنه ما وجد كاملا . وخفى هذا المعنى على آدم فطمع ونسى هذا الحكم،وهو معنى قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ» .وقيل : نسى قوله : «إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ» . والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف العلماء فى هــذا الباب هل وقع من الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — صغائر من الذنوب يؤاخذون بهـا ويعاتبون عليها أم لا — بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شَيْن ونقص إجماعا عند القاضى أبى بكر(١) وعند الأستاذ أبى إسحاق(٢) أن ذلك مقتضى دليل المعجزة؛ وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم — ؛ فقال الطبرى وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين : تقع الصغائر منهم ؛ خلافا للرافضة حيث قالوا : إنهــم معصومون من جميع ذلك ؛ واحتجوا بمـا وقع من ذلك فى التنزيل وثبت من تنصُّلهم من ذلك فى الحديث، وهذا ظاهر لاخفاء فيــه . وقال جمهور من الفقهاء من أصحـاب مالك وأبى حنيفة والشافعى : إنهــم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها؛ لأنا أمرنا باتباعهم فى أفعالهم وآثارهم وسـيرهم أمرا مطلقا من غير التزام قرينة، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم ؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميّز مقصده من القربة والإباحة والحظر أو المعصية، ولا يصح أن يؤمر المـرء بامتثال أمر لعله معصية، لا سيّمـا على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين . قال

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلانى .

(٢) هو ابراهيم بن محمـد بن ابراهيم الاستاذ أبو اسحاق الأسفراينى، وفى الأصول : « عند الأستاذ أبى بكر» وهو تحريف . (راجع الكلام فى عصمة الأنبياء فى شرح المواقف) .

الأستاذ أبو إسحاق الأسفراينى : واختلفوا فى الصغائر ، والذى عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم ، وصار بعضهم إلى تجويزها ، ولا أصل لهذه المقالة . وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول : الذى ينبغى أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها ، وأخبروا بهــا عن نفوسهم وتنصّلوا منها وأشفقوا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد فى مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك آحادها ، وكل ذلك مما لا يُزرى بمناصبهم ، وإنمــا تلك الأمور التى وقعت منهــم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان ، أو تأويل دعا إلى ذلك فهى بالنســبة إلى غيرهم حسنات وفى حقهــم سيئات [بالنسبة] إلى مناصبهم وعلو أقــدارهم ، إذ قد يؤاخذ الوزير بمــا يثاب عليــه السائس ، فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجُنيد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخلّ ذلك بمناصبهم ولا قدح فى رتبهم ، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم ، صلوات الله عليهم وســلامه .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الظلم أصــله وضع الشيء فى غير موضعه . والأرض المظلومة : التى لم تُحفر قطّ ثم حفرت . قال النابغة :

وقفت فيهــا أُصــيلالاً أُسائلها * عيّت جوابا وما بالربع من أحد
إلّا الأوارِىَّ لَأْيًا ما أُبيّنهــا (١) * والنُّؤْىَ كالحوض بالمظلومة الجَلَد

ويسمى ذلك التراب الظليم . قال الشاعر :

فأصــبحَ فى غَبراءَ بعــد إشاحةٍ (٢) * على العيش مردودٍ عليها ظَليمُها

(١) الأوارى (واحدها آرى) : حبل تشد به الدابة فى محبسها . واللأى : المشقة والجهد . والنؤى : حفرة حول البيت لئلا يصل إليه الماء . والجلد (بالتحريك) : الأرض الصلبة .

(٢) الإشاحة : الحذر والخوف لمن حاول أن يدفع الموت . قال صاحب اللسان : « يعنى حفرة القبر يرد ترابها عليه بعد دفن الميت فيها » .

وإذا نُحر البعير من غير داء به فقد ظُلم؛ ومنه «ظَلّامون لِلجُزُر» . ويقال : سقانا ظَلِيمة طيّبة إذا سقاهم اللبن قبل إدراكه . وقد ظلم وَطْبَه(١) إذا سقى منه قبل أن يروب ويُخرج زبده . واللبن مظلوم وظليم . قال :

وقائلةٍ ظلمتُ لكم سِقائى * وهل يَخفَى على العَكَدِ الظَّليمُ(٢)

ورجل ظليم : شديد الظلم . والظلم : الشرك؛ قال الله تعالى : « إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ حذفت النون من كلا لأنه أمر، وحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وحذفها شاذ . قال سيبويه : من العرب من يقول أُؤْكل، فيتم . يقال منه : أكلت الطعام أكلا ومأكلا . والأَكلة بالفتح : المرّة الواحدة حتى تشبع . والأُكلة بالضم : اللقمة ؛ تقول : أكلت أُكلة واحدة ، أى لقمة ، وهى القُرْصة أيضا . وهذا الشىء أُكْلة لك ،أى طُعْمَة لك . والأُكل أيضا ما أُكل . ويقال : فلان ذو أُكُل إذا كان ذا حظ من الدنيا ورزق واسع .

﴿ رَغَدًا ﴾ نعت لمصدر محذوف، أى أكلا رغدا . قال ابن كيسان : ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال . وقال مجاهد : رغدا أى لا حساب عليهم . والرغد فى اللغة : الكثير الذى لا يعنّيك؛ ويقال : أرغد القوم إذا وقعوا فى خصب وسعة . وقد تقدّم(٣) هذا المعنى .

و ﴿ حَيْثُ ﴾ مبنية على الضم لأنها خالفت أخواتها الظروف فى أنها لا تضاف، فأشبهت قبلُ وبعدُ إذا أفردتا فضمت . قال الكسائى : لغة قيس وكنانة الضم ، ولغة تميم الفتح . قال الكسائى : وبنو أسد يخفضونها فى موضع الخفض ، وينصبونها فى موضع النصب ؛ قال الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثِ لَا يَعْلَمُونَ » وتضم وتفتح .

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ الهاء من هذه بدل من ياء الأصل ، لأن الأصل هذى . قال النحاس : ولا أعلم فى العربية هاء تأنيث مكسورا ما قبلها إلا هاء « هذه » . ومن

(١) الوطب (بفتح فسكون) : الزق الذى يكون فيه السمن واللبن . (٢) ظلمت سقائى : سقيتهم إياه قبل أن يروب . والعكد (بضم العين وفتحها وفتح الكاف جمع العُكْدة والعَكَدة) : أصل اللسان .

(٣) راجع المسألة السادسة ص ٣٠٣ من هذا الجزء .

العرب من يقول : هاتا هنـد ، ومنهم من يقول : هاتى هند . وحكى سيبويه : هـذهْ هند بإسكان الهاء . وحكى الكسائى عن العرب : ولا تقربا هذى الشجرة . وعن شِبْل ابن عَبّاد قال : كان ابن كَثير وابن محيصن لا يثبتان الهاء فى « هذه » فى جميع القرآن . وقراءة الجماعة رغدا بفتح الغين . وروى عن ابن وثاب والنّخعى أنهما سكّنا الغين . وحكى سلمة عن الفراء قال يقال : هذى فعلت ، بإثبات ياء بعد الذال من غير إلحاق ياء ولا هاء . وهاتا فعلت . قال هشام ويقال : تا فعلت . وأنشد :

خليلَيّ لولا ساكن الدار لم أُقم * بتا الدار إلا عابر ابن سبيل

قال ابن الأنبارى : وتا بإسقاط ها بمنزلة ذى بإسقاط ها من هذى ، و بمنزلة ذه بإسقاط ها من هذه . وقد قال الفرّاء : من قال هذِ قامتَ لا يسقط ها لأن الاسم لا يكون على ذال واحدة .

﴿ فَتَكُونَا ﴾ عطف على تقربا فلذلك حذفت النون . وزعم الجَرْمى(١) أن الفاء هى الناصبة . وكلاهما جائز .

قوله تعالى : فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فازلهما الشيطان عنها ﴾ قرأ الجماعة «فازالهما» بغير ألف، من الزَّلة وهى الخطيئة، أى استزلها وأوقعهما فيها . وقرأ حمزة « فأزلها » بألف من التنحية أى نحاهما . يقال : أزلته فزال . قال ابن كيسان : فأزالها من الزوال ، أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

قلت : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى، إلا أن قراءة الجماعة أمكن فى المعنى . يقال منه : أزللته فزل . ودل على هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا »، وقوله :

(١) الجرمى (بفتح الجيم وسكون الراء) : صالح بن اسحاق أبو عمر مولى جرم، لغوى مشهور . (عن بغية الوعاة) .

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ » والوسوسة إنما هى إدخالها فى الزلل بالمعصية ؛ وليس للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان ، إنما قدرته [على] إدخاله فى الزلل ، فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان الى مكان بذنبه . وقيل : إن معنى أزلهما من زلّ عن المكان إذا تنحّى ، فيكون فى المعنى كقراءة حمزة من الزوال . قال آمرؤ القيس :

يُزِلّ الغـــلامَ الخِفَّ عن صَهَوَاتِه (١) * ويُلْوِى بأثواب العَنِيفِ المثقَّلِ

وقال أيضا :

كُمَيتٍ يُزِلّ اللِّبْدُ عن حال متنه (٢) * كما زلّت الصَّـــفواء بالمتـنزَّل

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله : «فأخرجهما» تأكيد و بيان للزوال ؛ إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة ، وليس كذلك ، و إنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض لأنهما خلقا منها ، وليكون آدم خليفة فى الأرض . ولم يقصد إبليس — لعنه الله — إخراجه منها و إنما قصد إسقاطه من مرتبته و إبعاده كما أبعد هو ؛ فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده ، بل ازداد سُخنة (٣) عين وغيظ نفس وخيبة ظن . قال الله جلّ ثناؤه : «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى» فصار عليه السلام خليفة الله فى أرضه بعد أن كان جارا له فى داره ؛ فكم بين الخليفــة والجار ! صلى الله عليه وسلم . ونسب ذلك إلى إبليس لأنه كان بسببه و إغوائه . ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولى إغواء آدم ؛ واختلف فى الكيفية ، فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء : أغواهما مشافهة ؛ ودليل ذلك قوله تعالى : «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» والمقاسمة ظاهرها المشافهة . وقال بعضهم ، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن منبّه ، : دخل الجنة فى فم الحيّة وهى ذات أربع كالبُخْتيّة من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض

(١) الخف (بالكسر) : الخفيف . والصهوة : موضع اللبد من ظهر الفرس . و يلوى بها : يذهب بها من شدة عدوه . والعنيف : الذى لا يحسن الركوب ، وليس له رفق بركوب الخيل . والمثقل : الثقيل .

(٢) الكميت : لون ليس بأشقر ولا أدهم . والحال : موضع اللبد من ظهر الفرس . والصفواء (جمع صفاة) : الصخرة الملساء . والمتنزل : الذى يتزل عليها فيزلق عنها .

(٣) سخنت عينه : نقيض قرّت .

نفسه على كثير من الحيوان فلم يدخله إلا الحية؛ فلما دخلت به الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عنها فجاء بها إلى حـواء فقال : انظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها! فلم يزل يغويها حتى أخذتها حوّاء فأكلتها . ثم أغوى آدم، وقالت له حوّاء: كُلْ فإنى قد أكلت فلم يضرنى؛ فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما وحصلا في حكم الذنب؛ فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربه : أين أنت؟ فقال : أنا هذا يارب؛ قال : ألا تخرج؟ قال : أستحى منك يارب؛ قال : اهبط إلى الأرض التي خلقت منها. ولعنت الحية وردّت قوائمها في جوفها وجعلت العداوة بينها وبين بنى آدم؛ ولذلك أمرنا بقتلها، على ما يأتى بيانه . وقيـل لحوّاء : كما أدميت الشجرة فكذلك يصيبك الدم كل شهر وتحملين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا . زاد الطبرى والنقاش : وتكونى سفيهة وقـد كنت حليمة . وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها وإنمـا أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التي أعطاه الله تعالى؛ كما قال صلّى الله عليـه وسلّم : "إن الشيطانـ يجرى من ابن آدم مجرى الدم" . والله أعـلم . وسيأتى في الأعراف أنه لمـا أكل بقى عريانا وطلب ما يستتر به فتباعدت عنـه الأشجار وبكّتوه بالمعصية، فرحمته شجرة التين، فأخذ من ورقه فاستتر به، فبلى بالعرى دون الشجر. والله أعلم. وقيل : إن الحكمة في إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا .

الثالثـــة ــ يذكر أن الحيّـة كانت خادم آدم عليه السلام في الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك؛ فلما أهبطوا تأكدت العـداوة وجعل رزقها التراب، وقيـل لها : أنت عدوّ بنى آدم وهم أعداؤك وحيث لقيك منهم أحد شدخ رأسك . روى ابن عمر عن رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم قال : "خمس يقتلهنّ المُحرِم" فذكر الحيـة فيهنّ . وروى أن إبليس قال لها : أدخليني الجنة وأنت في ذمّتي؛ فكان ابن عباس يقول : اخفروا[1] ذمة إبليس . وروت ساكنة بنت الجعد عن سَرّى بنت نَبهان الغَنوية قالت : سمعت

---

(١) أخفر الذمة : لم يَفِ بها .

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "اقتلوا الحيات صغيرها وكبيرها وأسودها وأبيضها فإن من قتلها كانت له فداء من النار ومن قتلته كان شهيدا" . قال علماؤنا : وإنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس وإعانته على ضرر آدم وولده؛ فلذلك كان من قتــل حية فكأنمـا قتل كافرا . وقــد قال رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم : "لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبدا" . أخرجه مسلم وغيره .

الرابعـــة — روى ابن جريج عن عمرو بن دينار عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبيّ صلّى الله عليــه وسلّم بمنًى فمرّت حيــة فقال رسول الله صلّى الله وســلّم : "اقتلوها" فسبقتنا إلى جُحر فدخلتــه؛ فقال رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم : "هاتوا بسعفة ونار فأضرموها عليه نارا" . قال علماؤنا : وهذا الحديث يخص نهيه عليه السلام عن المُثْلة وعن أن يعذّب أحد بعذاب الله تعالى؛ قالوا : فلم يبق لهـذا العدوّ حرمة حيث فاته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر .

فإن قيــل : قد روى عن إبراهيم النّخعي أنه كره أن تحرق العقرب بالنار، وقال : هو مُثلة . قيل له : يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعمل على الأثر الذي جاء "ألا تعذّبوا بعذاب الله" فكان على هذا سبيل العمل عنده .

فإن قيل : فقــد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبيّ صلّى الله عليــه وسلّم في غار وقد أنزلت عليه : «وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا» فنحن نأخذها من فيه رطبة، إذ خرجت علينا حية، فقال: "اقتلوها"؛ فابتدرناها لنقتلها فسبقتنا؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "وقاها الله شركم كما وقاكم شرها" . فلم يضرم نارا ولا احتال في قتلها . قيل له : يحتمل أن يكون لم يجــد نارا فتركها، أو لم يكن الجحر بهيئة ينتفع بالنار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيــوان . والله أعلم . وقوله : "وقاها الله شركم" أي قتلكم إياها " كما وقاكم شرها " أي لسعها .

الخامســـة ـ الأمر بقتل الحيات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المخوفة من الحيات، فما كان منها متحقق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله ؛ لقوله : "اقتلوا الحيات واقتلوا ذا الطُّفْيَتين (١) والأبتر فإنهما يخطفان البصر ويسقطان الحَبَل". فخصهما بالذكر مع أنهما دخلا في العموم ونبّه على ذلك بسبب عظم ضررهما. وما لم يتحقق ضرره فما كان منها في غير البيوت قتل أيضا لظاهر الأمر العام ، ولأن نوع الحيات غالبه الضرر، فيستصحب ذلك فيه ، ولأنه كله مروّع بصورته وبمـا في النفوس من النفرة عنه ؛ ولذلك قال صلّى الله عليــه وسلّم : "إن الله يحب الشــجاعة ولو على قتــل حية" . فشجّع على قتلها . وقال فيما خرّجه أبو داود من حديث عبدالله بن مسعود مرفوعا : "اقتلوا الحيات [كلهن] (٢) فمن خاف ثأرهن فليس مني" . والله أعلم .

السادســـة ـــ ما كان من الحيات في البيوت فلا يقتــل حتى يؤذن ثلاثة أيام ؛ لقوله عليه السلام : "إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شـيئا فآذنوه ثلاثة أيام" . وقــد حمل بعض العلماء هــذا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجنّ بهــا ؛ قالوا : ولا نعلم هل أسلم من جنّ غير المدينة أحد أو لا . قاله ابن نافع .

وقال مالك : نهى عن قتــل جِنّان (٣) البيوت في جميع البــلاد . وهو الصحيح ؛ لأن الله عز وجل قال : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ » الآية . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " أتاني داعي الجنّ فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن " وفيه : وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة، الحديث . وسيأتي بكماله في سورة « الجن » إن شاء الله تعالى . وإذا ثبت هــذا فلا يقتل شئ منها حتى يُحرّج (٤) عليه وينذر، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

---

(١) ذو الطفيتين : حية لها خطان أسودان يشبهان بالخوصتين . (٢) الزيادة من سنن أبي داود .

(٣) جنان (جمع جان) : ضرب من الحيات أكحل العينين يضرب إلى الصفرة لا يؤذى ، وهو كثير في بيوت الناس . وقيل : هو الدقيق الخفيف . (٤) في هامش نسخة من الأصل : « التحريج هو أن يقول لها : أنت في حرج ـــ أي في ضيق ـــ إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نضيق عليك بالتتبع والطرد والقتل » . وكذلك هو في نهاية ابن الأثير واللسان .

السابعـــة ــ روى الأئمة عن أبى السائب مولى هشام بن زُهرة أنه دخل على أبى سعيد الخُدرىّ فى بيته، قال: فوجدته يصلى، فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته، فسمعت تحريكا فى عَراجينَ ناحية البيت، فالتفتُّ فإذا حيّة، فوثبت لأقتلها؛ فأشار إلىّ أن آجلس فجلست؛ فلما انصرف أشار إلى بيت فى الدار فقال: أترى هذا البيت؟ فقلت نعم؛ قال: كان فيه فتًى منّا حديثُ عهد بعُرس، قال: فخرجنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى الخندق؛ فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنصاف النهار فيرجع الى أهله؛ فاستأذنه يوما، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "خُذ عليك سلاحك فإنى أخشى عليك قُرَيْظَة". فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع؛ فإذا آمرأته بين البابين قائمة فأهوَى اليها بالرمح ليطعُنَها به وأصابته غَيرة؛ فقالت له: آكفف عليك رمحك، وآدخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى! فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى اليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه فى الدار فاضطربت عليه، فما يُدرَى أيُّهما كان أسرع موتا، الحية أم الفتى! قال: فجئنا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فذكرنا ذلك له، وقلنا: آدع الله يحييه [لنا](١)؛ فقال: "استغفروا لأخيكم(٢) ــ ثم قال: ــ إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان". وفى طريق أخرى فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إن لهذه البيوت عوامر(٣) فإذا رأيتم شيئا منها فحرِّجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر ــ وقال لهم: ــ اذهبوا فادفِنوا صاحبكم". قال علماؤنا رحمة الله عليهم: لا يفهم من هذا الحديث أن هذا الجان الذى قتله هذا الفتى كان مسلما وأن الجن قتلته به قصاصا؛ لأنه لو سُلّم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون فى العمد المحض؛ وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمد قتل نفس مسلمة، إذ لم يكن عنده علم من ذلك، وإنما قصد إلى قتل ما سُوّغ قتل نوعه شرعا؛ فهذا قتل خطأ ولا قصاص فيه. فالأوْلى

(١) الزيادة عن صحيح مسلم. (٢) فى صحيح مسلم: «لصاحبكم».

(٣) العوامر: الحيات التى تكون فى البيوت، واحدها عامر وعامرة. وقيل: سميت عوامر لطول أعمارها.

أن يقال : إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عَدْوًا وانتقاما . وقد قتلت سعد ابن عبادة رضى الله عنه ؛ وذلك أنه وجد ميتا فى مغتسله وقد اخضرّ جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول ولا يرون أحدا :

قد قتلنا سيّد الخز * رَج سعدَ بن عُباده
ورميناه بسهميـ * ـن فلم نُخْطِ فؤاده

وإنما قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا" ليبيّن طريقا يحصل به التحرز من قتل المسلم منهم ويتسلط به على قتل الكافر منهم . رُوى من وجوه أن عائشة زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قتلت جانا فأُرِيتْ فى المنام أن قائلا يقول لها : لقد قتلت مسلما ؛ فقالت : لو كان مسلما لم يدخل على أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؛ قال : ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك . فأصبحت فأمرت باثنى عشر ألف درهم فجُعلت فى سبيل الله . وفى رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترة ؛ فتصدقت وأعتقت رقابا . وقال الربيع بن بدر : الجان من الحيات التى نهى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن قتلها هى التى تمشى ولا تلتوى ؛ وعن علقمة نحوه .

الثامنة — فى صفة الإنذار ؛ قال مالك : أحَبُّ إلىّ أن يُنْذَروا ثلاثة أيام . وقاله عيسى بن دينار ؛ وإن ظهر فى اليوم مرارا . ولا يقتصر على إنذاره ثلاث مرار فى يوم واحد حتى يكون فى ثلاثة أيام . وقيل : يكفى ثلاث مرار ؛ لقوله عليه السلام : "فليؤذنه ثلاثا"، وقوله : "حرِّجوا عليه ثلاثا" ولأن ثلاثا للعدد المؤنث ؛ فظهر أن المراد ثلاث مرات . وقول مالك أولى ؛ لقوله عليه السلام : "ثلاثة أيام" . وهو نص صحيح مقيّد لتلك المطلقات ؛ ويحمل ثلاثا على إرادة ليالى الأيام الثلاث ، فغلب الليلة على عادة العرب فى باب التاريخ فانها تغلب فيها التأنيث . قال مالك : ويكفى فى الإنذار أن يقول : أحرِّج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدوا لنا ولا تؤذونا . وذكر ثابت البُنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أنه ذكر عنده حيات البيوت فقال : إذا رأيتم منها شيئا فى مساكنكم فقولوا : أنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم نوح

عليه السلام، وأنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم سليمان عليه السلام؛ فإذا رأيتم منهن شيئا بعدُ فاقتـــلوه .

قلت : وهذا يدل بظاهره أنه يكفى فى الإذن مرّة واحدة ، والحـديث يردّه . والله أعلم . وقد حكى ابن حبيب عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه يقول : "أنشدكنّ بالعهد الذى أخذ عليكنّ سليمان عليه السلام ألا تؤذونا وألا تظهرن علينا" .

التاســـعة — روى جبير بن نُفَير عن أبى ثعلبة الخُشَنى —واسمه جرثوم— أن رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم قال : "الجن على ثلاثة أثلاث فثلث لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وثلث حيّات وكلاب وثلث يَحلّون ويَظعَنون" . وروى أبو الدرداء — واسمه عُويمر — قال قال رســول الله صلّى الله عليه وسلّم : "خلق الجن ثلاثة أثلاث فثلث كلاب وحيّات وخَشاش الأرض وثلث ريح هفّافة وثلث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث فثلث لهم قـلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بهـا إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ ســبيلا وثلث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين وثلث فى ظلّ الله يوم لا ظلّ إلا ظلّه" .

العاشرة — ما كان من الحيوانـــ أصله الأذاة فإنه يقتل ابتداء لأجل إذاته من غير خلاف؛ كالحية والعقرب والفأر والوَزَغ وشبهه . وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وســلّم : "خمسٌ فواسقُ يقتلن فى الحل والحرم" وذكر الحديث .

فالحية أبدت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنــة بين فكّيها؛ ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به . وقال لها إبليس أنت فى ذمتى؛ فأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقتلها وقال : " اقتلوها وان كنتم فى الصلاة " يعنى الحية والعقرب .

والوَزَغة[(1)] نفخت على نار إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فلُعنت . وهذا من نوع ما يروى فى الحية . ورُوى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "من قتل وزغة فكأنما

(١) الوزغة (بالتحريك) : هى التى يقال لها سام أبرص .

قتل كافرا" . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "من قتل وزغة فى أوّل ضربة كتبت له مائة حسـنة وفى الثانية دون ذلك وفى الثالثة دون ذلك" وفى رواية أنه قال : "فى أوّل ضربة سبعون حسنة" .

والفأرة أبدت جوهرها بأن عمدت إلى حبال سفينة نوح عليه السلام فقطعتها . وروى عبد الرحمن بن أبى نُعْم عن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "يقتل المُحْرِم الحية والعقرب والحدأة والسبع العادى والكلب العقور والفُوَيسقة" . واستيقظ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقد أخذت فتيلة لتحرق البيت فأمر رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم بقتلهـا .

والغراب أبدى جوهره حيث بعثه نبىّ الله نوح عليه السلام من السفينة ليأتيه بخبر الأرض فترك أمره وأقبل على جيفة . هذا كله فى معنى الحية؛ فلذلك ذكرناه . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى التعليل فى «المـائدة» وغيرها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ حذفت الألف من « اهبطوا » فى اللفظ لأنها ألف وصل . وحذفت الألف من « قلنـا » فى اللفظ لسكونها وسكون الهاء بعـدها . وروى محمد بن مصَفًّى عن أبى حَيْوَة ضم الباء فى « اهبطوا »، وهى لغـة يقويها أنه غير متعدّ والأكثر فى غير المتعـدّى أن يأتى على يَفْعُـل . والخطاب لآدم وحواء والحيـة والشيطان ؛ فى قول ابن عباس . وقال الحسن : آدم وحواء والوسوسة . وقال مجاهد والحسن أيضا : بنو آدم وبنو إبليس . والهبوط : النزول من فوق إلى أسفل؛ فأهبط آدم بسَرَنْدِيبَ فى الهند بجبل يقال له « بوذ »(١) ومعه ريح الجنة فعَلِق بشجرها وأوديتها فامتلأ ما هناك طِيبا ؛ فمن ثَمّ يؤتى بالطّيب من ريح آدم عليه السلام . وكان السحاب يمسح رأسه فأصلع ، فأورث ولده الصـلع . وفى البخارىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى الله عليـه وسلّم قال : "خلق الله آدم

(١) فى اللسان والقاموس ومعجم البلدان ومروج الذهب : «راهون» .

وطوله ستون ذراعا" الحديث . وأخرجه مسلم وسيأتى . وأُهبطت حوّاء بجُدّة وإبليس بالأُبُلّة[١]، والحية بَيْسان[٢]، وقيل : بسَجِستان[٣] . وسجستان أكثر بلاد الله حيات، ولولا العِرْبَدّ[٤] ما يأكلها ويفنى كثيرا منها لأُخليت سجستان من أجل الحيات؛ ذكره أبو الحسن المسعودى .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ بعضكم مبتدأ ، عدو خبره، والجملة فى موضع نصب على الحال ؛ والتقدير وهذه حالكم . وحذفت الواو من « وبعضكم » لأن فى الكلام عائدا؛ كما يقال : رأيتك السماء تمطر عليك . والعدوّ : خلاف الصديق؛ وهو من عَدَا إذا ظلم . وذئب عَدَوان : يَعدُو على الناس . والعُدْوان : الظلم الصّراح . وقيل : هو مأخوذ من المجاوزة؛ من قولك : لا يعدوك هذا الأمر، أى لا يتجاوزك . وعداه إذا جاوزه؛ فسمّى عدوّا لمجاوزة الحد فى مكروه صاحبه؛ ومنه العَدْوُ بالقَدَم لمجاوزة الشىء ، والمعنيان متقاربان؛ فإن من ظلم فقد تجاوز .

قلت : وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى : « لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » على الإنسان نفسه، وفيه بُعْدٌ وإن كان صحيحا معنًى . يدل عليه قوله عليه السلام : " إن العبد إذا أصبح تقول جوارحه للسانه اتّق الله فينا فإنك إذا استقمت استقمنا وإن اعوججتَ اعوججنا" . فإن قيل : كيف قال « عدوّ » ولم يقل أعداء ؛ ففيه جوابان . أحدهما : أن بعضًا وكُلًّا يخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى ، وذلك فى القرآن ؛ قال الله تعالى : « وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْدًا » على اللفظ ، وقال تعالى : «وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ» على المعنى . والجواب الآخر : أن عدوّا يفرد فى موضع الجمع ؛ قال الله عزّ وجلّ : « وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » بمعنى أعداء ، وقال تعالى : « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ » . وقال ابن فارس : العدوّ اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يجمع .

---

(١) الابلة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى . (عن معجم ياقوت) .

(٢) بيسان : بلدة بمرو وبالشام وموضع باليمامة .

(٣) سجستان (بكسر أوله وثانيه وقد يفتح أوله) : اسم مدينة من مدن خراسان . (عن شرح القاموس) .

(٤) العربد (بكسر العين وسكون الراء وفتح الباء وكسرها وتشديد الدال) : حية تنفخ ولا تؤذى .

الثالثــة — لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة و إهباطه منها عقوبة له ؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِل توبته، وإنما أهبطه إمّا تأديبا وإما تغليظا للمحنة. والصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك، وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم، ويرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروى؛ إذ الجنة والنار ليست بدار تكليف، فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة. ولله أن يفعل ما يشاء. وقد قال: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً». وهــذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمــة شريفة؛ وقد تقدّمت الإشارة إليها مع أنه خلق من الأرض. وإنما قلنا إنما أهبطه بعــد أن تاب عليه لقوله ثانية: «قُلْنَا ٱهْبِطُوا» وسيأتي.

الرابعــة — وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ ابتـداء وخبر، أي موضـع استقرار؛ قاله أبو العالية وابن زيد. وقال السدّى: مستقر يعني القبور.

قلت: وقول الله تعالى: «جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا» يحتمل المعنيين. والله أعلم.

الخامســة — قوله تعالى: ﴿وَمَتَاعٌ﴾ المتاع ما يستمتع به من أكل ولبس وحياة وحديث وأنس وغير ذلك؛ ومنه سمّيت مُتْعة النكاح لأنها يتمتع بها. وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه:

وقفتُ على قبرٍ غريبٍ بقَفْرةٍ * متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارقِ

السادســة — قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ اختلف المتأولون في الحين على أقوال؛ فقالت فرقة: إلى الموت؛ وهــذا قول من يقول: المستقَر هو المقام في الدنيا. وقيل: إلى قيام الساعة؛ وهــذا قول من يقول: المســتقر هو القبور. وقال الربيع: إلى حين إلى أجل. والحين: الوقت البعيد؛ فحينئذ تبعيدٌ من قولك الآن. قال خُوَيلد:

كَابِي الرَّمَادِ عظيمُ القِــدْرِ جَفْنَتُه * حين الشتاءِ كحوض المَنْهَلِ اللَّقِفِ

لَقِف الحوض لَقَفا، أي تهوّر من أسفله واتسع. وربما أدخلوا عليه التاء. قال أبو وَجْزَة:

العاطفــون تَحِينَ ما مِنْ عاطفٍ * والمُطعِمون زمانَ أينَ المُطعِمُ

والحين أيضا : المدة ؛ ومنـه قوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » . والحين : الساعة ؛ قال الله تعالى : « أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ » . قال ابن عرفة : الحين القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها . وقوله : « فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ » أى حتى تفنى آجالهم . وقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ » أى كل سنة ؛ وقيل : بل كل ستة أشهر ؛ وقيل : بل غُدْوةً وعَشيًّا . قال الأزهرى : الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت . والمعنى أنه ينتفع بها فى كل وقت ولا ينقطع نفعها البتة . قال : والحين يوم القيامة . والحين : الغدوة والعشـية ؛ قال الله تعالى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » . ويقال : عاملته محاينة، من الحين . وأحينت بالمكان : إذا أقمت به حينا . وحان حينُ كذا أى قرب . قالت بُثَينة :

وإنّ سُلوّى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدهر ماحانت ولا حان حينُها

السابعــة — لما اختلف أهل اللسان فى الحين اختلف فيـه أيضا علماؤنا وغيرهم ؛ فقال الفـراء : الحين حينان : حين لا يوقف على حدّه ، والحين الذى ذكر الله جلّ ثناؤه : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » ستة أشهر . قال ابن العربى : الحين المجهول لا يتعلق به حكم ، والحين المعلوم هو الذى تتعلق به الأحكام ويرتبط به التكليف ، وأكثر المعلوم سنة . ومالك يرى فى الأحكام والأيمان أعم الأسماء والأزمنة . والشافعى يرى الأقل . وأبو حنيفة توسط فقال : ستة أشهر . ولا معنى لقوله ؛ لأن المقدّرات عنده لا تثبت قياسا ، وليس فيـه نصّ عن صاحب الشريعة ، وإنما المعوّل على المعنى بعـد معرفة مقتضى اللفظ لغة . فمن نذر أن يصلى حينا فيحمل على ركعة عنـد الشافعى لأنه أقل النـافلة ، قياسا على ركعة الوتر . وقال مالك وأصحابه : أقل النـافلة ركعتان فيقدّر الزمان بتقدير الفعل . وذكر ابن خُوَيْزِ مَنْدادُ فى أحكامه أن من حلف ألا يكلم فلانا حينا أو لا يفعل كذا حينا ، أن الحين سـنة . قال : واتفقوا فى الأحكام أن من حلف ألا يفعل كذا حينا أو لا يكلم فلانا حينا ، أن الزيادة على سنة لم تدخل فى يمينه .

قلت : هــذا الاتفاق إنما هو فى المذهب . قال مالك رحمه الله : من حلف ألا يفعل شيئا الى حين أو زمان أو دهر، فذلك كله سنة . وقال عنه ابن وهب : إنه شك فى الدهر أن يكون سنة . وحكى ابن المنذر عن يعقوب وابن الحسن : أن الدهر ستة أشهر . وعن ابن عباس وأصحاب الرأى وعكرمة وسعيد بن جبير وعامر الشعبيّ وعبيدة فى قوله تعالى : «تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» أنه ستة أشهر . وقال الأوزاعى وأبو عبيدة : الحين ستة أشهر . وليس عند الشافعى فى الحين وقت معلوم، ولا للحين غاية؛ قد يكون الحين عنده مدّة الدنيا؛ وقال : لا نحنثه أبدا، والورع أن يقضيه قبل انقضاء يوم . وقال أبو ثور وغيره : الحين والزمان على ما تحتمله اللغة، يقال : قد جئت من حين، ولعله لم يجئ من نصف يوم . قال الكِيَا الطبرى الشافعى : وبالجملة الحين له مصارف، ولم ير الشافعى تعيين محمل من هذه المحامل ؛ لأنه مجمل لم يوضع فى اللغة لمعنًى معين . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى : «إِلَى حِينٍ» فائدة بشارة الى آدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ومنتقل الى الجنة التى وعد بالرجوع اليها؛ وهى لغير آدم دالة على المعاد فحسب، والله أعلم .

قوله تعالى : فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ تلقى قيل معناه : فهم وفطن . وقيل : قبل وأخذ؛ وكان عليه السلام يتلقّ الوحى، أى يستقبله ويأخذه ويتلقفه . تقول : خرجنا نتلقى الحجيج، أى نستقبلهم . وقيل : معنى تلقّى تلقّن . وهذا فى المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلقى من التلقن فى الأصل ؛ لأن أحد الحرفين إنما يُقلب ياء إذا تجانسا ، مثل تظنّى من تظنّن، وتقصّى من تقصص؛ ومثله تسرّيت من تسرّرت، وأمليت من أمللت وشبه ذلك؛ ولهذا لا يقال : تقبّى من تقبّل، ولا تلقّى من تلقن؛ فاعلم . وحكى مكيّ أنه ألهمها فانتفع بها . وقال الحسن : قبولها تعلمه لها وعمله بها .

الثانيـــة — واختلف أهل التأويل فى الكلمات ؛ فقال ابن عباس والحسن وسـعيد ابن جبير والضحاك ومجاهد هى قوله : «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» . وعن مجاهد أيضا : سبحانك اللّهمّ لا إله إلا أنت ربى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم . وقالت طائفـة : رأى مكتوبا على ساق العـرش «محمد رسـول الله» فتشفّع بذلك، فهى الكلمات . وقالت طائفـة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء . وقيل : الندم والاستغفار والحزن . قال ابن عطية : هذا يقتضى أن آدم عليه السلام لم يقل شيئا إلا الاستغفار المعهود . وسئل بعض السلف عما ينبغى أن يقوله المذنب؛ فقال : يقـول ما قاله أبواه : «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا» الآية . وقال موسى : «رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى» . وقال يونس : «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» . وعن ابن عباس ووهب بن منبه : أن الكلمات «سـبحانك اللّهمّ وبحمـدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفرلى إنك خير الغافرين، سبحانك اللّهمّ وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فتب علىّ إنك أنت التوّاب الرحيم» . وقال محمـد بن كعب هى قوله : «لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سـوءا وظلمت نفسى فتب علىّ إنك أنت التوّاب الرحيم . لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم . لا إله إلا أنت سـبحانك وبحمدك عملت سـوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أرحم الراحمين» . وقيل : الكلمات قوله حين عطس : «الحمـد لله» . والكلمات : جمع كلمة ؛ والكلمة تقع على القليل والكثير . وقد تقدّم[1] .

الثـالثة — قوله تعالى : ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أى قبـل توبته أو وفقه للتوبة . وكان ذلك فى يوم عاشـوراء فى يوم جمعـة ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وتاب العبـد : رجع الى طاعة ربه . وعبد توّاب : كثير الرجوع الى الطاعة . وأصـل التوبة الرجوع؛ يقال : تاب وثاب وآب وأناب : رجع .

(١) راجع ص ٦٧ من هذا الجزء .

الرابعـــة — إن قيـل : لم قال « عليه » ولم يقل عليهما ، وحوّاء مشاركة له فى الذنب بإجماع ، وقد قال : « وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ » و « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » ؛ فالجواب أن آدم عليه السلام لما خوطب فى أوّل القصة بقوله : « اسْكُنْ » خصّه بالذكر فى التلقّى ؛ فلذلك كملت القصة بذكره وحده . وأيضا فلأن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله السّتر لها ؛ ولذلك لم يذكرها فى المعصية فى قوله : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى » . وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل فى غالب الأمر لم تذكر ، كما لم يذكر فتى موسى مع موسى فى قوله : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ » . وقيل : إنه دل بذكر التوبة عليه أنه تاب عليهما إذ أمرهما سواء ؛ قاله الحسن . وقيل : إنه مثل قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا » أى التجارة لأنها كانت مقصود القوم ، وأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما ، والمعنى متقارب . وقال الشاعر [(١)] :

رمانى بأمر كنتُ منه ووالدِى　*　بريئًا ومن فوق الطّوِىّ [(٢)] رمانِى

وفى التنزيل : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ » فحذف إيجازا واختصارا .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه التوّاب ، وتكرر فى القرآن معرّفا ومنكرا واسما وفعلا . وقد يطلق على العبد أيضا توّاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » . قال ابن العربى : ولعلمائنا فى وصف الربّ بأنه توّاب ثلاثة أقوال ؛ أحدها : أنه يجوز فى حق الربّ سبحانه وتعالى فيُدْعى به كما فى الكتاب والسنة ولا يتأوّل . وقال آخرون : هو وصف حقيقىّ لله سبحانه وتعالى ، وتوبة الله على العبد رجوعه من حال المعصية إلى حال الطاعة . وقال آخرون : توبة الله على العبد قبوله توبته ، وذلك يحتمل أن يرجع الى قوله سبحانه وتعالى : قبلت توبتك ، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع فى قلب المسيء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة .

---

(١) هو عمرو بن أحمر الباهلى . (٢) الذى فى شرح شواهد سيبويه : «ومن أجل الطوى» . والطوى : البئر المطوية بالحجارة . قال الشنتمرى : «وصف فى البيت رجلا كانت بينه وبينه مشاجرة فى بئر ؛ فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التى كانت بينهما» .

السادسة — لا يجوز أن يقال فى حق الله تعالى: تائب، اسم فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه، أو نبيّه عليه السلام، أو جماعة المسلمين، وإن كان فى اللغة محتملا جائزا. هذا هو الصحيح فى هذا الباب، على ما بيّناه فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى. قال الله تعالى: «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ». وقال: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ». وإنما قيل لله عزّ وجلّ: تواب، لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه.

السابعة — اعلم أنه ليس لأحد قدرة على خلق التوبة، لأن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بخلق الأعمال، خلافا للمعتزلة ومن قال بقولهم. وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه. قال علماؤنا: وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم فى الدّين، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله جلّ وعزّ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتى الحبر أو الراهب فيعطيه شيئا ويحط عنه ذنوبه «افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

الثامنة — قرأ ابن كثير: «فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ». والباقون برفع آدم ونصب كلمات. والقراءتان ترجعان الى معنًى؛ لأن آدم إذا تلقّى الكلمات فقد تلقّته. وقيل: لما كانت الكلمات هى المنقذة لآدم بتوفيق الله تعالى له لقبوله إياها ودعائه بها كانت الكلمات فاعلة، وكان الأصل على هذه القراءة «فتلقت آدم من ربه كلمات»؛ لكن لما بَعُد ما بين المؤنث وفعله حسن حذف علامة التأنيث. وهذا أصل يجرى فى كل القرآن والكلام إذا جاء فعل المؤنث بغير علامة؛ ومنه قولهم: حضر القاضىَ اليومَ امرأةٌ. وقيل: إن الكلمات لما لم تكن تأنيثا حقيقيا حمل على معنى الكلم، فذكّر. وقرأ الأعمش: «آدمْ مّن ربه» مدغما. وقرأ أبو نوفل بن أبى عقرب: «أنه» بفتح الهمزة، على معنى لأنه، وكسر الباقون على الاستئناف. وأدغم الهاء فى الهاء أبو عمرو وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهم. وقيل: لا يجوز،

لأن بينهما واوا فى اللفظ لا فى الخط . قال النحاس : أجاز سيبويه أن تحذف هذه الواو، وأنشد :

له زَجَلٌ كأنّهُ صوتُ حادٍ * اذا طَلَب الوَسِيقةَ أو زَمِيرُ (1)

فعلى هذا يجوز الإدغام، وهو رفع بالابتداء . التواب خبره، والجملة خبر إن . ويجوز أن يكون هو توكيدا للهاء، ويجوز أن تكون فاصلة، على ما تقدّم .

قال سعيد بن جبير : لما أُهبط آدم الى الأرض لم يكن فيها شىء غير النسر فى البر، والحوت فى البحر؛ فكان النسر يأوى الى الحوت فيبيت عنده؛ فلما رأى النسر آدم قال : ياحوت، لقد اهبط اليوم الى الأرض شىء يمشى على رجليه ويبطش بيديه؛ فقال الحوت لئن كنت صادقا مالى منه فى البحر ملجأ، ولا لك فى البر منه مخلص ! .

قوله تعالى : قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ كرّر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده؛ كما تقول لرجل : قم قم . وقيل: كرّر الأمر لما علّق بكل أمر منهما حكما غير حكم الآخر؛ فعلّق بالأوّل العداوة، وبالثانى إتيان الهدى . وقيل : الهبوط الأوّل من الجنة إلى السماء، والثانى من السماء الى الأرض . وعلى هذا يكون فيه دليل على أن الجنة فى السماء السابعة، كما دلّ عليه حديث الإسراء، على ما يأتى .

﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . وقال وهب بن منبّه : لما هبط آدم عليه السلام الى الأرض قال إبليس للسباع : إن هذا عدوّ لكم فاهلكوه؛ فاجتمعوا وولّوا أمرهم الى الكلب

(1) البيت للشماخ . وصف حمار وحش هائجا فيقول : إذا طلب وسيقته — وهى أتانه التى يضمها — صوّت بها، وكأن صوته لما فيه من الزجل والحنين ومن حسن الترجيع والتطريب صوت حاد بإبل يتغنى ويطربها، أو صوت مزمار . والزجل صوت فيه حنين وترنم . (عن شرح الشواهد) .

وقالوا : أنت أشجعنا ، وجعلوه رئيسا ؛ فلما رأى ذلك آدم عليـه السلام تحيّر فى ذلك ؛ فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : امسح يدك على رأس الكلب ، ففعل ؛ فلما رأت السباع أن الكلب ألف آدم تفرقوا . واستأمنه الكلب فأمنه آدم ؛ فبقى معه ومع أولاده . وقال الترمذىّ الحكيم نحو هذا ، وأن آدم عليه السلام لمـا أهبط الى الأرض جاء إبليس الى السباع فأشلاهم (١) على آدم ليؤذوه ؛ وكان أشدّهم عليه الكلب ، فأميت فؤاده ؛ فرُوى فى الخبر أن جبريل عليـه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعها فاطمأن اليه وألفه ؛ فصار ممن يحرسه ويحرس ولده ويألفهم . وبموت فؤاده يفزع من الآدميين ؛ فلو رمى بمدرٍ ولى هاربا ثم يعود آلفا لهم . ففيه شعبة من إبليس ، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام ؛ فهو بشعبة إبليس ينبح ويَهِرّ ويعـدو على الآدمىّ ، وبمسحة آدم مات فؤاده حتى ذلّ وانقاد وألف به وبولده يحرسهم ، ولهثه (٢) على كل أحواله من موت فؤاده ؛ ولذلك شبّه الله سبحانه وتعالى العلماءَ السوء بالكلب ، على ما يأتى بيانه فى « الأعراف » إن شاء الله تعالى . ونزلت عليه تلك العصا التى جعلها الله آية لموسى ، فكان يطرد بها السباع عن نفسه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى ﴾ اختلف فى معنى قوله : « هـدى » ؛ فقيل : كتاب الله ، قاله السدى . وقيل : التوفيق للهداية . وقالت فرقة : الهدى الرسل ، وهى الى آدم من الملائكة ، وإلى بنيه من البشر ؛ كما جاء فى حديث أبى ذرّ ، وخرّجه الآجُرّى . وفى قوله : « مِنِّى » إشارة إلى أن أفعال العباد خلقٌ لله تعالى ، خلافا للقَدَرية وغيرهم ، كما تقدّم (٣) . وقرأ الجحدرىّ « هُـدَىّ » وهو لغـة هذيل ، يقولون : هُدَىّ وعَصَىّ ومَحْيَىّ . وأنشد النحويون لأبى ذؤيب يرثى بنيه :

سَـبقُوا هَوَىّ وأعنقوا لهواهمُ * فتخرّموا ولكل جَنبٍ مصرعُ (٤)

---

(١) أشلاهم : أغراهم . (٢) لهث الكلب : إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش .

(٣) راجع المسئلة الثالثة ص ١٨٦ من هذا الجزء . (٤) هوىّ : يريدهواى ، أى ماتوا قبلى وكنت أحب أن أموت قبلهـم . وأعنقوا لهواهم ، جعلهم كأنهم هوُوا الذهاب إلى المنية لسرعتهم إليها وهم لم يهووها . فتخرموا ، أى أخذوا واحدا واحدا .

قال النحاس : وعلة هـذه اللغة عند الخليل وسيبويه أن سـبيل ياء الإضافة أن يكسر ما قبلها؛ فلما لم يجز أن تحرك الألف أبدلت ياء وأدغمت . و «ما» فى قوله : «إما» زائدة على إن التى للشرط، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثـانى فى قوله : «فَمَنْ تَبِـعَ» . و«من» فى موضع رفع بالابتداء . و«تبع» فى موضع جزم بالشرط . ﴿ فَلَا خَوْفٌ ﴾ جوابه. قال سـيبويه : الشرط الثـانى وجوابه هما جواب الأول . وقال الكسائى : « فلا خوف عليهم» جواب الشرطين جميعا .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الخوف هو الذعر ولا يكون إلا فى المستقبل . وخاوفنى فلان فخُفْته، أى كنت أشدّ خوفا منه . والتّخوف : التّنقص؛ ومنـه قوله تعالى : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » . وقرأ الزهرىّ والحسن وعيسى بن عمر وابن أبى إسحاق ويعقوب : «فلا خوفَ» بفتح الفاء على التبرئة . والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء؛ لأن الثانى معرفة لا يكون فيه إلا الرفع؛ لأنّ «لا» لا تعمل فى معرفة، فاختاروا فى الأول الرفع أيضا ليكون الكلام من وجه واحد. ويجوز أن تكون «لا» فى قولك: فلا خوف، بمعنى ليس .

والحُزن والحَزن : ضـدّ السرور ، ولا يكون إلا على ماض . وحزِن الرجل (بالكسر) فهو حزِن وحزين؛ وأحزنه غيره وحَزَنه أيضا، مثـل أسلكه وسَلَكه ؛ ومحزون بُنى عليه . قال اليزيدى : حَزَنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم؛ وقد قرئ بهما . واحتزن وتحزّن بمعنًى . والمعنى فى الآية: فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا . وقيل : ليس فيه دليل على نفى أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لمـا وصفه الله تعالى ورسوله من شـدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين ، وإذا صاروا إلى رحمته فكأنهـم لم يخافوا . والله أعلم .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّـارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى أشركوا، لقوله : ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ الصحبة : الاقتران بالشيء فى حالة مّا ، فى زمان مّا ، فان كانت الملازمـة والخلطة فهى كمال الصحبة ، وهكذا هى صحبة أهل النـار لها . وبهذا القول ينفك الخلاف فى تسمية الصحابة رضى الله عنهـم إذ مراتبهم متباينة ، على ما نبيّنه فى «براءة» إن شاء الله . وباقى ألفاظ الآية تقدّم معناها والحمد لله .

قوله تعالى : يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ نداء مضاف ، علامة النصب فيه الياء ، وحذفت منه النون للإضافة . الواحد ٱبن، والأصل فيه بَنَيٌ، وقيل : بَنَوٌ، فمن قال : المحذوف منه واو احتج بقولهم : البنوّة . وهـذا لا حجة فيه؛ لأنهم قد قالوا : الفتوّة ، وأصله اليـاء . وقال الزجاج : المحذوف منه عندى ياء كأنه من بنيت . الأخفش : اختار أن يكون المحذوف منه الواو لأن حذفها أكثر لثقلها . ويقال : ابن بيّن البنوّة، والتصغير بُنَيّ . قال الفراء : يقال : يا بُنَيِّ ويا بُنَيَّ لغتان ، مثل يا أبتِ ويا أبتَ ؛ وقرئ بهما . وهو مشتق من البنـاء وهو وضع الشيء على الشيء؛ والابن فرع للأب وهو موضوع عليه .

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم عليهم السلام . قال أبو الفرج الجوزيّ : وليس فى الأنبيـاء من له اسمان غيره، إلا نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم فإن له أسمـاء كثيرة . ذكره فى كتاب «فهوم الآثار» له .

قلت : وقد قيل فى المسيح إنه ٱسم علم لعيسى عليه السلام غير مشتق ، وقد سمّاه روحا وكلمة ، وكانوا يسمونه أبيل الأبيلين؛ ذكره الجوهرى فى الصحاح . وذكر البيهقى فى دلائل النبوّة عن الخليل بن أحمد : خمسة من الأنبياء ذوو ٱسمين ، محمد وأحـمـد نبيّنا صلّى الله عليـه وسلّم ، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون ، وإلياس وذو الكفل ، صلى الله عليهم وسلم .

قلت : قد ذكرنا أن لعيسى أربعة أسماء، وأما نبينا صلّى الله عليه وسلّم فله أسماء كثيرة، بيانها فى مواضعها .

وإسرائيل اسم أعجمى، ولذلك لم ينصرف؛ وهو فى موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع لغـات : إسرائيل ، وهى لغة القرآن . وإسرائيل بمدّة مهموزة مختلسة، حكاها شَنَبُوذ عن وَرْش . وإسرايِيل بمدة بعد اليـاء من غير همز، وهى قراءة الأعمش وعيسى بن عمر؛ وقرأ الحسن والزهرىّ بغير همز ولا مـدّ . وإسرائل بغـير ياء بهمزة مكسورة . وإسرأَل بهمزة مفتوحة . وتميم يقولون : إسرائين بالنـون . ومعنى إسرائيل عبـد الله . قال ابن عباس : إسرا بالعبرانية هو عبد، وإيل هو الله . وقيل : إسرا هو صفوة الله، وإيل هو الله . وقيل : إسرا من الشدّ؛ فكأن إسرائيل الذى شدّه الله وأتقن خلقه؛ ذكره المهدوى . وقال السهيلى : سمّى إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر الى الله تعالى؛ فسمى إسرائيل أى أسرى الى الله ونحو هذا؛ فيكون بعض الاسم عبرانيا وبعضه موافقا للعرب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ الذّكر اسم مشترك ، فالذكر بالقلب ضدّ النسيان، والذكر باللسان ضدّ الإنصات . وذكرت الشيء بلسانى وقلبى ذِكْرا . واجعله منـك على ذُكْر (بضم الذال) أى لا تنسـه . قال الكسائى : ما كان بالضمير فهو مضموم الذال، وما كان باللسان فهـو مكسور الذال . وقال غيره : هما لغتان ، يقال : ذِكْر وذُكْر، ومعناهما واحد . والذَّكَر (بفتح الذال) خلاف الأنثى . والذكر أيضا الشرف، ومنه قوله : «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» . قال ابن الأنبارى : والمعنى فى الآية آذكروا شكر نعمتى، لحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة . وقيل : إنه أراد الذكر بالقلب وهو المطلوب، أى لا تغفلوا عن نعمتى التى أنعمت عليكم ولا تناسوها ، وهو حسن . والنعمة هنا اسم جنس، فهى مفردة بمعنى الجمع، قال الله تعالى : «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» أى نعمه . ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون، وجعل منهـم أنبياء، وأنزل عليهـم الكتب والمنّ والسّلوى، وفجّر لهم

من الحجر المـاء، الى ما استودعهم من التوراة التى فيها صـفة محمد صلّى الله عليه وسـلم ونعته ورسالته، والنعم على الآباء نعم على الأبناء، لأنهم يشرُفون بشرف آبائهم .

تنبيـــه ـــ قال أرباب المعانى : ربط سـبحانه وتعالى بنى إسرائيـل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد صلّى الله عليــه وسلّم ودعاهم الى ذكره، فقـال : « ٱذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » ليكون نظر الأمم من النعمة الى المنعم، ونظر أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم من المنعم الى النعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أمر وجوابه . وقـرأ الزهرى : أوَفّ (بفتح الواو وشـد الفـاء) للتكثير . واختلف فى هذا العهد ما هو ؛ فقال الحسن : عهده قوله : « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ »، وقوله : « وَلَقَـدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً » . وقيل هو قوله : « وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ » . وقال الزجاج : أوفوا بعهـدى الذى عهـدت إليكم فى التوراة من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، أوف بعهدكم بمـا ضمنت لكم على ذلك، إن أوفيتم به فلكم الجنة . وقيل : أوفوا بعهدى فى أداء الفرائض على السنة والإخلاص، أوف بقبولهـا منكم ومجازاتكم عليها . وقال بعضهم : أوفوا بعهدى فى العبادات، أوف بعهدكم أى أوصلكم إلى منازل الرعايات . وقيل : أوفوا بعهدى فى حفظ آداب الظواهر، أوف بعهدكم بتزيين سرائركم . وقيــل : هو عام فى جميع أوامره ونواهيه ووصاياه؛ فيدخل فى ذلك ذكر محمد صلّى الله عليه وسلّم الذى فى التوراة وغيره . هـذا قول الجمهور من العلماء، وهو الصحيح . وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة .

قلت : وما طُلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا ؛ قال الله تعالى : « أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ »، « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ »؛ وهو كثير . ووفاؤهم بعهد الله أمارة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له، بل ذلك تفضّل منه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ أى خافون . والرُّهْب والرَّهَب والرَّهْبَـة : الخوف . ويتضمّن الأمر به معنى التهديد . وسقطت الياء بعـد النون لأنها رأس آية . وقرأ ابن أبى

إسحاق : فارهبونى بالياء، وكذا فاتقونى ، على الأصل . وإياى منصوب بإضمار فعل ، وكذا الاختيار فى الأمر والنهى والاستفهام ؛ التقدير : وإياى ارهبوا فارهبون . ويجوز فى الكلام وأنا فارهبون ، على الابتـداء والخبر . وكون « فارهبون » الخبر على تقـدير الحذف ، المعنى وأنا ربكم فارهبون .

قوله تعالى : وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ أى صدقوا، يعنى بالقرآن . ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال من الضمير فى أنزلت؛ التقدير بمـا أنزلته مصدقا، والعامل فيـه أنزلت . ويجوز أن يكون حالا من ما ، والعامل فيه آمنوا؛ التقدير آمنوا بالقرآن مصدقا . ويجوز أن تكون «صدرية»، التقدير آمنو بإنزالى . ﴿ لِمَا مَعَكُمْ ﴾ يعنى من التوراة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ الضمير فى به قيـل هو عائد على محمد صلى الله عليـه وسلم، قاله أبو العاليـة . وقال ابن جريج : هو عائد على القرآن، إذ تضـمنه قوله : « بِمَا أَنْزَلْتُ » . وقيل : على التوراة إذ تضمنها قوله : « لِمَا مَعَكُمْ » .

فإن قيل : كيف قال «كافر» ولم يقل كافرين؛ قيل : التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر . وزعم الأخفش والفراء أنه محمول على معنى الفعل؛ لأن المعنى أول من كفر به . وحكى سيبويه : هو أظرف الفتيان وأجمله ، وكان ظاهر الكلام هو أظرف فتى وأجمله . وقال : أول كافر به ، وقد كان قد كفر قبلهم كفار قريش ، فإنما معناه من أهل الكتاب؛ إذ هم منظور إليهم فى مثل هذا؛ لأنهم حجة مظنون بهم علم . و «أول» عند سيبويه نصب على خبر كان . وهو مما لم ينطق منه بفعل . وهو على أفعل ، عينه وفاؤه واو . وإنمـا لم ينطق منه بفعل لئلا يعتل من جهتين العين والفاء؛ وهذا مذهب البصريين . وقال الكوفيون : هو من وأل إذا نجا؛ فأصله أوأل ، خففت الهمزة وأبدلت واوا وأدغمت فقيل أول، كما تخفف همزة خطيئة . قال الجوهرى :

« والجمع الأوائل والأوالِي أيضا على القلب . وقال قوم : أصله وَوَّل على فَوْعَل؛ فقلبت الواو الأولى همـزة . وإنمـا لم يجمع على أواوِل لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع » . وقيـل : هو أفعل من آل يؤول، فأصله أأْوَل ؛ قلب بجاء أعفل مقلوبا من أفعل ، فسُهّل وأبدل وأُدغم .

مســـئلة ـــ لا حجة فى هذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب وهم الكوفيون ومن وافقهم ؛ لأن المقصود من الكلام النهى عن الكفر أوّلا وآخرا ؛ وخص الأوّل بالذكر لأن التقدّم[1] فيه أغلظ، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحدا؛ وهذا واضح .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ معطوف على قوله : « وَلَا تَكُونُوا » . نهاهم عن أن يكونوا أوّل من كفر وألّا يأخذوا على آيات الله ثمنا، أى على تغيير صـفة محمد صلى الله عليـه وسلم رِشًى . وكان الأحبار يفعلون ذلك فنهوا عنه ؛ قاله قوم من أهل التأويل ، منهم الحسن وغيره . وقيل : كانت لهم مآكل يأكلونها على العلم كالراتب، فنهوا عن ذلك . وقيل : إن الأحبار كانوا يعلّمون دينهـم بالأجرة فنهوا عن ذلك . وفى كتبهم : يابن آدم علّم مجانا كما عُلّمت مجانا؛ أى باطلا بغير أجرة؛ قاله أبو العالية . وقيـل : المعنى ولا تشتروا بأوامرى ونواهىّ وآياتى ثمنـا قليلا ، يعنى الدنيا ومدّتهـا والعيش الذى هو نزر لا خطر له ؛ فسمى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا لأنهم جعلوه عوضا؛ فانطلق عليه اسم الثمن وإن لم يكن ثمنا . وقد تقدّم هذا المعنى . وقال الشاعر :

إن كنتَ حاولتَ ذنبًا أو ظفرتَ به * فـا أصبتَ بترك الحج من ثمن

قلت : وهـذه الآية وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل فهى تتناول مَن فعل فعلهم . فمن أخذ رشـوة على تغيير حق أو إبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما علمه

(١) فى نسخة من الأصل : « ... لأن النقل منه أعظم » .

وقد تعيّن عليه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل فى مقتضى الآية . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من تعلّم علما مما يُبتَغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة" يعنى ريحها .

الثانيــة — وقد اختلف العلماء فى أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم — لهذه الآية وما كان فى معناها — ؛ فمنع ذلك الزهرىّ وأصحاب الرأى وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، لأن تعليمه واجب من الواجبات التى يحتاج فيها إلى نية التقرب والإخلاص ؛ فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام . وقد قال تعالى : « وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا » . وروى ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "معلّمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين" . وروى أبو هريرة قال : قلت يا رسول الله ما تقول فى المعلمين ؟ قال : "درهمهم حرام وثوبهم سُحْت وكلامهم رياء" . وروى عبادة بن الصامت قال : علّمت ناسًا من أهل الصُّفَّة القرآن والكتابة ، فأهدى إلىّ رجل منهم قوسا ؛ فقلت : ليست بمال وأرمى عنها فى سبيل الله ، فسألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : "إن سرّك أن تطوّق بها طوقا من نار فاقبلها" . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء ؛ لقوله عليه السلام فى حديث ابن عباس — حديث الرُّقْية — : "إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله" . أخرجه البخارى ؛ وهو نص يرفع الخلاف ، فينبغى أن يعوّل عليه .

وأمّا ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد ، لأنه فى مقابلة النص ؛ ثم إن بينهما فُرقانا ، أن الصلاة والصوم عبادات مختصة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلم ؛ فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن . قال ابن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة ؛ ويجوّز أن يستأجر الرجلَ يكتب له لوحا أو شعرا أو غناء معلوما بأجر معلوم ؛ فيجوّز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة .

وأما الجواب عن الآية — فالمراد بها بنو إسرائيـل؛ وشَرعُ مَن قبلنا هل هو شرع لنا ، فيه خلاف، وهو لا يقول به .

جواب ثان — وهو أن تكون الآية فيمن تعيّن عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا . فأما إذا لم يتعيّن فيجوز له أخذ الأجرة بدليـل السنة فى ذلك ، وقد يتعيّن عليـه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته . ويجب على الإمام أن يعيّن لإقامة الدين إعانته ، وإلا فعلى المسلمين ؛ لأن الصدّيق رضى الله عنه لمـا ولى الخلافة وعُيِّن لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله ، فأخذ ثيابا وخرج إلى السوق ؛ فقيل له فى ذلك ، فقـال : ومن أين أنفق على عيالى ! فردّوه وفرضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شىء منها يقوم على ساق ، ولا يصح منها شىء عند أهل العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه سعيـد بن طريف عن عكرمة عنه ؛ وسـعيد متروك . وأما حديث أبى هريرة فرواه علىّ بن عاصم عن حماد بن سَلَمة عن أبى جرهم عنه؛وأبو جرهم مجهول لايعرف،ولم يرو حمـاد بن سَـلَمة عن أحد يقال له أبو جرهم، وإنما رواه عن أبى المُهَزِّم وهو متروك الحديث أيضا، وهو حديث لا أصل له . وأما حديث عبادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصلىّ عن عبادة بن نُسىّ عن الأسود بن ثعلبة عنه ؛ والمغيرة معروف(١) عند أهل العلم ولكنه له مناكير، هذا منها ؛ قاله أبو عمر . ثم قال : وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العـلم؛ لأنه روى عن عبـادة من وجهين، وروى عن أبىّ بن كعب من حديث موسى بن علىّ عن أبيه عن أبىّ ، وهو منقطع . وليس فى الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ، وحديث عبادة وأبىّ يحتمل التأويل ؛ لأنه جائز أن يكون علّمه لله ثم أخذ عليه أجرا . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "خير الناس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلّمون كلما خُلق الدِّين جددوه أُعطوهم ولا تستأجروهم فتحرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبىّ قل بسم الله الرحمن الرحيم فقـال الصبىّ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبى وبراءة للعلم وبراءة لأبويه من النار" .

(١) فى نسخة : « معروف بحمل العلم » .

الثالثـــة — واختلف العلماء في حكم المصلي بأجرة؛ فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من آستؤجر في رمضان يقوم للناس؛ فقال: أرجو ألا يكون به بأس؛ وهو أشد كراهة له في الفريضة. وقال الشافعي وأصحابه وأبو ثور: لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه. وقال الأوزاعي: لا صلاة له. وكرهه أبو حنيفة وأصحابه، على ما تقدّم. قال آبن عبد البر: وهذ المسئلة معلقة من التي قبلها وأصلهما واحد.

قلت: و يأتي لهذا أصل آخر من الكتاب في « براءة » إن شاء الله تعالى. وكره آبن القاسم أخذ الأجرة على تعليم الشعر والنحو. وقال ابن حبيب: لا بأس بالإجارة على تعليم الشعر والرسائل وأيام العرب؛ ويكره من الشعر ما فيه الخمر والخنا والهجاء. قال أبو الحسن اللخميّ: ويلزم على قوله أن يجيز الإجارة على كتبه ويُجيز بيع كتبه. وأما الغناء والنوح فممنوع على كل حال.

الرابعـــة — روى الدارميّ أبو محمد في مسنده أخبرنا يعقوب بن ابراهيم قال حدثنا محمد ابن عمر بن الكُمَيت قال حدثنا عليّ بن وهب الهمدانيّ قال أخبرنا الضحاك بن موسى قال: مرّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة — وهو يريد مكة — فأقام بها أياما؛ فقال: هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم؟ قالوا له: أبو حازم؛ فأرسل إليه؛ فلما دخل عليه قال له: يا أبا حازم ما هـذا الجفاء؟ قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين وأيّ جفاء رأيت مني؟ قال: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني؛ قال: يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرّفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك! قال: فالتفتَ إلى محمد ابن شهـاب الزهريّ فقال: أصاب الشيخ وأخطأت: قال سليمان: يا أبا حازم مالنا نكره الموت؟! قال: لأنكم أخربتم الآخرة وعمـرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب؛ قال: أصبتَ يا أبا حازم، فكيف القدوم غدا على الله تعالى؟ قال: أما المحسن فكالغائب يَقدَم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يَقدَم على مولاه. فبكى سليمان وقال: ليت شعري! ما لنا عند الله؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله. قال: وأي مكان أجده؟ قال:

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » . قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم؟ قال أبو حازم : رحمة الله قريب من المحسنين . قال له سليمان : يا أبا حازم فأىّ عباد الله أكرم؟ قال : أولو المروءة والنُّهى . قال له سليمان : فأىّ الأعمال أفضل ؟ قال أبو حازم : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم . قال سليمان : فأى الدعاء أسمع؟ قال : دعاء المحسَن إليه للمحسِن . فقال : أىّ الصدقة أفضل ؟ قال : للسائل البائس، وجُهْد المُقِلّ[1]، ليس فيها مَنٌّ ولا أذًى . قال : فأىّ القول أعدل ؟ قال : قول الحق عند مَن تخافه أو ترجوه . قال : فأىّ المؤمنين أكيس؟ قال : رجل عمِل بطاعة الله ودل الناس عليها . قال : فأىّ المؤمنين أحمق؟ قال : رجل انحط فى هوى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال له سليمان : أصبتَ ، فما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : يا أمير المؤمنين أوَ تُعفينى ؟ قال له سليمان : لا ! ولكن نصيحة تلقيها إلىّ . قال : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا المُلْك عَنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ؛ فقد ارتحلوا عنها ، فلو شعرتَ ما قالوه وما قيل لهم ! . فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم! قال أبو حازم : كذبت ، إن الله أخذ ميثاق العلماء لَيُبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه . قال له سليمان : فكيف لنا أن نصلح ؟ قال : تدَعون الصَّلف وتَمَسَّكون بالمروّة وتقسمون بالسّوية . قال له سليمان : فكيف لنا بالمأخذ به ؟ قال أبو حازم : تأخذه من حلّه وتضعه فى أهله . قال له سليمان : هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتُصيبَ منا ونُصيبَ منك ؟ قال : أعوذ بالله ؟ قال له سليمان : ولِمَ ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقنى الله ضِعف الحياة وضعف الممات . قال له سليمان : ارفع إلينا حوائجك . قال : تنجينى من النار وتدخلنى الجنة . قال سليمان : ليس ذاك إلىّ! قال له أبو حازم : فمالى إليك حاجة غيرها . قال : فادع لى . قال أبو حازم : اللّهمّ إن كان سليمان وليّك فيَسِّره لخير الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى . قال له سليمان : قَطّ ! قال أبو حازم : قد أوجزت وأكثرت

(١) جهد المقل : أى قدر ما يحتمله حال القليل المال .

إن كنت من أهــله ، و إن لم تكن من أهله فمــا ينبغى أن أرمى عن قوس ليس لهــا وَتَر . قال له سليمان : أوصنى؛ قال : سأُوصيك وأوجز : عظِّم ربَّك، ونزِّهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . فلما خرج من عنده بعث إليه بمــائة دينار، وكتب [إليه][1] أن أنفقها ولك عندى مثلها كثير . قال : فردّها عليه وكتب إليه : يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياى هزلا أو ردّى عليك بذلا[2]، وما أرضاها لك، فكيف [أرضاها][1] لنفسى ! إن موسى بن عمران لمّــا ورد ماء مَدْين وجد عليه رِعاءً يسقون، ووجد من دونهــم جاريتين تذودان [فسألهما، فقالتا : لا نسقى حتى يُصدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير][1]؛ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال : رب إنى لمــا أنزلت إلىّ من خير فقير . وذلك أنه كان جائعا خائفا لا يأمن، فسأل ربّه ولم يسأل الناس . فلم يفطن الرعاء، وفطنت الجاريتان . فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله . فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام : هذا رجل جائع . فقال لإحداهما : اِذهبى فادعيه . فلما أتته عظّمته وغطت وجهها وقالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنــا ؛ فشق على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيت لنا» ولم يجد بُدًّا من أن يتبعها لأنه كان بين الجبال جائعا مستوحشا . فلما تبعها هبّت الريح فجعلت تصفّق ثيابها على ظهرها فتصف له عجيزتها — وكانت ذات عَجُز — وجعل موسى يُعرِض مرة ويغض أخرى؛ فلما عيل صبره ناداها : يا أَمَة الله كونى خلفى، وأرينى السَّمت بقولك . فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهيّأ ؛ فقال له شعيب : اِجلس ياشاب فتعشّ؛ فقال له موسى عليه السلام : أعوذ بالله ! فقال له شعيب : لِمَ ! أمَا أنت جائع ؟ قال : بلى ، ولكنى أخاف أن يكون هذا عِوضا لمــا سقيتُ لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا . فقال له شعيب : لا ياشاب، ولكنها عادتى وعادة آبائى : نَقْرِى الضيف ونطعم الطعام . فجلس موسى فأكل . فإن كانت هذه المــائة دينار عوضا لمــا حدّثتُ فالميتة والدم ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحلّ من هــذه، وإن كان لحقّ فى بيت المــال فلى فيها نظراء؛ فإن ساويت بيننا وإلا فليس لى فيها حاجة .

---

(١) الزيادة عن مسند الدارمى .		(٢) بذلا ، أى راجيا بذلك وعطاءك .

قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء . أُنظروا إلى هذا الإمام الفاضل والحبر العالم كيف لم يأخذ على عمله عوضا، ولا على وصّيته بدلا، ولا على نصيحته صَفَدا[1]؛ بل بين الحق وصَــدَع، ولم يلحقه فى ذلك خوف ولا فزع . قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : "لا يمنعنّ أحدكم هيبة أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان" . وفى التنزيل : « يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ قد تقــدّم[2] معنى التقوى . وقرئ فاتقونى باليــاء، وقد تقدّم . وقال سهل بن عبد الله : قوله : «وإِياى فاتقونِ» قال : موضع علمى السابق فيكم . « وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ » قال : موضع المكر والاستدراج[3]؛ لقول الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » ، وقوله : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ » . فما استثنى نبيًّا ولا صــدِّيقا .

قوله تعالى : وَلَا تَلْبِسُــوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِـــلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ اللَّبْس : الخلط . لَبَست عليه الأمر ألبِسه إذا مزجتَ بيّنه بمشكله وحقّه بباطله؛ قال الله تعالى : « وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ » . وفى الأمر لُبسة، أى ليس بواضح . ومن هذا المعنى قول علىّ رضى الله عنه للحارث بن حوط : يا حار إنه ملبوس عليــك، إن الحق لا يُعرف بالرجال، اِعرف الحق تعرف أهله . وقالت الخنســاء .

ترى الجليسَ يقول الحقّ تحسَبه ✱ رُشْدًا وهيهات فانظر ما به التبسا
صــدِّق مقالتَــه وٱحذَر عداوته ✱ وٱلبِس عليه أمورا مثــلَ ما لَبَسا

(١) الصفد (بالتحرك) : العطاء . (٢) راجع ص ١٦١ وما بعدها . (٣) العبارة هاهنا غير واضحة . والذى فى البحر لأبى حيان : «وقال سهل : وإياى فارهبون موضع اليقين بمعرفته ، وإياى فاتقون موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج » .

وقال العجّاج :

لمـا لَبَسْن الحقّ بالتّجنّى * غَنِينَ واستبدلْن زيدًا منّى

روى سعيد عن قتادة فى قوله : « ولا تلبِسوا الحق بِالباطِلِ » ، يقول : لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإســلام ، وقد علمتم أن دين الله — الذى لا يُقبـل غيره ولا يجزى إلا به — الإسلامُ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله . والظاهر من قول عنترة :

* وكتيبةٍ لبّستها بكتيبة *

أنه من هــذا المعنى، ويحتمل أن يكون من اللباس . وقد قيــل هذا فى معنى الاية أى لا تُغَطّوا . ومنه لبس الثوب؛ يقال : لبِست الثوب ألْبَسه . ولباس الرجل زوجته، وزوجها لباسها . قال الجَعْدىّ :

إذا ما الضَّجيع ثنَى جِيدَها * تَثَنَّتْ عليـــه فكانت لباسًا

وقال الأخطل :

وقد لَبِستُ لهــذا الأمر أعصُرَه * حتى تجلّل رأسى الشيبُ فاشتعلا

واللَّبوس : كل ما يلبس من ثياب ودرع . قال الله تعالى : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ » . ولا بست فلانا حتى عرفتُ باطنه . وفى فلان مَلْبَس، أى مستمتع . قال :

ألَا إنّ بعد العُــدْم للمرء قِنْوَةً[(1)] * وبعد المشيب طولَ عُمْرٍ ومَلبسَا

ولِبْس الكعبة والهودج : ما عليهما من لِباس (بكسر اللام) .

قوله تعالى : ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ الباطل فى كلام العرب خلاف الحق، ومعناه الزائل . قال لبيد :

* ألَا كلُّ شىء ما خلا اللهَ باطلُ *

وبطل الشىء يبــطُل بُطْلا وبُطولا وبُطْلانا [ذهب ضَيــاعا وخُسْرا[(2)]]، وأبطله غيره . ويقال : ذهب دمه بُطْلا، أى هدرا . والباطل : الشــيطان . والبطل : الشــجاع، سمى بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه . قال النابغة :

لهم لواء بأيدى ماجدٍ بطــلٍ * لا يقطع الخرق إلا طرفُه سامى

(1) القنوة (بكسر الأول وضمه) : الكِسْبة .　　(2) الزيادة عن اللسان .

والمرأة بَطَـلة . وقد بطُل الرجل (بالضم) يبطُل بُطولة وبَطَالة ، أى صـار شجاعا . وبطَل الأجير بالفتح بِطَالة ، أى تعطّل ، فهو بطّال . واختلف أهل التأويل فى المراد بقوله : «ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ» ؛ فروى عن ابن عباس وغيره : لا تخلطوا ما عندكم من الحق فى الكتاب بالباطل ، وهو التغير والتبديل . وقال أبو العالية : قالت اليهود : محمد مبعوث ولكن الى غيرنا . فإقرارهم ببعثه حق ، وجحدهم أنه بُعث إليهم باطل . وقال ابن زيد : المراد بالحق التوراة ، والباطل ما بدّلوا فيها من ذكر محمد عليـه السلام وغيره . وقال مجاهد : لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقاله قتادة ؛ وقد تقدم .

قلت : وقول ابن عباس أصوب ؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال . والله المستعان .

قوله تعـالى : ﴿ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ ﴾ يجوز أن يكون معطوفا على تلبسـوا فيكون مجزوما ، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمـار أن ، التقـدير لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه ، أى وأن تكتموه . قال ابن عباس : يعنى كتمانهم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه . وقال محمد آبن سيرين : نزل عصابة من ولد هارون يثرب لمـا أصاب بنى إسرائيل ما أصابهم من ظهور العدوّ عليهم والذلة ، وتلك العصابة هم حمـلة التوراة يومئذ ، فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد صـلى الله عليـه وسلم بين ظهرانيهم ، وهم مؤمنون مصدّقون بنبوّته ، فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنون وخلف الأبناء وأبنـاء الأبناء فأدركوا محمدا صـلى الله عليه وسلم فكفروا به وهم يعرفونه ؛ وهو معنى قوله تعالى : «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ» .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ، أى أن محمدا عليه السلام حق ؛ فكفرهم كان كفر عناد ؛ ولم يشهد تعالى لهم بعلم ، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل . وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِٱلْبِرِّ» الآية .

قوله تعالى : وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

فيه أربع وثلاثون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمر معناه الوجوب، ولا خلاف فيه؛ وقد تقدّم القول فى معنى إقامة الصلاة واشتقاقها وفى جملة من أحكامها[1]، والحمد لله .

الثانيــة — قوله تعــالى : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أمر أيضا يقتضي الوجوب . والإيتاء : الإعطاء . آتيته : أعطيته؛ قال الله تعالى : «لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ» . وأتيته — بالقصر من غير مدّ — جئته؛ فاذا كان المجيء بمعنى الاستقبال مُدّ؛ ومنه الحديث : "ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأخبرنه"؛ وسيأتى .

الثالثــة — الزكاة مأخوذة من زكا الشيء اذا نما وزاد ؛ يقال : زكا الزرع والمـال يزكو : اذا كثر وزاد . ورجل زكى ، أى زائد الخير . وسمى الإخراج من المـال زكاة وهو نقص منــه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكى . ويقال : زرع زاكٍ بيّن الزكاء ؛ وزكأت الناقة بولدها تزكأ به اذا رمت به من بين رجليها . وزكا الفردُ : اذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعا . قال الشاعر :

كانوا خَسًا أو زَكًا من دون أربعة * لم يَخْلَقُوا وجدود النـاس تَعتلِجُ

جمع جَد وهو الحظ والبخت . تعتلج أى ترتفع . اعتلجت الأرض : طال نباتها . خسًا : الفردُ، وزكًا : الزوج .

وقيل : أصلها الثناء الجميل؛ ومنه زكّى القاضي الشاهد . فكأن من يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل . وقيــل : الزكاة مأخوذة من التطهير؛ كما يقال : زكا فلان، أى طهر من دنس الجرحة والإغفال؛ فكأن الخـارج من المـال يطهره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين . ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سمّى ما يخرج من الزكاة أوساخ الناس؛ وقد قال تعالى : «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» .

الرابعــة — واختلف فى المراد بالزكاة هنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة، لمقارنتها بالصلاة. وقيل : صدقة الفطر؛ قاله مالك فى سماع ابن القاسم .

(١) راجع ص ١٦٤ — ١٧٧ من هذا الجزء .

قلت : فعلى الأول — وهو قول أكثر العلماء — فالزكاة فى الكتاب مجملة بيّنها النبيّ صلى الله عليه وسـلم ؛ فروى الأئمـة عن أبى سعيد الخُدرىّ أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : "ليس فى حب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أَوْسُق(١) ولا فيما دون خمسِ ذَوْدٍ(٢) صدقة ولا فيما دون خمسِ أواقٍ صدقة" . وقال البخارى : "خمس أواق من الوَرِق" . وروى البخاريّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "فيما سقت السماء والعيون أو كان عَثَرِيًّا(٣) العُشْرُ وما سُقِىَ بالنَّضْح(٤) نصفُ العُشر" . وسيأتى بيان هذا الباب فى «الأنعام» إن شاء الله تعالى . ويأتى فى « براءة » زكاة العين والماشية ، وبيان المال الذى لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » . وأما زكاة الفطر فليس لها فى الكتاب نص عليها إلا ما تأوله مالك هنا ، وقوله تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى» . والمفسرون يذكرون الكلام عليها فى سورة «الأعلى» ؛ ورأيت الكلام عليها فى هـذه السورة عند كلامنا على آى الصيام ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر فى رمضان ، الحديث . وسيأتى ، فأضافها الى رمضان .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿وَٱرْكَعُوا﴾ الركوع فى اللغة الانحناء فى الشخص . وكل منحن راكع . قال لبيد :

أُخَبِّرُ أخبارَ القرون التى مضت * أَدِبُّ كأنى كلما قمت راكـعُ

وقال ابن دُرَيد : الركعة الهُوَّة فى الأرض ، لغة يمانية . وقيل : الانحناء يعم الركوع والسجود ؛ ويستعار أيضا فى الانحطاط فى المنزلة . قال :

ولا تُعادِ الضعيف علّك أن * تركع يوما والدهر قد رفعـه

(١) الوسق (بالفتح) : ستون صاعا ، وهو ثلثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز . (٢) الذود من الإبل : ما بين الثنتين الى التسع . وقيل : ما بين الثلاث الى العشر . واللفظة مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها .

(٣) العثرى (بفتح المهملة والثاء المثلثة المخففة وكسر الراء وتشديد الياء) . قال ابن الأثير : «هو من النخيل الذى يشرب بعروقه من ماء المطر يجتمع فى حفيرة . وقيل : هو العِذْى (الزرع الذى لا يسق الا من ماء المطر لبعده من المياه ، وقيل فيه غير ذلك) . وقيل : هو ما يسق سيحا ، والأول أشهر» . (٤) النضح (بفتح النون وسكون المعجمة بعدها مهملة) : ما سق من الآبار .

السادســـة — واختلف الناس فى تخصيص الركوع بالذكر؛ فقال قوم : جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة .

قلت : وهذا ليس مختصا بالركوع وحده؛ فقد جعل الشرع القراءة فى الصلاة والسجود عبارة عن الركعــة بكمالها؛ فقال : « وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ » أى صلاة الفجر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أدرك سجدة من الصلاة فقــد أدرك الصلاة" . وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيل : إنما خص الركوع بالذكر لأن بنى إسرائيل لم يكن فى صلاتهم ركوع. وقيل : لأنه كان أثقل على القوم فى الجاهلية؛ حتى لقد قال بعض من أسلم — أظنه عمران آبن حُصين — للنبىّ صلى الله عليه وسلم : على ألاّ أخِرّ إلا قائما . فمن تأويله على ألا أركع . فلما تمكّن الإسلام من قلبه اطمأنت بذلك نفسه وامتثل ما أمر به من الركوع .

السابعــة — الركوع الشرعى هو أن يحنى الرجل صلبه ويمدّ ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعا يقول : سبحان ربى العظيم ثلاثا، وذلك أدناه . روى مسلم عن عائشــه قالت : كان رسول الله صلى الله عليــه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ؛ وكان إذا ركع لم يُشخِص رأسه ولم يُصوِّبه[(١)] ولكن بين ذلك . وروى البخارى عن أبى حُميد الساعدى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْو منكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره[(٢)]، الحديث .

الثامنــة — الركوع فرض قرآنا وسنة ، وكذلك السجود ؛ لقوله تعــالى فى آخر الحج : « ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا » . وزادت السنة الطمأنينة فيهما والفصل بينهما . وقد تقدّم القول فى ذلك، وبيّنا صفة الركوع آنفا . وأما السجود فقد جاء مبيّنا من حديث أبى حميد الساعدىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد مكّن جبهته وأنفه من الأرض ونحّى يديه عن جنبيه ووضع كفيه حذو منكبيه . خرّجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه

---

(١) الإشخاص : الرفع . والتصويب : الخفض .   (٢) هصر ظهره، أى ثناه الى الأرض .

انبساط الكلب" . وعن البَرَاء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك" . وعن ميمونة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد خوّى بيديه — يعني جنح حتى يرى وَضَحُ إبطيه من ورائه — وإذا قعد اطمأن على فخذه اليسرى .

التاسعة — واختلف العلماء فيمن وضع جبهته في السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته ؛ فقال مالك : يسجد على جبهته وأنفه ؛ وبه قال الثوري وأحمد ، وهو قول النخعي . قال أحمد : لا يجزئه السجود على أحدهما دون الآخر ؛ وبه قال أبو حنيفة[1] وابن أبي شيبة . قال إسحاق : إن سجد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة . وقال الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ، وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وعبد الرحمن بن أبي ليلى كلهم أمر بالسجود على الأنف . وقالت طائفة : يجزئ أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وابن سيرين والحسن البصري ؛ وبه قال الشافعي وأبو ثور ويعقوب ومحمد . قال ابن المنذر : وقال قائل : إن وضع جبهته ولم يضع أنفه أو وضع أنفه ولم يضع جبهته فقد أساء وصلاته تامة ؛ هذا قول النعمان . قال ابن المنذر : ولا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه .

قلت : الصحيح في السجود وضع الجبهة والأنف ؛ لحديث أبي حميد ، وقد تقدّم . وروى البخاريّ عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة — وأشار بيده على أنفه — واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نَكْفِتَ[2] الثياب والشَّعَر" . وهذا كله بيان لمجمل الصلاة ، فتعيّن القول به . والله أعلم . ورُوى عن مالك أنه يجزيه أن يسجد على جبهته دون أنفه ، كقول عطاء والشافعي . والمختار عندنا قوله الأوّل ، ولا يجزئ عند مالك إذا لم يسجد على جبهته .

---

(١) في نسخة : « أبو خيثمة » .

(٢) لا نكفت ، أي لا نضمها ونجمعها . يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود .

العاشرة — ويكره السجود على كور العمامة ؛ وإن كان طاقة أو طاقتين، مثل الثياب التى تستر الركب والقدمين فلا بأس ؛ والأفضل مباشرة الأرض أو ما يسجد عليه . فإن كان هناك ما يؤذيه أزاله قبل دخوله فى الصلاة ، فان لم يفعل فليمسحه مسحة واحدة . روى مسلم عن مُعيقيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى الرجل يسوّى التراب حيث يسجد قال : "إن كنت فاعلا فواحدة" . ورُوى عن أنس بن مالك قال : كنا نصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شدّة الحر ؛ فإذا لم يستطع أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه .

الحادية عشرة — لما قال تعالى : « ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا » قال بعض علمائنا وغيرهم : يكفى منها ما يسمى ركوعا وسجودا ، وكذلك من القيام . ولم يشترطوا الطمأنينة فى ذلك ؛ فأخذوا بأقل الاسم فى ذلك ؛ وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتة فى إلغاء الصلاة . قال ابن عبد البر : ولا يجزى ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ، ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتدل راكعا وواقفا وساجدا وجالسا . وهو الصحيح فى الأثر، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر ؛ وهى رواية ابن وهب وأبى مصعب عن مالك . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : وقد تكاثرت الرواية عن ابن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة ؛ وهو وَهَم عظيم ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم فعلها وأمر بها وعلّمها . فان كان لابن القاسم عذر أن كان لم يطّلع عليها فما لكم أنتم وقد انتهى العلم اليكم وقامت الحجة به عليكم ! روى النسائى والدارقطنى وعلىّ بن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فدخل المسجد يصلى، فلما قضى الصلاة جاء فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى القوم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ارجع فصلّ فإنك لم تصل" وجعل الرجل يصلى وجعلنا نَرْمُق صلاته لا ندرى ما يعيب منها ؛ فلما جاء فسلّم على النبىّ صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "وعليك ارجع فصلّ فإنك لم تصل" قال همام[1] : فلا ندرى ، أمره بذلك مرتين أو ثلاثا ؛ فقال له الرجل :

(١) همام هذا ، أحد رجال سند هذا الحديث .

ما ألَوْت ، فلا أدرى ما عبتَ علىّ من صلاتى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله فيغسلَ وجهه ويديه الى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه الى الكعبين ثم يكبّر الله تعالى ويُثنى عليه ثم يقرأ أمّ القرآن وما أذن له فيــه وتيسّر ثم يكبر فيركع فيضع كفّيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يقول سمع الله لمن حمــده ويستوى قائما حتى يقيم صلبه ويأخذ كل عظمٍ مأخذه ثم يكبر فيسجد فيمكّن وجهه — قال همام : وربمــا قال : جبهته — من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يكبر فيستوى قاعدا على مقعده ويقيم صلبه — فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ، ثم قال : — لا تتم صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك " . ومثله حديث أبى هريرة خرّجه مسلم ، وقد تقدّم .

قلت : فهذا بيان الصلاة المجملة فى الكتاب بتعليم النبىّ عليــه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام ، فمن لم يقف عند هذا البيان وأخلّ بمــا فرض عليه الرحمن ، ولم يمتثل ما بلغه عن نبيّه عليه السلام كان من جملة من دخل فى قوله تعالى : « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ » . على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعالى . روى البخارىّ عن زيد بن وهب قال : رأى حذيفة رجلا لا يتم الركوع ولا السجود فقال : ما صلّيتَ ولو متّ متّ على غير الفِطرة التى فطر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ مع تقتضى المعية والجمعية ؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقــرآن : إن الأمر بالصلاة أوّلا لم يقتض شهود الجماعة ، فأمرهم بقوله « مع » شهود الجماعة . وقد اختلف العلمــاء فى شهود الجماعة على قولين ؛ فالذى عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة ، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة . وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية . قال ابن عبد البر وهذا قول صحيح ؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يُجتَمَع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات . فاذا قامت الجماعة فى المسجد فصلاة المنفرد فى بيته جائزة ؛ لقوله عليــه السلام : " صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفــذّ بسبع وعشرين درجة" . أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . ورُوى عن أبى هريرة رضى الله

عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءا" . وقال داود : الصلاة فى الجماعة فرض على كل أحد فى خاصته كالجمعة؛ واحتج بقوله عليه السلام : "لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد" خرّجه أبو داود وصحّحه أبو محمد عبد الحق ؛ وهو قول عطاء بن أبى رباح وأحمد بن حنبل وأبى ثور وغيرهم . وقال الشافعى : لا أرخّص لمن قـدر على الجماعة فى ترك إتيانها إلا من عذر؛ حكاه ابن المنـذر . وروى مسلم عن أبى هريرة قال : أتى النبيَّ صلى الله عليـه وسـلم رجلٌ أعمى فقال : يا رسول الله، إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد؛ فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يرخّص له فيصلى فى بيته ؛ فرخّص له ؛ فلما ولّى دعاه فقال : "[هل](1) تسمع النداء بالصلاة" قال نعم؛ قال : "فأجب" . وقال أبو داود فى الحديث : "لا أجد لك رخصة" . خرّجه من حديث ابن أمّ مكتوم؛ وذكر أنه كان هو السائل. وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر — قالوا : وما العـذر ؟ قال : خوف أو مرض — لم تقبل منـه الصلاة التى صلّى" . قال أبو محمـد عبد الحق : هذا يرويه مَغراء العبدى . والصحيح موقوف على ابن عباس : "من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له" . على أن قاسم بن أَصْبَغ ذكره فى كتابه فقال: حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى قال حدّثنا سليمان بن حرب حدّثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سـعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من سمع النداء فلم يُجب فلا صلاة له إلا من عذر" . وحسبك بهذا الإسناد صحة . ومغراء العبدى روى عنه أبو إسحاق. وقال ابن مسعود : ولقد رأيتُنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق . وقال عليه السلام : "بيننا وبين المنافقين شهود العَتَمة والصبح لا يستطيعونهما" . قال ابن المنذر : ولقـد روينا عن غير واحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : "من سمع النداء فلم يُجب من غير عذر فلا صلاة له" منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعرىّ . وروى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول

(1) الزيادة من صحيح مسلم .

الله صلى الله عليـه وسلم : " لقد هممت أن آمر فتيتى فيجمعوا حُزَما من حطب ثم آتى قوما يصلون فى بيوتهـم ليست لهم علة فأحرقها عليهـم " . هذا ما احتج به من أوجب الصـلاة فى الجماعة فرضا ، وهى ظاهرة فى الوجوب ، وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات فى الجماعة ؛ بدليل حديث ابن عمر وأبى هريرة . وحملوا قول الصحابة وما جاء فى الحديث من أنه لا صلاة له على الكمال والفضل ؛ وكذلك قوله عليه السلام لابن أم مكتوم : " فأجب " على الندب . وقوله عليه السلام : " لقد هممت " لا يدل على الوجوب الحتم ؛ لأنه همّ ولم يفعل ؛ و إنمـا مخرجه مخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلفون عن الجماعة والجمعة . يبيّن هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبـد الله قال : « من سرّه أن يلقى الله غدا مُسْلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادَى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سُنَن الهُدَى ، وإنهن من سنن الهدى ؛ ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ولو تركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم لضَلَلتم ؛ وما من رجل يتطهّر فيحسن الطُّهور ثم يَعمد الى مسجد من هـذه المساجد إلا كتب الله له بكل خُطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحطّ عنه بهـا سيئة ، ولقد رأيتُنا وما يتخلف عنهـا إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتَى به يُهادَى (١) بين الرجلين حتى يقام فى الصفّ » . فبيّن رضى الله عنه فى حديثه أن الاجتماع سنة من سنن الهدى وتركه ضلال ؛ ولهذا قال القاضى أبو الفضل عياض : أُختلف فى التمالؤ على ترك ظاهر السنن ؛ هل يقاتل عليها أولا ؛ والصحيح قتالهم ؛ لأن فى التمالؤ عليها إماتتها .

قلت : فعلى هذا إذا أقيمت السنة وظهرت جازت صلاة المنفرد وصحت . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته وصـلاته فى سوقه بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنْهَزُه (٢) إلا الصـلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يخطُ خطوة إلا رُفع له بها درجةً

(١) معناه : يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما . (٢) النهز : الدفع . أى لا يقيمه من موضعه .

وحطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فاذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاةُ هى تحبسه والملائكة يصلون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلى فيـه يقولون اللهمّ ارحمه اللّهمّ اغفر له اللّهمّ تب عليـه مالم يؤذِ فيه ما لم يُحْدِث فيه". قيل لأبى هريرة : مايُحدث ؟ قال : يَفسو أو يَضْرِط .

الثالثة عشرة ــ واختلف العلماء فى هذا الفضل المضاف للجماعة؛ هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت، أو إنمـا يكون ذلك الفضل للجماعة التى تكون فى المسجد؛ لمـا يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء فى الحديث؛ قولان . والأول أظهر، لأن الجماعة هو الوصف الذى علّق عليه الحكم . والله أعلم . وما كان من إكثار الخُطا إلى المساجد وقصد الإتيان اليها والمكث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة . والله أعلم .

الرابعة عشرة ــ واختلفوا أيضا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك : لا، وقال ابن حبيب : نعم، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "صـلاة الرجل مع الرجل أزكى من صـلاته وحده وصلاته مع الرجلين أزكى من صـلاته مع الرجل وما كثر فهو أحب إلى الله" . رواه أُبىّ بن كعب وأخرجه أبو داود، وفى إسناده لين .

الخامسة عشرة ــ واختلفوا أيضا فيمن صلى فى جماعة هل يعيـد صلاته تلك فى جماعة أخرى؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعى وأصحابهم : إنما يعيد الصلاة فى جماعة مع الإمام من صلى وحده فى بيته وأهله أو فى غير بيته؛ وأمّا من صلى فى جماعة وإن قلّت فإنه لا يعيـد فى جماعة أكثر منهـا ولا أقـل . وقال أحمد بن حنبل وإسحاق بن رَاهْوَيْه وداود بن علىّ : جائز لمن صلى فى جماعة ووجد جماعة أخرى فى تلك الصلاة أن يعيدها معهم إن شاء، لأنهـا نافلة وسنة . وروى ذلك عن حذيفة بن اليمان وأبى موسى الأشعرى وأنس بن مالك وصلة ابن زفر والشعبى والنخعى؛ وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب .

احتج مالك بقوله صلى الله عليـه وسلم : "لا تُصَلّى صلاةٌ فى يوم مرتين" . ومنهم من يقول : لا تصلوا . رواه سليمان بن يسار عن ابن عمر . واتفق أحمـد وإسحاق على أن معنى

هـذا الحديث أن يصلى الإنسان الفريضة ، ثم يقوم فيصليهـا ثانية ينوى بهـا الفرض مرة أخرى ؛ فأمّا إذا صلاها مع الإمام على أنهـا سنـة وتطوّع فليس بإعادة الصلاة ؛ وقـد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذين أمرهم بإعادة الصلاة فى جماعة : "إنهـا لكم نافـلة" . من حديث أبى ذرّ وغيره .

السادسة عشرة — روى مسلم عن أبى مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "يَؤُمّ القـوم أقرؤهم لكتاب الله فان كانوا فى القراءة سواء فأعلمُهم بالسنة فإن كانوا فى السنة سواءً فأقدمهم هجرة فان كانوا فى الهجرة سواءً فأقدمُهم سِلْمًا ولا يؤمّنّ الرجلُ الرجلَ فى سلطانه ولا يقعد فى بيته على تَكْرِمَتِه إلا بإذنه" وفى روايه "سِنًّا" مكان "سلما" . وأخرجه أبو داود وقال : قال شعبة : فقلت لاسمـاعيل ما تكرمته ؟ قال : فراشه . وأخرجه الترمذى وقال : حديث أبى مسعود حديث حسن صحيح، والعمل عليه عند أهل العلم .

قالوا : أحق الناس بالإمامـة أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بالسـنة . وقالوا : صاحب المنزل أحق بالإمامـة . وقال بعضهم : إذا أذِن صاحب المنزل لغيره فلا بأس أن يصلى به؛ وكرهه بعضهم وقالوا : السنة أن يصلى صاحب البيت . قال ابن المنذر : روينا عن الأشعث ابن قيس أنه قـدّم غلاما وقال : إنمـا أقدّم القرآن . وممن قال : يؤمّ القـوم أقرؤهم ابنُ سيرين والثورىّ وإسحاق وأصحاب الرأى . قال ابن المنذر : بهذا نقول لأنه موافق للسنة . وقال مالك : يتقدّم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة، وإن للسنّ حقا . وقال الأوزاعى : يؤمّهم أفقههم؛ وكذلك قال الشافعى وأبو ثور إذا كان يقرأ القرآن؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بما ينوبه من الحوادث فى الصلاة . وتأوّلوا الحديث بأن الأقرأ من الصحابة كان الأفقه؛ لأنهم كانوا يتفقّهون فى القرآن ، وقد كان من عرفهم الغالب تسميتهم الفقهاء بالقرّاء ؛ واستدلوا بتقديم النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه أبا بكر لفضله وعلمه . وقال إسحاق : إنمـا قدّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم ليدلّ على أنه خليفته بعـده . ذكره أبو عمر فى التمهيد . وروى أبو بكر البزار بإسناد حسن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" اذا سافرتم فليؤمكم أقرؤكم وإن كان أصغركم واذا أمكم فهو أميركم" . قال : لا نعلمه يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا من رواية أبي هريرة بهذا الإسناد .

قلت : إمامة الصغير جائزة اذا كان قارئا . ثبت في صحيح البخاريّ عن عمرو بن سَلِمة قال : كنّا بماء ممرّ الناس وكان يمرّ بنا الرّكبان فنسألهم ما للناس ؟ ما هـذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحى إليه كذا ! أوحى إليه كذا ! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يقرّ في صدرى ؛ وكانت العرب تلوّم بإسلامها فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيّ صادق ؛ فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبي قومى بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند نبيّ الله حقا ، قال : "صلوا صلاة كذا في حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا" . فنظروا فلم يكن أحد أكثر منى قرآنا لمـا كنت أتلق من الركبان، فقدمونى بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت علىّ بردة اذا سجدت تقلصت عنى ، فقـالت امرأة من الحيّ : ألا تغطّون[1] عنا آست قارئكم ! فاشتروا فقطعوا لى قميصا، فمـا فرحت بشيء فرحى بذلك القميص . وممن أجاز إمامة الصبيّ غير البالغ الحسن البصرى و إسحاق بن رَاهْوَيْه ، واختاره ابن المنذر اذا عقل الصلاة وقام بها ؛ لدخوله في جملة قوله صلى الله عليه وسلم : " يؤم القوم أقرؤهم " ولم يستثن ، ولحديث عمرو ابن سَلِمة . وقال الشافعي في أحد قوليه : يؤم في سائر الصلوات ولا يؤم في يوم الجمعة ؛ وقد كان قبلُ يقول : ومن أجزأت إمامته في المكتوبة أجزأت إمامته في الأعياد، غير أنى أكره فيها إمامة غير الوالى . وقال الأوزاعيّ : لا يؤم الغلام في الصلاة المكتوبة حتى يحتلم، إلا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شيء فإنه يؤمهم الغلام المراهق . وقال الزهرى : إن اضطروا إليه أمّهم . ومنع ذلك جملة مالك والثورىّ وأصحاب الرأى .

السابعة عشرة — الائتمام بكل إمام بالغ مسلم حر على استقامة جائز من غير خلاف ، اذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن في أم القرآن لحنا يخلّ بالمعنى ؛ مثل أن يكسر الكاف

(١) في الأصـول : « ألا تغطوا ... » بحذف النون ، ولا مقتضى له . وفى مسـند الامام أحمـد بن حنبل (ج ٥ ص ٧١) طبع مصر : « فقالت امرأة : غطوا است قارئكم » .

من « إياك نعبد » ويضم التاء في « أنعمت » . ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضــاد؛ وإن لم يفرق بينهما لا تصح إمامته لأن معناهما يختلف . ومنهم من رخص في ذلك كله اذا كان جاهلا بالقراءة وأمّ مثله . ولا يجوز الائتمام بامرأة ولا خنثى مشكل ولا كافر ولا مجنون ولا أُمّي ، ولا يكون واحد من هؤلاء إماما بحال من الأحوال عند أكثر العلمــاء ، على ما يأتي ذكره ، إلا الأمّي لمثله . قال علماؤنا : لا تصح إمامة الأمّي الذي لا يحسن القراءة مع حضور القارئ له ولا لغيره ؛ وكذلك قال الشافعي . فإن أمّ أمّيا مثـله صحت صلاتهــم عندنا وعند الشافعي . وقال أبو حنيفة : اذا صلى الأمّي بقوم يقرءون وبقوم أمّيين فصلاتهم كلهم فاسدة ، وخالفه أبو يوسف فقال : صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامة . وقالت فرقة : صلاتهــم كلهم جائزة لأن كُلًّا مؤدّى فرضه ، وذلك مثل المتيمم يصلى بالمتطهرين بالمــاء ، والمصلى قاعدا يصلى بقوم قيام صلاتهم مجزئة في قول من خالفنا ، لأن كُلًّا مؤدّى فرض نفسه .

قلت : وقد يحتج لهذا القول بقوله عليه الســلام : " ألا ينظر المصلى [إذا صلّى][1] كيف يصلى فإنما يصلى لنفسه " أخرجه مسلم . وإن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام ، والله أعلم . وكان عطاء بن أبي رباح يقول : إذا كانت امرأته تقرأ كبّر هو وتقرأ هي ؛ فإذا فرغت من القراءة كبّر وركع وسجد وهي خلفه تصلى . وروى هذا المعنى عن قتادة .

الثامنة عشرة — ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشل والأقطع والخصيّ والعبــد إذا كان كل واحد منهم عالمــا بالصلاة . وقال ابن وهب : لا أرى أن يؤم الأقطع والأشل لأنه منتقص عن درجة الكمال ، وكرهت إمامته لأجل النقص . وخالفــه جمهور أصحابه وهو الصحيح ، لأنه عضو لا يمنع فقده فرضا من فروض الصلاة فجازت الإمامة الراتبة مع فقــده كالعين ؛ وقد روى أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم استخلف ابن أمّ مكتوم يؤم الناس وهو أعمى ، وكذا الأعرج والأقطع والأشل والخصيّ قياسا ونظرا ، والله أعلم . وقد روى عن أنس ابن مالك أنه قال في الأعمى : وما حاجتهم إليــه ! وكان ابن عباس وعِتْبان بن مالك يؤمان وكلاهما أعمى ، وعليه عامة العلماء .

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

التاسعة عشرة — واختلفوا فى إمامة ولد الزنا، فقال مالك : أكره أن يكون إماما راتبا. وكره ذلك عمر بن عبد العزيز . وكان عطاء بن أبى رباح يقول : له أن يؤم إذا كان مرضيا، وهو قول الحسن البصرى والزهرى والنخعى وسفيان الثورى والأوزاعى وأحمد وإسحاق . وتجزئ الصلاة خلفه عند أصحاب الرأى، وغيره أحب إليهم . وقال الشافعى : أكره أن ينصب إماما راتبا من لا يعرف أبوه، ومن صلى خلفه أجزاه . وقال عيسى بن دينار : لا أقول بقول مالك فى إمامة ولد الزنا وليس عليه من ذنب أبويه شىء . ونحوه قال ابن عبد الحكم إذا كان فى نفسه أهلا للإمامة . قال ابن المنذر : يؤم لدخوله فى جملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤم القوم أقرؤهم " . وقال أبو عمر : ليس فى شىء من الآثار الواردة فى شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب؛ وإنما فيها الدلالة على الفقه والقراءة والصلاح فى الدين .

الموفية عشرين — وأما العبد فروى البخارى عن ابن عمر قال : لما قدم المهاجرون الأولون العَصَبة — موضع بقُبَاء — قبل مقدم النبى صلى الله عليه وسلم كان يؤمهم سالم مولى أبى حذيفة وكان أكثرهم قرآنا . وعنه قال : كان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين الأولين وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى مسجد قُبَاء ؛ فيهم أبو بكر وعمر وزيد وعامر ابن ربيعة؛ وكانت عائشة يؤمها عبدها ذكوان من المصحف . قال ابن المنذر : وأم أبو سعيد مولى أبى أسيد — وهو عبد — نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم حذيفة وأبو مسعود .

ورخص فى إمامة العبد النخعى والشعبى والحسن البصرى والحكم والثورى والشافعى وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى؛ وكره ذلك أبو مجلز . وقال مالك : لا يؤمهم إلا أن يكون العبد قارئا ومن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أن يكون فى عيد أو جمعة فان العبد لا يؤمهم فيها؛ ويجزئ عند الأوزاعى إن صلوا وراءه . قال ابن المنذر : العبد داخل فى جملة قول النبى صلى الله عليه وسلم : " يؤم القوم أقرؤهم " .

الحادية والعشرون — وأما المرأة فروى البخارى عن أبى بكرة قال : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : " لن يفلح قوم ولوا أمرهم

امرأة" . وذكر أبو داود عن عبـد الرحمن بن خلّاد عن أم ورقة بنت عبد الله قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يزورها فى بيتها ، قال : وجعل لها مؤذنا يؤذن لهـا وأمرها أن تؤم أهـل دارها . قال عبـد الرحمن : فأنا رأيت مؤذّنها شيخا كبيرا . قال ابن المنذر : والشافعى يوجب الإعادة على من صلى من الرجال خلف المرأة . وقال أبو ثور: لا إعادة عليهم . وهذا قياس قول المزنى .

قلت : وقال علماؤنا لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء . وروى ابن(١) أيمن جواز إمامتها للنساء . وأما الخنثى المشـكل فقـال الشافعى : لا يؤم الرجال و يؤم النساء . وقال مالك : لا يكون إماما بحال؛ وهو قول أكثر الفقهاء .

الثانيـة والعشرون ـــ الكافر المخـالف للشرع كاليهودى والنصرانى يؤم المسلمين وهم لا يعلمون بكفره . وكان الشافعى وأحمـد يقولان : لا يجزئهم و يعيدون . وقاله مالك وأصحابه لأنه ليس من أهل القُرْبة . وقال الأوزاعى : يعاقب . وقال أبو ثور والمزنى : لا إعادة على من صلى خلفه، ولا يكون بصلاته مسلما عند الشافعى وأبى ثور . وقال أحمد : يجبر على الإسلام .

الثالثة والعشرون ـــ وأما أهل البدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخارى عن الحسن : صلِّ وعليه بدعته . وقال أحمد: لا يصلى خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه . وقال مالك : و يصلى خلف أئمة الجور، ولا يصلى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم . قال ابن المنذر : كل من أخرجته بدعته الى الكفر لم تجز الصلاة خلفه، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة؛ ولا يجوز تقديم من هذه صفته .

الرابعـة والعشرون ـــ وأما الفاسق بجوارحه كالزانى وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه؛ فقال ابن حبيب : من صلى وراء من شرب الخمر فانه يعيد أبدا، إلا أن يكون الوالى الذى تؤدّى إليه الطاعة، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران . قاله

(١) فى نسخة «ابن أبى أيمن» .

من لقيت من أصحاب مالك . وروى من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر : "لا تؤمّن امرأة رجلا ولا يؤمّن أعرابى مهاجرا ولا يؤمّن فاجر برًّا إلا أن يكون ذلك ذا سلطان" . قال أبو محمد عبدالحق : هذا يرويه علىّ بن زيد بن جُدعان عن سعيد بن المسيّب، والأكثر يضعّف علىّ بن زيد . وروى الدّارقُطنىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سرّكم أن تزكو صلاتكم فقدّموا خياركم " . فى إسناده أبو الوليد خالد بن اسماعيل المخزومى وهو ضعيف ، قاله الدّارقطنى . وقال فيه أبو أحمد بن عدىّ : كان يضع الحديث على ثقات المسلمين، وحديثه هذا يرويه عن ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة . وذكر الدارقطنىّ عن سلام بن سليمان عن عمر عن محمد بن واسع عن سعيد ابن جبير عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلوا أئمتكم خياركم فانهم وفد فيما بينكم وبين الله" . قال الدّارقُطنى : عمر هذا هو عندى عمر بن يزيد قاضى المدائن، وسلام بن سليمان أيضا مدائنى ليس بالقوى، قاله عبد الحق .

الخامسة والعشرون ــ روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنما جعل الإمام ليؤتمّ به فلا تختلفوا عليه فاذا كبر فكبروا واذا ركع فاركعوا واذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللّهمّ ربنا ولك الحمد واذا سجد فاسجدوا واذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون " . وقد اختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامدا على قولين ، أحدهما : أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو فى أكثرها، وهو قول أهل الظاهر، ورُوى عن ابن عمر ؛ ذكر سنيد قال حدّثنا ابن عُليّة عن أيوب عن أبى قِلابة عن أبى الورد الأنصارى قال : صليت الى جنب ابن عمر فجعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله ، فلما سلم الإمام أخذ ابن عمر بيدى فلوانى وجذبنى، فقلت : مالك ! قال : من أنت ؟ قلت : فلان بن فلان ؛ قال : أنت من أهل بيت صدق ! فما يمنعك أن تصلى ؟ قلت : أو ما رأيتنى الى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبله وإنه لا صلاة لمن خالف الإمام . وقال الحسن بن حَىّ فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الإمام أو يسجد :

لم يعتد بذلك ولم يجزه . وقال أكثر الفقهاء : من فعل ذلك فقد أساء ولم تفسد صــلاته ؛ لأن الأصل فى صلاة الجماعة والائتمام فيها بالأئمة سنة حسنة، فمن خالفها بعد أن أدّى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها وان أسقط بعض سننها؛ لأنه لو شاء أن ينفرد فصلى قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه؛ و بئس ما فعل فى تركه الجماعة . قالوا : ومن دخل فى صلاة الإمام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن فى ركعة وإمامه فى أخرى فقد اقتدى وان كان يرفع قبــله و يخفض قبله ؛ لأنه بركوعه يركع و بسجوده يسجد ويرفع وهو فى ذلك تبع له ، إلا أنه مسيء فى فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها .

قلت : ما حكاه ابن عبد البر عن الجمهور ينبيء على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصــلاة الإمام؛ لأن الإتباع الحسىّ والشرعى مفقود ، وليس الأمر هكذا عنــد أكثرهم . والصحيح فى الأثر والنظر القول الأول؛ فان الإمام إنمــا جعل ليؤتم به و يقتدى به بأفعاله ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » أى يأتمون بك، على ما يأتى بيانه .

هذا حقيقة الإمام لغة وشرعا، فمن خالف إمامه لم يتبعه؛ ثم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بيّن فقال : "إذا كبر فكبروا" الحــديث . فأتى بالفاء التى توجب التعقيب وهو المبيّن عن الله مراده . ثم أوعد من رفع أو ركع قبلُ وعيدا شديدا فقال : "أما يخشى الذى يرفع رأســه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار" . أخرجه الموطأ والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وقال أبو هريرة : إنما ناصيته بيد شيطان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل عمل ليس عليــه أمْرُنا فهو ردٌّ" . يعنى مردود . فمن تعمد خلاف إمامه عالمــا بأنه مأمور باتباعه منهيّ عن مخالفته فقد استخف بصلاته وخالف ما أمر به ؛ فواجب أن لا تجزى عنه صلاته تلك، والله أعلم .

السادسة والعشرون — فان رفع رأســه ساهيا قبل الإمام فقال مالك رحمه الله : السنة فيمن سها ففعل ذلك فى ركوع أو فى سجود أن يرجع راكعا أو ساجدا و ينتظر الإمام ، وذلك خطأ ممن فعــله ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وســلم قال : "إنمــا جعل الإمام ليؤتم به

فلا تختلفوا عليه" . قال ابن عبد البر : ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عامدا؛ لقوله : وذلك خطأ ممن فعله ؛ لأن الساهي الإثم عنه موضوع .

السابعة والعشرون — وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام، أما السلام فقد تقدم القول فيه . وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون الا بعد تكبير الإمام، إلا ما روى عن الشافعيّ في أحد قوليه : أنه إن كبر قبل إمامه تكبيرة الإحرام أجزأت عنه ؛ لحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الى الصلاة فلما كبر انصرف وأومأ اليهم ، أي كما أنتم؛ ثم خرج ثم جاء ورأسه تقطر فصلّى بهم؛ فلما انصرف قال : "إني كنت جُنُبًا فنسيت أن أغتسل" . ومن حديث أنس «فكبر وكبرنا معه» وسيأتي بيان هذا عند قوله تعالى : «ولا جُنُبًا» في النساء ان شاء الله تعالى .

الثامنة والعشرون — روى مسلم عن أبي مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : "استوُوا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم لِيَلِيَنِي منكم أولو الأحلام والنُّهَى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشدّ اختلافا . زاد من حديث عبد الله : "و إياكم وهَيْشات الأسواق"[1] . قوله : "استووا" أمر بتسوية الصفوف وخاصةً الصف الأول وهو الذي يلي الامام، على ما يأتي بيانه في سـورة « الحجر » إن شاء الله تعالى . وهناك يأتي الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى .

التاسعة والعشرون — واختلف العلماء في كيفية الجلوس في الصلاة لاختلاف الآثار في ذلك؛ فقال مالك وأصحابه : يُفضي المصلي بأليتيه إلى الأرض وينصب رجله اليمنى ويثني رجله اليسرى ؛ لما رواه في موطئه عن يحيي بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس في التشهد فنصب رجله اليمنى وثنى رجله اليسرى وجلس على وَرِكه الأيسر ولم يجلس على قدمه، ثم قال : أراني هذا عبد الله بن عمر، وحدثني أن أباه كان يفعل ذلك .

---

(١) الهيشة (مثل الهوشة) : الاختلاط والمنازعة وارتفاع الأصوات .

قلت : وهذا المعنى قد جاء فى صحيح مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءةَ بالحمـد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يُشْخِص رأسه ولم يُصوّ به، ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوىَ قائمـا، وكان إذا رفع رأســه من السجدة لم يســجد حتى يستوىَ جالسا، وكان يقول فى كل ركعتين التحية، وكان يفرِش رجله اليسرى وينصب رجله اليمنى، وكان يَنْهَى عن عُقْبة(١) الشيطان، وينهى أن يفترِش الرجل ذراعيه افتراش السَّبُع، وكان يختم الصلاة بالتسليم .

قلت : ولهذا الحديث — والله أعلم — قال ابن عمر : إنما سنة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثنى اليسرى . وقال الثورى وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حىّ : ينصب اليمنى ويقعد على اليسرى، لحديث وائل بن حُجْر ، وكذلك قال الشافعىّ وأحمد وإسحاق فى الجلسة الوسطى . وقـالوا فى الآخرة من الظهر أو العصر أو المغـرب أو العشاء كقول مالك ؛ لحديث أبى حميد الساعدى رواه البخارىّ قال : رأيت النبىّ صـلّى الله عليـه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذو مَنْكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره ، فإذا رفع استوى حتى يعود كل فقار مكانه ، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما واستقبل بأطراف أصـابع رجليه القبـلة ، وإذا جلس فى الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب الأخرى ، وإذا جلس فى الركعة الآخرة قدّم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته . قال الطبرى : إن فعل هذا فحسن، كل ذلك قد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الموفية الثلاثين — مالك عن مسـلم بن أبى مريم عن علىّ بن عبد الرحمن المُعاوىّ أنه قال : رآنى عبد الله بن عمر وأنا أعبث بالحصباء فى الصلاة، فلما انصرف نهانى فقال : اصنع كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؛ قلت : وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قال : كان إذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه

(١) عقبة الشيطان : قال ابن الأثير : « هو أن يضـع أليتيه على عقبيه بين السجدتين ، وهو الذى يجعله بعض الناس الإقعاء . وقيل : هو أن يترك عقبيه غير مغسولين فى الوضوء » .

كلها وأشار بأصبعه التى تلى الإبهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى ؛ وقال : هكذا كان يفعل . قال ابن عبـد البر : وما وصـفه ابن عمر من وضـع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بهـا ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع ، كل ذلك سنة فى الجلوس فى الصلاة مجمع عليه ، لاخلاف عليه بين العلماء فيهـا ، وحسبك بهذا . إلا أنهم اختلفوا فى تحريك أصبعه السبابة ؛ فمنهم من رأى تحريكها ، ومنهـم من لم يره . وكل ذلك مروىّ فى الآثار الصحاح المسندة عن النبىّ صلىّ الله عليه وسلم ، وجميعه مباح ، والحمـد لله . وروى سفيان ابن عيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبى مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه : قال سفيان : وكان يحيى بن سعيد حدّثناه عن مسـلم ثم لقيته فسمعته منـه وزادنى فيه : قال : "هى مذبّة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بإصبعه ويقول هكذا" .

قلت : روى أبو داود فى حديث ابن الزبير أنه عليـه السلام كان يشير بإصبعه إذا دعا ولا يحركها . والى هذا ذهب بعض العراقيين ، فمنع من تحريكها . وبعض علمائنا رأوا أن مدّها إشارة الى دوام التوحيد . وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم الى تحريكها ، إلا أنهم اختلفوا فى الموالاة بالتحريك على قولين ، تأوّل من والاه بأن قال : إن ذلك يذكر بموالاة الحضور فى الصلاة ، وبأنهـا مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان . ومن لم يوال رأى تحريكها عنـد التلفظ بكلمتى الشهادة ، وتأوّل فى الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد ، والله أعلم .

الحادية والثلاثون — واختلفوا فى جلوس المرأة فى الصلاة ؛ فقال مالك : هى كالرجل ، ولا تخالفه فيها بعـد الإحرام إلا فى اللباس والجهر . وقال الثورى : تسدل المرأة جلبابها من جانب واحد ؛ ورواه عن إبراهيم النخعى . وقـال أبو حنيفة وأصحابه : تجلس المرأة كأيسر ما يكون لهـا . وهو قول الشعبى : تقعد كيف تيسّر لهـا . وقال الشافعىّ : تجلس بأسـتر ما يكون لهـا .

الثانيـة والثلاثون — روى مسلم عن طاوس قال : قلنـا لابن عبـاس فى الإقعاء على القدمين؛ فقال : هى السنة؛ فقلنا له إنا لنراه جفاء بالرجل ؛ فقال ابن عباس : [بل](١) هى سنة نبيّك صلى الله عليه وسلم . وقد اختلف العلماء فى صفة الإقعاء ما هو؛ فقال أبو عبيد : الإقعاء جلوس الرجل على أليتيه ناصبا فخـذيه مثل إقعاء الكلب والسبع . قال ابن عبد البر : وهذا إقعاء مجتمع عليه لا يختلف العلماء فيـه . وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهـل الفقه . وقال أبو عبيد : وأما أهـل الحديث فانهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين . قال القاضى عياض : والأشبه عندى فى تأويل الإقعاء الذى قال فيه ابن عباس إنه من السنة، الذى فسر به الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدتين؛ وكذا جاء مفسرا عن ابن عباس : من السـنة أن تمس عقبيـك أليتك . رواه إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عنه، ذكره أبو عمر . قال القاضى : وقد روى عن جماعة من السلف والصحابة أنهم كانوا يفعلونه، ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسموه إقعاء . ذكر عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه أنه رأى ابن عمر وابن عباس وابن الزبير يُقْعون بين السجدتين .

الثالثة والثلاثون — لم يختلف من قال من العلماء بوجوب التسليم و بعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض، إلا ما روى عن الحسن بن حىّ أنه أوجب التسليمتين معا . قال أبو جعفر الطحاوى : لم يحك عن أحد من أهـل العلم الذين ذهبوا الى التسليمتين أن الثانية من فرائضها غيره . قال ابن عبد البر : من حجة الحسن بن صالح فى إيجـابه التسليمتين جميعا — وقوله : إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانية فسدت صلاته — قولُه صلى الله عليه وسـلم : "تحليلها التسليم" . ثم بيّن كيف التسليم فكان يسلم عن يمينه وعن يساره . ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله صلى الله عليه وسلم: "تحليلها التسليم" قالوا: والتسليمة الواحدة يقع عليها اسم تسليم .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

قلت : هذه المسئلة مبنية على الأخذ بأقل الاسم أو بآخره، ولما كان الدخول فى الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة ، إلا أنه تواردت السنن الثابتة من حديث ابن مسعود — وهو أكثرها تواترا — ومن حديث وائل بن حُجْر الحضرمىّ وحديث عمار وحديث البراء بن عازب وحديث ابن عمر وحديث سعد بن أبى وقّاص أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يسلم تسليمتين . روى ابن جريج وسليمان بن بلال وعبد العزيز ابن محمد الدراوردى كلهم عن عمرو بن يحيى المازنى عن محمد بن يحيى بن حَبّان عن عمه واسع بن حَبّان قال قلت لابن عمر : حدّثنى عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت؛ فذكر التكبير كلما رفع رأسه وكلما خفضه، وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره . قال ابن عبد البر : وهذا إسناد مدنى صحيح، والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة، وهو عمل قد توارثه أهل المدينة كابرا عن كابر، ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل فى كل بلد؛ لأنه لا يخفى لوقوعه فى كل يوم مرارا . وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عندهم بالتسليمتين ومتوارث عندهم أيضا . وكل ما جرى هذا المجرى فهو اختلاف فى المباح كالأذان ، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجاز ولا بالعراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة ولا إنكار التسليمتين بل ذلك عندهم معروف ، وحديث التسليمة الواحدة رواه سعد بن أبى وقاص وعائشة وأنس، إلا أنها معلولة لا يصححها أهل العلم بالحديث .

الرابعة والثلاثون — روى الدّارقطنىّ عن ابن مسعود أنه قال : من السنة أن يخفى التشهد . واختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو : التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصلوات لله ، السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . واختار الشافعى وأصحابه والليث بن سعد تشهد ابن عباس ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن، فكان يقول : " التحيات المباركات الصلوات الطيبات

لله، السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ". واختار الثورى والكوفيون وأكثر أهل الحديث تشهد ابن مسعود الذى رواه مسلم أيضا قال : كنّا نقول فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله، السلام على فلان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : " إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيات والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين — فاذا قالها أصابت كل عَبْد [لله](١) صالح فى السماء والأرض — أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ماشاء ". وبه قال أحمد وإسحاق وداود . وكان أحمد بن خالد بالأندلس يختاره ويميل اليه . وروى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا وموقوفا نحو تشهد ابن مسعود . وهذا كله اختلاف فى مباح ليس شىء منه على الوجوب، والحمد لله وحده . فهذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمنها قوله جل وعز : « وَٱرْكَعُوا مع ٱلرَّاكِعِينَ » . وسيأتى القول فى القيام فى الصلاة عند قوله تعالى : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » . ويأتى هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصلاة، ويأتى فى « آل عمران » حكم صلاة المريض غير الإمام ، ويأتى فى « النساء » فى صلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل ، ويأتى فى سورة « مريم » حكم الإمام يصلى أرفع من المأموم ، إلى غير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد؛ وهذا كله بيان لقوله تعالى : « وأقيموا الصلاة » . وقد تقدّم فى أوّل السورة جملة من أحكامها، والحمد لله على ذلك .

قوله تعالى : أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

فيه تسع مسائل :

---

(١) الزيادة عن مسلم .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ هذا استفهام معناه التوبيخ، والمراد في قول أهـل التأويل علماء اليهود . قال ابن عباس : كان يهود المدينـة يقول الرجل منهم لصهره ولذى قرابتـه ولمن بينه و بينه رضاع من المسلمين : اثبُت على الذى أنت عليـه وما يأمرك به هذا الرجل . — يريدون محمدا صلى الله عليه وسلم — فإن أمره حق ؛ فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه . وعن ابن عباس أيضا : كان الأحبار يأمرون مقلّديهـم وأتباعهم باتباع التوراة، وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جريج : كان الأحبار يحضـون على طاعة الله وكانوا هم يواقعـون المعاصي . وقالت فرقة : كانوا يحضون على الصدقة و يبخلون. والمعنى متقارب . وقال بعض أهل الإشارات : المعنى أتطالبون الناس بحقائق المعاني وأنتم تخالفون عن ظواهر رسومها ! .

الثـانيــة — في شدّة عذاب من هذه صفته ؛ روى حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم " ليلة أُسرى بى مررت على ناس تقـرض شفاههـم بمقاريضَ من نار فقلت يا جبريل مَن هؤلاء قال هؤلاء الخطباء من أهل الدنيـا[1] يأمرون الناس بالبر و ينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون " . وروى أبو أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الذين يأمرون الناس بالبر و ينســون أنفسهم يجرّون قُصْبَهم في نار جهنم فيقال لهم من أنتم فيقولون نحن الذين كنا نأمر الناس بالخير وننسى أنفســنا " .

قلت : وهــذا الحديث و إن كان فيه لين لأن في سنده الخصيب بن جحـدر كان الإمام أحمد يستضعفه ، وكذلك ابن مَعين يرويه عن أبي غالب عن أبي أمامة صُـدىّ بن عجلان الباهلي، وأبو غالب هو — فيما حكى يحيى بن معين — حزوّر القرشي مولى خالد بن عبد الله ابن أسـيد . وقيل : مولى باهلة . وقيـل : مولى عبد الرحمن الحضرمي، كان يختلف الى

(١) كذا في مسـند الامام أحمد بن حنبـل (ج ٣ ص ١٢٠) وتفسـير الفخر الرازى (ج ١ ص ٤٩٦) . وفي الأصول : «من أمتك» .

الشام فى تجارته . قال يحي بن معين : هو صالح الحديث، فقد رواه مسلم فى صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلق فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار [بالرحى](1) فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ألم [تكن](1) تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه " .

القُصْب بضم القاف : المِعَى، وجمعه أقصاب . والأقتاب : الامعاء، وأحدهما قِتْب . ومعنى فتندلق : فتخرج بسرعة . وروينا فتنفلق .

قلت : فقد دل الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالما بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشدّ ممن لم يعلمه ؛ وإنما ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى، ومستخف بأحكامه، وهو ممن لا ينتفع بعلمه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه". أخرجه ابن ماجه فى سننه .

الثـالثـة — اعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ فى الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر، ولهذا ذمّ الله تعالى فى كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها ؛ وبخهم به توبيخا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : « أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ » الآية . وقال منصور الفقيه فأحسن :

إن قوما يأمرونا * بالذى لا يفعلونا
لمجانين وإن هم * لم يكونوا يصرعونا

وقال أبو العتاهية :

وصفتَ التُّقى حتى كأنك ذو تقىً * وريح الخطايا من ثيابك تسطعُ

(1) الزيادة عن صحيح مسلم .

وقال أبو الأسود الدؤلى :

لاتنهى عن خلق وتأتى مثـــله * عار عليـك إذا فعلت عظـــيم
وابدأ بنفســـك فانهها عن غيّها * فان انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى * بالقول منـك وينفع التعلـيم

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبى عثمان الحيرى الزاهد فخرج وقعـد على موضعه الذى كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته ؛ فناداه رجل كان يعرف بأبى العباس ، ترى أن تقول فى سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :

وغير تقىٍّ يأمر النـاس بالتُّــقَى * طبيب يداوى والطبيب مريض

قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

الرابعـــة — قال إبراهيم النخعىّ إنى لأكره القَصص لثلاث آيات ؛ قوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر » الآية ، وقوله : « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ » ، وقوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ » . وقال سلم بن عمرو[1] :

ما أقبح التزهيد من واعظ * يزهّــد النـاس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صـادقا * أضحى وأمسى بيته المسجد
إن رفض الدنيا فما باله * يستمنح النـاس ويسترفد
والرزق مقسوم على من ترى * ينـاله[2] الأبيض والأســود

وقال الحسن لمطرّف بن عبد الله : عظ أصحابك ؛ فقال إنى أخاف أن أقول ما لا أفعل ؛ قال : يرحمك الله ! وأيّنا يفعل ما يقول ! ويودّ الشيطان أنه قد ظفر بهذا ، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر . وقال مالك عن ربيعـة بن أبى عبد الرحمن سمعت سعيد بن جبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيـه شىء ، ما أمر

(١) كذا فى الأصول . والصحيح أن الأبيات لجماز ، وهو ابن أخت سلم بن عمرو الخاسر . يراجع الأغانى (ج ٤ ص ٧٦) طبع دار الكتب المصرية .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « يسعى له » .

أحد بمعـروف ولا نهى عن منكر . قال مالك : وصـدق ، من ذا الذى ليس فيـه (١) شىء !.

الخامســة ــ قوله تعالى « بِالْبِرِّ » البر هنا الطاعة والعمل الصالح . والبر : الصدق . والبر : ولد الثعلب . والبر : سَوق الغنم، ومنه قولهم « لايعرف هِرًّا من بِرٍ » أى لا يعرف دعاء الغنم من سوقها . فهو مشترك، وقال الشاعر :

لا هُمَّ رَبُّ إن بكرا دونكا (٢) * يَبَرُّكَ الناس ويفجرونكا

أراد بقوله : يبرك الناس، أى يطيعونك . ويقال : إن البر الفؤاد فى قوله :

أكون مكان البِرِّ منه ودونه (٣) * وأجعل مالى دونه وأُوَامِرُه

والبُرّ بضم الباء معروف، وبفتحها الإجلال والتعظيم، ومنه ولَدٌ بَرٌّ وبار، أى يعظم والديه ويكرمهما .

السادســة ــ قوله تعالى : ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أى تتركون . والنسيان بكسر النون يكون بمعنى الترك، وهو المراد هنا، وفى قوله تعالى : « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »، وقوله : « فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ »، وقوله : « وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » . ويكون خلاف الذكر والحفظ، ومنه الحديث : "نسى آدم فنسيت ذريته" . وسيأتى . يقال: رجل نسيان (بفتح النون) : كثير النسيان للشىء . وقد نَسِيت الشىء نِسْيانا ، ولا تقل نَسَيانا بالتحريك؛ لأن النَّسَيان إنما هو تثنيــة نسا العِرْق . وأنفس : جمع نفس، جمع قـلة . والنفس : الروح؛ يقال : خرجت نفسه، قال أبو خِرَاش :

نجا سالمٌ والنفس منــه بشِدْقِهِ * ولم يَنْجُ إلا جَفن سيف ومِئزرا

أى بجفن سيف ومئزر . ومن الدليـل على أن النفس الروح قوله تعـالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » يريد الأرواح ، فى قول جماعة من أهـل التأويل على ما يأتى . وذلك

(١) فى نسخة : « عليه » .

(٢) كذا فى البحر المحيط لأبى حيان . وفى الأصول : «بكوا» بالواو. وفى تفسير الشوكانى: « إن يكونوا» .

(٣) كذا فى الأصول واللسان مادة . « برر » . وفى شرح القاموس :

* يكون مكان البرمنى ودونه *

بيّن فى قول بلال للنبيّ صلىّ الله عليه وسـلم فى حديث ابن شهاب : أخذ بنفسى يا رسول الله الذى أخذ بنفسك . وقوله عليـه السلام فى حديث زيد بن أسلم : " إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردّها إلينا فى حين غير هذا " . رواهما مالك؛ وهو أولى ما يقال به . والنفس أيضا الدم؛ يقال : سالت نفسه؛ قال الشاعر(١) :

تسيل على حدّ السيوف نفوسنا * وليست على غير الظُّبات تسيل

وقال إبراهيم النخعيّ : ما ليس له نفس سائلة فانه لا ينجس المـاء إذا مات فيـه . والنفس أيضا الجسد؛ قال الشاعر(٢) :

نُبِّئت أن بنى سُحَيم أدخلوا * أبياتَهم تامُورَ نفْسِ المُنذِرِ

والتامور أيضا : الدم .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ ﴾ توبيخ عظيم لمن فهم . وتتلون : تقرءون. الكتاب : التوراة . وكذا من فعل فعلهم كان مثلهم. وأصل التلاوة الاتباع، ولذلك استعمل فى القـراءة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض فى حروفه حتى يأتى على نسقه؛ يقال : تلوته إذا تبعته تُلُوًّا، وتلوت القـرآن تِلاوة . وتلوت الرجل تُلْوًا إذا خذلته . والتَّلِيّة والتُّلاوة (بضم التاء) : البقية؛ يقال : تَلِيَت لى من حقى تُلاوة وتَلِيّة، أى بقيت. وأتليتُ : أبقيتُ. وتتلّيت حقى إذا تتبعته حتى تستوفيه . قال أبو زيد : تَلِّيَ الرجلُ إذا كان بآخر رمق .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى أفلا تمنعون أنفسكم من موافعة هـذه الحال المردية لكم . والعَقْل : المنع؛ ومنـه عِقال البعير لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العَقْل للدية ؛ لأنه يمنع ولىّ المقتول عن قتل الجانى . ومنـه اعتقال البطن واللسان . ومنـه يقال للحصن : مَعْقِل . والعقل : نقيض الجهل . والعَقْل : ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تُغَشّى به الهوادج؛ قال علقمة :

عَقْلًا ورَقْمًا تكاد الطير تخطفه * كأنه من دم الأجواف مَدمومُ

(١) هو السموءل . (٢) هو أوس بن حجر؛ يحرض عمرو بن هند على بنى حنيفة وهم قتلة أبيه المنذر بن ماء السماء . أى حلوا دمه الى أبياتهم . (عن اللسان) .

المدموم (بالدال المهملة) : الأحمر، وهو المراد هنا . والمدموم : الممتلئ شحما من البعير وغيره . ويقال : هما ضربان من البرود . قال ابن فارس : والعقل من شيات الثياب ما كان نقشه طولا ؛ وما كان نقشه مستديرا فهو الرَّقْم . وقال الزجاج : العاقل مَن عمل بما أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل .

التاســعة — آتفق أهـل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقـديم ولا معدوم؛ لأنه لو كان معدوما لمـا آختص بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض؛ وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه؛ إذ الدليل قد قام على أن لا قـديم إلا الله تعالى، على ما يأتى بيانه فى هذه السورة وغيرها، إن شاء الله تعالى .

وقد صارت الفلاسـفة إلى أن العقل قديم؛ ثم منهـم من صار إلى أنه جوهر لطيف فى البدن ينبث شعاعه منه بمنزلة السراج فى البيت ، يفصل به بين حقائق المعلومات . ومنهم من قال : إنه جوهر بسيط، أى غير مركب . ثم آختلفوا فى محله؛ فقالت طائفة منهم : محله الدماغ ، لأن الدماغ محل الحِسّ . وقالت طائفة أخرى : محـله القلب ، لأن القلب معدن الحيـاة ومادة الحواس . وهـذا القول فى العقل بأنه جوهر فاسـد ، من حيث ان الجواهر متماثلة ؛ فلو كان جوهر عقـلا لكان كل جوهر عقلا . وقيـل : ان العقل هو المدرك للأشياء على ما هى عليـه من حقائق المعانى . وهـذا القول وان كان أقرب ممـا قبله فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحيّ ، والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا . وقال الشيخ أبو الحسن الأشـعرى والأستاذ أبو إسحاق الأسفراينى وغيرهمـا من المحققين : العقل هو العـلم بدليل أنه لا يقال : عقلت وما علمت ، أو علمت وما عقلت . وقال القـاضى أبو بكر : العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واسـتحالة المستحيلات؛ وهو اختيار أبى المعـالى فى الإرشاد؛ واختار فى البرهان أنه صفة يتأتّى بهـا درك العلوم . واعترض على مذهب القاضى واستدل على فساد مذهبه . وحكى فى البرهان عن المحاسبي أنه قال : العقل غريزة . وحكى الأسـتاذ

أبو بكر عن الشافعي وأبي عبـد الله بن مجاهد أنهما قالا : العقل آلة التميز . وحكى عن أبي العبـاس القلانسي أنه قال : العقل قوة التميز . وحكى عن المحاسبي أنه قال : العقل أنوار وبصائر . ثم رتب هـذه الأقوال وحملهـا على محامل فقال : والأولى ألا يصح هـذا النقل عن الشافعي ولا عن ابن مجاهد، فان الآلة انما تستعمل فى الآلة المثبتة(١) واستعمالها فى الأعراض مجاز؛ وكذلك قول من قال : انه قوة فانه لايعقل من القوة الا القـدرة ؛ والقلانسي أطلق ما أطلقه توسّعا فى العبارات، وكذلك المحاسبي . والعقل ليس بصورة ولا نور ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر. وسيأتى فى هذه السورة بيان فائدته فى آية التوحيد ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ ﴾ الصبر : الحبس فى اللغـة . وقُتِل فلان صَـبْرًا ، أى أُمسِكَ وحُبِس حتى أُتلف . وصبرت نفسى على الشيء : حبستها . والمَصْبورة التى نهى عنها فى الحديث هى المحبوسة على الموت، وهى المُجَثَّمَة . وقال عنترة :

فصَبَرْتُ عارفـةً لذلك حُرَّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجبان تَطَلَّعُ

الثانيـــة ــ أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة فى كتابه فقال : « وَٱصْبِرُوا » . يقال : فلان صابر عن المعاصى ؛ وإذا صـبر عن المعاصى فقد صبر على الطاعة ؛ هـذا أصح ما قيل . قال النحاس : ولا يقال لمن صبر على المصيبة : صابر؛ إنمـا يقال : صابر على كذا، فاذا قلت : صابر مطلقا فهـو على ما ذكرنا؛ قال الله تعـالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

الثـالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّلَاةِ ﴾ خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويها بذكرها . وكان عليه السلام إذا حَزَبه(٢) أمر فزع إلى الصلاة؛ ومنه ما روى أن عبد الله

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى الآلة المبنية » .
(٢) حزبه، أى نزل به مهم أو أصابه غم .

ٱبن عباس نُعِي له أخوه قُثَم — وقيل بنت له — وهو في سفر فاسترجع وقال : عورة سترها الله ، ومؤونة كفاها الله، وأجر ساقه الله . ثم تنحّى عن الطريق وصلى، ثم انصرف الى راحلته وهو يقرأ : « وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ » . فالصلاة على هذا التأويل هي الشرعية . وقال قوم : هي الدعاء على عرفها في اللغـة، فتكون الآية على هذا التأويل مشبهة لقوله تعـالى : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ » . لأن الثبات هو الصبر، والذكر هو الدعاء . وقول ثالث، قال مجاهد : الصبر في هـذه الآية الصوم ؛ ومنه قيل لرمضان : شهر الصبر، فجـاء الصوم والصلاة على هـذا القول في الآية متناسبا في أن الصـيام يمنع من الشهوات ويزهد في الدنيا ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتخشّع ويُقرأ فيها القرآن الذي يذكّر الآخرة . والله أعلم .

الرابعـــة — الصبر على الأذى والطاعات من باب جهـاد النفس وقمعها عن شهواتهـا ومنعها من تطاولها، وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين . قال يحيى بن اليمَـان : الصبر ألا تتمنى حالة سوى ما رزقك الله ، والرضى بمـا قضى الله من أمر دنياك وآخرتك . وقال الشعبيّ : قال عليّ رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . قال الطبري : وصدق عليّ رضي الله عنه . وذلك أن الإيمـان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح؛ فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمـان بالإطلاق . فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذي لا تمـام له إلا به .

الخامســـة — وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدًّا فقال : « مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » . وجعل جزاء الصدقة في سبيل الله فوق هذا فقال : « مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ » الآية . وجعل أجر الصابرين بغير حساب، ومدح أهـله فقال : « إِنَّمَـا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال : « وَلَمَنْ صَـبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ » . وقد قيل : إن المراد بالصابرين في قوله : « إنمـا يوفى الصابرون » أي الصائمون ؛ لقـوله تعالى في صحيح السنة عن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم : "الصـيام لي وأنا أجزي به" فلم يذكر ثوابا مقـدرا كما لم يذكر في الصبر . والله أعلم .

السادســـة — من فضل الصبر وصف الله تعالى نفســـه به ؛ كما فى حديث أبى موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس أحد أو ليس شيء أصبرَ على أذًى سمعه من الله تعالى إنهم ليدْعُون له ولدا وإنّه ليُعافيهـم ويرزقهم " . أخرجه البخارى . قال علمـاؤنا : وصفُ الله تعالى بالصبر إنمـا هو بمعنى الحلم ، ومعنى وصـفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصفه تعالى بالصبر لم يرد فى التنزيل وإنما ورد فى حديث أبى موسى ، وتأوله أهل السنة على تأويل الحـلم . قاله ابن فُورَك وغيره . وجاء فى أسمائه الصبور للمبالغة فى الحلم عمن عصاه .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ اختلف المتأولون فى عود الضمير من قوله : « وإنهـا » ؛ فقيل : على الصلاة وحدها خاصة ، لأنها تكبر على النفوس مالا يكبر الصوم . والصبر هنا : الصوم . فالصلاة فيها سجن النفوس ، والصوم إنما فيه منع الشهوة ؛ فليس من منع شهوة واحدة أو شهوتين كمن منع جميع الشهوات . فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب ، ثم ينبسـط فى سائر الشهوات من الكلام والمشى والنظـر الى غير ذلك من ملاقاة الخلق ، فيتسلى بتلك الأشياء عما منع . والمصـلى يمتنع من جميع ذلك ، فجوارحه كلها مقيدة بالصلاة عن جميع الشهوات . وإذا كان ذلك كانت الصـلاة أصعب على النفس ومكابدتها أشـدّ ، فلذلك قال : « وإنها لكبيرة » . وقيـل : عليهما ، ولكنه كَنَى عن الأغلب وهو الصلاة ؛ كقوله : « وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » . وقوله : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا » فرد الكناية إلى الفضـة لأنها الأغلب والأعم ، وإلى التجارة لأنها الأفضل والأهم . وقيل : إن الصبر لمـا كان داخلا فى الصلاة أعاد عليها ؛ كما قال : « وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ » . ولم يقل : يرضوهما ، لأن رضى الرسول داخل فى رضى الله جل وعز ؛ ومنه قول الشاعر (١) :

إنّ شَرخَ الشّباب والشّعرَ الأسـ　＊　ـود ما لم يُعاصَ كان جنونا

(١) هو حسان بن ثابت .

ولم يقل يعاصيا، ردّ إلى الشــباب لأن الشّعر داخل فيه . وقيل : رد الكناية الى كل واحد منهما لكن حذف اختصارا؛ قال الله تعالى : «وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً» ولم يقل آيتين؛ ومنــه قول الشاعر (١) :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله * فإنى وقيّارٌ بهــا لغــريبُ

وقال آخر (٢) :

لكلّ همٍّ من الهمــوم سَــعَهْ * والصبحُ والمُسْىُ لا فلاح معهْ

أراد لغريبان، لا فلاح معهما . وقيل : على العبادة التى يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة . وقيل : على المصدر، وهى الاستعانة التى يقتضيها قوله : «وَٱسْتَعِينُوا» . وقيل : على إجابة محمد عليه السلام، لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليــه . وقيل : على الكعبة ، لأن الأمر بالصلاة إنمــا هو اليها . «وكبيرة» معناه ثقيلة شاقة، خبر إن . ويجوز فى غير القرآن « وإنه لكبيرة » . « إلا على الخاشعين » فانها خفيفة عليهم . قال أرباب المعانى : إلا على من أيد فى الأزل بخصائص الاجتباء والهدى .

الثامنــــة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ ﴾ الخاشعون جمع خاشع وهو المتــواضع . والخشوع : هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع . وقال قتادة : الخشوع فى القلب، وهو الخوف وغض البصر فى الصلاة . قال الزجاج : الخاشع الذى يُرَى أثر الذل والخشوع عليه؛ كخشوع الدار بعد الإقواء . هذا هو الأصل . قال النابغة :

رَمَادٌ ككحل العين لأيًا أبينه * ونُؤْىٌ كجذم الحوض أثْلَمُ خاشعُ

ومكان خاشع لا يهتدى له . وخشعت الأصوات أى سكنت . وخَشَعت خَراشىُّ صــدره إذا ألقى بصاقا لزجا . وخَشَع ببصره إذا غضّه . والخُشــعة : قطعة من الأرض رِخــوة؛ وفى الحديث : "كانت خُشْعة على المــاء ثم دحيت بعد" (٣) . وبلدة خاشعة : مغــبرة لا منزل

(١) هو ضابىء البرجمى؛ كما فى اللسان مادة (قير) والكامل للمبرد (ج ١ ص ١٨١) طبع أوربا .

(٢) هو الأضبط بن قريع السعدى؛ عن اللسان مادة (مسا) .

(٣) الذى فى نهاية ابن الأثير مادة (خشع) : « كانت الكعبة خشعة على المــاء فدحيت منها الأرض» .

بها . قال سفيان الثورى : سألت الأعمش عن الخشوع فقال : يا ثورى، أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! سألت إبراهيم النخعى عن الخشوع ، فقال : أعيمش ! تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس ! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنىء فى الحق سواء ، وتخشع لله فى كل فرض افترض عليك . ونظر عمر بن الخطاب الى شاب قد نكس رأسه فقال : يا هذا ! ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب . وقال علىّ بن أبى طالب : الخشوع فى القلب ، وأن تلين كفيك للمرء المسلم ، وألا تلتفت فى صلاتك . وسيأتى هذا المعنى مجوّدا عند قوله تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» . فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما فى قلبه فإنما أظهر نفاقا على نفاق . قال سهل بن عبد الله : لا يكون خاشعا حتى تخشع كل شعرة على جسده ، لقول الله تبارك وتعالى : «تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» .

قلت : هذا هو الخشوع المحمود ، لأن الخوف اذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه ، فتراه مطرقا متأدبا متذللا . وقد كان السلف يجتهدون فى ستر ما يظهر من ذلك ، وأما المذموم فتكلفه والتباكى ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليروا بعين البر والإجلال ، وذلك خدع من الشيطان ، وتسويل من نفس الانسان . روى الحسن أن رجلا تنفّس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن ، فلكزه عمر ، أو قال لكمه . وكان عمر رضى الله عنه اذا تكلم أسمع ، واذا مشى أسرع ، واذا ضرب أوجع ، وكان ناسكا صدقا ، وخاشعا حقا . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : الخاشعون هم المؤمنون حقا .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ الذين فى موضع خفض على النعت للخاشعين ، ويجوز الرفع على القطع . والظن هنا فى قول الجمهور بمعنى اليقين ، ومنه قوله تعالى : « إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ » وقوله : « وَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا » . قال دُريد بن الصِّمّة :

فقلت لهم ظُنُّوا بألفَى مدَجَّج * سَرَاتُهُم فى الفارسىّ المُسرَّدِ

وقال أبو دُواد :

رُبَّ همٍّ فرّجتــه بغــريم * وغيوب كشفتهـا بظنون

وقد قيل : إن الظن فى الآية يصح أن يكون على بابه، ويضمر فى الكلام بذنوبهم؛ فكأنهم يتوقعون لقـاءه مذنبين ، ذكره المهدوى والمـاوردى . قال ابن عطية : وهـذا تعسّف . وزعم الفراء أن الظنّ قـد يقع بمعنى الكذب ؛ ولا يعرف ذلك البصريون . وأصـل الظن وقاعدته الشك مع ميل الى أحد معتقديه، وقد يقع موقع اليقين ؛ كما فى هذه الآية وغيرها ، لكنه لا يوقع فيما قد خرج الى الحِس؛ لا تقول العرب فى رجل مرئىّ حاضر : أظن هـذا إنسانا . وإنمـا تجد الاستعمال فيما لم يخرج الى الحس بعـدُ؛ كهذه الآية والشـعر، وكقوله تعـالى : « فَظَنُّوا أَنَّهُـمْ مُوَاقِعُوهَا » . وقد يجيء اليقين بمعنى الظن ، وقد تقدم بيانه أول السورة . وتقول : سـؤت به ظنا ، وأسأت به الظن . يدخلون الألف اذا جاءوا بالألف واللام . ومعنى ﴿ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ جزاء ربهم . وقيل : جاء على المفاعلة وهو من واحد؛ مثل عافاه الله . ﴿ وَأَنَّهُـمْ ﴾ بفتح الهمزة عطف على الأول ، ويجوز وإنهم بكسرها على القطع . ﴿ إِلَيْـهِ ﴾ أى الى ربهم ، وقيل الى جزائه . ﴿راجعون﴾ إقرار بالبعث والجزاء والعرض على الملك الأعلى .

قوله تعالى : يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْـكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقـدم[(١)] . ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ يريد على عالمى زمانهم، وأهل كل زمان عالَم . وقيل : على كل العالمين بمـا جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليست لغيرهم .

قوله تعالى : وَٱتَّقُـواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَـلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

(١) راجع ص ٣٣٠

قوله تعالى : ﴿وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أمر معناه الوعيد؛ وقد مضى الكلام فى التقوى(١) . « يوما » يريد عذابه وهوله ، وهو يوم القيامة . وانتصب على المفعول باتقوا . ويجوز فى غير القرآن يوم لا تجزى، على الاضافة . وفى الكلام حذف بين النحويين فيه اختلاف . قال البصريون : التقدير يوما لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا، ثم حذف فيه ؛ كما قال :

* ويوما شهدناه سُليما وعامرا(٢) *

أى شهدنا فيه . وقال الكسائى : هـذا خطأ لا يجوز حذف « فيه » ولكن التقدير : واتقوا يوما لا تجزيه نفس ، ثم حذف الهاء . وإنما يجوز حذف الهاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها؛ قال : لا يجوز أن تقول : هـذا رجلا قصدت ، ولا رأيت رجلا أرغب ؛ وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه . قال : ولو جاز ذلك لجاز الذى تكلمت زيد، بمعنى تكلمت فيه زيد . وقال الفراء : يجوز أن تحذف الهـاء وفيه . وحكى المهدوى أن الوجهين جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج .

ومعنى « لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَـيْئًا » أى لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا؛ تقول : جَزَى عنى هـذا الأمر يَجزى؛ كما تقول : قضى عنى . واجتزأت بالشىء اجتزاء اذا اكتفيت به؛ قال الشاعر :

فانّ الغـدر فى الأقوام عار * وأنّ الحر يجزأ بالكراع

أى يكتفى بها . وفى حديث عمر : " اذا أجريت المـاء على المـاء جزى عنـك " . يريد اذا صببت المـاء على البول فى الأرض فجرى عليه طهر المكان، ولا حاجة بك الى غسل ذلك الموضع وتنشيف المـاء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس . وفى صحيح الحـديث عن أبى بُردة بن نِيَار فى الأضحية : " لن تَجزِىَ عن أحد بعدك " أى لن تغنى . فمعنى لا تجزى : لا تقضى ولا تغنى ولا تكفى إن لم يكن عليهـا شىء ؛ فان كان فانهـا تجزى وتقضى وتغنى؛

(١) راجع ص ١٦١		(٢) سليم وعامر، قبيلتان من قيس عيلان .

بغير اختيـارها من حسناتها ما عليهـا من الحقوق؛ كما فى حديث أبى هريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت عنـده مَظلِمة لأخيـه من عِرضه أو شيءٍ فليتحلّله منه اليومَ قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلِمته وان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليـه" . خرّجه البخارى . ومثله حديثه الآخر فى المُفْلس، وقد ذكرناه فى التذكرة خرّجه مسلم[1] . وقرئ تُجزئ بضم التاء والهمز . ويقال : جزى وأجزى بمعنى واحد . وقد فرّق بينهما قوم فقالوا : جزى بمعنى قضى وكافأ . وأجزى بمعنى أغنى وأكفى . أجزأنى الشيء يجزئنى أى كفانى؛ قال الشاعر :

وأجزأتَ أمر العالمين ولم يكن * ليجْزئَ إلا كاملٌ وابنُ كامل

الثالثـــة[2] — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشفع وهما الاثنان؛ تقول : كان وَتْرًا فشَفَعْتُه شـفعا ؛ والشُّفْعة منـه ، لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك . والشفيع : صاحب الشُّفعة وصاحب الشفاعة . وناقة شافع : إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها؛ تقول منه : شَفعتِ الناقة شَفْعا . وناقة شَفوع وهى التى تجمع بين مِحْلَبين فى حَلْبة واحدة . واستشفعته الى فلان : سألته أن يشفع لى إليه . وتشفّعت إليـه فى فلان فشفّعنى فيـه؛ فالشفاعة إذًا ضمّ غيرك الى جاهك ووسيلتك ؛ فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشـفيع عند المشفع و إيصال منفعته للشفوع .

الرابعـــة — مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق؛ وأنكرها المعتزلة وخلّدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار فى العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين هم الذين تنـالهم شفاعة الشافعيــن من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين . وقـد تمسك القاضى عليهـم فى الردّ بشيئين : أحدهما — الأخبار الكثيرة التى تواترت فى المعنى . والثانى : الإجماع من السلف على تلقى هذه الأخبار بالقبول ولم يَبْدُ من

(١) راجع صحيح مسلم، باب تحريم الظلم (ج ٢ ص ٢٨٣) طبع بولاق .

(٢) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله تعالى لم يذكر المسألة الأولى والثانية فى هذه الآية .

أحد منهم فى عصر من الأعصار نكير؛ فظهور روايتها و إطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب ردّ هذه الأخبار، مثل قوله : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » . قالوا : وأصحاب الكبائر ظالمون . وقال : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ » ، « وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » . قلنا : ليست هذه الآيات عامة فى كل ظالم ، والعموم لا صيغة له؛ فلا تعم هذه الآيات كل من يعمل سوءا وكل نفس ، و إنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة فى ذلك . وأيضا فإن الله تعالى أثبت شفاعة لأقوام ونفاها عن أقوام؛ فقال فى صفة الكافرين : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » وقال : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » وقال : «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ» . فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين . وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة » النفس الكافرة لا كل نفس . ونحن و إن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص فلا نقول : إنهم مخلدون فيها بدليل الأخبار التى رويناها، و بدليل قوله : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ، وقوله : « إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

فإن قالوا : فقد قال تعالى : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » والفاسق غير مرتضى . قلنا : لم يقل لمن لا يرضى، و إنما قال : « لِمَنِ ارْتَضَى » ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحدون؛ بدليل قوله : « لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » . وقيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ما عهد الله مع خلقه؟ قال : « أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا » . وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله .

فإن قالوا : المرتضى هو التائب الذى اتخذ عند الله عهدا بالإنابة اليه، بدليل أن الملائكة استغفروا لهم؛ وقال : «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ» . وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هى لأهل التوبة دون أهل الكبائر . قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة ،

فإذا قبــل الله توبة المذنب فلا يحتاج الى الشفاعة ولا الى الاستغفار . وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : « فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا » أى من الشرك « وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى سبيل المؤمنين؛ سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم، كما قال تعالى : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

فإن قالوا : جميـع الأمة يرغبون فى شفاعة النبيّ صلى الله عليــه وسلم، فلو كانت لأهل الكبائر خاصة بطل سؤالهم . قلنا : إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول و يرغب الى الله فى أن تناله؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سـبحانه بكل ما افترض عليــه؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب و يرجو النجاة؛ وقال صلى الله عليه وسلم : "لا ينجو أحد إلا برحمــة الله تعالى — فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ فقال — : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته" .

الخـامســـة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو «تقبل» بالتاء، لأن الشفاعة مؤنثة . وقرأ الباقون بالياء على التذكير لأنها بمعنى الشفيع . وقال الأخفش : حسن التذكير، لانك قد فرقت؛ كما تقدّم فى قوله : « فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أى فداء . والعَدْل بفتح العين : الفداء، وبكسرها : المِثل؛ يقال : عِدْل وعَدِيل للذى يماثلك فى الوزن والقدر . و يقال : عَدْلُ الشيء هو الذى يساويه قيمة وقدرا وان لم يكن من جنسه . والعِدل بالكسر هو الذى يساوى الشيء من جنســه وفى جرمه . وحكى الطبريّ أن من العــرب من يكسر العين من معنى الفدية . فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أى يعانون . والنصر: العون . والأنصار : الأعوان؛ ومنــه قوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ » أى من يضم نصرته إلى نصرتى . وانتصر الرجل : انتقم . والنصر : الإتيان؛ يقال : نصرت أرض بنى فلان : أتيتها؛ قال الشاعر[1] :

(١) هو الراعى يخاطب خيلا . (عن اللسان) .

إذا دخل الشهرُ الحرامُ فودِّعِى * بلادَ تميم وٱنْصُرِى أرضَ عامرِ

والنصر: المطر؛ يقال: نُصِرَت الأرض: مُطِرت. والنصر العطاء؛ قال:

إنى وأَسْطارٍ سُـطِرن سطرًا * لقـائلٌ يانصرُ نصرًا نصرًا

وكان سبب هـذه الآية فيما ذكروا أن بنى اسرائيل قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنـا آباؤنا؛ فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فدية. وإنما خص الشفاعة والفدية والنصر بالذكر لأنها هى المعانى التى اعتادها بنو آدم فى الدنيا؛ فان الواقع فى الشدّة لا يتخلص إلا بأن يُشفع له أو ينصر أو يفتدى.

قوله تعالى: وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ إذ فى موضـع نصب عطف على «اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ». وهـذا وما بعده تذكير ببعض النعم التى كانت له عليهم؛ أى آذكروا نعمتى بإنجائكم من عدوّكم وجعل الأنبياء فيكم. والخطاب للوجودين والمراد مَن سـلف من الآباء؛ كما قال: «إِنَّا لَمَّـا طَغَى الْمَـاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ» أى حملنا آباءكم. وقيل: إنمـا قال «نجيناكم» لأن نجاة الآباء كانت سـببا لنجاة هؤلاء الموجودين. ومعنى نجيناكم ألقيناكم على نَجْـوة من الأرض، وهى ما ارتفع منها. هـذا هو الأصل؛ ثم سمى كل فائز ناجيا. فالناجى من خرج من ضيق إلى سعة. وقرئ: «وإذا نجيتكم» على التوحيد.

الثـانيـــة — قوله تعالى: ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ آل فرعون قومه وأتباعه وأهل دينه. وكذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملّته فى عصره وسائر الأعصار؛ سواء كان نسيبا له أو لم يكن. ومن لم يكن على دينه وملته فليس من آله ولا أهـله، وإن كان نسيبه وقريبه، خلافا للرافضة حيث قالت: إن آل رسول الله صلى الله عليه وسـلم فاطمة

والحسن والحسين فقـط . دليلنـا قوله تعالى : «وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ» «أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» أى آل دينه؛ إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عم ولا أخ ولا عَصبة؛ ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا موحّد فانه ليس من آل محمـد وإن كان قريبا له ؛ ولأجل هذا يقال : إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله ؛ وإن كان بينهما وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم قرابة؛ ولأجل هذا قال الله تعالى فى ابن نوح : «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» . وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جِهارا غير سِرّ يقول : "[ألا](١) إن آل أبى — يعنى فلانا(٢) — ليسوا [لى](١) بأوليـاء إنما وليّى الله وصالح المؤمنين" : وقالت طائفة : آل محمد أزواجه وذريته خاصـة ؛ لحديث أبى حميد الساعدى أنهم قالوا : يا رسـول الله كيف نصلى عليك ؟ قال : "قولوا اللّهمّ صلّ على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل ابراهيم إنك حميد مجيـد" . رواه مسلم . وقالت طائفة من أهل العلم : الأهل معلوم، والآل : الأتباع . والأول أصح لمـا ذكرناه، ولحديث عبـد الله بن أبى أوْفَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذ أتاه قوم بصدقتهم قال : "اللّهمّ صلّ عليهـم" فأتاه أبى بصدقته فقال : "اللّهمّ صلّ على آل أبى أوفى" .

الثالثـة — اختلف النحاة هل يضاف الآل الى البـلدان أولا ؟ فقال الكسائى : إنما يقال آل فلان وآل فلانة، ولا يقال فى البلدان هو من آل حِمْص ولا من آل المدينة . قال الأخفش : إنما يقال فى الرئيس الأعظم ، نحو آل محمـد صلى الله عليه وسلم وآل فرعون لأنه رئيسهم فى الضلالة . قال : وقد سمعناه فى البلدان، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) قوله : يعنى فلانا . قال النووى : «هذه الكناية هى من بعض الرواة خشى أن يسميه فيترتب عليـه مفسدة وفتنة ... قال القاضى عياض : قيل أن المكنى عنه ها هنا هو الحكم بن أبى العاص» . والحكم هذا، من النفر الذين كانوا يؤذون رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فى بيته . راجع سـيرة ابن هشام (ج ١ ص ٢٧٦) طبع أوربا .

الرابعـــة — واختلف النحاة أيضا هل يضاف الآل الى المضمر أوْلا ؟ فمنع من ذلك النحاس والزبيدى والكسائىّ؛ فلا يقال إلا اللّهمّ صلّ على محمد وآل محمد ، ولا يقال وآله ، والصواب أن يقال : أهله . وذهبت طائفة أخرى الى أن ذلك يقال؛ منهم ابن السِّيد وهو الصواب، لأن السماع الصحيح يعضُده، فانه قد جاء فى قول عبد المطلب :

لا هُمّ إنّ العبــد يمـ * ـنع رَحله فامنــع حِلَالك(1)

وٱنصر على آل الصليـ * ـب وعابديه اليــومَ آلك

وقال نُدْبة :

أنا الفارس الحامى حقيقةَ والدى * وآلى كما تحمى حقيقــة آلكا

الحقيقة (بقافين) : ما يحق على الإنسان أن يحميه، أى تجب عليه حمايته .

الخامســـة — واختلفوا أيضا فى أصـل آل ؛ فقال النحاس : أصله أهل ، ثم أبدل من الهاء ألفا، فإن صغّرته رددته إلى أصله فقلت : أهيل . وقال المهدوىّ : أصله أوَل . وقيل : أهل؛ قلبت الهـاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفا . وجمعه آلون، وتصغيره أويل؛ فيما حكى الكسائى . وحكى غيره أهيل، وقد ذكرناه عن النحاس . وقال أبو الحسن بن كَيْسان: إذا جمعت آلًا قلت آلـون ؛ فإن جمعت آلًا الذى هـو السّراب قلت آوال ؛ مثـل مال وأموال .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ فرعون ، قيل : إنه اسم ذلك الملك بعينه . وقيل : إنه اسم كل ملك من ملوك العمالقة ؛ مثل كسرَى للفرس ، وقيصر للروم ، والنجاشى للحبشة؛ وإن اسم فرعون موسى : قابوس فى قول أهل الكتاب . وقال وهب : اسمه الوليد ٱبن مصعب بن الريّان ، ويكنى أبا مرة وهو من بنى عمليق بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام . قال السهيلىّ : وكل من ولى القبط ومصر فهو فرعون . وكان فارسيا من أهل إصْطَخْر . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربيـة . قال الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر؛ وكل عاتٍ فرعون . والعتاة : الفراعنة ؛ وقد تفرعن ،

(1) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون ، يريد بهم سكان الحرم .

وهو ذو فرعنة ، أى دهاء ونكر . وفى الحديث : " أخذنا فرعون هـذه الأمة " . وفرعون فى موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعجمته .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ يَسُـومُونَكُمْ ﴾ قيل : معناه يذيقونكم ويلزمونكم إياه . وقال أبو عبيدة : يولونكم ؛ يقال : سامه خُطّة خسف إذا أولاه إياها ؛ ومنـه قول عمرو ابن كلثوم :

إذا ما المَلْك سام الناس خَسْفًا * أبينـا أن نُقرّ الخسف فينا

وقيل : يديمون تعذيبكم . والسوم : الدوام ؛ ومنه سائمة الغنم لمداومتهـا الرَّعْى . قال الأخفش : وهو فى موضع رفع على الابتداء(١) ، وإن شئت كان فى موضع نصب على الحال، أى سائمين لكم .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ سُوءَ ٱلعَـذَابِ ﴾ مفعول ثان ليسومونكم ، ومعناه أشـد العذاب . ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب . وقد يجوز أن يكون نعتا بمعنى سوما سيئا؛ فرُوى أن فرعون جعل بنى إسرائيل خدما وخَوَلا وصنفهم فى أعماله ؛ فصنف يبنون ، وصنف يحرثون ويزرعون ، وصنف يتخدّمون . وكان قومه جندا ملوكا ، ومن لم يكن منهم فى عمل من هذه الأعمال ضربت عليه الجزية ؛ فذلك سوء العذاب .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ يذبحون بغير واو على البدل من قوله : « يسومونكم » ؛ كما قال — أنشده سيبويه — :

متى تأتنا تُلْمِـم بنا فى ديارنا * تجـد حطبا جَزْلا ونارا تأجّجا

قال الفراء وغيره : يذبحون بغير واو على التفسير لقوله : « يسومونكم سـوء العذاب » ؛ كما تقول : أتانى القوم زيد وعمرو ؛ فلا تحتاج الى الواو فى زيد؛ ونظيره : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ » ، وفى سورة إبراهيم : « ويذبحون » بالواو ، لأن المعنى

(١) لعله يريد أنها مستأنفة . وعبارة البحر لأبى حيان : «يحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفة وهى حكاية حال ماضية ، ويحتمل أن تكون فى موضع الحال ، أى سائميكم» .

يعـذبونكم بالذبح وبغير الذبح . فقـوله : « ويذبحون أبناءكم » جنس آخر من العذاب لا تفسير لمـا قبله . والله أعلم .

قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليـل سورة البقرة ، والواو قـد تزاد ؛ كما قال :

* فلمـا أجزنا ساحة الحىّ وٱنتحى *

أى قد انتحى . وقال آخر :

الى الملك القَرْم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المُزْدحم

أراد الى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة ؛ وهو كثير .

العـاشرة ــ قوله تعـالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير . وقرأ ابن مُحَيصن يذبَحون بفتح الباء . والذَّبح : الشق . والذِّبح : المذبوح . والذُّبَاح : تشقق فى أصول الأصابع . وذبحت الدّن : بزلته ، أى كشفته . وسعدُ الذّابحُ : أحد السـعود . والمذابح : المحاريب . والمذابح جمـع مذبح وهو اذا جاء السيل فخدّ فى الأرض ، فما كان كالشبر ونحوه سمى مذبحا . فكان فرعون يذبح الأطفال ويبقى البنات ، وعبرّ عنهم باسم النساء بالمـآل . وقالت طائفة : يذبحون أبناءكم يعنى الرجال ، وسموا أبناء لمـا كانوا كذلك ؛ وٱستدل هـذا القائل بقوله : « نِساءكم » . والأوّل أصح لأنه الأظهر ، والله أعلم .

الحادية عشرة ــ نسب الله تعالى الفعل الى آل فرعون ، وهم إنمـا كانوا يفعلون بأمره وسلطانه ، لتوليهم ذلك بأنفسهم ، وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله . قال الطبرىّ : ويقتضى أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به .

قلت : وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال ؛ يقتلان جميعا ، هذا بأمره والمأمور بمباشرته . هكذا قال النخعى ، وقاله الشافعىّ ومالك فى تفصيل لهما . قال الشافعى : اذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظلما كان عليه وعلى الإمام القَوَد كقاتلين معا ، و إن أكرهه الإمام عليه وعلم أنه يقتله ظلما كان على الإمام القَوَد . وفى المأمور

قولان : أحدهما — أن عليه القود. والآخر لا قود عليه وعليه نصف الدّية. حكاه ابن المنذر. وقال علماؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر ويخاف شره كالسلطان والسيد لعبده، فالقود فى ذلك لازم لهما؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيقتل المباشر وحده دون الآمر؛ وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلم بعض صبيانه ، أو الصانع بعض متعلميه اذا كان محتلما ؛ فان كان غير محتلم فالقتل على الآمر، وعلى عاقلة الصبىّ نصف الدية. وقال ابن نافع : لا يقتل السيد اذا أمر عبده — وان كان أعجميا — بقتل انسان . قال ابن حبيب : وبقول ابن القاسم أقول إن القتل عليهما . فأما أمر من لا خوف على المأمور فى مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يقتل المأمور دون الآمر ، ويضرب الآمر ويحبس . وقال أحمد فى السيد يأمر عبده أن يقتل رجلا : يقتل السيد . وروى هذا القول عن علىّ بن أبى طالب وأبى هريرة رضى الله عنهما . وقال علىّ : ويستودع العبد السجن. وقال أحمد : ويحبس العبد ويضرب ويؤدّب . وقال الثورىّ : يعزر السيد . وقال الحكم وحماد : يقتل العبد . وقال قتادة : يقتلان جميعا . وقال الشافعىّ : إن كان العبد فصيحا يعقلُ قتل العبد وعوقب السيد؛ وإن كان العبد أعجميا فعلى السيد القود . وقال سليمان بن موسى : لا يقتل الآمر ولكن تقطع يديه ثم يعاقب ويحبس — وهو القول الثانى — ويقتل المأمور للمباشرة . كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعىّ وأحمد وإسحاق فى الرجل يأمر الرجل بقتل الرجل ؛ وذكره ابن المنذر . وقال زفر : لا يقتل واحد منهما — وهو القول الثالث — حكاه أبو المعالى فى البرهان؛ ورأى أن الآمر والمباشر ليس كل واحد منهما مستقلا فى القود؛ فلذلك لا يقتل واحد منهما عنده . والله أعلم .

الثانيــة عشرة — قرأ الجمهور « يذبّحون » بالتشديد على المبالغــة . وقرأ ابن محيصن « يذبحون » بالتخفيف . والأولى أرجح إذ الذبح متكرر . وكان فرعون على ما رُوى قد رأى فى منامه نارا خرجت من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر؛ فأوّلت له رؤياه : أن مولودا من بنى إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه . وقيل غير هذا؛ والمعنى متقارب .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة الى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كفرد حاضر، أى وفى فعلهم ذلك بكم بلاء، أى امتحان واختبار . و بلاء : نعمة، ومنه قوله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْـهُ بَلَاءً حَسَنًا » . قال أبو الهيثم : البـلاء يكون حسنا و يكون سيئا ، وأصله المحنة، والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التى يكرهها ليمتحن صبره، فقيل للحسن بلاء ، وللسيئ بلاء ؛ حكاه الهروى . وقال قوم : الإشارة بذلكم الى التنجية، فيكون البلاء على هذا فى الخير، أى تنجيتكم نعمة من الله عليكم . وقال الجمهور : الإشارة الى الذبح ونحوه ، والبـلاء هنا فى الشر ؛ والمعنى وفى الذبح مكروه وامتحان . وقال ابن كيسان : و يقال فى الخير أبلاه الله و بلاه؛ وأنشد :

جزَى اللهُ بالإحسان ما فعلا بكم * وأبلاهما خيرَ البلاء الذى يَبْلُو

لجمع بين اللغتين . والأكثر فى الخير أبليته ، وفى الشر بلوته ، وفى الاختبار ابتليته و بلوته ، قاله النحاس .

قوله تعالى : وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ إذ فى موضع نصب . وفرقنا : فلقنا ؛ فكان كل فرق كالطود العظيم، أى الجبل . وأصل الفرق الفصل؛ ومنه فَرْق الشعر؛ ومنـه الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل أى يفصل؛ ومنه : « فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا » يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل؛ ومنه : « يَوْمَ الْفُرْقَانِ » يعنى يوم بدر، كان فيـه فرق بين الحق والباطل؛ ومنه : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ » أى فصلناه وأحكمناه . وقرأ الزهرىّ : فرّقنا بتشديد الراء، أى جعلناه فرقا . ومعنى بكم أى لكم ، فالبـاء بمعنى اللام . وقيل : البـاء فى مكانها، أى فرقنا البحر بدخولكم إياه أى صاروا بين المـاءين ، فصار الفرق بهم ؛ وهـذا أولى يبيّنه فانفـلق .

قوله تعالى : ﴿ٱلبحرَ﴾ البحر معروف، سمى بذلك لاتساعه . ويقال : فَرَس بَحْرٌ إذا كان واسع الجرى، أى كثيره ؛ ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليــه وسلم فى مَنْدوبٍ فرسِ أبى طلحة : "وإنْ وجدناه لبحرا" . والبحر : المــاء الملح . ويقال : أبحر المــاء : ملُح؛ قال نُصَيب :

وقد عاد ماء الأرض بَحْـــرًا فزادنى * إلى مَرَضى أن أبْحَر المَشْرَبُ العذْبُ

والبحر : البلدة؛ يقال : هذه بَحْرتنا ، أى بلدتنا . قاله الأُموىّ . والبَحَر : السُّلال[1] يصيب الإنسان . ويقولون : لقيته صَحْرَةَ بَحْـرَةَ ، أى بارزا مكشوفا . وفى الخبر عن كعب الأحبار قال : إن لله ملَكا يقال له : صندفاييل، البحار كلها فى نقرة إبهامه . ذكره أبو نعيم عن ثور ابن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب .

قوله تعالى : ﴿فأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أى أخرجناكم منه ؛ يقال : نجوت من كذا نَجاء ، ممــدود، ونجاة، مقصور . والصدق مَنجاة . وأنجيت غيرى ونجّيته . وقرئ بهما « وإذ نَجَّيناكم » ، « فأنجيناكم » .

قوله تعــالى : ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يقال : غرِق فى المــاء غَرَقا فهو غَرِق وغارق أيضا؛ ومنه قول أبى النجم :

* من بين مَقْتولٍ وطافٍ غارِقِ[2] *

وأغرقه غيره وغرّقه فهو مغرَق وغريق . ولجام مغرَق بالفضـــة ، أى مُحَلًّى . والتغريق : القتل؛ قال الأعشى :

* ألا ليت قيسا غرقته القوابلُ[3] *

وذلك أن القابلة كانت تغرّق المولود فى ماء السَّلَى عام القحط، ذكرا كان أو أنثى حتى يموت ، ثم جعل كل قتل تغريقا؛ ومنه قول ذى الرُّمّة :

(١) السـلال (كغراب) : قرحة تحدث فى الرئة أو زكام ونوازل أو سعال طويل، وتلزمها حمى عادتة . (عن القاموس) .
(٢) صدر البيت : * فأصبحوا فى المــاء والخنادق *
(٣) المراد به قيس بن مسعود الشيبانى . وصدر البيت : * أطورين فى عام غزاة ورحلة *

إذا غَرّقتْ أرباضُها ثِنْيَ بَكْرةٍ * بتَيْهاء لم تُصبِح رءُوماً سَلُوبُها

والأرباض : الحبال . والبَكْرة : الناقة الفتيّة . وثِنْيُها : بطنها الثانى ؛ وإنمـا لم تعطف على ولدها لمـا لحقها من التعب .

القول فى اختلاف العلماء فى كيفية إنجاء بنى إسرائيل

فذكر الطبرىّ أن موسى عليه السلام أوحى إليه أن يسرى من مصر ببنى إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلىّ والمتاع من القبط، وأحل الله ذلك لبنى إسرائيل؛ فسرى بهم موسى من أول الليل؛ فأُعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصيح الدِّيكَة؛ فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك؛ وأمات الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا فى الدفن وخرجوا فى الاتباع مشرقين؛ كما قال تعالى : « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » . وذهب موسى الى ناحية البحر حتى بلغه . وكانت عدّة بنى إسرائيل نيِّفا على ستمائة ألف. وكانت عدّة فرعون ألف ألف ومائتى ألف . وقيل : إن فرعون أتبعه فى ألف ألف حصان سوى الإناث . وقيل : دخل إسرائيل — وهو يعقوب عليه السلام — مصر فى ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده، فأنمى الله عددهم وبارك فى ذريته؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرّية والنساء . وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة قال حدثنا شَبَابة بن سَوّار عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السـلام حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت؛ ثم قال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لى ستمائة ألف من القبط؛ قال : فانطلق موسى حتى انتهى الى البحر؛ فقال له : افرق ؛ فقال له البحر : لقد استكبرت يا موسى ! وهل فرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك ! قال : ومع موسى رجل على حصان له؛ قال : فقال له ذلك الرجل: أين أُمرتَ يا نبىّ الله ؟ قال : ما أُمرت إلا بهذا الوجه ؛ قال : فألحم فرسه فسبح فخرج . فقال أين أمرت يا نبىّ الله؟ قال ما أمرت إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبتَ ولا كُذِبتَ؛ ثم اقتحم الثانيـة فسبح به حتى خرج؛ فقال : أين أمرت يا نبىّ الله ؟ فقـال : ما أمرت

إلا بهذا الوجه؛ قال : والله ما كذبت ولا كذبت؛ قال فأوحى الله إليه : « أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ » فضربه موسى بعصاه؛ « فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ » . فكان فيه اثنا عشر فِرقا، لاثنى عشر سِبْطًا، لكل سبط طريق يتراءون، وذلك أن أطواد المـاء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا؛ فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم . ويذكر أن البحر هو بحر القُلْزم ، وأن الرجل الذى كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون . وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب؛ فحين أصبح ضرب البحر وكنّاه أبا خالد . ذكره ابن أبى شيبة أيضا . وقد أكثر المفسرون فى قصص هـذا المعنى ؛ وما ذكرناه كافٍ، وسيأتى فى سورة « يونس، والشعراء » زيادة بيان إن شاء الله تعالى .

فصـــل — ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق، ولم يذكر اليوم الذى كان ذلك فيه . فروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء؛ فقال لهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " ما هذا اليوم الذى تصومونه — فقالوا : هـذا يوم عظيم أنجى الله فيـه موسى وقومه وغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكرا؛ فنحن نصومه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : — فنحن أحق وأولى بموسى منكم " فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه . وأخرجه البخارى أيضا عن ابن عباس، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : " أنتم أحق بموسى منهم فصوموه " .

مسئلة — ظاهر هـذه الأحاديث تدل على أن النبىّ صـلى الله عليه وسلم إنمـا صام عاشوراء وأمر بصيامه اقتداء بموسى عليه السـلام على ما أخبره به اليهود وليس كذلك ، لمـا روته عائشـة رضى الله عنها قالت : كان يوم عاشـوراء تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية ؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه ؛ فلما فرض رمضان ترك صـيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه . أخرجه البخارىّ ومســـلم .

فإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنمـا صامته بإخبار اليهود لها لأنهم كانوا يسمعون منهم، لأنهم كانوا عندهم أهل علم؛ فصامه النبيّ عليه الســلام كذلك فى الجاهلية، أى بمكة؛ فلما قدم المدينــة ووجد اليهود يصومونه قال : " نحن أحق وأولى بموسى منكم " فصــامه اتباعا لموسى . وأمر بصيامه، أى أوجبه وأكد أمره، حتى كانوا يصوّمونه الصغار . قلنــا هــذه شبهة من قال : إن النبيّ صلى الله عليه وســلم لعله كان متعبّدا بشريعة موسى؛ وليس كذلك، على ما يأتى بيانه فى الأنعام عند قوله تعالى : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » .

مسئلة ـــ اختلف فى يوم عاشـــوراء ؛ هل هو التاسع من المحرّم أو العاشر؟ فذهب الشافعىّ الى أنه التاسع؛ لحـديث الحكم بن الأعرج قال : انتهيت الى ابن عباس رضى الله عنهما وهو متوسد رداءه فى زمزم، فقلت له : أخبرنى عن صوم عاشوراء؛ فقال : اذا رأيت هلال المحرّم فاعدُد وأصبح يوم التاسع صائمـا . قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وســلم يصومه؟ قال نعم . خرجه مسلم . وذهب سعيد بن المسيّب والحسن البصرى ومالك و جماعة من السلف إلى أنه العاشر . وذكر الترمذى حديث الحكم ولم يصفه بصحة ولا حسن . ثم أردفه أنبأنا قتيبة أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر. قال أبو عيسى : حديث ابن عباس حديث حسن صحيح. قال الترمذىّ : وروى عن ابن عباس أنه قال : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود . وبهـذا الحديث يقول الشافعىّ وأحمد بن حنبل وإسحاق . قال غيره : وقول ابن عباس للسائل : " فاعدُد وأصبح يوم التاسع صائما " ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر، بل وعد أن يصوم التاسع مضافا الى العاشر . قالوا : فصـيام اليومين جمع بين الأحاديث . وقول ابن عباس للحكم لمـا قال له : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال : نعم. معناه أن لو عاش؛ وإلا فمـا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم صام التاسع قط . بيّنه ما خرّجه ابن ماجه فى سننه ومســلم فى صحيحه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لئن بقيت الى قابل لأصومنّ اليوم التاسع " .

فضيلة — روى أبو قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفّر السنة التى قبله " . أخرجه مسلم والترمذىّ . وقال : لا نعلم فى شىء من الروايات أنه قال : " صيام يوم عاشوراء كفارة سنة " إلا فى حديث أبى قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ، ومعناه بأبصاركم ؛ فيقال إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم يغرقون ، و إلى أنفسهم ينجون ؛ ففى هذا أعظم المنّة . وقد قيل : إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم . فهذه منّة بعد منّة . وقيل : المعنى وأنتم تنظرون أى ببصائركم الاعتبار ، لأنهم كانوا فى شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار . وقيل : المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر ، كما تقول : هذا الأمر منك بمرآى ومسمع ، أى بحال تراه وتسمعه إن شئت . وهذا القول والأوّل أشبه بأحوال بنى إسرائيل لتوالى عدم الاعتبار فيما صدر من بنى إسرائيل بعد خروجهم من البحر ؛ وذلك أن الله تعالى لما أنجاهم وغرق عدوّهم قالوا : يا موسى إن قلوبنا لا تطمئن ، إن فرعون قد غرق ! حتى أمر الله البحر فلفظه فنظروا اليه .

ذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن قيس بن عُبَاد أن بنى إسرائيل قالت : ما مات فرعون وما كان ليموت أبدا ! قال : فلم يَعْدُ أن سمع الله تكذيبهم نبيّه عليه السلام ، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل ؛ فلما أطمأنوا و بُعثوا من طريق البر الى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرقوا فى النعمة ، رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم ؛ قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ؛ حتى زجرهم موسى وقال : أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ؛ أى عالمى زمانه . ثم أمرهم أن يسيروا الى الأرض المقدّسة التى كانت مساكن آبائهم و يتطهروا من أرض فرعون . وكانت الأرض المقدّسة فى أيدى الجبارين قد غلبوا عليها فاحتاجوا الى دفعهم عنها بالقتال ؛ فقالوا : أتريد أن تجعلنا لَحْمَة للجبارين ! فلو أنك تركتنا فى يد فرعون كان خيرا لنا . قال : « يَا قَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ » الى قوله « قَاعِدُونَ » حتى دعا عليهم وسماهم فاسقين . فبقوا فى التّيه أربعين سنة عقوبة ثم رحمهم فمنّ عليهم بالسلوى و بالغمام — على ما يأتى بيانه — ، ثم سار موسى الى طُورِسَيْناء

ليجيئهم بالتوراة؛ فاتخذوا العجل — على ما يأتى بيانه — ، ثم قيل لهم : قد وصلتم الى بيت المقدس فادخلوا البـاب سجدا وقولوا حطة — على ما يأتى — ، وكان موسى عليه السـلام شديد الحياء ستّيرا؛ فقالوا : إنه آدر[(١)] . فلما اغتسل وضع على الحجر ثوبه؛ فعدا الحجر بثوبه الى مجـالس بنى إسرائيل ، وموسى على أثره عريان وهو يقول : ياحجر ثوبى ! فذلك قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا » — على ما يأتى بيانه — ، ثم لمـا مات هارون قالوا له : أنت قتلت هارون وحسدته؛ حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه — وسيأتى فى المـائدة — ثم سألوه أن يعلموا آية فى قبول قربانهـم؛ فجعلت نار تجىء من السماء فتقبل قربانهـم ؛ ثم سألوه أن بيّن لنا كفارات ذنوبنا فى الدنيا، فكان من أذنب ذنبا أصبح على بابه مكتوب : « عملت كذا ، وكفارته قطع عضو من أعضائك » يسميه له؛ ومن أصابه بول لم يطهر حتى يقرضـه ويزيل جلدته من بدنه؛ ثم بدّلوا التوراة وافتروا على الله وكتبوا بأيديهم واشتروا به عَرَضا؛ ثم صار أمرهم الى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم . فهذه معاملتهم مع ربّهم وسيرتهم فى دينهم وسوء أخلاقهم . وسيأتى بيان كل فصل من هذه الفصول مستوفًى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وقال الطبرى : وفى أخبار القرآن على لسان محمد عليه السـلام بهذه المغيّبات التى لم تكن من علم العرب ولا وقعت إلا فى حق بنى إسرائيل دليل واضح عند بنى إسرائيل قائم عليهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾

فيـــه ست مسائل :

---

(١) الأدرة (بالضم) : نفخة فى الخصية .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ قرأ أبو عمرو « وعدنا » بغير ألف ، واختاره أبو عبيد ورجحه وأنكر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنما تكون من البشر ، فأما الله جل وعز فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هذا وجدنا القرآن ؛ كقوله عز وجل : « وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ » ، وقوله : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » ، وقوله : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » . قال مكيّ : وأيضا فان ظاهر اللفظ فيه وعد من الله تعالى لموسى ، وليس فيه وعد من موسى ؛ فوجب حمله على الواحد ، لظاهر النص أن الفعل مضاف الى الله تعالى وحده ؛ وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمر ؛ و به قرأ قتادة وابن أبي إسحاق . قال أبو حاتم : قراءة العامة عندنا « وعدنا » بغير ألف ، لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل واحد منهما يعد صاحبه . قال الجوهري : الميعاد : المواعدة والوقت والموضع . قال مكيّ : المواعدة أصلها من اثنين . وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب ؛ قالوا : طارقتُ النّعل ، وداويت العليل ، وعاقبت اللص ؛ والفعل من واحد . فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى وعدنا ؛ فتكون القراءتان بمعنى واحد . والاختيار واعدنا بالألف لأنه بمعنى وعدنا في أحد معنييه ، ولأنه لا بدّ لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة . قال النحاس : وقراءة واعدنا بالألف أجود وأحسن . وهي قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائي ؛ وليس قوله عز وجل : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » من هذا في شيء ، لأن « واعدنا موسى » إنما هو من باب الموافاة ؛ وليس هذا من الوعد والوعيد في شيء ، وإنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة ، وموعدك موضع كذا . والفصيح في هذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : واعدنا هاهنا بالألف جيّد ، لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة ؛ فمن الله جل وعز وعد ، ومن موسى قبول واتباع يجري مجرى المواعدة . قال ابن عطية : ورجح أبو عبيدة وعدنا ، وليس بصحيح ، لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مُوسَى ﴾ موسى اسم أعجمى لاينصرف للعجمة والتعريف. والقبط على ما يروى يقولون للماء : مو ، وللشجر : شا(١) . فلما وجد موسى فى التابوت عند ماء وشجر ، سُمّى موسى . قال السدّى : لما خافت عليه أمه جعلته فى التابوت وألقته فى اليمّ — كما أوحى الله إليها — فألقته فى اليم بين أشجار عند بيت فرعون، فخرج جوارى آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدنه، فسمى باسم المكان . وذكر النقاش وغيره : أن اسم الذى التقطته صابوت . قال ابن إسحاق : وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ أربعين نصب على المفعول الثانى ، وفى الكلام حذف، قال الأخفش : التقدير و إذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة ؛ كما قال : « وَٱسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ » والأربعون كلها داخلة فى الميعاد .

والأربعون فى قول أكثر المفسرين ذو القَعدة وعشر من ذى الحجة ؛ وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله؛ فخرج الى الطور فى سبعين من خيار بنى إسرائيل ، وصعدوا الجبل وواعدهم الى تمام أربعين ليلة ؛ فعدّوا فيما ذكر المفسرون عشرين يوما وعشرين ليلة ، وقالوا : قد أخلفنا موعده . فاتخذوا العجل؛ وقال لهم السامرىّ : هذا إلهكم وإله موسى، فاطمأنوا الى قوله . ونهاهم هارون وقال : « يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى . قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ » . فلم يتبع هارونَ ولم يطعه فى ترك عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفا فيما رُوى فى الخبر . وتهافت فى عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفى ألف ؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال، ألقى الألواح فرفع من جملتها ستة أجزاء وبقى جزء واحد وهو الحلال والحرام وما يحتاجون ؛ وأحرق العجل وذراه فى البحر ؛ فشربوا من مائه حُبّا للعجل؛ فظهرت على شفاههم صفرة

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل ، وفى بعضها : « سا » بالسين المهملة . وفى القاموس وشرحه : « ... وسا الشجر؛ كذا فى سائر النسخ؛ وقال ابن الجواليق : هو بالشين المعجمة » .

وورِمت بطونهم؛ فتابوا ولم تقبــل توبتهم دون أن يقتــلوا أنفسهم؛ فذلك قوله تعــالى : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم الى بعض من لدن طلوع الشمس الى ارتفاع الضُّحى؛ فقتل بعضهم بعضا لا يسئل والد عن ولده ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحد؛ كل من آستقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثـله؛ حتى عج موسى الى الله صارخا : يا ربّاه قد فنيت بنــو إسرائيل ! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله؛ فقبل توبة من بقى وجعل من قتل فى الشهداء؛ على ما يأتى .

الرابعـــة — إن قيل : لم خص الليالى بالذكر دون الأيام ؟ قيل له : لأنّ الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة ، ولذلك وقع بها التاريخ ؛ فالليالى أوّل الشهور والأيام تبع لها .

الخامســـة — قال النقاش : فى هذه الآية إشارة الى صلة الصوم ؛ لأنه لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل ، فلما نص على الليالى اقتضت قوّة الكلام أنه عليــه السلام واصــل أربعين يوما بلياليها . قال ابن عطيــة : سمعت أبى يقول : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهرىّ رحمه الله يعظ الناس فى الخلوة بالله والدنوّ منــه فى الصلاة ونحوه ، وأنّ ذلك يشغل عن كل طعام وشراب، ويقول : أين حال موسى فى القرب من الله ! ووصل ثمانين من الدهر من قوله حين سار للخضر لفتاه فى بعض يوم : « آتِنَا غَدَاءَنَا » .

قلت : وبهذا استدل علماء الصوفية على الوصال، وأن أفضله أربعون يوما . وسيأتى الكلام فى الوصال فى آى الصيام من هــذه السورة إن شاء الله تعالى . ويأتى فى الأعراف زيادة أحكام لهذه الآية عند قوله تعالى : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » ، ويأتى لقصة العجل بيان فى كيفيته وخُواره هناك وفى « طه » إن شاء الله تعالى .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى اتخذتموه إلها من بعــد موسى . وأصــل آتخذتم ائتخذتم من الأخذ ووزنه آفتعلتم ، سهّلت الهمزة الثانيــة لامتناع همزتين فجاء إيتخذتم ، فاضطربت الياء فى التصريف جاءت ألفا فى ياتخذ، وواوا فى موتخذ،

فبدلت بحرف جلد ثابت من جنس ما بعدها وهى التاء وأدغمت ؛ ثم اجتلبت ألف الوصل للنطق ؛ وقد يستغنى عنها اذا كان معنى الكلام التقرير، كقوله تعالى : « قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا » فاستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير، قال الشاعر[1] :

أَسْتَحْدَثَ الرَّكْبُ عن أشياعهم خَبَرًا * أم راجع القلب من أطرابه طربُ

ونحوه فى القرآن : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » . « أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » . « أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ » . ومذهب أبى علىّ الفارسىّ أن اتخذتم، من تخذ لا من أخذ . ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال . وقد تقدم معنى الظلم . والحمد لله .

قوله تعالى : ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ ﴾ العفو : عفو الله جل وعز عن خلقه ؛ وقد يكون بعد العقوبة وقبلها، بخلاف الغفران فانه لا يكون معه عقوبة البتة . وكل من استحق عقوبة فتركت له فقد عفى عنه . فالعفو : محو الذنب ، أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم؛ مأخوذ من قولك : عفت الريح الأثر، أى أذهبته . وعفا الشيء : كثر . فهو من الأضداد؛ ومنه قوله تعالى : « حَتَّى عَفَوْا » .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أى من بعد عبادتكم العجل . وسمى العجل عجلا لاستعجالهم عبادته . والله أعلم . والعجل : ولد البقرة . والعِجَّوْل مثله، والجمع العجاجيل، والأنثى عِجلة . عن أبى الجراح .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كى تشكرون عفو الله عنكم . وقد تقدم معنى لعل[2] . وأما الشكر فهو فى اللغة الظهور، من قوله : دابة شكور، اذا ظهر عليها من السِّمَن فوق ما تُعطَى من العلف . وحقيقته الثناء على الإنسان بمعروف يوليكه . كما تقدم

---

(١) هو ذو الرمة . (٢) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

فى الفاتحة . قال الجوهرى : الشكر : الثناء على المحسن بمـا أولاكه من المعروف ؛ يقال : شكرته وشكرت له ؛ و باللام أفصح . والشكران : خلاف الكفران . وتشكرت له مثل شكرت له . و روى الترمذىّ وأبو داود عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" . قال الخطابىّ : هذا الكلام يتأوّل على معنيين : أحدهما — أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعم الله عز وجل وترك الشكر له . والوجه الآخر — أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان النـاس إليـه ويكفر معروفهم ؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر .

الرابعـــة — فى عبارات العلمـاء فى معنى الشكر ؛ فقال سهل بن عبـد الله : الشكر : الاجتهاد فى بذل الطاعة مع الاجتناب للعصـية فى السر والعلانيـة . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف فى تقصـير الشكر للنعم ؛ ولذلك قال تعالى : « ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً » . فقال داود : كيف أشكرك يارب ، والشكر نعمة منـك ! قال : الآن قد عرفتنى وشكرتنى ؛ إذ قـد عرفت أن الشـكر منى نعمة . قال : يا رب فأرنى اخفى نعمك علىّ . قال : يا دود تنّفس ؛ فتنفس داود . فقال الله تعالى : من يحصى هذه النعمة الليلَ والنهارَ . وقال موسى عليه السـلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدى من نعمك لا يجازى بها عملى كله ! فأوحى الله إليه : يا موسى الآن شكرتنى . وقال الجنيد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر . وعنه قال : كنت بين يدى السِّرِىّ السَّقطىّ ألعب وأنا ابن سبع سـنين و بين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر ، فقال لى : يا غلام ما الشكر؟ فقلت : ألا يعصى الله بنعمه . فقال لى : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيـد : فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالهـا السرىّ لى . وقال الشـبلىّ : الشكر : التواضع والمحافظة على الحسنات ، ومخالفـة الشهوات وبذل الطاعات ، ومراقبة جبار الأرض والسموات . وقال ذو النون المصرىّ أبو الفيض: الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٥٣)

إذ، اسم للوقت الماضى . وإذا، اسم للوقت المستقبل . وآتينا : أعطينا . وقد تقدّم جميع هـذا (١) . والكتاب : التوراة بإجماع من المتأولين . واختلف فى الفرقان ؛ فقال الفرّاء وقطرب : المعنى آتينا موسى التوراة ومحمدا عليه السلام الفرقان . قال النحاس : هذا خطأ فى الإعراب والمعنى ؛ أما الإعراب فإن المعطوف على الشيء مثله ؛ وعلى هـذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافه . وأما المعنى فقد قال تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ » . قال أبو إسحاق الزجاج : يكون الفرقان هو الكتاب ؛ أعيد ذكره باسمين تأكيدا . وحكى عن الفرّاء؛ ومنه قول الشاعر (٢) :

نقدّدتِ (٣) الأديم لراهشَيهِ * وألفى قولها كذبا ومَيْنا

وقال آخر (٤) :

ألا حبّذا هند وأرض بها هنـد * وهند أتى من دونها النّأى والبُعدُ

فنسق البعد على النّأى، والمين على الكذب، لاختلاف اللفظين تأكيدا؛ ومنه قول عنترة :

حيِّيت من طلل تقادم عهده * أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثم

قال النحاس : «وهذا إنما يجيء فى الشعر ، وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد فرقا بين الحق والباطل، أى الذى علّمه إياه » . وقال ابن زيد : الفرقان انفراق البحر له حتى صار فرقا فعبروا . وقيل : الفرقان الفرج من الكرب، لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط؛ ومنه قوله تعالى : « إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » أى فرجا ومخرجا . وقيل : إنه الحجة والبيان، قاله ابن بحر . وقيل : الواو صلة، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان، والواو قد تزاد فى النعوت؛ كقولهم : فلان حسن وطويل؛ وأنشد :

الى الملك القَرْم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

(١) راجع المسئلة الأولى ص ٢٦١ والمسئلة الثانية ص ٣٤٣

(٢) هو عدى بن زيد .

(٣) فى الأصول : «وقدمت» . والتصويب عن اللسان مادة «مين» .

(٤) هو الحطيئة .

أراد الى الملك القرم ابن الهام ليث الكتيبة، ودليل هذا التأويل قوله عز وجل : «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» أى بين الحرام والحلال والكفر والإيمان والوعد والوعيد وغير ذلك . وقيل : الفرقان الفرق بينهم و بين قوم فرعون؛ أنجى هؤلاء وغرق أولئك . ونظيره : «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» . فقيل : يعنى به يوم بدر؛ نصر الله فيه محمدا صلى الله عليــه وسلم وأصحابه، وأهلك أبا جهــل وأصحابه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكى تهتدوا من الضلالة . وقد تقدّم .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ القوم : الجماعة الرجال دون النساء؛ قال الله تعالى : «لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» ثم قال : «وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ» . وقال زهير :

وما أدرِى وسوف إخال أدرِى * أقـــوم آلُ حِصنٍ أم نســاءُ

وقال تعالى : «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ» أراد الرجال دون النساء . وقد يقع القوم على الرجال والنساء؛ قال الله تعـالى : «إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ» وكذا كل نبيّ مرســل الى النساء والرجال جميعا .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ منادى مضاف . وحذفت الياء فى «يا قوم» لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها، وهى بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد . ويجوز فى غير القرآن إثباتها ساكنة ؛ فتقول : يا قومى؛ لأنهـا اسم وهى فى موضع خفض . وإن شئت فتحتها وإن شئت ألحقت معها هاء؛ فقلت : يا قوميهْ . وإن شئت أبدلت منها ألفا لأنهـا أخف؛ فقلت : يا قوما، وإن شئت قلت : يا قومُ؛ بمعنى يأيها القوم . وإن جعلتهم نكرة نصبت ونوّنت . وواحد القوم آمرؤ على غير اللفظ . وتقول : قوم وأقوام، وأقاوم جمــع الجمع . والمراد هنا بالقوم عبَدة العجل، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ استغنى بالجمع القليل عن الكثير؛ والكثير نفوس . وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القلة ، والقليل موضع الكثرة ؛ قال الله تعالى : « ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » . وقال : «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ» . ويقال لكل من فعل فعلا يعود عليه ضرره : إنما أسأت الى نفسك . وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه . ثم قال تعالى : ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ قال بعض أرباب المعاني : عجل كل انسان نفسه؛ فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه . والصحيح أنه هنا عجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ لما قال لهم : فتوبوا الى بارئكم . قالوا : كيف ؟ قال : « فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . قال أرباب الخواطر : ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات . والصحيح أنه قتلٌ على الحقيقة هنا . والقتل : إماتة الحركة . وقتلت الخمر : كسرت شدتها بالماء . قال سفيان بن عيينة : التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ؛ وكانت توبة بني إسرائيل القتل . وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزهري : لما قيل لهم : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » قاموا صفين وقتل بعضهم بعضا؛ حتى قيل لهم : كفّوا . فكان ذلك شهادة للقتول وتوبة للحي . على ما تقدم . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفا، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتلوا إذ لم يعبدوا العجل [مع] من عبد العجل . ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم محتبون فقال : ملعون من حلّ حَبْوته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل . فما حل أحد منهم حبوته حتى قتل منهم؛ يعني من قتل؛ وأقبل الرجل يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم — على القول الأول — لأنهم لم يغيروا المنكر حين عبدوه؛ وإنما اعتزلوا، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده . وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يُغيّر عوقب الجميع . روى جرير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من قوم يُعمل فيهم

بالمعاصى هم أعز منهم وأمنع لا يغيّرون إلا عمهم الله بعقاب". أخرجه ابن ماجه فى سننه .
وسيأتى الكلام فى هذا المعنى ان شاء الله تعالى . فلما استحرّ فيهم القتل وبلغ سبعين ألفا عفا
الله عنهم ، قاله ابن عباس وعلىّ رضى الله عنهما . وإنمــا رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا
المجهود فى قتل أنفسهم . فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هى أفضل من التوبة .
وقرأ قتادة : فأقيلوا أنفسكم — من الإقالة — ، أى استقيلوها من العثرة بالقتل .

قوله تعالى : ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ البارئ : الخالق؛ وبينهما فرق، وذلك أن البارئ هو المبـدع
المحدث ، والخالق هو المقـدّر الناقل من حال الى حال . والبرية : الخلق؛ وهى فعيلة بمعنى
مفعولة غير أنها لا تهمز . وقرأ أبو عمرو « بارئْكم » بســكون الهمزة — ويشعركم وينصركم
ويأمركم — واختلف النحاة فى هــذا ؛ فمنهم من يسكن الضمة والكسرة فى الوصل؛ وذلك
فى الشعر . وقال أبو العباس المبرّد : لا يجوز التسكين مع توالى الحركات فى حرف الإعراب
فى كلام ولا شعر . وقراءة أبى عمرو لحن . قال النحاس وغيره : وقد أجاز ذلك النحويون
القدماء الأئمة؛ وأنشدوا :

إذا اعوجَجْنَ قلتُ صاحبْ قَوِّمِ * بالدَّوِّ أمثالَ السَّفِينِ العُوَّمِ (1)

وقال امرؤ القيس :

فاليومَ أشــربْ غيرَ مستحقِبٍ * إثمًــا من الله ولا واغِــلِ (2)

وقال آخــر :

* قالت سُلَيمى اشترْ لنا سويقا *

الآخــر :

رُحتِ وفى رجليـكِ ما فيهما * وقد بَدا هَنْـكِ من المئزر

فمن أنكر التسكين فى حرف الإعراب فحجته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علما للإعراب. قال أبو علىّ: وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة فى جواز تسكينها مع توالى الحركات. وأصل برأ من تبرّى الشئ من الشيء وهو انفصاله منــه . فالخلق قد فصلوا من العدم الى الوجود؛ ومنه بَرَأْت من المرض بَرْءا بالفتح . كذا يقول أهل الحجاز. وغيرهم يقول : برِئت من المرض بُرْءًا بالضم؛ و بَرِئت منــك ومن الديون والعيــوب براءة؛ ومنه المبــارأة للرأة . وقــد بارأ شريكه وآمرأته .

قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ فى الكلام حذف، تقديره ففعلتم فتاب عليكم، أى فتجاوز عنكم أى على الباقين منكم . ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدّم معناه، والحمد لله .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ معطوف . ﴿ يَامُوسَى ﴾ نداء مفرد . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ﴾ أى نصدقك . ﴿ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾ قيل : هم السبعون الذين اختارهم موسى؛ وذلك أنهم لمـا أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعــد ذلك : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ » . والإيمـان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم . فأرسل الله عليهم نارا من السماء فأحرقهم ؛ ثم دعا موسى ربّه فأحياهم؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » . وستأتى قصة السبعين فى الأعراف ان شاء الله تعالى . قال ابن فُورَك : يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى : « أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً » وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام .

وقد آختلف فى جواز رؤية الله تعالى؛ فأكثر المبتدعة على إنكارها فى الدنيـا والآخرة . وأهل الســنة والسلف على جوازها فيهما ووقوعها فى الآخرة؛ فعلى هــذا لم يطلبوا من الرؤية

محالا، وقد سألها موسى عليه السلام. وسيأتى الكلام فى الرؤية فى الأنعام والأعراف إن شاء الله تعـالى .

الثـانيـــة — قوله تعالى: ﴿ جَهْرَةً ﴾ مصدر فى موضع الحال، ومعناه علانية . وقيل عِيانا. قاله ابن عباس . وأصل الجهر الظهور؛ ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها. والمجاهرة بالمعاصى : المظاهرة بها . ورأيت الأمير جِهارا وجهرة؛ أى غير مستتر بشىء. وقرأ ابن عباس « جَهَرة » بفتح الهاء . وهما لغتان ؛ مثل زَهْرة وزَهَرة . وفى الجهر وجهان : أحدهما — أنه صـفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير؛ والتقدير وإذ قلتم جهرة ياموسى . الثانى — أنه صفة لمـا سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهـرة وعيانا ؛ فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير . وأكد بالجهر فرقا بين رؤية العيان ورؤية المنام .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ قـد تقدم فى أول السـورة معنى الصاعقة (١) . وقرأ عمر وعثمان وعلىّ «الصّعقة» وهى قراءة ابن مُحيصن فى جميع القرآن .

﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال . ويقال : كيف يموتون وهم ينظرون ؟ فالجواب أن العرب تقول : دُورُ آل فلان تتراءى ؛ أى يقابل بعضها بعضا . وقيل : المعنى تنظرون أى إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصعقة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ أى أحييناكم . قال قتادة : ماتوا وذهبت أرواحهم ثم ردوا لاستيفاء آجالهم . قال النحاس : وهـذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا، والمعنى لعلكم تشكرون ما فعل بكم من البعث بعد الموت . وقيل : ماتوا موت همود يعتبر به الغير، ثم أرسـلوا . وأصل البعث الإرسال . وقيل : بل أصـله إثارة الشىء من محله ؛ يقال : بعثت الناقة : أثرتها، أى حركتها؛ قال امرؤ القيس :

(١) راجع ص ٢١٩ من هذا الجزء .

وفتيانِ صدق قد بعثتُ بسُحرة[1] * فقاموا جميعا بين عاثٍ ونشوان

وقال عنــترة :

وصحابةٍ شُمّ الأنوف بعثتهــم * ليـلا وقــد مال الكرى بطُلاها[2]

وقال بعضهم : بعثناكم من بعد موتكم : علمناكم من بعد جهلكم .

قلت : والأول أصح، لأن الأصـل الحقيقة وكان موت عقوبة؛ ومنه قوله تعـالى : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ». على ما يأتى .

الخامســة — قال المـاوردى : واختلف فى بقاء تكليف من أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة الى المعرفة على قولين : أحدهما — بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل من تعبُّد. الثانى : سقوط تكليفهم معتبرا بالاستدلال دون الاضطرار .

قلت : والأول أصح، فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل فى الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم؛ وذلك ممـا اضطرهم إلى الإيمـان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ؛ ومثلهم قوم يونس . ومحال أن يكونوا غير مكلفين . والله أعلم .

قوله تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ أى جعلناه عليكم كالظّلة . والغمام جمع غمامة ، كسحابة وسحاب ؛ قاله الأخفش سعيد . قال الفراء : ويجوز غمائم وهى السحاب، لأنهـا تغم السماء أى تسترها؛ وكل مغطًى فهو مغموم ؛ ومنه المغموم على عقله . وغُمّ الهلال

(١) السحرة (بضم أوله) : السحر . وقيـل : أعلى السحر. وقيل : هو من ثلث الليل الآخر الى طلوع الفجر.

(٢) الطلى (بضم فقتح) : الأعناق .

إذا غطّاه الغيم . والغين مثل الغيم ؛ ومنه قوله عليــه السلام : " إنه ليُغان على قلبي" . قال صاحب العين : غِين عليه : غطّى عليــه . والغَيْن : شجر ملتف . وقال السدّي : الغمام : السحاب الأبيض . وفعــل هــذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهارا ، وينجلى فى آخره ليستضيئوا بالقمر ليلا . وذكر المفسرون أن هذا جرى فى التّيه بين مصر والشام لمـا امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم ؛ وقالوا لموسى : « فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا » . فعوقبوا فى ذلك الفَحْص (١) أربعين ســنة يتيهون فى خمسة فراسخ أو ســتة . رُوى أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس . وإذ كانوا بأجمعهم فى التيه قالوا لموسى : من لنا بالطعام! فأنزل الله عليهم المنّ والسلوى . قالوا : من لنا من حر الشمس! فظلل عليهم الغمام . قالوا : فبم نستصبح ! فضرب لهم عمود نور فى وســط محلتهم . وذكر مكيّ : عمود من نار . قالوا : من لنا بالماء! فأمر موسى بضرب الحجر . قالوا : من لنا باللباس! فأعطوا ؛ ألا يبــلى لهم ثوب ولا يَخلَق ولا يدرَن، وأن تنمو صغارها حسب نموّ الصبيان . والله أعلم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَى ﴾ اُختلف فى المنّ ما هو وتعيينه على أقوال ؛ فقيــل : التَّرَنْجَبِين (٢) — بتشديد الراء وتسكين النون ، ذكره النحاس ، ويقال : الطَّرَنْجَبِين بالطاء — وعلى هذا أكثر المفسرين . وقيل : صمغة حلوة . وقيل عسل : وقيل شراب حلو . وقيل : خبز الرُّقاق ، عن وهب بن منبّه . وقيل : المنّ مصدر يعم جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ؛ ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل : "الكمأة من المنّ الذى أنزل الله على بنى إسرائيل وماؤها شفاء للعين" فى رواية " من المنّ الذى أنزل الله على موسى " . رواه مسلم . قال علماؤنا : وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بنى إسرائيل ، أى مما خلقه الله لهم فى التيه . قال أبو عبيد : إنمـا شبهها بالمنّ لأنه لا مؤونة فيها ببذر ولا سقى ولا علاج ؛ فهى منه ، أى من جنس منّ

(١) الفحص : كل موضع يسكن . وفى حديث كعب : « ان الله بارك فى الشام وخص بالتقديس من فحص الأردن الى رفح ...» وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه . (عن القاموس والنهاية) .

(٢) الترنجبين : طل يقع من السماء ، وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب (عن مفردات ابن البيطار) .

بني إسرائيل في أنه كان دون تكلف . رُوى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس كالثلج ؛ فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن آدخر منه شيئا فسد عليه، إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم؛ لأن يوم السبت يوم عبادة، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شيء .

الثالثـــة — لـما نص عليـه السلام على أن ماء الكمأة شفاء للعين قال بعض أهل العلم بالطب : أما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة، وأما لغير ذلك فمركبة مع غيرها . وذهب أبو هريرة رضي الله عنه إلى استعمالها بحتًا في جميع مرض العين . وهذا كما استعمل أبو وَجْزة العسل في جميع الأمراض كلها حتى في الكحل، على ما يأتي بيانه في سورة «النحل» إن شاء الله تعالى . وقال أهـل اللغة : الكَمْءُ واحد ، وكَمْأَن اثنان، وأكمؤ ثلاثة، فإذا زادوا قالوا : كمأة، بالتاء على عكس شجرة وشجر . والمنّ اسم جنس لا واحد له من لفظه، مثل الخير والشر؛ قاله الأخفش .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿وَالسَّلْوَى﴾ اختلف في السلوى، فقيل : هو السُّمَانَى بعينه، قاله الضحاك . قال ابن عطية : السلوى : طير بإجماع المفسرين؛ وقد غلط الهذلي[1] فقال :

وقاسمها بالله جَهـــدًا لأنـــتمُ * ألذّ من السَّـــلْوَى إذا ما نَشُورُها

ظنّ السلوى العسل .

قلت : ما آدّعاه من الإجماع لا يصح؛ وقد قال المؤرّج[2] أحد علماء اللغة والتفسير : إنه العسل ؛ واستدل ببيت الهذلي وذكر أنه كذلك بلغة كنانة؛ سمي به لأنه يسلي به ؛ ومنه عين السُّلوان[3] ؛ وأنشد[4] :

لو أشرب الســـلوانَ ما سَلِيتُ * ما بي غِنًى عنـــك وإن غَنِيتُ

---

(١) هو خالد بن زهير .   (٢) هو مؤرج بن عمر السدوسي ، ويكنى أبا فيـد . كان من أصحاب الخليل ابن أحمد ؛ مات سنة خمس وتسعين ومائة .   (٣) عين السلوان : عين نضاخة يتبرك بها ويستشفى منها بالبيت المقدس . (عن معجم ياقوت) .   (٤) البيت لرؤبة .

وقال الجوهري : والسلوى العسل ؛ وذكر بيت الهذلي :

* ألذ من السلوى إذا ما نشورها *

ولم يذكر غلطا . والسُّـلوانة (بالضم) : خرزة كانوا يقولون إذا صبّ عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا ؛ قال :

شربتُ على سُـلوانةٍ ماءَ مُزْنةٍ * فلا وجديدِ العيش يا مَيّ ما أسلو

واسم ذلك الماء السُّلوان . وقال بعضهم : السـلوان دواء يسقاه الحزين فيسلو ؛ والأطباء يسمونه المفرّح . يقال : سليت وسلوت لغتان . وهو في سُلوة من العيش أي في رغد، عن أبي زيد .

الخامسـة — واختلف في السلوى هل هو جمع أو مفـرد ؛ فقال الأخفش : جمـع لا واحد له من لفظه ؛ مثل الخير والشر ؛ وهو يشـبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته، كما قالوا : دِفْلَى[1] للواحد والجماعة ، وسُمَانى وشُـكَاعَى[2] في الواحد والجميع . وقال الخليـل : واحده سَلواة، وأنشد :

وإني لتعروني لذكـراك هِزَّة[3] * كما انتفض السَّلواة من بلل القطر

وقال الكسائي : السلوى واحدة، وجمعه سلاوى .

السادسـة — السلوى عطف على المنّ، ولم يظهر فيه الإعراب لأنه مقصور . ووجب هذا في المقصور كله لأنه لا يخلو من أن يكون في آخره ألف؛ قال الخليـل : والألف حرف هوائي لا مستقرّ له ؛ فأشـبه الحركة فاستحالت حركته . وقال الفـراء : لو حرّكت الألف صارت همزة .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿ كُلُوا ﴾ فيه حذف، تقديره وقلنا كلوا ؛ فحذف اختصار الدلالة الظاهر عليه . والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

(١) الدفلى (كذكرى) : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون في الأودية . (٢) الشكاعى (كحبارى وقد تفتح) : من دق النبات ، وهي دقيقة العيدان صغيرة خضراء، والناس يتداوون بها . (٣) في الأصول : « سلوة » وهو تحريف .

الثامنــــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر . ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصي .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ حذفت الألف من قلنا لسكونها وسكون الدال بعدها، والألف التي يبتدأ بها قبل الدال ألف وصل لأنه من يدخل .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أي المدينة؛ سميت بذلك لأنها تقرّت أي اجتمعت؛ ومنــه قَرَيت المــاء في الحوض، أي جمعته؛ واسم ذلك المــاء قِرًى بكسر القاف مقصور . وكذلك ما قرى به الضيف ، قاله الجوهري . والمِقراة للحوض . والقَرِيّ لمسيل المــاء . والقَرا للظَّهر؛ ومنه قوله (١) :

* لاحِـــقُ بطنٍ بقَـــرًا سمينِ *

والمقارِي : الجفان الكبار؛ قال :

* عظام المقاري ضيفهم لا يُفَزَّعُ *

وواحد المقاري مِقراة؛ وكله بمعنى الجمع غير مهموز . والقِرية (بكسر القاف) لغة اليمن . واختلف في تعيينها؛ فقال الجمهور : هي بيت المقدس . وقيل : أَرِيحاء من بيت المقدس ؛ قال عمر بن شَـبّة : كانت قاعدة ومسكن ملوك . ابن كَيسان : الشام . الضحاك : الرَّملة والأُرْدُنّ وفلسطين وتَدْمُر . وهــذه نعمة أخرى ، وهي أنه أباح لهم دخول البــلدة وأزال عنهم التيه .

(١) هو حميد الأرقط . وصف فرسا بضمور البطن ثم تمنى أن يكون ضمره من هزال؛ فقال : « بقرا سمين » . واللاحق الضامر . (عن شرح الشواهد) .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا ﴾ إباحة . و﴿ رَغَدًا ﴾ كثيرا واسعا؛ وهو نعت لمصدر محذوف، أى أكلا رغدا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال، على ماتقدّم . وكانت أرضا مباركة عظيمة الغلّة، فلذلك قال : رغدا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ الباب يجمع أبوابا ؛ وقد قالوا : أبوبة للازدواج؛ قال الشاعر[1] :

هتّاك أخْبِيةٍ ولّاج أبْوِبة * يَخلِط بالبِرّ منه الجِدّ واللِّينا

ولو أفرده لم يجز ؛ ومثله قوله عليه السلام : "مرحبا بالقوم — أو بالوفد — غير خزايا ولا ندامى" . وتبوّبت بوّابا اتخذته . وأبواب مُبَوّبة ؛ كما قالوا : أصناف مُصنّفة . وهذا شىء من بابَتِك، أى يصلح لك . وقد تقدّم معنى السجود فلا معنى لإعادته . والحمد لله .

والبـاب الذى أمروا بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بـ«باب حِطّة» ، عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القُبّة التى كان يصلّى إليها موسى و بنو اسرائيل . و «سُجّدا» قال ابن عباس : منحنين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعا لا على هيئة متعينة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا ﴾ عطف على ادخلوا . وحِطّةٌ بالرفع قراءة الجمهور، على إضمار مبتدأ أى مسئلتنا حطة، أو يكون حكاية . قال الأخفش : وقرئت حِطّةً بالنصب، على معنى احطط عنا ذنوبنا حطة . قال النحاس : الحديث[2] عن ابن عباس أنه قيل لهم : قولوا لا إله إلا الله . وفى حديث آخر عنه قيل لهم : قولوا مغفرة ، تفسيرٌ للنصب، أى قولوا شيئا يحط ذنوبكم ؛ كما يقال : قل خيرا . والأئمة من القراء على الرفع، وهو أولى فى اللغة؛ لما حكى عن العرب فى معنى بدّل؛ قال أحمد بن يحيى : يقال بدّلته ، أى غيّرته ولم أزل عينه، وأبدلته أزلت عينه وشخصه؛ كما قال[3] :

* عَزْلَ الأمير للأمير المُبْدَل *

---

(١) هو القلاخ بن جناب . وقيل : هو ابن مقبل . (عن اللسان) . (٢) فى الأصول : « قال النحاس جاء الحديث ... » . والتصويب عن إعراب القرآن للنحاس . والحديث مبتدأ ، وخبره "تفسير" .

(٣) هو أبو النجم . (عن اعراب القرآن للنحاس) .

وقال الله عز وجل : « قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ » . وحديثُ[1] ابن مسعود قالوا : حنطة، تفسيرٌ على الرفع . هذا كله قول النحاس . وقال الحسن وعكرمة : حطة بمعنى حُطَّ ذنوبنا؛ أمروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحط بها ذنوبهم . وقال ابن جبير : معناه الاستغفار . أبَان بن تغلب : التوبة؛ قال الشاعر :

فاز بالحطة التي جعـــل الله ＊ ـه بهــا ذنب عبــده مغفورا

وقال ابن فارس في المجمل : حطة كلمة أمر بهــا بنو إسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم ؛ وقاله الجوهري أيضا في الصحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللفظ بعينه، وهو الظاهر من الحديث . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قيــل لبني اسرائيل ادخلوا البــاب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم [فبــدّلوا][2] فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شــعرة" . وأخرجه البخاري وقال : "فبدّلوا وقالوا حِطّةٌ حبّةٌ في شعرة" . في غير الصحيحين : « حنطة في شــعر » . وقيل : قالوا هِطّا سُمْهاثا . وهي لفظة عبرانية، تفسيرها : حنطة حمراء، حكاها ابن قتيبة، وحكاه الهروي عن السدّي ومجاهد . وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمرّدوا واستهزءوا ؛ فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب . قال ابن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا . وروى أن الباب جعــل قصيرا ليدخلوه ركّعا فدخلوه متورّكين على أستاههم . والله أعلم .

السادســـة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعــة لا يخلو أن يقع التعبّد بلفظها أو بمعناها ؛ فان كان التعبــد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها ، لذم الله تعالى من بدّل ما أمره بقوله ، وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بمــا يؤدّى الى ذلك المعنى، ولا يجوز تبديلها بمــا يخرج عنه .

(١) في الأصل : «ولحديث ابن مسعود » . والتصويب عن النحاس .

(٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

وقد اختلف العلماء فى هذا المعنى؛ فحكى عن مالك والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للعنى بكماله ، وهو قول الجمهور . ومنع ذلك جمع كثير من العلماء منهم ابن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حَيْوة . وقال مجاهد : انقُصْ من الحديث إن شئت ولا تزد فيه . وكان مالك بن أنس يشدّد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التاء والياء ونحو هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى إنهـم يسمعون ملحونا و يعلمون ذلك ولا يغيّرونه . وروى أبو مِجْلَز عن قيس بن عُبَاد قال قال عمر بن الخطاب : من سمع حديثا فحدّث به كما سمع فقد سلم . ورُوى نحوه عن عبد الله بن عمرو وزيد بن أرقم؛ وكذا الخلاف فى التقديم والتأخير والزيادة والنقصان؛ فان منهم من يعتدّ بالمعنى ولا يعتد باللفظ، ومنهم من يشدّد فى ذلك ولا يفارق اللفظ؛ وذلك هو الأحوط فى الدِّين والأتقى والأوْلى؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه . والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعـالى ؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضى الله عنهم هو أنهـم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للعانى ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثلة بن الأسقع أنه قال : ليس كل ماأخبرنا به رسول الله صلى الله عليـه وسلم نقلناه اليكم، حسبكم المعنى . وقال قتادة عن زُرَارة بن أَوْفَى : لقيت عدّة من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فاختلفوا علىّ فى اللفظ واجتمعوا فى المعنى . وكان النخعىّ والحسن والشعبىّ رحمهم الله يأتون بالحديث على المعانى . وقال الحسن : إذا أصبت المعنى أجزأك . وقال سفيان الثورىّ رحمه الله : إذا قلتُ لكم إنى أحدثكم كما سمعت فلا تصدّقونى ، إنما هو المعنى . وقال وكيع رحمه الله : إن لم يكن المعنى واسعا فقد هلك الناس . واتفق العلمـاء على جواز نقل الشّرع للعجم بلسانهـم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمعنى . وقد فعل الله ذلك فى كتابه فيما قص من أنباء ما قـد سلف، فقصّ قِصصا ذكر بعضها فى مواضـع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم الى اللسان العربىّ وهو مخالف لها فى التقديم والتأخير، والحذف والإلغاء،

والزيادة والنقصان . وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجوز بالعربية أولى . احتج بهذا المعنى الحسن والشافعيّ، وهو الصحيح في الباب .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نضّر الله امرأ سمع مقالتي فبلّغها كما سمعها " وذكر الحديث . وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلا أن يقول عند مضجعه في دعاء علّمه : آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت ؛ فقال الرجل : ورسولك الذي أرسلت ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ونبيك الذي أرسلت" . قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوّغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ وقال : " فأدّاها كما سمعها " . قيل لهم : أما قوله " فأدّاها كما سمعها " فالمراد حكمها لا لفظها ، لأن اللفظ غير معتد به . ويدلك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : "فربّ حامل فقه غير فقيه وربّ حامل فقه الى من هو أفقه منه " . ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في أوقات مختلفة ، لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة ، وذلك أدلّ دليل على الجواز . وأما ردّه عليه السلام الرجلَ من قوله : ورسولك الى قوله ونبيك ، لأن لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمدح ؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى أن اسم الرسول يقع على الكافة ، واسم النبيّ لا يستحقه الا الأنبياء عليهم السلام ! وإنما فُضِّل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوّة والرسالة . فلما قال : ونبيك ، جاء بالنعت الأمدح ، ثم قيّده بالرسالة بقوله : «الذي أرسلت» . وأيضا فإن نقله من قوله : ورسولك الى قوله ونبيك ليجمع بين النبوّة والرسالة ، ومستقبح في الكلام أن تقول : هذا رسول فلان الذي أرسله ، وهذا قتيل زيد الذي قتله ، لأنك تجتزئ بقولك : رسول فلان ، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل ، إذ كنت لا تفيد به إلا المعنى الأوّل ، وإنما يحسن أن تقول : هذا رسول عبد الله الذي أرسله الى عمرو ، وهذا قتيل زيد الذي قتله بالأمس أو في وقعة كذا . والله وليّ التوفيق .

فإن قيل : إذا جاز للراوى الأول تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثانى تغيير ألفاظ الأول، ويؤدى ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لدقة الفروق وخفائها . قيـل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا؛ فإن عدمت لم يجز . قال ابن العربى : الخلاف فى هذه المسألة إنما يتصور بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم فى معرفة اللغة الجبلية الذوقية؛ وأما من بعدهم فلا نشك فى أن ذلك لا يجوز؛ إذ الطباع قد تغـيرت، والفهوم قد تباينت، والعوائد قد اختلفت؛ وهذا هو الحق . والله أعلم .

قال بعض علمـائنا : لقد تحاجر ابن العربى رحمـه الله ؛ فإن الجواز إذا كان مشروطا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم؛ ولهذا لم يفصل أحد من الاصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل؛ نعم لو قال : المطابقة فى زمنه أبعد كان أقرب، والله أعلم .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ قراءة نافع بالياء مع ضمها . وابن عامر بالتاء مع ضمها، وهى قراءة مجاهد . وقرأها الباقون بالنون مع نصبها، وهى أبينها؛ لأن قبلها «وإذ قلنا ادخلوا» فجرى نغفر على الإخبار عن الله تعالى؛ والتقدير وقلنا ادخلوا الباب سجدا نغفر، ولأن بعده « وَسَنَزِيدُ » بالنون . وخطاياكم اتباعا للسواد وأنه على بابه . ووجه من قرأ بالتاء أنه أنث لتأنيث لفظ الخطايا، لأنها جمع خطيئة على التكسير . ووجه القراءة بالياء أنه ذكر لما حال بين المؤنث وبين فعله ؛ على ما تقدم فى قوله : « فتلقى آدم من ربه كلماتٌ » . وحسن الياء والتاء وإن كان قبله إخبار عن الله تعالى فى قوله : «وإذ قلنا» لأنه قـد علم أن ذنوب الخاطئين لا يغفرها إلا الله تعالى؛ فاستغنى عن النون ورد الفعل الى الخطايا المغفورة .

الثامنـة — واختلف فى أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة؛ فقال الخليـل : الأصل فى خطايا أن يقول : خطايىء ، ثم قلب فقيل : خطائى بهمزة بعدها ياء، ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول : خطاءا؛ فلمـا اجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات، فأبدلت من الهمزة ياء فقلت : خطايا . وأما سيبويه فمذهبه أن الأصل مثل خطايِئ، ثم وجب بهـذه أن تهمز الياء كما همزتها فى مدائن فتقول :

خطائئ، ولا تجتمع همزتان فى كلمة، فأبدلت من الثانية ياء فقلت : خطائى ، ثم عملت كما عملت فى الأول . وقال الفرّاء : خطايا جمع خطية بلا همز، كما تقول : هديّة وهدايا ؛ قال الفراء : ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت : خطاءا . وقال الكسائى: لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة فى الهمزة، كما قلت : دواب .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى فى إحسان من لم يعبد العجل، ويقال : يغفر خطايا من رفع المنّ والسلوى للغد ، وسنزيد فى إحسان من لم يرفع للغد . ويقال : يغفر خطايا من هو عاص، وسيزيد فى إحسان من هو محسن، أى نزيدهم إحسانا على الإحسان المتقدّم عندهم ؛ وهو اسم فاعل من أحسن. والمحسن : من صحح عقد توحيده، وأحسن سياسة نفسه، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شره . وفى حديث جبريل عليه السلام: "ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال صدقت" وذكر الحديث . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ الذين فى موضع رفع، أى فبدل الظالمون منهم قولا غير الذى قيل لهم . وذلك أنه قيل لهم : قولوا حطة ، فقالوا حنطة، على ما تقدم، فزادوا حرفا فى الكلام فلقوا من البلاء مالقوا، تعريفا أن الزيادة فى الدِّين والابتداع فى الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر . هذا فى تغيير كلمة هى عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب، فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود! هذا والقول أنقص من العمل، فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل .

الثانية — قوله تعالى : ﴿فَبَدَّلَ﴾ تقدّم معنى بدّل وأبدل، وقرئ « عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا » على الوجهين . قال الجوهرى : وأبدلت الشيء بغيره . وبدّله الله من الخوف

أمناً . وتبديل الشيء أيضا تغييره وإن لم يأت ببدل . واستبدل الشيء بغيره، وتبــدّله به إذا أخذه مكانه . والمبادلة التبادل . والأبدال : قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات واحد منهــم أبدل الله مكانه بآخر . قال ابن دُرَيد : الواحد بديل . والبَـديل : البدل . وبدل الشيء : غيره؛ يقال: بَدَل وبِدْل لغتان، مثل: شَبَه وشِبْه، ومَثَل ومِثْل ونَكَل ونِكْل. قال أبو عبيد[(1)] : لم يُسمع في فَعَل وفِعْل غير هذه الأربعة الأحرف . والبَدَل : وجع يكــون في اليدين والرجلين، وقد بَدِل بالكسر يبْدَل بَدَلاً .

الثــالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كرر لفظ ظلموا ولم يضمره تعظيما للأمر . والتكرير يكون على ضربين؛ أحدهما : استعماله بعد تمـام الكلام، كما في هذه الآية وقوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » ، ثم قال بعدُ : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّـا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ » ولم يقل : ممـا كتبوا . وكرر الويل تغليظا لفعلهم، ومنه قول الخنساء :

تعـرّقني الدهرُ نَهْسـاً[(2)] وحَزّا * وأوجعني الدهرُ قَرْعًا وغَمْزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها. والضرب الثاني : مجيء تكرير الظاهر في موضع المضمر قبل أن يتم الكلام، كقوله تعـالى : « ٱلْحَاقَّةُ مَا ٱلْحَاقَّةُ » و « ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ » كان القياس لولا ما أُريد به من التعظيم والتفخيم الحاقّة ما هي. والقارعة ما هي؛ ومثله : « فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ » . كرر أصحاب الميمنة تفخيما لمـا ينيلهم من جزيل الثواب ، وكرر لفظ أصحاب المشأمة لمـا ينالهم من أليم العذاب . ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليت الغرابَ غداةَ ينعَبُ دائبـا * كان الغـرابُ مقطّعَ الأوداجِ

وقد جمع عديّ بن زيد المعنيين فقال :

---

(١) في الأصل : « أبو عبيدة » والتصويب عن اللسان وصحاح الجوهري .

(٢) في بعض الأصــول : « نهشا » بالشين المعجمة . والنهش : أن يتناول المرء الشيء بفمه ليعضه فيؤثر فيــه ولا يجرحه . والنهس : القبض على اللحم ونتره أي جذبه .

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ * نغَّص الموتُ ذا الغِنَى والفقــيرا

فكرر لفظ الموت ثلاثا، وهو من الضرب الأول؛ ومنه قول الآخر :

ألا حبَّــذا هندٌ وأرضٌ بها هندُ * وهند أتى من دونها النأيُ والبعدُ

فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيما لها .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ رِجْزًا ﴾ قراءة الجماعة «رِجزا» بكسر الراء. وابن مُحَيصن بضم الراء . والرجز : العــذاب بالزاى ، وبالسين : النتن والقَــذَر ، ومنه قوله تعالى : « فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ » أى نتنا الى نتنهم ؛ قاله الكسائى . وقال الفراء : الرجز هو الرجس . قال أبو عبيد : كما يقال السُّـدْغ والزُّدْغ ، وكذا رجس ورجز بمعنًى . قال الفــراء : وذكر بعضهم أن الرُّجز (بالضم) : اسم صنم كانوا يعبــدونه؛ وقرئ بذلك فى قوله تعالى : «وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ» . والرَّجَز (بفتح الراء والجيم) : نوع من الشعر؛ وأنكر الخليل أن يكون شعرا ، وهو مشــتق من الرَّجَز وهو داء يصيب الإبل فى أعجازها، فإذا ثارت ارتعشت أفخاذها . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بفسقهم . والفسق الخروج، وقد تقدّم (١) . وقال ابن وثّاب والنخعىّ : « يَفْسِقون » بكسر السين .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

فيه ثمــان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ كسرت الذال لالتقاء الساكنين . والسين سين السؤال ، مثل : استعلم واستخبر واستنصر ونحو ذلك . أى طلب وسأل السَّقْى لقومه . والعرب تقول : سَقَيته وأسقيته (٢) ، لغتان بمعنى؛ قال :

(١) يراجع ص ٢٤٥ من هذا الجزء . (٢) هو لبيد (كما فى اللسان) .

سقى قومى بنى مَجْدٍ وأَسْـقَى * نُمَــيْراً والقبائلَ من هِــلال

وقيل : سقيته من سَقى الشفة، وأسقيته دللته على المـاء .

الثانيـــة — الاستسقاء انما يكون عند عدم المـاء وحبس القطر، واذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلّة مع التوبة النصوح . وقد استسقى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فخرج الى المصلَّى متواضعا متذللا متخشِّعا مترسّلا متضرّعا، وحسبك به ؛ فكيف بنا ولا توبة معنا الا العناد ومخالفة رب العباد ، فأنَّى نُسْقَى ! لكن قد قال صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عمر "ولم يمنعوا زكاةَ أموالهم إلا مُنِعوا القَطْرَ من السماء ولولا البهائم لم يُمْطَروا" الحديث . وسيأتى بكماله إن شاء الله .

الثالثـــة — سنة الاستسقاء الخروج الى المصلَّى — على الصفة التى ذكرنا — والخطبة والصـلاة؛ وبهذا قال جمهور العلماء . وذهب أبو حنيفــة الى أنه ليس من سنته صــلاة ولا خروج، وانما هو دعاء لا غير . واحتج بحديث أنس الصحيح، أخرجه البخارىّ ومسلم . ولا حجة له فيه؛ فإن ذلك كان دعاء عُجِّلت إجابته فا كتفى به عما سواه، ولم يقصــد بذلك بيان سنّة ؛ ولـمّـا قصد البيان بيّن بفعله، حسب ما رواه عبد الله بن زيد المــازنىّ قال : خرج رسول الله صلى الله عليــه وسلم الى المصلَّى فاستسقى وحوّل رداءه ثم صلّى ركعتين . رواه مسلم . وسيأتى من أحكام الاستسقاء زيادة فى سورة «هود» إن شاء الله .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ العصا : معروف ، وهو اسم مقصور مؤنث وألفه منقلبة عن واو ؛ قال (١) :

* على عَصَوَيْها(٢) سابِرِىٌّ مُشَبْرَقُ *

(١) هو ذو الرمة . وصدر البيت : * فجاءت بنسج العنكبوت كأنه *

(٢) عصويها : عرقوتى الدلو، وهما الخشبتان اللتان يعترضان على الدلو كالصليب . والسابرى : الدقيق من الثياب . المشبرق : المخرق .

والجمع عُصِيّ وعِصِيّ، وهو فعول، وإنما كُسرت العين لما بعدها من الكسرة ، وأعصٍ أيضا مثله ، مثل زَمَن وأزْمُن . وفى المثل: «العَصَا من العُصَيّة» أى بعض الأمر من بعض . وقولهم : «ألقى عصاه» أى أقام وترك الأسفار ، وهو مَثَل . قال :

فألقتْ عصاها وآستقر بها النوَى * كما قـــرّ عينًـا بالإياب المسافرُ

وفى التنزيل : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا » . وهناك يأتى الكلام فى منافعها إن شاء الله تعالى . قال الفرّاء : أوّل لحن سمع بالعراق هذه عصاتى . وقد يعبّر بالعصا عن الاجتماع والافتراق ، ومنه يقال فى الخوارج : قد شقُّوا عصا المسلمين ، أى آجتماعهم وائتلافهم ؛ وانشقت العصا ، أى وقع الخلاف ؛ قال الشاعر :

اذا كانت الهيجاءُ وانشقّتِ العصا * فحَسْبُك والضحّاكَ سيفٌ مهنّدُ

أى يكفيك ويكفى الضحاك . وقولهم : لا ترفع عصاك عن أهلك ، يراد به الأدب . والله أعلم .

والحجر معروف ، وقياس جمعه فى أدنى العدد أحجار ، وفى الكثير حِجار وحِجارة ؛ والحجارة نادر ، وهو كقولنا : جَمَل وجِمَالة ، وذَكَر وذِكَارة ؛ كذا قال ابن فارس والجوهرى .

قلت : وفى القرآن : « فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ » . « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ » . « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً » . « تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ » . « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً » فكيف يكون نادرا ، إلا أن يريدا أنه نادر فى القياس كثير فى الاستعمال فصيح . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَانْفَجَرَتْ ﴾ فى الكلام حذف تقديره فضرب فانفجرت . وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب ؛ لكن أراد أن يربط المسبّبات بالأسباب حكمة منه للعباد فى وصولهم الى المراد ، وليترتب على ذلك ثوابهم وعقابهم فى المعاد . والانفجار : الانشقاق ؛ ومنه انشق الفجر . وانفجر الماء انفجارا : انفتح . والفُجْرة : موضع تفجر الماء . والانبجاس أضيق من الانفجار ؛ لأنه يكون انبجاسا ثم يصير انفجارا . وقيل : انبجس وتبجس وتفجّر وتفتّق ؛ بمعنى واحد ، حكاه الهروى وغيره .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ اثنتا فى موضع رفع بانفجرت، وعلامة الرفع فيهـا الألف . وأعربت دون نظائرها لأن التثنية معـربة أبدًا لصحة معناها . «عينا» نصب على البيان . وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى « عَشِرَةَ » بكسر الشين ؛ وهى لغة بنى تميم ، وهذا من لغتهم نادر؛ لأن سبيلهم التخفيف . ولغـة أهل الحجاز عشْرة؛ وسبيلهم التثقيل . قال جميعه النحاس . والعين من الأسماء المشتركة؛ يقال: عين المـاء، وعين الإنسان، وعين الرُّكْبة[(١)]، وعين الشمس . والعين : سحابة تقبـل من ناحية القبلة، والعين : مطر يدوم خمسا أو ستا لا يُقْلِـع . و بلد قليل العين، أى قليل الناس وما بها عين، محرّكة اليـاء[(٢)] . والعين : الثقب فى المزادة . والعين من المـاء مشبهة بالعين من الحيوان، لخروج المـاء منها كخروج الدمع من عين الحيوان وقيل لمـا كان عين الحيوان أشرف ما فيه، شبّهت به عين المـاء لأنها أشرف ما فى الأرض .

السادســـة : لمـا استسقى موسى عليه السـلام لقومه أُمر أن يضرب عند استسقائه بعصاه حجرا؛ قيل: مربّعا طُورِياً (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقى فى كسر جُوَالق و يرحل به؛ فإذا نزلوا وضع فى وسط محلّتهم . وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه فى كل مرحلة فى منزلته من المرحلة الأولى ؛ وهـذا أعظم فى الآية والإعجاز . وقيـل : إنه أطلق له اسم الحجـر ليضرب موسى أىّ حجر شاء؛ وهـذا أبلغ فى الإعجاز . وقيـل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجرا بعينه بيّنه لموسى عليه السلام؛ ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جُبَير : هو الحجر الذى وضع عليه موسى ثوبه لمـا اغتسل ، وفرّ بثوبه حتى برأه الله مما رماه به قومه . قال ابن عطيّة : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربّعا، تطّرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى، و إذا استغنوا عن المـاء ورحلوا جفّت العيون .

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وعين الركبة (براء مضمومة و باء موحدة) : نقرة فى مقدمها عند الساق ، ولكل ركبة عينان ؛ على التشبيه بنقرة العين الحاسة . وفى البعض الآخر : « عين الركية » براء مفتوحة و ياء مثناة من تحت . وهى مفجر ماء البئر ومنبعها .

(٢) الذى فى القاموس أن الياء تحرك وتسكن فى العين بهذا المعنى .

قلت : ما أوتى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من نبع المـاء وٱنفجاره من يده و بين أصابعه أعظم فى المعجزة ؛ فإنا نشاهد المـاء يتفجر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار ؛ ومعجزة نبيّنا عليه الســلام لم تكن لنبيّ قبله صلى الله عليه وسلم، يخرج المـاء من بين لحم ودم ! . روى الأئمة الثّقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم نجـد ماء فأتى بتَوْر(١) فأُدخل يده فيــه؛ فلقد رأيت المـاء يتفجّر من بين أصابعــه ويقول : "حيّ على الطّهور" . قال الأعمش فحدّثنى سالم بن أبى الجَعْـد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئـذ ؟ قال : ألفا وخمسمائة . لفظ النسائى .

السابعــــة — قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ يعنى أن لكل سِبط منهم عينا قد عرفها لا يشرب من غيرها . والمشرب : موضع الشرب . وقيل : المشروب . والأسباط فى بنى إسرائيــل كالقبائل فى العرب، وهم ذرية الاثنى عشر أولاد يعقوب عليــه السلام ؛ وكان لكل ســبط عين من تلك العيون لا يتعدّاها . قال عطاء : كان للحجر أربعــة أوجه يخرج من كل وجه ثلاث أعين؛ لكل سبط عين لا يخالطهم سواهم؛ وبلغنا أنه كان فى كل سبط خمســـون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم . قال عطاء : كان يظهر على كل موضع من ضربة موسى مثل ثدى المرأة على الحجر فيعرق أوّلا ثم يسيل .

الثامنــــة — قوله تعــالى : ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ فى الكلام حذف تقديره وقلنا لهم كلوا المنّ والســلوى، واشربوا المـاء المتفجر من الحجر المنفصل . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا ﴾ أى تفســدوا . والعيث : شدّة الفساد . نهاهم عن ذلك . يقال : عَثِيَ يَعْثَى عِثِيًّا، وعثا يعثو عُثُوًّا، وعاثَ يَعِيث عَيْثا وعُيُوثا ومَعَاثا؛ والأوّل لغة القرآن . ويقال : عَثّ يَعُثّ فى المضاعف : أفســد؛ ومنه العُثّة وهى السوسة التى تلحس الصــوف . و﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ حال ؛ وتكرر المعنى تأكيدا لاختــلاف اللفظ . وفى هــذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها ، والتقــدّم فى المعاصى والنهى عنها .

---

(١) التور (بالتاء المثناة) : إناء من صفر أو حجارة يشرب منه أو يتوضأ .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٦١)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ كان هـذا القول منهم فى التِّيـه حين ملّوا المنّ والسلوى، وتذكروا عيشهم الأول بمصر . قال الحسن : كانوا نتانى أهل كُرّاث وأبصال وأعداس، فنزعوا الى عِكْرهم[(١)] عِكْرِ السوء، واشتاقت طباعهم إلى ماجرت عليه عادتهم، فقالوا : لن نصبر على طعام واحد . وكنوا عن المن والسلوى بطعام واحد وهما اثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر ؛ فلذلك قالوا : طعام واحد . وقيـل : لتكرارهما فى كل يوم غذاء، كما تقـول لمن يداوم على الصوم والصـلاة والقراءة : هو على أمر واحد، لملازمته لذلك . وقيل : المعنى لن نصـبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الاستعانة ببعض ؛ لاستغناء كل واحد منا بنفسه ؛ وكذلك كانوا ؛ فهم أوّل من اتخذ العبيـد والخـدم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى طَعَامٍ ﴾ الطعام يطلق على مايطعم ويشرب، قال الله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى » . وقال : « لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا » أى ما شربوه من الخمر، على ما يأتى بيانه . وإن كان السلوى العسل — كما حكى المؤرّج — فهو مشروب أيضا . وربما خص بالطعام البُرّ والتمر، كما فى حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ قال : كنا نُخرج صدقةَ الفطر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاعاً من طعـام أو صاعاً من

(١) العكر (بكسر أوله وسكون ثانيه) : الأصل . وقيل : العادة والديدن . وبالتحريك دردى كل شىء .

شعير» الحديث . والعرف جارٍ بأن القائل : ذهبت الى سوق الطعامْ، فليس يفهم منـه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يشرب . والطَّعم (بالفتح) هو ما يؤدّيه الذوق ؛ يقال : طعمه مرّ . والطعم أيضا : ما يشتهى منـه ؛ يقال : ليس له طعم، وما فلان بذى طعم ، إذا كان غثّا . والطُّعم (بالضم) الطعام؛ قال أبو خِرَاش :

أُرُدّ شُجاعَ البطنِ لو تعلمينه (1) * وأُوثِرُ غيرى من عِيالِكِ بالطُّعْمِ
وأغتبِـق المـاء القَـرَاحَ فانتهِى * إذا الزادُ أمسى لِلْمُزَلَّجِ (2) ذا طَعْـمِ

أراد بالأوّل الطعام، وبالثانى ما يشتهى منه . وقد طَعِم يَطْعَم فهو طاعم إذا أكل وذاق؛ ومنه قوله تعالى : «وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي» أى من لم يذقه . وقال : «فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنْتَشِرُوا» أى أكلتم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمزم: "إنها طَعَامُ طُعْمٍ وشِفاءُ سُقْمٍ" (3) . واستطعمنى فلان الحديث إذا أراد أن تحدّثه . وفى الحديث : "إذا استطعمكم الإمامُ فأطعموه" . يقول : إذا استفتح فافتحوا عليه . وفلان ما يَطْعَم النوم إلا قائما . وقال الشـاعر :

نَعامًا بوَجْرَةَ صُفر الخدو * د ما تَطْعَم النومَ إلا صِياما (4)

قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ لغة بنى عامر «فادعِ» بكسر العين لالتقاء السـاكنين ؛ يجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحـذوف . و «يُخْرِجْ» مجزوم على معنى سله وقل له : أخرِجْ، يُخْرِجْ . وقيل : هو على معنى الدعاء على تقدير حذف

---

(1) فى اللسان مادة (طعم) : «قد تعلمينه» . (2) المزلج : من معانيه البخيل . والملزق بالقوم وليس منهم . وكلاهما محتمل . (3) أى يشبع الانسان اذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام .

(4) كذا فى نسخ الأصل . ووجرة (بفتح فسكون) : موضع بين مكة والبصرة . والذى فى كتب اللغـة ومعاجم البلدان :

نعاما بخطمة صعر الخدو * د لا تطعم المـاء إلا صياما

وقبله : فأما بنـــو عامر بالنسار * غداة لقونا فكانوا نعـاما

وهو لبشر بن أبى خازم . وخطمة (بفتح فسكون) : موضع أعلى المدينة . وفى اللسان بعد البيت : «يقول : هى صائمة منه لا تطعمه ؛ قال : وذلك لأن النعام لا ترد المـاء ولا تطعمه» .

اللام، وضعّفه الزجاج . «ومن» في قوله « ممـا » زائدة في قول الأخفش، وغير زائدة في قول سيبويه ؛ لأن الكلام موجب . قال النحاس : وإنمـا دعا الأخفش الى هـذا لأنه لم يجد مفعولا ليخرج فأراد أن يجعل « ما » مفعولا. والأولى أن يكون المفعول محذوفا دلّ عليه سائر الكلام؛ التقدير يخرج لنا مما تنبت الأرض مأكولا. فـ«من» الأولى على هذا للتبعيض، والثانية للتخصيص . و﴿ مِنْ بَقْلِهَا ﴾ بدل من ما بإعادة الحرف . ﴿ وَقِثَّائِهَا ﴾ عطف عليـه ؛ وكذا ما بعده ، فاعلمه . والبقل معروف، وهو كل نبات ليس له ساق . والشجر : ما له ساق . والقِثّاء أيضا معروف ، وقد تضمّ قافه، وهي قراءة يحيى بن وثّاب وطَلْحة بن مُصَرِّف، لغتان والكسر أكثر . وقيل في جمع قِثّـاء : قَثَائِيّ؛ مثل عِلْبَاء وعَلَابِيّ ؛ إلا أن قثّـاء من ذوات الواو؛ تقول : أقثأت القوم أي أطعمتهم ذلك ، [وفَثَأْتُ[1] القِـدْرَ سكّنت غليانها بالمـاء؛ قال الجعديّ :

تفور علينا قِدْرُهُم فنُدِيمُها * ونَفْثَؤُها عنّا إذا حَمْيُها غَلَا

وفثأتُ الرجل إذا كسرتَه عنك بقول أو غيره وسكّنت غضبه . وعدا حتى أفثأ ، أي أعيا وانبهر . وأفثأ الحَرُّ أي سكن وفتر . ومن أمثـالهم في اليسير من البِرّ قولهم : إنّ الرَّثِيئَـةَ تَفْثأ الغضب» . وأصله أن رجلا كان غضب على قوم وكان مع غضبه جائعا، فسَقَوْه رَثِيئة فسكن غضبه وكفّ عنهم .

الرَّثِيئة : اللبن المحلوب على الحامض ليَخثُر . رَثَأْت اللبن رَثْأً اذا حلبته على حامض فخثر، والاسم الرثيئة . وارتثأ اللبن خثَر] . وروى ابن ماجه حدّثنا محمد بن عبد الله بن نُمَير حدثنا يونس بن بُكَير حدثنا هشام بن عُروة عن أبيه عن عائشة قالت : كانت أمّي تعالجني للسِّمْنة تريد أن تُدخلني على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمـا استقام لها ذلك حتى أكلت القِثّاء بالرُّطَب فسَمِنتُ كأحسن سِمْنة . وهذا إسناد صحيح .

---

(١) الكلام الموضوع بين القوسين نقله المؤلف من معاجم اللغـة على أنه من هذه المـادة ؛ والواقع أنه من مادة «فثأ» بالفاء لا بالقاف .

قوله تعالى : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ اُختلف فى الفوم، فقيل : هو الثوم، لأنه المشاكل للبصل، رواه جُوَيْبِر عن الضحاك . والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا : مغافير ومغاثير[(١)]، وجَدَثٌ وجَدَفٌ للقبر . وقرأ ابن مسعود «ثومها» بالثاء المثلثة ؛ ورُوى ذلك عن ابن عباس . وقال أمية بن أبى الصلت :

كانت منازلُهم إذ ذاك ظـاهِرةً * فيها الفَرَادِيسُ والفُومانُ والبصلُ

الفراديس : واحدها فرديس، وكَرم مفردس أى معرّش .

وقال حسان :

وأنتمْ أُناسٌ لئامُ الأصول * طعامُكمُ الفـومُ والحَوْقَلُ

يعنى الثوم والبصل ؛ وهو قول الكسائى والنَّضْر بن شُمَيْل . وقيل : الفوم : الحنطة ؛ روى عن ابن عباس أيضا وأكثر المفسرين، واختاره النحاس، قال : وهو أولى، ومن قال به أعلى، وأسانيده صحاح ؛ وليس جُوَيبِر بنظير لرُواته ؛ وإن كان الكسائى والفرّاء قد اختارا القول الأوّل، لإبدال العرب الفاء من الثاء ؛ والإبدال لا يقاس عليـه ؛ وليس ذلك بكثير فى كلام العرب . وأنشد ابن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة، قول أُحَيْحَة بن الجُلَاح :

قد كنتُ أغنَى الناسِ شخصًا واجدًا * وَرَدَ المدينــةَ عن زراعة فُومِ

وقال أبو إسحاق الزجاج : وكيف يطلب القوم طعاما لا بُرَّ فيه والبر أصل الغذاء! . وقال الجوهرى أبو نصر : الفوم : الحنطة . وأنشد الأخفش :

قد كنت أحسبنى كأغنى واجد * نزل المدينة عن زراعة فُوم[(٢)]

وقال ابن دريد : الفومة السنبلة ؛ وأنشد :

وقال ربيئهم[(٣)] لمـا أتانا * بِكَفِّهِ فومةٌ أو فُومتان

---

(١) المغافير : قيل : هو صمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست بطيبة .

(٢) فى الأغانى (حـ ٢١ ص ٢١١) طبع أوربا : «عن زراعة فول» . وقبل البيت :

ولقد نظرت الى الشموس ودونها * حرج من الرحمن غير قليل

وإذاً فالقافية لامية .

(٣) فى بعض الأصـول : «وقال رئيهم» . الربىء (ومثله الربيئة) : العين والطليعة الذى ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو؛ ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه .

والهـاء فى «كَفّه» غيرمشبعة . وقال بعضهم : الفوم : الحِمَّص، لغة شامية . و بائعه فاميّ، مغيَّر عن فوميّ، لأنهم قد يغيّرون فى النسب، كما قالوا : سُهْلِيّ ودُهْرِيّ . و يقال : فَوِّمُوا لنا ، أى اختبزوا . قال الفرّاء : هى لغة قديمة . وقال عَطَاء وقَتَادة : الفوم كل حَبّ يُخْتَـبز .

مسئلة — اختلف العلماء فى أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول؛ فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك، للأحاديث الثابتة فى ذلك . وذهبت طائفة من أهل الظاهر القائلين بوجوب الصلاة فى الجماعة فرضا إلى المنع، وقالوا : كلُّ ما منع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عملُه والتشاغل به . واحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمّاها خبيثة؛ والله عزّ وجل قد وصف نبيه عليــه السلام بأنه يحرّم الخبائث . ومن الحجة للجمهور ما ثبت عن جابر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أُتِى ببَدْر(١) فيه خَضِرات من بقول فوجد لها ريحا؛ قال : فأُخْبِر بما فيها من البقول؛ فقال : قرّبوها إلى بعض أصحابه كان معه . فلما رآه كره أكلها، قال : "كُلْ فإنّى أُناجى مَنْ لاتُناجِى" . أخرجه مسلم وأبو داود . فهذا بيِّن فى الخصوص له والإباحة لغيره . وفى صحيح مسلم أيضا عن أبى أيوب أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نزل على أبى أيوب، فصنع للنبيّ صلى الله عليه وسلم طعاما فيه ثوم؛ فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فقيل له : لم يأكل . ففزِع وصعِد إليه فقال : أحرامٌ هو ؟ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا ولكنى أكْرَهُه" . قال : فإنى أكره ما تكره أو ما كرهت ، قال : وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُؤْتَى (يعنى يأتيه الوحى) . فهذا نص على عدم التحريم . وكذلك ما رواه أبو سـعيد الخُدرىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أكلوا الثوم زمن خَيْبَر وفتحها : "أيها الناس إنه ليس لى تحريمُ ما أحلّ الله ولكنها شجرة أكره ريحها" . . فهذه الأحاديث تشـعر بأن الحكم خاص به ، إذ هو المخصوص بمناجاة الملَك . لكن قـد علمنا هـذا الحكم فى حديث جابر بما يقتضى التسوية بينه وبين غيره فى هذا الحكم حيث قال : "من أكل من

(١) فى الأصول : « بقدر » . والتصويب عن سنن أبى داود . يعنى بالبدر الطبق؛ شبه بالبدر لاستدارته .

هـذه البقلة الثوم — وقال مرة : من أكل البصل والثوم والكراث — فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم" . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حديث فيـه طول : إنكم أيها الناس ، تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين ، هذا البصل والثوم . ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد ريحهما من الرجل فى المسجد أمر به فأخرج الى البقيع ، فمن أكلهما فليمتهما طبخا . خرجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ العدس معروف . والعدسة : بثرة تخرج بالإنسان ، وربما قتلت . وعَدَسْ : زجرٌ للبغال ؛ قال :

عَدَسْ ما لعبّادٍ عليـك إمارةٌ * نجوتِ وهـذا تحملين طليقُ[(1)]

والعَـدْس : شـدة الوطء ، والكدح أيضا ؛ يقال : عَدَسه . وعَدَس فى الأرض : ذهب فيها . وعَدَست اليه المنية أى سارت ؛ قال الكُمَيْت :

أُكَلِّفها هولَ الظـلامِ ولم أزَلْ * أخا اللّيـلِ معدوساً إلىّ وعادِسا

أى يسار إلىّ بالليل . وعَدَس : لغة فى حَدَس ؛ قاله الجوهرى . ويؤثر عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم من حديث علىّ أنه قال : "عليكم بالعَدَس فإنه مباركٌ مقـدّس وإنه يُرِق القلب ويُكثر الدمعة فإنه بارك فيه سبعون نبيًّا آخرهم عيسى بن مريم" ؛ ذكره الثعلبى وغيره. وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوما خبزا بزيت[(2)] ، ويوما بلحم ، ويوما بعدس . قال الحَلِيمىّ : والعـدس والزيت طعام الصالحين ؛ ولو لم يكن له فضيلة إلا أنه ضـيافة إبراهيم عليه السلام فى مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية . وهو مما يخفف البدن فيَخِفّ للعبادة ، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم . والحنطة من جملة الحبوب وهى الفوم على الصحيح ؛ والشـعير قريب منها وكان طعام أهل المدينـة ؛ كما كان العدس من طعام قرية إبراهيم عليـه السلام . فصار لكل واحد من الحبّتين بأحد النبيّين عليهما السلام فضيلة . وقد روى أن النبىّ صلى الله

---

(١) البيت ليزيد بن مفرغ . (٢) فى بعض نسخ الأصل : «بملح» .

عليـه وسلم لم يَشْبَع هو وأهله من خُبْزِ بُرٍّ ثلاثة أيام متتابعة منذ قدِم المدينة إلى أن توفّاه الله عزّ وجلّ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ الاستبدال : وضع الشيء موضع الآخر ، ومنه البدل ، وقد تقدّم . و «أَدْنَى» مأخوذ عند الزجاج من الدنوّ أى القرب فى القيمة ؛ من قولهم : ثوب مُقارِب أى قليل الثمن . وقال علىّ بن سليمان : هو مهموز من الدنىء البيِّن الدناءة بمعنى الأخسّ ، إلا أنه خفّف همزته . وقيل : هو مأخوذ من الدون أى الأحطّ ، فأصله أدْوَن ، أفعل ، قُلِب بخاء أفْلَع ، وحُوّلت الواو ألفا لتطرّفها . وقُرِئَ فى الشواذّ أدْنِى . ومعنى الآية : أتستبدلون البقل والقِثّاء والفُوم والعدس والبصل الذى هو أدنى بالمنّ والسلوى الذى هو خير .

واختلف فى الوجوه التى توجب فضل المنّ والسلوى على الشيء الذى طلبوه وهى خمسة :

الأول — أنّ البقول لمـا كانت لا خطرَ لها بالنسبة إلى المنّ والسلوى كانا أفضل ؛ قاله الزجاج .

الثانى — لمّـا كان المنّ والسلوى طعامًا مَنَّ الله به عليهم وأمرهم بأ كله وكان فى استدامة أمرِ الله وشكرِ نعمته أجرٌ وذخرٌ فى الآخرة ، والذى طلبوه عارٍ من هـذه الخصال ، كان أدنى فى هذا الوجه .

الثالث — لمّـا كان ما منّ الله به عليهـم أطيب وألذّ من الذى سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة .

الرابع — لمّـا كان ما أُعْطُوا لا كُلْفةَ فيه ولا تعب ، والذى طلبوه لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، كان أدنى .

الخامس — لمّـا كان ما ينزل عليهم لا مِرْيةَ فى حِلّه وخُلوصه لنزوله من عند الله ، والحبـوبُ والأرضُ يتخللها البيوع والغصوب وتدخلها الشُّبَه ، كانت أدنى من هذا الوجه .

مسئلة — فى هذه الآية دليل على جواز أكل الطيّبات والمطاعم المستلذّات، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يحب الحَلْوَى والعسل، ويشرب المــاء البارد العَذْب . وسيأتى هذا المعنى فى « المــائدة » و « النحل » إن شاء الله مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ تقدّم معنى الهبوط ؛ وهذا أمر معناه التعجيز؛ كقوله تعالى : « قل كونوا حِجارة أو حديدا » . لأنهم كانوا فى التيه وهذا عقوبة لهم . وقيل : إنهم أُعْطُوا ما طلبوه . و « مصراً » بالتنوين منكرا قراءة الجمهور، وهو خــط المصحف . قال مجاهــد وغيره : فمن صرَفها أراد مصراً من الأمصار غيرَ معيَّن . وروى عكرمة عن ابن عباس فى قوله : « ٱهبِطوا مِصرا » قال : مصراً من هذه الأمصار . وقالت طائفة ممن صرَفها أيضا : أراد مصر فرعون بعينها . استدل الأوّلون بما اقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية ، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه . واستدل الآخرون بما فى القرآن من أن الله أورث بنى إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها ؛ قال الأخفش والكسائى : لخفتها وشبهها بهِنْد ودَعْد؛ وأنشد :

لم تَتَلَفَّعْ بفضــل مئزرها * دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ فى العُلَب [(1)]

فجمع بين اللغتين . وسيبويه والخليل والفرّاء لا يُجيزون هــذا ؛ لأنك لو سمّيت ٱمرأة بزيد لم تصرف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصرَف . وقرأ الحسن وأبَان بن تغلب وطلحة : مِصْرَ، بترك الصرف . وكذلك هى فى مصحف أُبَيّ بن كعب وقراءة ابن مسعود [(2)] . وقالوا : هى مصر فرعون . قال أشهب قال لى مالك : هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون؛ ذكره ابن عطيّة . والمِصر أصله فى اللغة الحَدّ . ومِصْر الدّار : حدودها . قال ابن فارس ويقال : إن أهــل هَجَر يكتبون فى شروطهم « اشترى فلان الدار بمُصُورِها » أى حدودها؛ قال عَــدِيّ :

وجاعل الشمس مِصرًا لا خفاءَ به * بين النهار وبين اللّيــل قد فصــلا

(١) البيت لجرير . والعلب : أقداح من جلود يحلب فيها اللبن ويشرب . يقول هى حضرية رقيقة العيش لا تلبس لبس الاعراب ولا تتغذى غذاءهم . (شرح الشواهد) .

قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ ماء نصب بإن . وقرأ ابن وثّاب والنخعيّ «سِأَلْتُمْ» بكسر السين؛ يقال: سألتُ وسلْتُ بغير همز. وهو من ذوات الواو، بدليل قولهم: يتساولان.
ومعنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي أُلزموهما وقُضي عليهم بهما؛ مأخوذ من ضرب القباب؛ قال الفرزدق في جرير :

ضَربت عليك العنكبوتُ بنَسْجِها * وقَضَى عليك به الكتابُ المُنَزَّلُ

وضرب الحاكم على اليد أي حمل وألزم . والذِّلة : الذُّل والصَّغار . والمسكنة : الفقر . فلا يوجد يهوديّ وإن كان غنيًّا خاليًا من زِيّ الفقر وخضوعه ومهانته . وقيل : الذلة فرض الجزية ؛ عن الحسن وقتادة . والمسكنة الخضوع ؛ وهي مأخوذة من السكون، أي قلّل الفقر حركته؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : الذلة الصغار . والمسكنة مصدر المسكين. وروى الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس : وضربت عليهم الذلة والمسكنة قال : هم أصحاب القَبَالات (١) .

قوله تعالى : ﴿وَبَاءُوا﴾ أي انقلبوا ورجعوا، أي لزمهم ذلك ؛ ومنه قوله عليه السلام في دعائه ومناجاته : "أبوءُ بنعمتك عليّ" أي أُقِرّ بها وأُلزمها نفسي . وأصله في اللغة الرجوع ؛ يقال باء بكذا، أي رجع به . وباء إلى المباءة — وهي المنزل — أي رجع . والبواء : الرجوع بالقَوَد . وهم في هذا الأمر بَوَاء أي سواء ؛ يرجعون فيه إلى معنى واحد. وقال الشاعر (٢) :

أَلَا تَنْتَهِي عنّا ملوكٌ وتَتَّقِي * محارِمَنا لا يَبُؤِ الدَّمُ بالدم

أي لا يرجع الدم بالدم في القَوَد . وقال :

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبَايَا * وأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينا (٣)

أي رجعوا ورجعنا . وقد تقدّم معنى الغضب في الفاتحة .

---

(١) في تفسير ابن كثير : « ... ... القبلات يعني الجزية » . (٢) هو جابر بن جنيّ التغلبي (عن شرح الشواهد) . (٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي ؛ ولا شاهد فيه ؛ إذ الرواية فيه : «فآبوا ... وأبنا» . ومادة « آب » غير مادة « باء » وإن كان معنى المادتين واحدا .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ﴾ ذلك تعليل . ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى يكذبون بآيات الله، أى بكتابه ومعجزات أنبيائه؛ كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم السلام . ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ معطوف على يكفرون . وروى عن الحسن «يُقَتِّلون» وعنه أيضا كالجماعة . وقرأ نافع « النبيئين » بالهمز حيث وقع فى القرآن إلا فى موضعين : فى سورة الأحزاب : «إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ» . و «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ» فإنه قرأ بلا مد ولا همز . وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين . وترك الهمز فى جميع ذلك الباقون . فأما من همز فهو عنده من أنبأ إذا أخبر، واسم فاعله منبئ . ويجمع نبيء أنبياء، وقد جاء فى جمع نبيّ نُبآء؛ قال العبّاس بن مِرْدَاس السُّلَمِيّ يمدح النبيّ صلى الله عليه وسلم :

يا خاتَمَ النُّبَآءِ إنك مرسلٌ * بالحق كلُّ هُدَى السبيلِ هُدَاكا

هذا معنى قراءة الهمز . واختلف القائلون بترك الهمز؛ فمنهم من اشتق اشتقاق مَنْ همز، ثم سهّل الهمز . ومنهم من قال : هو مشتق من نبا ينبو إذا ظهر . فالنبيّ من النبوة وهو الارتفاع؛ فمنزلة النبيّ رفيعة . والنبيّ بترك الهمز أيضا الطريق ، فسمّى الرسول نبياً لاهتداء الخلق به كالطريق؛ قال الشاعر(١) :

لَأصبح رَتْمًا دُقَاقُ الحَصَى * مكانَ النبيِّ من الكاثِبِ

رتمت الشيء : كسرته؛ يقال : رتم أنفه ورثمه، بالتاء والثاء جميعا . والرتم أيضا المرتوم أى المكسور . والكاثب اسم جبل . فالأنبياء لنا كالسبل فى الأرض . ويروى أن رجلا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يا نبيء الله، وهمز . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لست بنبيء الله — وهمز — ولكنى نبيّ الله" ولم يهمز . قال أبو علىّ : ضعف سند هذا الحديث؛ ومما يقوّى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المادح : * يا خاتم النبآء ... * ولم يؤثر فى ذلك إنكار .

قوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ تعظيم للشُّنعة والذنب الذى أتوه .

(١) هو أوس بن حجر (كما فى اللسان) .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يقتلوا بالحق ؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به . قيل له : ليس كذلك ؛ وإنما خرج هـذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم وليس بحق ؛ فكان هـذا تعظيما للشنعة عليهم ؛ ومعلوم أنه لا يقتل نبيّ بحق ، ولكن يقتل على الحق ؛ فصرّح قوله : « بِغيرِ ٱلحق » عن شنعة الذنب ووضوحه ؛ ولم يأت نبيّ قط بشيء يوجب قتله .

فإن قيل : كيف جاز أن يخلى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة فى منازلهم ؛ كمثل من يقتل فى سبيل الله من المؤمنين ؛ وليس ذلك بخذلان لهم . قال ابن عباس والحسن : لم يقتل نبيّ قط من الأنبياء إلا مَنْ لم يؤمر بقتال ، وكل من أُمر بقتال نُصر .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا ﴾ ذلك ردٌّ على الأول وتأكيد للإشارة اليه . والباء فى بما باء السبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم . والعصيان : خلاف الطاعة . واعتصت النواة إذا اشتدّت . والاعتداء : تجاوز الحدّ فى كل شيء ؛ وعُرف فى الظلم والمعاصى .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال سـفيان : المراد المنافقون . كأنه قال : الذين آمنوا فى ظاهر أمرهم ؛ فلذلك قرنهـم باليهود والنصارى والصابئين ، ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُوا ﴾ معناه صاروا يهودا ؛ نُسبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام ؛ فقلبت العـرب الذال دالا ، لأن الأعجمية إذا عُرِّبت غُيِّرت عن

لفظها . وقيل : سُمُّوا بذلك لتوبتهـم عن عبادة العجل . هاد : تاب . والهائد : التائب؛ قال الشاعر :

* إنِّى آمرؤ من حبّه هائِدُ *

أى تائب . وفى التنزيل : « إِنَّا هُـدْنَا إِلَيْكَ » أى تبنا . وهاد القوم يهودون هَوْدًا وهيـادةً إذا تابوا . وقال ابن عرفة : هدنا إليك أى سكنا إلى أمرك . والهَوَادة السكون والموادعة. قال : ومنـه قوله تعالى : « إن ٱلذين آمنو وٱلذين هادوا » . وقرأ أبو السَّمَّال : « هَادَوْا » بفتح الدال .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَالنَّصَارَى ﴾ جمع، واحده نصرانىّ . وقيـل : نَصْرانٌ بإسقاط الياء، وهذا قول سيبويه . والأنثى نصرانة، كندمان وندمانة . وهو نكرة يعرّف بالألف واللام؛ قال الشاعر (١) :

صدّتْ كما صـدّ عمـا لا يحِلّ له * ساقِى نَصارَى قُبَيل الفِصْحِ صُوّامِ (٢)

فوصفه بالنكرة . وقال الخليل : واحد النصارى نَصْرِىّ، كَمَهْرِىّ ومَهارَى . وأنشد سـيبويه شاهدا على قوله :

تـــراه إذا دار العِشــا مُتَحَنِّفًـا * و يُضْحِى لديه وهو نَصْرانُ شامِس

وأنشـــد :

فكلتاهما خَرّتْ وأسجد رأسُها * كما أسجدتْ نَصْرانةٌ لم تَحَنَّفِ (٣)

يقال أسجـد إذا مال . ولكن لا يستعمل نصرانـ ونصرانة إلا بياءى النسب ؛ لأنهـم قالوا : رجل نصرانىّ وامرأة نصرانيّـة . ونَصَّرَه : جعله نَصْرانيًّا . وفى الحديث : " فأبواه يُهَوِّدانِه و يُنَصِّرانِه" . وقال عليه السلام: "لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودىّ ولا نصرانىّ

(١) هو النمر بن تولب . يصف ناقة عرض عليها الماء فعافته . (٢) فى نسخ الأصل : « الصبح » بالباء . والتصويب عن كتاب سيبويه . والفصح . فطر النصارى، وهو عيد لهم . (٣) البيت لأبى الأخزر الحمانى؛ يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء . فشبه رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته فى صلاتها . (عن شرح القاموس واللسان) .

ثم لم يؤمن بالذى أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار". وقد جاءت جموع على غير مايستعمل واحدها؛ وقياسه النصرانيّون . ثم قيل : سُمُّوا بذلك لقرية تسمى « نَاصِرة » كان ينزلها عيسى عليه السلام فنسب اليها فقيل : عيسى الناصرىّ ؛ فلمـا نُسب أصحابه اليه قيل النصارى ؛ قاله ابن عباس وقَتَادة . وقال الجوهرى : ونَصْران قرية بالشام ينسب اليها النصارى ، و يقال ناصرة . وقيل : سُمُّوا بذلك لنصرة بعضهم بعضا ؛ قال الشاعر :

لمـا رأيتُ نَبَطًا أنصـارا * شَمَّرتُ عن رُكبتىَ الإزارا

* كنتُ لهم من النصارَى جارا *

وقيل : سُمُّوا بذلك لقوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ » .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالصَّابِئِينَ ﴾ جمع صابىء ، وقيل : صابٍ ؛ ولذلك اختلفوا فى همزه، وهمزه الجمهور إلا نافعا . فمن همزه جعله من صَبَأَت النجوم إذا طلعت ، وصبأت ثَنِيّة الغـلام إذا خرجت . ومن لم يهمز جعـله من صبا يصبو إذا مال . فالصابئ فى اللغة : من خرج أو مال من دين إلى دين؛ ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صَبَأ . فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب .

الخامســـة ــ لاخلاف فى أن اليهود والنصارى أهل كتاب ، ولأجل كتابهم جاز نكاح نسائهم وأكل طعامهم ــ على ما يأتى بيانه فى المائدة ــ وضربُ الجزية عليهم، على ما يأتى فى سورة براءة إن شاء الله . واختلف فى الصابئين؛ فقال السُّدِّى : هم فرقة من أهل الكتاب، وقاله إسحاق بن راهويه . قال ابن المنـذر وقال إسحاق : لا بأس بذبائح الصابئين ؛ لأنهـم طائفة من أهل الكتاب . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم . وقال الخليل : هم قوم يشبه دينهم دين النصارى ، إلا أن قِبلتهم نحو مهبّ الجنوب؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقال مجاهد والحسن وابن أبى نَجيح : هم قوم تركّب دينهم بين اليهودية والمجوسية ، لاتؤكل ذبائحهم . ابن عباس : ولا تنكح نساؤهم . وقال الحسن أيضا وقتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبـلة ويقرءون الزَّبور و يصلّون الخمس ؛ رآهم زياد

ابن أبى سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة . والذى تحصل من مذهبهم ، فيما ذكره بعض علمائنا أنهم موحدون معتقدون تأثير النجوم وأنها فعّالة ؛ و بهذا أفتى أبو سعيد الإصْطَخْرِىّ القادرَ بالله بكفرهم حين سأله عنهم .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ أى صدّق . ومن فى قوله : « من آمن » فى موضع نصب بدل من الذين . والفـاء فى قوله : « فلهم » داخلة بسبب الإبهـام الذى فى من . ولهم أجرهم، ابتداء وخبر فى موضع خبر إنّ . ويحسن أن يكون من فى موضع رفع بالابتداء، ومعناها الشرط . وآمن، فى موضع جزم بالشرط، والفاء الجواب . ولهم أجرهم، خبر من ، والجملة كلها خبر إنّ ؛ والعـائد على الذين محذوف ؛ تقديره من آمن منهــم بالله . وفى الإيمان بالله واليوم الآخر اندراج الإيمـان بالرسل والكتب والبعث .

السابعـــة — إن قال قائل : لِم جُمع الضمير فى قوله تعالى : «لَهُمْ أَجْرُهُمْ» وآمن لفظ مفرد ليس بجمع، وإنما كان يستقيم لو قال : له أجره . فالجواب أن «من» يقع على الواحد والتثنية والجمـع ، بخائز أن يرجع الضمير مفردا ومثنى ومجموعا؛ قال الله تعـالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» على المعنى . وقال : «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ» على اللفظ . وقال الشاعر:

أَلِمَّـا بِسَلْمَى عنكما إنْ عَرَضْتُمَـا * وقولا لها عُوجِى على مَنْ تَخَلَّفُوا

وقال الفرزدق :

تعـالَ فإن عاهــدتَنى لا تخونُنى * نكن مثلَ مَنْ ياذئب يصطحبانِ

لحمل على المعنى ، ولو حمل على اللفظ لقال : يصطحب، وتخلّف . وقال تعـالى : « وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ » لحمل على اللفظ . ثم قال : « خَالِدِينَ » لحمل على المعنى؛ ولو راعى اللفظ لقال : خالدا فيها . وإذا جرى ما بعد مَن على اللفظ بخائز أن يخالف به بعدُ على المعنى كما فى هذه الآية . وإذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعدُ على اللفظ؛ لأن الإلباس يدخل فى الكلام . وقد مضى الكلام فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) . والحمد لله .

(١) راجع ص ٣٢٩ من هذا الجزء .

الثامنـــة — روى عن ابن عباس أن قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية . منسوخ بقوله تعـالى : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » الآية . وقال غيره : ليست بمنسوخة . وهى فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبيّ عليه السلام .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى : «وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ» . قال أبوعبيدة : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه . قال : وكل شيء قلعته فرميت به فقد نتقته . وقيل : نتقناه رفعناه . قال ابن الأعرابىّ : الناتق الرافع ، والناتق الباسط ، والناتق : الفاتق ؛ وآمرأة ناتق ومنتاق : كثيرة الولد . وقال القتبىّ : أُخذ ذلك من نتق السقاء ، وهو نفضه حتى تقتلع الزبدة منه . قال وقوله : « وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ »قال : قُلع من أصله .

واختلف فى الطور ؛ فقيل : الطور اسم للجبـل الذى كلّم الله عليـه موسى عليـه السلام وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره ؛ رواه ابن جريج عن ابن عباس . وروى الضحاك عنه أن الطور ما أُنبتَ من الجبال خاصة دون ما لم يُنبِت . وقال مجاهـد وقتادة : أىّ جبل كان ؛ إلا أن مجاهدا قال : هو إسم لكل جبل بالسريانية ؛ وقاله أبو العاليـة . وقد مضى الكلام فى وقع فى القرآن ألفاظ مفردة غير معرّبة من غير كلام العرب فى مقدّمة الكتاب . والحمد لله. وزعم البكرىّ أنه سُمّى بطور بن إسماعيل عليه السلام . والله تعالى أعلم .

القول فى سبب رفع الطور

وذلك أن موسى عليـه السلام لمـا جاء بنى إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة ؛ قال لهم : خذوها والتزموها . فقـالوا : لا ! إلا أن يكلّمنا الله بها كما كلّمك . فصـعِقوا ثم حُيُوا . فقال لهم : خذوها . فقالوا لا . فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فِلَسطين

طوله فرسخ فى مثله ، وكذلك كان عسكرهم ، فجُعل عليهم مثل الظُّلة ، وأُتوا ببحر من خلفهم ، ونار من قِبَل وجوههم ، وقيـل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألّا تُضَيعوها ، وإلّا سقط عليكم الجبل . فسجدوا توبةً لله وأخذوا التوراة بالميثاق . قال الطبرى عن بعض العلماء : لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق . وكان سجودهم على شِقّ لأنهم كانوا يرقُبون الجبل خوفا ، فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها عباده ، فأمَرُّوا سجودَهم على شِقّ واحد . قال ابن عطية : والذى لا يصح سواه أن الله تعالى اخترع وقت سجودهم الإيمـان فى [قلوبهم](١) لا أنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة بذلك .

قوله تعالى : ﴿خُذُوا﴾ أى فقلنا خُذُوا ، فحذف . ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ أعطيناكم . ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى بجدّ واجتهاد ؛ قاله ابن عباس وقتادة والسـدّى . وقيل : بنيّـة وإخلاص . مجاهد : القوّة العمل بمـا فيه . وقيل : بقوّة : بكثرة درس . ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أى تدبّروه واحفظوا أوامره ووعيده ، ولا تنسوه ولا تضيّعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكتب ، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فان ذلك نبذ لها ؛ على ما قاله الشعبى وابن عيينة ؛ وسيأتى قولهما عند قوله تعالى : «نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» . وقد روى النسائىّ عن أبى سعيد الخُدرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ من شرّ النـاس رجلًا فاسقا يقرأ القرآن لا يرعوى إلى شىء منه " . فبيّن صلى الله عليه وسلم أن المقصود العمل كما بيّنا . وقال مالك : قد يقرأ القرآن مَنْ لا خير فيه . فمـا لزم إذًا مَنْ قبلنا وأُخذ عليهـم لازم لنا وواجب علينا . قال الله تعالى : « وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » . فأمرنا باتباع كتابه والعمل بمقتضاه ؛ لكن تركنا ذلك ، كما تركت اليهود والنصارى ، وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيـد شيئا ، لغلبة الجهل وطلب الرياسة واتباع الأهواء . روى الترمذىّ عن جُبَيْر بن نُفَيْر عن أبى الدرداء قال : كنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فشخص ببصره الى السماء ثم قال : "هذا أوانُ يُخْتَلس فيه العلمُ

(١) زيادة عن تفسير ابن عطية .

من الناس حتى لا يقدِروا منه على شيء" . فقال زياد بن لَبِيد الأنصاريّ : كيف يُختَلَس منا وقـد قرأنا القرآن ! فوالله لنقرأنه ولنقرِئنّه نساءنا وأبناءنا . فقال : "ثكلتك أُمُّك يا زياد إن كنتُ لَأعُدُّك من فقهاء المدينة هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تُغنى عنهم" وذكر الحديث، وسيأتى . وخرّجه النسائى من حديث جُبير بن نُفَير أيضا عن عوف بن مالك الأشجعيّ من طريق صحيحة، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لزياد : "ثكلتك أمك يا زياد هذه التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى". وفى الموطأ عن عبد الله بن مسعود قال لإنسان : «إنك فى زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه ، قليلٍ قُرّاؤه ، تُحْفَظُ فيه حدودُ القرآن وتُضَيَّع حروفه، قليلٍ من يسأل، كثيرٍ مَنْ يُعطِى ، يُطيلون الصـلاة ويُقصِرون فيه الخطبة ، يبدءون فيه أعمالهم قبـل أهوائهم . وسيـأتى على الناس زمان قليل فقهاؤه ، كثير قرّاؤه ، تحفظ فيـه حروف القرآن، وتضيع حدوده، كثير من يسأل، قليل من يعطى، يطيلون فيه الخطبة ، ويقصرون الصلاة، يبدءون فيـه أهواءهم قبل أعمالهم » . وهـذه نصوص تدل على ما ذكرنا . وقد قال يحيى : سألت ابن نافع عن قوله : يبدءون أهواءهم قبـل أعمالهم . قال يقول : يتبعون أهواءهم ويتركون العمـل بالذى افترض عليهـم . وتقدّم القول فى معنى قوله : « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(1) . فلا معنى لإعادته .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم ﴾ تولى تفعّل،وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل فى الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقدات إتساعا ومجازا . وقـوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أى من بعد البرهان، وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل . وقوله : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ فضـل، مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره، لأن العرب استغنت عن إظهاره، إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأنّ، فاذا جاءوا بها لم يحذفوا الخبر. والتقدير فلولا فضل الله تداركم . ﴿ وَرَحْمَتُهُ ﴾ عطف على فضـل، أى لطفه وإمهاله .

---

(1) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

﴿ لَكُنتُم ﴾ [1] جواب لولا . ﴿ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ خبر كنتم . والخسران : النقصان ؛ وقد تقدّم. وقيل : فضله قبول التوبة ، ورحمته العفو . والفضل : الزيادة على ما وجب . والإفضال: فعل ما لم يجب . قال ابن فارس فى المُجْمَل : الفضل الزيادة والخير، والإفضال : الإحسان .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ علمتم ، معناه عرفتم أعيانهم . وقيل: علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أن المعرفة متوجهة إلى ذات المسمى . والعلم متوجه الى أحوال المسمى ؛ فاذا قلت : عرفت زيدا ، فالمراد شخصه . واذا قلت : علمت زيدا ، فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص . فعلى الأوّل يتعدّى الفعل الى مفعول واحد وهو قول سيبويه : علمتم بمعنى عرفتم . وعلى الثانى إلى مفعولين . وحكى الأخفش : ولقد علمتُ زيدا ولم أكن أعلمه . وفى التنزيل : « لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . كل هذا بمعنى المعرفة فاعلم . ﴿ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ صلة الذين . والاعتداء : التجاوز ، وقد تقدّم .

الثانيـــة — روى النسائى عن صفوان بن عسّال قال : قال يهودىّ لصاحبه : اذهب بنا الى هذا النبىّ . فقال له صاحبه : لا تقل نبىّ لو سمعك . فإن له أربعة أعين [2] . فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألاه عن تسع آيات بيّنات ؛ فقال لهم : " لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولا تمشوا ببرىء الى سلطان ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا المُحْصَنة ولا تُوَلُّوا يوم الزَّحْف وعليكم خاصة يهودُ ألّا تعدوا فى السّبت " . فقبّلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبىّ . قال : " فما

(١) راجع ص ٢٤٨ .

(٢) الذى فى نسخة النسائى : « لو سمعك كان له أربعة أعين » مع تأنيث العدد أيضا .

يمنعكم أن تتّبعونى ؟! . قالوا : إن داود دعا بألّا يزال من ذرّيته نبيّ ، و إنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود . وخرّجه الترمذيّ وقال : حديث حسن صحيح . وسيأتى لفظه فى سورة « سبحان » إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة — ﴿ فِي ٱلسَّبْتِ ﴾ معناه فى يوم السبت ؛ ويحتمل أن يريد فى حكم السبت . والأوّل قول الحسن وأنهم أخذوا فيـه الحِيتان على جهـة الاستحلال . وروى أشهب عن مالك قال : زعم ابن رُومَان أنّهـم كانوا يأخذ الرجل منهـم خيطا ويضع فيه وهفة(١) وألقاها فى ذنب الحوت، وفى الطرف الآخر من الخيط وتد وتركه كذلك إلى الأحد؛ ثم تطرق الناس حين رأوا من صَنع لا يُبتلَى ، حتى كثر صيد الحوت ومُشِى به فى الأســواق ، وأعلن الفَسَقة بصـيده . فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنهى واعتزلت . ويقـال : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجـدار . فأصبح النـاهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ؛ فقالوا : إنّ للنـاس لشأنا ؛ فعلوا على الجدار فنظروا فاذا هم قِرَدة ؛ ففتحوا البـاب ودخلوا عليهـم ، فعرفت القردةُ أنسابها من الإنس، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القِردة ؛ فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكى؛ فيقول : ألم نَنْهكم! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبّان قِردة، والشيوخ خنازير؛ فـا نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم . وســيأتى فى الأعراف قول من قال : إنهـم كانوا ثلاث فرق . وهو أصح من قول من قال : إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين . والله أعلم .

والسبت مأخوذ من السبت وهو القطع؛ فقيل : إن الأشياء فيه سبتت وتمّت خِلقتها . وقيل : هو مأخوذ من السبوت الذى هو الراحة والدعة .

واختلف العلمـاء فى الممسوخ هــل ينسُل على قولين . قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هــذه القِردة منهم . واختاره القــاضى أبو بكر بن العــربى . وقال الجهور : الممسوخ لا ينسُل و إن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك؛ والذين مسخهم الله قد هلكوا ولم يبق

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى البعض الآخر : «وهطة» ولم نجد لها معنى .

لهم نسل؛ لأنه قـد أصابهم السخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار فى الدنيا بعـد ثلاثة أيام . قال ابن عباس : لم يعش مسخ قـط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . قال ابن عطيّـة : ورُوى عن النبيّ صـلى الله عليـه وسلم وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام .

قلت : هـذا هو الصحيح من القولين . وأما ما احتج به ابن العربى وغيره على صحـة القول الأوّل من قوله صلى الله عليه وسلم : "فُقِدتْ أُمّةٌ من بنى إسرائيل لا يُدْرَى ما فعلتْ ولا أُراها إلا الفأر ألا ترونها اذا وُضِع لهـا ألبانُ الإبل لم تشربه وإذا وُضِع لهـا ألبان الشاء شربته" . رواه أبو هريرة أخرجه مسـلم، وبحديث الضّبّ رواه مسلم أيضا عن أبى سعيد وجابر؛ قال جابر : أُتِى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بضَبٍّ فأبى أن يأكل منه؛ وقال : "لاأدرى لعـلّه من القرون التى مُسختْ" فمتأوّل على ما يأتى . قال ابن العربىّ : وفى البخارىّ عن عمـرو بن ميمون أنه قال : رأيت فى الجاهلية قِردةً قـد زنت فرجموها فرجمتُها معهم . ثبت فى بعض نسخ البخارىّ وسقط فى بعضها، وثبت فى نص الحديث «قد زنت» وسقط هـذا اللفظ عند بعضهم . قال ابن العربى : فان قيل: وكأن البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خَلَفـا عن سلف الى زمان عمرو ؟ قلنـا : نعم كذلك كان، لأن اليهود غيّروا الرجم فأراد الله أن يُقيمه فى مُسُوخهم (١) حتى يكون أبلغ فى الحجـة على ما أنكروه من ذلك وغيّروه، حتى تشهد عليهم كتبهم وأحبارهم ومسوخهم (١)، حتى يعلموا أن الله يعلم ما يُسِرّون وما يُعلنون، ويحصى ما يبدّلون وما يغيّرون، ويُقيم عليهم الحجـة من حيث لا يشعرون، وينصر نبيّه عليه السلام وهم لايُنْصَرون .

قلت : هذا كلامه فى الأحكام، ولا حجة فى شىء منه . وأما ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدىّ فى جمع الصحيحين : حكى أبو مسعود الدمشقى أن لعمـرو بن ميمون الأودىّ فى الصحيحين حكاية من رواية حُصَين عنه قال : رأيت فى الجاهليـة قردة اجتمع عليها قِردة

(١) فى الأصول : « ممسوخهم » . والتصويب عن أحكام القرآن لابن العربى .

فرجموها فرجمتُها معهــم . كذا حكى أبو مسعود ولم يذكر فى أى موضـع أخرجه البخارى من كتابه؛ فبحثنا عن ذلك فوجدناه فى بعض النسخ لا فى كلها؛ فذكر فى كتاب أيام الجاهلية. وليس فى رواية النعيمى عن الفَرَبْرى أصلًا شىء من هذا الخبر فى القِردة؛ ولعلها من المقحمات فى كتاب البخارى . والذى قال البخارى فى التاريخ الكبير : قال لى نُعَيم بن حمّاد أخبرنا هُشَيْم عن أبى بَلْج وحُصَين عن عمــرو بن ميمون قال : رأيت فى الجاهليــة قردةً اجتمع عليها قرود يرجموها فرجمتُها معهم . وليس فيه قد زنت . فان صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخارى دلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهليــة ولم يبال بظنه الذى ظنه فى الجاهلية . وذكر أبو عمــر فى الاستيعاب عمرو بن ميمون «وأنّ كنيته أبو عبد الله معدود فى كبار التــابعين من الكوفيين، وهو الذى رأى الرجم فى الجاهلية من القردة إن صح ذلك؛ لأنّ رواته مجهولون . وقد ذكر البخارى عن نعيم عن هُشَيم عن حصين عن عمرو بن ميمون الأودى مختصرا قال : رأيت فى الجاهليــة قردة زنت فرجموها — يعنى القردة — فرجمتُها معهم . ورواه عبّاد بن العوّام عن حصين كما رواه هُشَيم مختصرا . وأما القصة بطولها فانها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حِطّان؛ وليسا ممن يحتجّ بهــما . وهذا عند جماعة أهــل العلم منكر إضافة الزنا إلى غير مكلَّف، وإقامة الحدود فى البهائم . ولو صح لكانوا من الجن؛ لأن العبادات فى الإنس والجن دون غيرهما» . وأمّا قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة : "ولا أراها إلّا الفأر" وفى الضب : "لا أدرى لعله من القرون التى مُسِخَتْ" وما كان مثله، فإنما كان ظنًّا وخوفا أن يكون الضب والفأر وغيرهما مما مُسخ، وكان هذا حَدْسًا منه صلى الله عليه وسـلم قبل أن يُوحَى اليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلا ؛ فلما أوحى اليه بذلك زال عنــه ذلك التخوّف ، وعلم أن الضبّ والفأر ليسا مما مُسِخ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير : هى مما مسخ؟ فقال : "إنّ الله لم يُهلك قومًا أو يعذِّب قومًا فيجعلَ لهم نسلًا وإن القردة والخنــازير كانوا قبل ذلك" . وهذا نص صريح رواه عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم فى كتاب القَدَر . وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم يُنكر؛ فدلّ على صحة

ما ذكرنا ، وبالله توفيقنا . ورُوى عن مجاهد فى تفســير هذه الآية أنه إنمـا مُسِخَتْ قلوبهم فقط، وردّت أفهامهم كأفهام القِردة . لم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ قردة خبر كان . ﴿ خَاسِئِينَ ﴾ نعت، وإن شئت جعلته خبرا ثانيـا لكان ، أو حالا من الضـمير فى كونوا . ومعناه مبعَدين . يقال : خَسَأته خَسأ وخَسِئ وانخسأ ، أى أبعدته فبعُد . وقوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا » أى مبعدا . وقوله : « ٱخْسَئُوا فِيهَـا » أى تباعدوا تبـاعد سخط . قال الكسائى : خَسَأ الرجل خُسُوءا، وخَسَأته خَسأً . ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر القمىء . يقال : قَمُؤ الرجل قماء وقماءة صار قميئا ، وهو الصاغر الذليل . وأقمأته : صغّرته وذلّلته ، فهو قمىء على فعيل .

قوله تعـالى : فَجَعَلْنَـاهَا نَكَـالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَـا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَـةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ نصب على المفعول الثانى . وفى المجعول نكالًا أقاويل؛ قيل : العقوبة . وقيل : القرية؛ إذ معنى الكلام يقتضيها . وقيل : الأمّة التى مُسِخت . وقيـل : الحِيتان ؛ وفيـه بُعْدٌ . والنكال : الزجر والعقاب . والنِّكْل والأنكال : القيود . وسُمّيت القيـود أنكالا لأنها يُنَكَّل بهـا أى يمنع . ويقال للجام الثقيل : نَكْل(١) ونِكْل ، لأن الدابة تمنع به . ونَكَل عن الأمر يَنْكُل ، ونَكِل يَنْكَل إذا امتنع . والتنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تُنَـكِّل مَنْ وراءهم أى تُجَبِّنهـم . وقال الأزهرى : النَّكال العقوبة . ابن دريد : والمَنْكَل : الشىء الذى يُنَكِّل بالإنسان؛ قال(٢) :

* فَارْمِ على أقفائهم بمَنْكَلِ *

(١) هذه الكلمة موجودة فى بعض نسخ الأصل ؛ ومعاجم اللغة لا تؤيده . والذى بها إنما هو بالكسر لا غير .

(٢) القائل رياح المؤملى . وقبله : * يا رب أشـــقانى بنــو مؤمّل *

وبعده : * بصخرة أو عرض جيش جحفل * (عن شرح القاموس)

قوله : ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ قال ابن عباس والسدى : لما بين يدى المسخة ما قبلها من ذنوب القوم . ﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب . قال الفرّاء : جعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب ، ولما يعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم . قال ابن عطية : وهذا قول جيد ، والضميران للعقوبة . وروى الحكم عن مجاهد عن ابن عباس : لمن حضر معهم ولمن يأتى بعدهم . واختاره النحاس ؛ قال : وهو أشبه بالمعنى ، والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا : لما بين يديها وما خلفها من القُرَى . وقال قتادة : لما بين يديها من ذنوبهم ، وما خلفها من صيد الحيتان .

قوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عطف على نكال ، ووزنها مَفْعِلة من الاتعاظ والانزجار . والوعظ : التخويف . والعظة الاسم . قال الخليل : الوعظ التذكير بالخير فيما يرقّ له القلب . قال الماوردى : وخص المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفرّدهم بها عن الكافرين المعاندين . قال ابن عطية : واللفظ يعم كل متّق من كل أمة . وقال الزجاج : وموعظة للمتقين لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتهكوا من حُرَم الله جل وعز ما نهاهم عنه ، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ انتهكوا حرم الله فى سبتهم .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ حُكى عن أبى عمرو أنه قرأ "يأمرْكم" بالسكون ، وحذف الضمة من الراء لثقلها . قال أبو العباس المبرد : لا يجوز هذا لأن الراء حرف الإعراب ، وإنما الصحيح عن أبى عمرو أنه كان يختلس الحركة . ﴿ أَنْ تَذْبَحُوا ﴾ فى موضع نصب بيأمركم ، أى بأن تذبحوا . ﴿ بَقَرَةً ﴾ نصب بتذبحوا . وقد تقدّم معنى الذبح[1] ، فلا معنى لإعادته .

(١) راجع المسألة العاشرة ص ٣٨٥ من هذا الجزء .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ مقدم فى التلاوة، وقوله : «قَتَلْتُمْ نَفْسًا» مقدم فى المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة . ويجوز أن يكون قوله : «قتلتم» فى النزول مقدما، والأمر بالذبح مؤخرا . ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها؛ فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل، فأمروا أن يضربوه ببعضها؛ ويكون و إذ قتلتم مقـدّما فى المعنى على القـول الأوّل حسب ما ذكرنا، لأن الواو لا توجب الترتيب . ونظيره فى التنزيل فى قصة نوح بعد ذكر الطوفان وانقضائه فى قوله : «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» إلى قوله : «إِلَّا قَلِيلٌ» . فذكر إهلاك من هلك منهم ثم عطف عليه بقـوله : «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا» . فذكر الركوب متأخرا فى الخطاب؛ ومعلوم أن ركوبهم كان قبل الهلاك . وكذلك قوله تعالى : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا» . وتقديره أنزل على عبده الكتاب قيّما ولم يجعل له عوجا؛ ومثله فى القرآن كثير .

الثـالثـــة — لا خلاف بين العلماء أن الذبح أولى فى الغـنم ، والنحر أولى فى الإبل، والتخيير فى البقر . وقيل : الذبح أولى لأنه الذى ذكره الله، ولقرب المَنْحَر من المَذْبح . قال ابن المنذر : لا أعلم أحدا حرم أكل ما نُحر ممـا يُذبح، أو ذُبح مما يُنحر . وكره مالك ذلك . وقـد يكره المرء الشيء ولا يحـرمه . وسيأتى فى سـورة «المـائدة» أحكام الذّبح والذابح وشرائطهما عند قوله تعالى : «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» مستوفًى إن شاء الله تعالى . قال المـاوردى : و إنمـا أمروا — والله أعلم — بذبح بقرة دون غيرها لأنهـا من جنس ما عبدوه من العجل ليهوّن عنـدهم ما كانوا يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علة فى ذبح البقرة، وليس بعلة فى جواب السائل؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حيّ، فيكون أظهر لقدرته فى اختراع الأشياء من أضدادها .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ بَقَـرَةً ﴾ البقرة اسم للأنثى، والثور اسم للذكر؛ مثل ناقة وجمل، وامرأة ورجل . وقيل : البقرة واحد البقر، الأنثى والذكر سواء . وأصله من قولك :

بقر بطنه أى شقه؛ فالبقرة تشق الأرض بالحرث وتثيره . ومنه الباقر لأبى جعفر محمد بن علىّ زين العابدين ، لأنه بَقَر العلم وعرف أصـله ، أى شقّه . والبقيرة : ثوب يشق فتلقيه المرأة فى عنقها من غير كُمّين . وفى حديث ابن عبـاس فى شان الهدهد " فبقر الأرض " . قال شَمِر : بقَر نظَر موضع المـاء، فرأى المـاء تحت الأرض . قال الأزهرىّ : البقر اسم للجنس وجمعه باقر (١) . ابن عرفة : يقال بقير و باقر و بيقور . وقرأ عكرمة وابن يَعمر « إن الباقر » . والثور : واحد الثيران . والثور : السيد من الرجال . والثور : القطعة من الأَقِط . والثور : الطُّحْلُب . وثور : جبل . وثور : قبيلة من العرب . وفى الحديث : " ووقت العشاء ما لم يغب ثَوْر الشّفق " يعـنى انتشاره؛ يقـال : ثار يثـور ثورا وثورانا إذا انتشر فى الأفق . وفى الحديث : " من أراد العـلم فَلْيُثَوِّر القرآن " . قال شَمِر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلمـاء به .

قوله تعالى : ﴿قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لمـا قال لهم : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » وذلك أنهم وجدوا قتيـلا بين أظهرهم — قيل : اسمـه عاميل — واشـتبه أمر قاتله عليهم ، ووقع بينهم خلاف ؛ فقالوا : نقتتل ورسـول الله بين أظهرنا؛ فأتوه وسألوه البيان — وذلك قبل نزول القَسامة (٢) فى التوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله — فسأل موسى عليه السلام ربّه فأمرهم بذبح بقرة ؛ فلما سمعوا ذلك من موسى وليس فى ظاهره جواب عمـا سألوه عنـه واحتكوا فيه عنـده ؛ قالوا : أتتخذنا هزؤا؟ والهزء : اللعب والسخرية؛ وقد تقدم (٣) . وقرأ الجحدرى «أيتّخذنا» بالياء، أى قال ذلك بعضهم لبعض؛ فأجابهم موسى عليه السـلام بقوله : « أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزؤ جهل ؛ فاستعاذ منه عليه السلام ، لأنهـا صفة تنتفى عن الأنبياء . والجهل نقيض العـلم . فاستعاذ من الجهل ، كما جهلوا فى قولهم : أتتخذنا هزؤا ،

(١) فى لسان العرب : فأما بقر و باقر و بقير و بيقور و باقور و باقورة فأسماء للجمع .

(٢) سيتكلم المؤلف رحمه الله على القسامة وحكمها عند قوله تعالى : « فقلنا اضربوه ببعضها » الآية . ص ٤٥٧ من هذا الجزء .

(٣) راجع ص ٢٠٧

لمن يخبرهم عن الله تعالى؛ وظاهر هذا القول يدل على فساد اعتقاد من قاله . ولا يصح إيمان من قال لنبيّ قد ظهرت معجزته ، وقال : إن الله يأمرك بكذا، أتتخذنا هزؤا؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم لوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية ، على نحو ما قال القائل للنبيّ صلى الله عليه وسلم في قسمة غنائم حُنَين : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر: اعدل يا محمد . وفي هذا كله أدل دليل على قبح الجهل وأنه مفسد للدّين .

قوله تعالى : ﴿ هُزُوًا ﴾ مفعول ثان، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة . وجعلها حَفْص واوا مفتوحة ، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهي تجرى على البدل؛ كقوله : « السفهاء ولا » . ويجوز حذف الضمة من الزاى كما تحذفها من عَضُد، فتقول : هزْؤا، كما قرأ أهل الكوفة؛ وكذلك « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْؤًا أحد » . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم ففيه لغتان، التخفيف والتثقيل؛ نحو العسر واليسر والهزء . ومثله ما كان من الجمع على فُعْل كَكُتُب وكُتْب، ورُسُل ورُسْل ، وعُون وعُوْن . وأما قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » فليس مثل هزء وكفء، لأنه على فُعْل من الأصل . على ما يأتى في موضعه إن شاء الله تعالى .

مســـئلة — في الآية دليـل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسـلمين ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق للوعيـد . وليس المُزاح من الاستهزاء بسبيل ؛ ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم كان يمزح والأئمة بعده . قال ابن خُوَيْز مَنْدادُ : وقد بلغنا أن رجلا تقدّم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضي الكوفة فمازحه عبيد الله فقال : جُبّتك هذه من صوف نعجة أو من صوف كبش ؟ فقال له : لا تجهل أيها القاضي! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلا ! فتلا عليـه هذه الآية ؛ فأعرض عنـه عبيد الله لأنه رآه جاهلا لا يعرف المزح من الاستهزاء، وليس أحدهما من الآخر بسبيل .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ (٦٨)

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ هذا تعنيت منهم وقلة طواعية ؛ ولو امتثلوا الأمر وذبحوا أىّ بقرة كانت لحصل المقصود، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم . قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما ؛ ونحو ذلك روى الحسن البصرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ولغة بنى عامر « ادعِ » وقد تقدّم (١) . و ﴿يُبَيِّن﴾ مجزوم على جواب الأمر . ﴿مَا هِيَ﴾ ابتداء وخبر . وما هية الشىء : حقيقته وذاته التى هو عليها .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ فى هـذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل، لأنه لمـا أمر ببقرة اقتضى أىّ بقرة كانت؛ فلما زاد فى الصفة نسخ الحكم الأوّل بغيره ؛ كما لو قال : فى ثلاثين من الإبل بنتُ مَخَاض، ثم نسخه بابنة لَبُون أو حِقّة . وكذلك ها هنا لمـا عيّن الصفة صار ذلك نسخا للحكم المتقدم . والفارض : المُسِنّة . وقد فرَضت تَفرِض فروضا أى أسنّت . ويقال للشىء القديم فارض؛ قال الراجز :

شَيَّبَ أصداغِى فرأسى أبيضُ * مَحَـافِلٌ (٢) فيهـا رجالٌ فُـــرَّضُ

يعنى هَرْمَى ؛ وقال آخر :

لعمرك (٣) قد أعطيت جارك فارضًا * تُساق إليـــه ما تقوم على رِجلِ

أى قديما؛ وقال آخر :

يارُبَّ ذى ضِغن علىّ فارض * له قُروء كقُروء الحائض

---

(١) راجع ص ٤٢٢ (٢) فى الأصول : « محامل » بالميم . والتصـويب عن الصحاح للجوهرى . وفيه رواية أخرى رواها ابن الاعرابى هى : * محامل بيض وقوم فرض * يريد أنهم ثقال كالمحامل . راجع اللسان مادة فرض . (٣) رواية اللسان : « لعمرى لقد » وذكر أنه لعلقمة بن عوف ، وقد عنى بقرة هرمة .

أي قديم . و «لا فارض» رفع على الصفة لبقرة . و «لا بكر» عطف . وقيل : لا فارض خبر مبتدأ مضمر ؛ أي لا هي فارض، وكذا لا ذلول ، وكذلك لا تسقى الحرث ، وكذلك مسلّمة . فاعلمه . وقيل : الفارض التي قد ولدت بطونا كثيرة فيتّسع جوفها لذلك ؛ لأن معنى الفارض في اللغة الواسع ؛ قاله بعض المتأخرين . والبِكْر : الصغيرة التي لم تحمل . وحكى القتبي أنها التي ولدت . والبكر : الأوّل من الأولاد ؛ قال :

يا بِكْرَ بِكْرَينِ ويا خِلْبَ الكَبِدْ * أصبحتَ مِنِّي كذراعٍ مِن عَضُدْ

والبِكْر أيضا في إناث البهائم وبني آدم : ما لم يَفْتَحِلْه الفحل ؛ وهي مكسورة الباء . وبفتحها الفَتِيّ من الإبل . والعَوَان : النَّصَف التي قد ولدت بطنا أو بطنين ؛ وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه ، بخلاف الخيل ؛ قال الشاعر يصف فرسا :

كُمَيْتٌ بَهِيمُ اللَّوْنِ ليس بفارِضٍ * ولا بِعَوانٍ ذاتِ لونٍ مُخَصَّفِ

فرس أخصف : إذا ارتفع البَلَق من بطنه إلى جنبه . وقال مجاهد : العَوَان من البقر هي التي قد ولدت مرة بعد مرة . وحكاه أهل اللغة . ويقال : إن العوان النخلة الطويلة ؛ وهي فيما زعموا لغة يمانية . وحرب عوان : إذا كان قبلها حرب بكر ؛ قال زهير :

إذا لَقِحتْ حربٌ عَوَانٌ مضِرّةٌ * ضَرُوسٌ تُهِرُّ(1) الناسَ أنيابُها عُصُلُ

أي لا هي صغيرة ولا هي مسنّة ؛ أي هي عوان ؛ وجمعها « عُوْن » بضم العين وسكون الواو ؛ وسمع « عُوُن » بضم الواو كرُسُل . وقد تقدّم . وحكى الفرّاء من العوان عَوَّنتْ تَعوِيناً .

قوله تعالى : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فما تركوه ؛ وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ؛ وهو الصحيح على ما هو مذكور في أصول الفقه ؛ وعلى أن الأمر على الفور ؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا . ويدل على صحة ذلك أنه تعالى استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أمروا به فقال :

(1) في الأصول : « تهز » بالزاي . والتصويب عن شرح الديوان . ومعنى « تهر الناس » أي تصيرهم يهرونها ؛ أي يكرهونها . ولقحت : اشتدت . وضروس : عضوض سيئة الخلق . وعصل : كالحة معوجة .

« فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » . وقيـل : لا ؛ بل على التّراخى لأنه لم يعنّفهم على التأخير والمراجعة فى الخطاب . قاله ابن خُوَيْزِ مَنْدادُ .

قوله تعـالى : قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ ما استفهام مبتدأة، ولونها الخبر. ويجوز نصب لونها بيبيّن ، وتكون ما زائدة . واللون واحد الألوان ، وهو هيئة كالسواد والبياض والحمرة . واللون : النوع . وفلان متلوّن إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد؛ قال :

كل يوم تتلوّن * غير هذا بك أجْملْ

ولوّن البُسْر تلوينا إذا بدا فيه أثر النّضج . واللون : الدَّقَلُ ، وهو ضرب من النخل . قال الأخفش : هو جماعة واحدها لِينَة .

قوله : ﴿ صَفْرَاءُ ﴾ جمهور المفسرين أنها صفراء اللون من الصّفرة المعروفة . قال مكىّ عن بعضهم : حتى القَرْن والظِّلْف . وقال الحسن وابن جبير : كانت صفراء القرن والظلف فقط . وعن الحسن أيضا : صفراء معناه سوداء؛ قال الشاعر(١) :

تلك خَيْلِى منه وتلك رِكَابِى * هنّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبِيبِ

قلت : والأوّل أصح لأنه الظاهر، وهذا شاذ لا يستعمل مجازا إلا فى الإبل؛ قال الله تعالى: « كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ» وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة . ولو أراد السّواد لما أكّده بالفُقُوع، وذلك نعت مختص بالصفرة، وليس يوصف السواد بذلك؛ تقول العرب : أسود حَالِكٌ وحَلَكُوك وحُلْكُوك ودَجُوجِىّ وغِرْبيب، وأحمرُ قانِئٌ، وأبيضُ ناصعٌ، ولَهَقٌ ولِهَاقٌ ويَقَقٌ، وأخضرُ ناضرٌ، وأصفرُ فَاقِعٌ؛ هكذا نص نقلة اللغة عن العرب . قال

(١) القائل هو الأعشى؛ كما فى اللسان .

الكسائى : يقال قَقَع لونها يَفْقَعُ فُقوعا إذا خلصت صفرته . والإفقاع : سوء الحال . وفواقع الدهر بوائقــه . وفقع بأصابعه إذا صــوّت ؛ ومنه حديث ابن عبــاس : نهى عن التفقيع فى الصلاة . وهى الفرقعة ، وهى غمز الأصابع حتى تَنْقِضَ (١) . ولم ينصرف صــفراء فى معرفة ولا نكرة ، لأن فيهــا ألف التأنيث وهى ملازمة لخالفت الهــاء، لأن ما فيه الهــاء ينصرف فى النكرة، كفاطمةٍ وعائشةٍ .

قوله تعالى : ﴿ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا ﴾ يريد خالصا لونها لا لون فيها سوى لون جلدها . ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ قال وهب : كأن شــعاع الشمس يخرج من جلدها ، ولهــذا قال ابن عباس : الصفرة تسر النفس . وحَضّ على لباس النِّعال الصّفر؛ حكاه عنــه النقاش . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنــه : من لبس نعلى جلد أصفر قلّ همّه ، لأنـــ الله تعالى يقول : «صَفْرَاءُ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» ؛ حكاه عنه الثعلبى . ونهى ابن الزبير ومحمد بن أبى كثير عن لباس النعال السود، لأنها تُهِمّ . ومعنى تسرّ تُعجِب . وقال أبو العالية : معناه فى سمتها ومنظرها فهى ذات وصفين، والله أعلم .

قوله تعالى : قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ سألوا سؤالا رابعا، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان . وذكّر البقر لأنه بمعنى الجمــع ، ولذلك قال : « إن ٱلبقر تشابه علينا » فذكّره للفظ تذكير البقر . قال قُطْرُب : جمع البقرة باقر وباقور و بقر . وقال الأصمعى : الباقر جمع باقرة، قال : ويجمع بقر على باقورة . حكاه النحاس . وقال الزجاج : المعنى إن جنس البقر . وقرأ الحسن فيما ذكر النحاس والأعرج فيما ذكر الثعلبى « إن البقر تَشَّابه » بالتاء وشدّ الشين ؛ جعله فعلا مستقبلا وأنّثه . والأصل تتشابه، ثم أدغم التاء فى الشين . وقرأ مجاهد «تَشَّبَّه» كقراءتهما ،

(١) كل صوت لمفصل وأصبع فهو نقيض .

إلا أنه بغير ألف . وفى مصحف أُبَىّ «تشّابهت» بتشديد الشين . قال أبو حاتم: وهو غلط ، لأن التاء فى هـذا الباب لا تدغم إلا فى المضارعة . وقرأ يحيى بن يعمر « إن الباقر يشّابه » جعله فعـلا مستقبلا ، وذكّر البقر وأدغم . ويجوز « إن البقر تَشَابَهُ » بتخفيف الشين وضم الهـاء ، وحكاها الثعلبي عن الحسن . النحاس : ولا يجوز «يَشَابه» بتخفيف الشين والياء ، وإنما جاز فى التاء لأن الأصل تتشابه فحذفت لاجتماع التائين . والبقر والباقر والبيقور والبقير لغات بمعنًى ، والعرب تذكّره وتؤنّثه ، وإلى ذلك ترجع معانى القراءات فى تشابه . وقيـل : إنما قالوا : « إن آلبقر تشابه علينا » لأن وجوه البقر تتشابه ؛ ومنه حديث حذيفة بن اليَمَان عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه ذكر فِتناً كقِطَع الليل تأتى كوجوه البقر . يريد أنهـا يشبه بعضها بعضا . ووجوه البقر تتشابه ، ولذلك قالت بنو إسرائيل : إن البقر تشابه علينا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ استثناء منهم ؛ وفى استثنائهم فى هذا السؤال الأخير إنابة مّا وانقياد ، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر . ورُوى عن النبيّ صـلى الله عليه وسلم أنه قال : "لو ما استثنوا ما اهتدوا إليها أبدا" . وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله . فقدّم على ذكر الاهتداء اهتماما به . و « شاء » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه عنـد سيبويه الجملة إن وما عمِلت فيه . وعند أبى العباس المبرّد محذوف .

قوله تعـالى : قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٔانَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ ﴾ قرأ الجمهور « لا ذلول » بالرفع على الصفة لبقرة . قال الأخفش : لا ذلول نعته ولا يجوز نصبه . وقرأ أبو عبد الرحمن السّلمىّ « لا ذلولَ » بالنصب على النفى والخبر مضمر . ويجوز لا هى ذلول ، لا هى تسقى الحرث ، هى مسلمة . ومعنى لا ذلول لم يذللها العمل ؛ يقـال : بقرة مذلّلة بيّنـة الذِّل بكسر الذال . ورجل ذليل بيّن الذُّل بضم الذال ، أى هى بقرة صعبة غير رَيّضة لم تذلّل بالعمل .

قوله تعالى : ﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ تثير في موضع رفع على الصفة للبقرة، أى هى بقرة لا ذلول مثيرة . قال الحسن : وكانت تلك البقرة وحشية، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسق الحرث، أى لا يُسْنَى بها لسق الزرع ولا يسق عليها . والوقف هاهنا حسن . وقال قوم : «تثير» فعل مستأنف، والمعنى إيجاب الحرث لها، وأنها كانت تحرث ولا تسق . والوقف على هـذا التأويل لا ذلول . والقول الأول أصح لوجهين : أحدهما — ما ذكره النحاس عن علىّ بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون تثير مستأنفا لأن بعده ولا تسق الحرث، فلو كان مستأنفا لمـا جمع بين الواو ولا . الثـانى — أنهـا لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذللتها، والله تعالى قد نفى عنها الذّل بقوله : « لا ذلول » .

قلت : ويحتمل أن تكون «تثير الأرض» فى غير العمل مرحا ونشاطا، كما قال آمرؤ القيس :

يُهِيلُ ويُذْرِى تُربَه ويُثيرُه　*　إثارةَ نَبَّاثِ الهَواجرِ مُخْمِسِ (1)

فعلى هذا يكون «تثير» مستأنفا، «ولا تسق» معطوف عليـه، فتأمله . وإثارة الأرض : تحريكها وبحثها؛ ومنـه الحديث : ” أَثِيرُوا القرآن (2) فإنه عِلْم الأولين والآخرين “ وفى رواية أخرى : ” من أراد العـلم فلْيُثَوِّر القرآن “ وقد تقدّم . وفى التنزيل : « وَأَثَارُوا الْأَرْضَ » أى قلبوها للزراعة . والحرث : ما حرث وزرع . وسيأتى .

مســـئلة — فى هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته، وإذا ضُبِط بالصفة وحُصِر بها جاز السَّلَم فيــه . وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعى والليث والشافعى . وكذلك كل ما يضبط بالصـفة؛ لوصف الله تعـالى البقرة فى كتابه وصفا يقوم مقام التعيين؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها“ . أخرجه مسلم . فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم الصفة تقوم مقام الرؤية، وجعل صلى الله عليه وســلم دِيَة الخطأ فى ذمّة مَن أوجبها عليه دَينـا إلى أجل ولم يجعلها على الحلول . وهو يرد قول

---

(1) قوله : نباث الهواجر، يعنى الرجل الذى إذا اشتد عليـه الحر هال التراب ليصـل الى ثراه . والمخمس : صاحب الإبل التى ترد خِمْسًا .　　(2) فى نهاية ابن الأثير واللسان مادة (ثور) : « فان فيه » .

الكوفيين أبي حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح حيث قالوا : لا يجوز السَّلَم في الحيوان . ورُوى عن ابن مسعود وحذيفة وعبد الرحمن بن سَمُرة ، لأن الحيوان لا يوقف على حقيقة صفته من مشي وحركة ، وكل ذلك يزيد في ثمنه ويرفع من قيمته . وسيأتي حكم السَّلَم وشروطه في آخر السورة في آية الدَّين ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أي هي مسلمة ، ويجوز أن يكون وصفا ، أي إنها بقرة مسلمة من العرج وسائر العيوب ؛ قاله قتادة وأبو العاليـة . ولا يقال : مسلمة من العمل لنفي الله العمل عنها . وقال الحسن : يعني سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعـالى : ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي ليس فيها لون يخالف معظم لونها ، هي صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد ؛ كما قال : « فاقِـع لونها » . وأصل شِية وَشية حذفت الواو كما حذفت من يشي ، والأصل يوشي ، ونظيره الزِّنة والعِدة والصلة . والشِّـيَة مأخوذة من وشي الثوب إذا نسج على لونين مختلفين . وثور مُوَشًّى : في وجهه وقوائمه سواد . قال ابن عرفة : الشِّيَة اللون . ولا يقال لمن نَمّ : واشٍ ، حتى يغيّر الكلام ويلوّنه فيجعله ضروبا ويزيّن منه ما شاء . والوَشْيُ : الكثرة . ووَشَى بنو فلان : كثروا . ويقال : فرسٌ أبْلَقُ ، وكبشٌ أخْرَج ، وتيسٌ أبْرَق ، وغرابٌ أبْقَع ، وثورٌ أشْـيَه . كل ذلك بمعنى البُلْقة ؛ هكذا نص أهل اللغة .

وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ، ودين الله يسر ، والتعمق في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ؛ نسأل الله العافية . ورُوى في قصص هذه البقرة روايات تلخيصها : أن رجلا من بني إسرائيل ولد له ابن ، وكانت له عجلة فأرسلها في غَيْضة وقال : اللهم إني أستودعك هذه العجلة لهذا الصبيّ . ومات الرجل فلما كبر الصبيّ قالت له أمه — وكان بَرًّا بها — : إن أباك استودع الله عجلة لك فاذهب فخذها ؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليـه حتى أخذ بقرنيها — وكانت مستوحشـة — فجعـل يقودها نحو أمه ؛ فلقيه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التي أمروا بها ؛ فساموه فاشتط عليهم . وكان قيمتها على

ما رُوى عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتوا به موسى عليه السلام وقالوا : إن هذا اشتطّ علينا ؛ فقال لهم : ارضوه فى ملكه ؛ فاشتروها منه بوزنها مرّة ؛ قاله عبيدة . السّدىّ : بوزنها عشر مرار . وقيل : بملء مَسْكها دنانير . وذكر مكىّ أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض . فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أى بيّنت الحق ؛ قاله قتادة . وحكى الأخفش : «قالوا ألآن» . قطع ألف الوصل ؛ كما يقال : يا ألله . وحكى وجها آخر «قالوا لآنَ» بإثبات الواو . نظيره قراءة أهـل المدينة وأبى عمرو « عادًا لُولى » . وقرأ الكوفيون « قالوا الآن » بالهمز . وقراءة أهل المدينة « قالوا الآن » بتخفيف الهمز مع حذف الواو لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : الآن مبنىّ على الفتح لمخالفته سائر مافيه الألف واللام، لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد ؛ تقول : أنت إلى الآن هنا ؛ فالمعنى الى هذا الوقت ، فبنيت كما بنى هذا . وفتحت النون لالتقاء الساكنين . وهو عبارة عما بين المـاضى والمستقبل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أجاز سيبويه كاد أن يفعـل ، تشبيها بعسى . وقد تقدّم أوّل السورة . وهذا إخبار عن تثبيطهم فى ذبحها وقلّة مبادرتهـم الى أمر الله . وقال القُرَظىّ محمد بن كعب : لغلاء ثمنها . وقيل : خوفا من الفضيحة على أنفسهم فى معرفة القاتل منهم ؛ قاله وهب بن منبّه .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ هـذا الكلام مقدّم على أوّل القصــة ، التقـديرو إذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ؛ فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا . وهـذا كقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا » أى أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عِوجا ؛ ومثله كثير، وقد بيّناه أول القصة .

وفى سبب قتـله قولان : أحدهما — لابنة له حسناء أحب أن يتزوّجها ابن عمها فمنعه عمّه ؛ فقتله وحمله من قريتـه الى قرية أخرى فألقاه هناك . وقيـل : ألقاه بين قريتين . الثانى — قتله طلبا لميراثه ؛ فإنه كان فقيرا وادّعى قتله على بعض الأسباط . قال عكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له إثنا عشر بابا لكل باب قوم يدخلون منـه ؛ فوجدوا قتيلا فى سبط من الأسـباط ، فادعى هؤلاء على هؤلاء ؛ ثم أتوا موسى يختصمون إليـه فقال : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » الآية . ومعنى ادّارأتم : اختلفتم وتنازعتم ؛ قاله مجاهد . وأصـله تدارأتم ثم أدغمت التاء فى الدال ؛ ولا يجوز الابتداء بالمدغم لأنه ساكن فزيد ألف الوصل . ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ﴾ ابتـداء وخبر . ﴿ مَا كُنْتُمْ ﴾ فى موضع نصب بمخرج ؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة . ﴿ تَكْتُمُونَ ﴾ جمـلة فى موضـع خبر كان ، والعائد محـذوف ؛ التقـدير تكتمونه .

وعلى القول بأنه قتله طلبا لميراثه لم يرث قاتل عمدٍ من حينئذ . قاله عبيـدة السَّلمانىّ . قال ابن عباس : قتل هذا الرجلُ عمّـه ليرثه . قال ابن عطية : وبمثـله جاء شرعنا . وحكى مالك رحمه الله فى موطّئه أن قصة أُحَيحة بن الجُلَاح فى عمّه هى كانت سبب ألا يرث قاتل؛ ثم ثبت ذلك للاسلام كما ثبت كثير من نوازل الجاهليـة . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يرث قاتل العمـد من الدّية ولا من المـال ، إلا فرقة شذّت عن الجمهور كلهم أهل بدع . ويرث قاتل الخطأ من المـال ولا يرث من الدّية فى قول مالك والأوزاعى وأبى ثور والشافعىّ لأنه لا يتّهم على أنه قتله ليرثه ويأخذ ماله . وقال سفيان الثورىّ وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعىّ فى قول له آخر : لا يرث القاتل عمـدا ولا خطأ شيئا من المـال ولا من الدّية . وهو قول شُريح وطاوس والشـعبىّ والنخعىّ . ورواه الشعبى عن عمـر وعلىّ وزيد قالوا : لا يرث القاتل عمدا ولا خطأ شيئا . وروى عن مجاهد القولان جميعا . وقالت طائفة من البصريين : يرث قاتل الخطأ من الدية ومن المـال جميعا . حكاه أبو عمر . وقول مالك أصح ، على ما يأتى بيانه فى آية المواريث إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ قيـل : باللسان لأنه آلة الكلام . وقيـل : بعَجْب الذَّنَب إذ فيه يركب خلق الإنسان . وقيـل : بالفخذ . وقيل : بعظم من عظامها؛ والمقطوع به عضو من أعضائها؛ فلما ضرب به حَيِيَ وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان .

مســـألة — استدل مالك رحمه الله فى رواية ابن وهب وابن القاسم على صحة القول بالقَسامة بقـول المقتول : دمى عند فلان، أو فلان قتلنى . ومنعه الشافعى وجمهور العلماء، قالوا : وهو الصحيح ، لأن قول المقتـول : دمى عنـد فلان ، أو فلان قتلنى ، خبر يحتمل الصدق والكذب . ولا خلاف أن دم المدَّعَى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين، ولا يقين مع الاحتمال ، فبطل اعتبار قول المقتـول دمى عند فلان . وأما قتيل بنى إسرائيـل فكانت معجزة وأخبر تعـالى أنه يحييه ، وذلك يتضمن الإخبار بقـاتله خبرا جزما لا يدخله احتمال فافترقا . قال ابن العربىّ : المعجزة إنما كانت فى إحيائه فلما صار حيًّا كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم فى القبول والرد؛ وهذا فَنٌّ دقيق من العلم لم يتفطّن له إلا مالك، وليس فى القرآن أنه اذا أخبر وجب صدقه، فلعـله أمرهم بالقسامة معه . واستبعد ذلك البخارىّ والشافعىّ وجماعة من العلماء فقالوا : كيف يقبل قوله فى الدم وهو لا يقبل قوله فى درهم .

مســـألة — اختلف العلماء فى الحكم بالقَسامة؛ فرُوى عن سالم وأبى قلابة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عيينة التوقّف فى الحكم بهـا . واليـه مال البخارى، لأنه أتى بحديث القسامة فى غير موضعه . وقال الجمهور : الحكم بالقسامة ثابت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم اختلفوا فى كيفية الحكم بها؛ فقالت طائفة : يبدأ فيها المدعون بالأيمان فان حلفوا استحقوا، وإن نَكلوا حلف المدّعى عليهم خمسين يمينا وبرءوا . هذا قول أهل المدينة والليث والشافعى وأحمد وأبى ثور . وهو مقتضى حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة خرّجه الأئمة مالك وغيره . وذهبت

طائفة إلى أنه يبدأ بالأيمان المدّعى عليهم فيحلفون و يبرءون . رُوى هذا عن عمر بن الخطاب والشعبيّ والنخعي ؛ و به قال الثوري والكوفيون ؛ واحتجوا بحديث شعبة بن عبيد عن بُشير ابن يسار؛ وفيه : فبدأ بالأيمان المدّعى عليهم وهم اليهود ؛ و بما رواه أبو داود عن الزّهرى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود و بدأ بهـم : " أيحلف منكم خمسون رجلا " . فأبوا ؛ فقال للأنصار : " اســتحقوا " فقالوا : نحلف على الغيب يارسول الله ! فجعلها رسول الله صـلى الله عليه وســلم دية على يهود ؛ لأنه وجد بين أظهرهم . و بقوله عليه السلام : " ولكن اليمين على المدّعى عليه " . قالوا : وهذا هو الأصل المقطوع به فى الدعاوى الذى نبّه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام : " لو يُعطَى الناس بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالَهم ولكن اليمين على المدّعى عليه " . رد عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا : حديث سعيد بن عبيد فى تبدية اليهود وَهَم عند أهل الحديث ؛ وقد أخرجه النسائى وقال : ولم يُتابَع سعيد على هذه الرواية فيما أعلم ؛ وقد أسند حديثَ بُشير عن سهل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بدأ المدّعين يحيى بنُ سعيد وآبنُ عيينة وحمـادُ بن زيد وعبدُ الوهاب الثقفى وعيسى بنُ حماد و بشْر بن المفضل؛ فهؤلاء سبعة و إن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفّاظ ، وهو أصح من حديث سعيد بن عبيد . قال أبو محمد الأصـيلى : فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة ؛ مع أن سعيد بن عبيد قال فى حديثه : فَوَدَاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة من إبل الصدقة ؛ والصدقة لا تعطى فى الدّيات ولا يصالح بها عن غير أهلهـا ، وحديث أبى داود مرسل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة ؛ وأجابوا عن التمســك بالأصل بأن هذا الحكم أصل بنفســه لحرمة الدماء . قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل البيّنة على المدّعى واليمين على المدّعى عليه ؛ والحكم بظاهر ذلك يجب ، إلا أن يخص الله فى كتابه أو على لسان نبيّه صـلى الله عليه وسـلم حكما فى شيء من الأشـياء فيستثنى من جملة هـذا الخبر . فما دل عليه الكتاب إلزام القـاذف حدّ المقذوف إذا لم يكن معه أر بعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمى به المقذوف . وخص

من رمى زوجته بأن أسقط عنه الحدّ إذا شهد أربع شهادات . وممـا خصّته السنة حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقَسامة . وقد روى ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة أن النبيّ صـلى الله عليه وسلم قال : " البيّنة على من آدّعى واليمـين على من أنكر إلا فى القسامة " . خرّجه الدّارَقُطنى . وقد احتج مالك لهذه المسئلة فى موطئه بما فيه كفاية، فتأمله هناك .

مســئلة — واختلفوا أيضا فى وجوب القَوَد بالقسامة، فأوجبت طائفة القَوَد بها، وهو قول مالك والليث وأحمد وأبى ثور، لقوله عليه السلام لحُوَيِّصة ومُحَيِّصة وعبد الرحمن : " أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم " . وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بالقسامة من بنى نصر بن مالك . قال الدّارقطنى : نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه صحيحة، وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصحح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به . وقال البخارى : رأيت علىّ بن المدينى وأحمد بن حنبل والحميدى وإسحاق بن راهويه يحتجون به، قاله الدارقطنى فى السنن . وقالت طائفة : لا قود بالقسامة، وإنمـا توجب الدّية . رُوى هذا عن عمر وآبن عباس، وهو قول النّخعى والحســن، وإليه ذهب الثورى والكوفيون والشافعى وإسحاق ، واحتجوا بمـا رواه مالك عن آبن أبى ليلى بن عبد الله عن سهل بن أبى حَثْمَة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قوله للأنصار : " إما أن يَدُوا صاحبكم وإما أن يؤذنوا بحرب" . قالوا : وهذا يدل على الدّية لا على القود، قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : " وتستحقون دم صاحبكم " دية دم قتيلكم . لأن اليهود ليسوا بأصحاب لهم ، ومن استحق دية صاحبه فقد استحق دمه ، لأن الدية قد تؤخذ فى العمد فيكون ذلك استحقاقا للدم .

مســئلة — الموجب للقسامة اللَّوْثُ ولابد منه . واللّوث : أمارة تغلب على الظنّ صــدق مدّعى القتل ، كشهادة العــدل الواحد على رؤية القتل ، أو يرى المقتول يتشــحّط فى دمه ، والمتّهم نحوه أو قربه عليــه آثار القتل . وقد اختلف فى اللوث والقول به ، فقــال مالك : هو قول المقتول دمى عند فلان . والشاهد العدل لوث . كذا فى رواية ابن القاسم عنه .

وروى أشهب عن مالك أنه يقسم مع الشاهد غير العدل ومع المرأة . وروى ابن وهب أن شهادة النساء لوث . وذكر محمد عن ابن القاسم أن شهادة المرأتين لوث دون شهادة المرأة الواحدة . قال القاضي أبو بكر بن العربي : اُختلف في اللوث اختلافا كثيرا؛ مشهور المذهب أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحب إليّ . قال : وأخذ به ابن القاسم وابن عبد الحكم . ورُوِى عن عبد الملك بن مرْوان : أن المجروح أو المضروب اذا قال دمى عند فلان ومات كانت القسامة . وبه قال مالك والليث بن سعد . واحتج مالك بقتيل بنى إسرائيل أنه قال : قتلنى فلان . وقال الشافعيّ : اللّوث الشاهد العدل؛ أو يأتى ببيّنةٍ و إن لم يكونوا عدولا . وأوجب الثوريّ والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط، واستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد؛ قالوا : اذا وجد قتيل فى مَحلّة قومٍ وبه أثرحلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عَقْلُه عليهم؛ واذا لم يكن به أثرلم يكن على العاقلة شيء إلا أن تقوم البيّنة على واحد . وقال سفيان : وهذا مما أُجمع عليه عندنا؛ وهو قول ضعيف خالفوا فيه أهل العلم، ولا سلف لهم فيه؛ وهو مخالف للقرآن والسنة، ولأن فيه إلزام العاقلة مالًا بغير بيّنة ثبتت عليهم ولا إقرار منهم . وذهب مالك والشافعيّ الى أن القتيل إذا وجد فى محلة قوم أنه هَدَر، لا يؤخذ به أقرب الناس دارا؛ لأن القتيل قد يقتل ثم يُلْقَى على باب قوم ليلطخوا به؛ فلا يؤاخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التى شرطوها فى وجوب القسامة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضى الله فيه يوم القيامة .

مســألة — قال القاسم بن مسعدة قلت للنسائى : لايقول مالك بالقسامة إلا باللّوث، فلِمَ أورد حديث القسامة ولا لوث فيه ؟ قال النسائى : أنزل مالك العداوة التى كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث ، وأنزل اللوث أو قول الميت بمنزلة العداوة . قال ابن أبى زيد : وأصل هذا فى قصة بنى إسرائيل حين أحيا الله الذى ضُرب ببعض البقرة فقال : قتلنى فلان؛ وبأن العداوة لوث . قال الشافعى : ولا نرى قول المقتول لوثا، كما تقدّم . قال الشافعى :

إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التي كانت بين الأنصـار واليهود، ووجد قتيل في أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وجبت القسامة فيه .

مســـئلة — واختلفوا في القتيـل يوجد في المحلة التي أكراها أربابها؛ فقال أصحاب الرأي : هو على أهل الخِطّة وليس على السكان شيء ، فإن باعوا دورهم ثم وجد قتيل فالدّية على المشتري وليس على السكان شيء، وإن كان أرباب الدور غُيّباً وقد أكروا دورهم فالقسامة والدّية على أرباب الدور الغُيَّب وليس على السـكان الذي وجد القتيـل بين أظهرهم شيء . ثم رجع يعقوب من بينهم عن هـذا القول فقال : القسامة والدية على السـكان في الدور . وحُكي هـذا القول عن ابن أبي ليلى ، واحتج بأن أهل خَيْبَر كانوا عُمّالا سكانا يعملون فوجد القتيل فيهم . قال الثوري ونحن نقول : هو على أصحاب الأصـل، يعني أهل الدور . وقال أحمد : القول قول ابن أبي ليلى في القسامة لا في الدية . وقال الشافعي : وذلك كله سـواء، ولا عَقْلَ ولا قَوَد إلا ببينّة تقوم ، أو ما يوجب القسامة فيقسم الأولياء . قال ابن المنـذر : وهذا أصح .

مســـئلة — ولا يحلف في القسامة أقل من خمسين يمينا؛ لقوله عليه السلام في حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة : "يُقسم خمسون منكم على رجل منهم". فإن كان المستحقون خمسين حلف كل واحد منهم يمينا واحدة ، فإن كانوا أقل من ذلك أو نَكَل منهم من لا يجوز عفوه رُدّت الأيمـان عليهم بحسب عددهم . ولا يحلف في العمد أقل من اثنين من الرجال، لا يحلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء ، يحلف الأولياء ومن يستعين بهم الأوليـاء من العَصَبة خمسين يمينا . هـذا مذهب مالك والليث والثوري والأوزاعي وأحمـد وداود . وروى مطرِّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدّعى عليه أحد ويحلف هم أنفسهم — كما لو كانوا واحدا فأكثر — خمسين يمينا يبرئون بها أنفسهم ؛ وهو قول الشافعي . قال الشافعي : لا يُقسم إلا وارث كان القتل عمدا أو خطأ . ولا يحلف على مال ويستحقه إلا من له الملك لنفسه أو من جعل الله له الملك من الورثة، والورثة يُقسمون على قدر مواريثهم . وبه قال أبو ثور واختاره ابن المنذر

وهو الصحيح، لإن من لم يدّع عليه لم يكن له سبب يتوجّه عليه فيه يمين . ثم مقصود هذه الأيمان البراءة من الدعوى ومن لم يدّع عليه برىء . وقال مالك فى الخطأ : يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء، فمهما كملت خمسين يمينا من واحد أو أكثر استحق الحالف ميراثه، ومن نَكل لم يستحق شيئا ؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب ميراثه . هـذا قول مالك المشهور عنه؛ وقد رُوى عنه أنه لا يرى فى الخطأ قسامة .

وتتميم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور فى كتب الفقه والخلاف ، وفيما ذكرنا كفاية، والله الموفق .

مســـئلة — فى قصّة البقرة هـذه دليل على أن شرع مَن قبلنا شرْع لنـا ؛ وقال به طوائف من المتكلمين وقوم من الفقهـاء، واختاره الكرْخى ونص عليـه ابن بكير القاضى من علمائنا ؛ وقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : هو الذى تقتضيه أصول مالك ومنازعه فى كتبه ؛ وإليه مال الشافعى ؛ وقد قال الله : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أى كما أحيا هذا بعد موته كذلك يحيى الله كل من مات . فالكاف فى موضع نصب لأنه نعت لمصدر محذوف . ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى علاماته وقدرته . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ كى تعقلوا . وقد تقدّم . أى تمتنعون من عصيانه . وعقلت نفسى عن كذا أى منعتها منه . والمعاقل : الحصون .

قوله تعـالى : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ القسوة : الصلابة والشدّة واليبس . وهى عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما :

المراد قلوب جميع بنى إسرائيل . وقال ابن عباس : المراد قلوب ورثة القتيل، لأنهم حين حي وأخبر بقاتله وعاد الى موته أنكروا قتله ، وقالوا : كذب، بعد ما رأوا هذه الآية العظمى؛ فلم يكونوا قطّ أعمى قلبا ، ولا أشـد تكذيبا لنبيّهم منهم عند ذلك ، لكن نفذ حكم الله بقتله . روى الترمذيّ عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي" . وفى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "أربعة من الشقاء جمود العين وقساء[1] القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا" .

قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ « أو » قيل : هى بمعنى الواو، كما قال: « آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . « عُذْرًا أَوْ نُذْرًا » وقال الشاعر :

* نال الخلافة أو كانت له قدرا *

أى وكانت . وقيل : هى بمعنى بل، كقوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » المعنى بل يزيدون . وقال الشاعر :

بَدتْ مثل قرن الشمس فى رونق الضّحى * وصورتها أو أنت فى العيـن أملح

أى بل أنت . وقيل : معناها الإبهام على المخاطب، ومنه قول أبى الأسود الدُّؤَلى :

أحبّ محمـدا حبًّا شـديدا * وعبّاسا وحمـزة أو عليّا

فإن يك حبّهم رشدا أصبه * ولست بمخطئ إن كان غيا

ولم يشّك أبو الأسود أن حبّهم رشد ظاهر، وإنما قصد الإبهام . وقد قيل لأبى الأسود حين قال ذلك : شككت! قال: كلّا، ثم استشهد بقوله : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » . وقال : أوَكان شاكّا من أخبر بهذا ! وقيل : معناها التخيير ، أى شبهوها بالحجارة تصيبوا أو بأشد من الحجارة تصيبوا ؛ وهـذا كقول القائل : جالس الحسن أو ابن سيرين ، وتعلّم الفقه أو الحديث أو النّحو . وقيل : بل هى على بابها من الشك ، ومعناها عندكم أيها

(١) القساء، بالفتح والمد مصدر، مثل القسوة والقساوة .

المخاطبون وفى نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم : أهى كالحجارة أو أشدّ من الحجارة ؟ وقد قيل هـذا المعنى فى قوله تعالى : « إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . وقالت فرقة : إنمـا أراد الله تعالى أن فيهم من قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشد من الحجر . فالمعنى هم فرقتان .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَشَدُّ ﴾ أشد مرفوع بالعطف على موضع الكاف فى قوله « كَالْحِجَارَةِ » لأن المعنى فهى مثل الحجارة أو أشد؛ ويجوز أوأشدّ بالفتح عطف على الحجارة . و﴿ قَسْوَةً ﴾ نصب على التمييز . وقرأ أبو حَيْوَة « قساوة » والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَاءُ ﴾ قد تقدّم معنى الانفجار (1) . ويشقق أصله يتشقق أدغمت التاء فى الشين ؛ وهـذه عبارة عن العيون التى لم تعظم حتى تكون أنهـارا، أو عن الحجارة التى تتشقق وإن لم يجر ماء منفسح . وقرأ ابن مُصرِّف «ينشقق» بالنون، وقرأ «لمّـا يتفجر» «لمّـا يتشقق» بتشديد لمّـا فى الموضعين . وهى قراءة غير متجّهة . وقرأ مالك بن دينار «ينفجر» بالنون وكسر الجيم . قال قتادة : عَذَر الحجارة ولم يعـذِر شقيّ بنى آدم . قال أبو حاتم : يجوز لمـا تتفجر بالتـاء، ولا يجـوز لمـا تتشق بالتاء ؛ لأنه إذا قال تتفجر أنّثـه بتأنيث الأنهار؛ وهذا لا يكـون فى تشقق . قال النحاس : يجوز ما أنكره على المعنى، لأن المعنى وإن منها لحجارة تتشقق؛ وأما يشقق فمحمول على لفـظ ما . والشّق واحد الشُّـقوق؛ فهو فى الأصل مصدر، تقول : بيد فلان ورجليه شُقوق، ولا تقل: شُقَاق؛ إنما الشُّقاق داء يكون بالدواب ، وهو تشقق يصيب أرساغها وربمـا ارتفع إلى وظيفها ؛ عن يعقـوب . والشّق : الصـبح . وما، فى قوله : « لمـا يتفجر » فى موضع نصب ، لأنها اسم إنّ واللام للتأكيد . «منه» على لفظ ما، ويجوز «منها» على المعنى؛ وكذلك «وإنَّ مِنهـا لمـا يشقق فيخرج منه المـاء» . وقرأ قتادة «وإنْ» فى الموضعين مخففة من الثقيلة .

---

(1) راجع ص ٤١٩ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ يقول : إن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم، لخروج الماء منها وتردّيها . قال مجاهد : ما تردّى حجر من رأس جبل، ولا تفجّر نهر من حجر، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله ؛ نزل بذلك القرآن الكريم . ومثله عن ابن جريج . وقال بعض المتكلمين فى قوله : « وإن منها لما يهبط من خشية الله » : البَرَد الهابط من السحاب . وقيل : لفظة الهبوط مجاز ؛ وذلك أن الحجارة لمّا كانت القلوب تعتبر بخلقها، وتخشع بالنظر إليها، أضيف تواضع الناظر اليها ؛ كما قالت العرب : ناقة تاجرة، أى تبعث من يراها على شرائها . وحكى الطبرىّ عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة ؛ كما استعيرت الإرادة للجدار فى قوله : « يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ » ، وكما قال زيد الخيل[1] :

لمّا أتى خبر الزبير تواضعت * سورُ المدينة والجبالُ الخشّعُ

وذكر ابن بحر أن الضمير فى قوله تعالى : « وإنّ منها » راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة، أى من القلوب لما يخضع من خشية الله .

قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ، والأوّل صحيح ؛ فإنه لا يمتنع أن يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل، كالذى رُوى عن الجذع الذى كان يستند اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خطب، فلما تحوّل عنه حنّ ؛ وثبت عنه أنه قال : " إن حجرا كان يسلّم علىّ فى الجاهلية إنى لأعرفه الآن " . وكما رُوى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال لى ثَبِير[2] اهبط فإنى أخاف أن يقتلوك على ظهرى فيعذبنى الله " . فناداه حِرَاء : إلىّ يا رسول الله . وفى التنزيل : « إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ » الآية . وقال : « لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ

(١) نسب هذا البيت فى كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد فى ترجمة الزبير بن العوام وكذا فى كتاب سيبويه الى جرير . ويلاحظ أن زيد الخيل توفى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فى آخر خلافة عمر رضى الله عنه . فوفاته إذًا قبل وفاة الزبير . وقد وصف مقتل الزبير بن العوام حين انصرف يوم الجمل وقتل فى الطريق غيلة . يقول : لما وافى خبره المدينة (مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم) تواضعت هى وجبالها وخشعت حزنا له .

(٢) ثبير : جبل معروف عند مكة .

عَلَى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ » يعنى تذللا وخضوعا . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « سبحان » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بغافل فى موضع نصب على لغة أهل الحجاز، وعلى لغـة تميم فى موضع رفع . والباء توكيد . ﴿ عَمَّـا تَعْمَلُونَ ﴾ أى عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها عليكم ؛ « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » . ولا تحتـاج ما الى عائد إلا أن يجعلها بمعنى الذى فيحذف العائد لطول الاسم، أى عن الذى تعملونه . وقرأ ابن كثير « يعملون » بالياء، والمخاطبة على هـذا لمحمد عليه السلام ما

* * *

تمّ الجزء الأول من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله الجزء الثانى ،وأوله قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ الآية .